

المركز القومى للترجمة
ميراث الترجمة
وولتر إمرى
مصر وبلاد النوبة
ترجمة: تحفة حندوسة
مراجعة: عبد المنعم أبو بكر
تقديم: خليل كلفت
1133

مصر وبلاد النوبة

المركز القومي للترجمة
المشروع القومي للترجمة
إشراف : جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة : طلعت الشايب

- العدد : ١١٣٣
- مصر وبلاد النوبة
- وولتر إمري
- تحفة حندوسة
- عبد المنعم أبو بكر
- خليل كلفت
- ٢٠٠٨

هذه هي الترجمة العربية لكتاب :

EGYPT IN NUBIA

by : Walter B. Emery

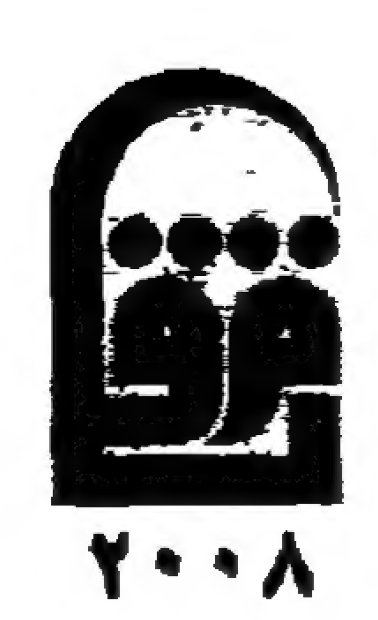
شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.Mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

مصر وبلاد النوبة

تأليف : وولتر إمرى
ترجمة : تحفة حندوسة
مراجعة : عبد المنعم أبو بكر
تقديم : خليل كلفت



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

إمرى ، وولتر
مصر وبلاد النوبة / تأليف : وولتر إمرى ؛ ترجمة : تحفة حندوسة ؛
مراجعة : عبد المنعم أبو بكر ؛ تقديم : خليل كلفت -
القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٨ (المركز القومى للترجمة)
٣٢٤ ص ؛ ٢٤ سم (المشروع القومى للترجمة)
١ - النوبة - تاريخ
(أ) حندوسة، تحفة (مترجم)
(ب) أبو بكر، عبد المنعم (مراجع)
(جـ) كلفت، خليل (مقدم)
(د) العنوان ٩٦٢,٥

رقم الإيداع ٢٠٠٨/١٠٠٣٤
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 437 - 744 - 3
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تقـديم

بلاد النوبة، كما نعرفها اليوم، منطقة تمتد جنوب مصر وشمال السودان، بين الشلال الأول جنوبى أسوان والشلال السادس شمالى الخرطوم، وهناك أيضًا جبال النوبة فى كردفان. والنوبيون، كما نعرفهم اليوم، أعنى الناطقين باللغة النوبية (أو بالأحرى باللغتين النوبيتين الموجودتين فى وادى النيل)، يعيشون على أرض هذه البلاد، فى منطقتين متمايزتين: النوبة السفلى أو المصرية، والنوبة العليا أو السودانية.

على أن هذا التطابق بين منطقة جغرافية تحمل اسم النوبة منذ وقت طويل، وسكان يحملون اسم النوبيين وينطقون باللغة أو اللغات النوبية الحالية، لم يكن موجودًا منذ فجر التاريخ، بل إنه لم يتحقق إلا منذ القرون الأولى بعد ميلاد المسيح. وقبل ذلك كانت المنطقة تسمى النوبة أو "تا-سيتى" Ta-Seti : "كوش" للنوبة السودانية الحالية، و"واوات" للنوبة المصرية الحالية. وكان السكان نوبيين نسبة إلى اسم المنطقة الجغرافية، غير أنهم لم يكونوا ناطقين بلغة تمثل اللغة أو اللغات النوبية الحالية امتدادًا لها، بل كانوا يشكلون مجموعات سكانية متباينة إثنيًا وقوميًا ولغويًا لايزال رسم خريطة لتعاقبها الإثنى أو القومى أو اللغوى أمرًا بعيد المنال.

وتتمثل المجموعة الإثنية ethnic group أو الإثنوس ethnos فى جماعة من البشر تكونت تاريخيًا تجمعها وحدة اللغة والثقافة والأرض، وتميز نفسها باسم إثنى ethnonym خاص بها. وعلى هذا يمكن القول إن النوبيين الحاليين يشكلون مجموعة إثنية أو قومية تشمل بصورة خاصة النوبيين النيليين بخلاف النوبيين الجبليين الذين لا تجمعهم بالنوبيين فى الوادى وحدة الأرض كما يختلفون عنهم من نواحٍ ثقافية ولغوية ولهجية متعددة.

وإذا كانت بلاد النوبة قد شهدت، وفقًا لعلماء الآثار، تعاقب أربع مجموعات بشرية منذ الأسرة الأولى فى العصر التاريخى المبكر حتى نهاية الأسرة العشرين والدولة الحديثة فى مصر القديمة، واستمرت إحداها، الأخيرة، حتى القرون الميلادية الأولى، فإن النوبيين الحاليين ليسوا امتداداً إثنيًا أو قوميًا أو لغويًا لتلك المجموعات البشرية التى لا يمكن إلا افتراض اختلاف وتباين حضاراتها وثقافاتها ولغاتها فيما بينها من جهة وبينها وبين المجموعة الإثنية النوبية الحالية من جهة أخرى، ولا سبيل إلى الآن، وربما إلى الأبد، لاكتشاف التسلسل الزمنى للغاتها على وجه الخصوص.

وفى مقابل هذا التاريخ الغامض للطابع الإثنى ethnicity للمجموعات السكانية التى تعاقبت على منطقة النوبة، نجد الاتصال التاريخى الطويل الأمد بالنسبة للجماعة الإثنية المصرية التى استمرت آلاف السنين؛ ذلك أن اللغة المصرية القديمة استمرت آلاف السنين، على الأقل منذ أن قام ما يسمى بجنس الأسرات بغزو مصر (٣٤٠٠ ق. م)، حية منطوقة لكل سكان مصر، مكتوبة بالهيروغليفية أو بالهيراطيقية أو بالديموطيقية أو بالقبطية ذات الأصل اليونانى مع التعديلات المصرية، ولم تترك مكانها للغة أخرى (اللغة العربية) إلا بعد الفتح العربى، وبصورة تدريجية للغاية استغرقت قرونًا طويلة، من خلال عملية غسيل دم لغوى شامل، ولكنْ فى إطار نفس المجموعة الإثنية المصرية الواحدة المستمرة طوال هذا التاريخ الممتد، مهما كانت بوتقة لانصهار وامتزاج شعوب وثقافات أخرى معها، مع قدوم فاتحين جدد من الجنوب النوبى (الكوشى)، أو الشمال الأوروبى (الإغريقى أو الرومانى)، أو الشرق الهكسوسى أو الأشورى أو الفارسى أو العربى أو التركى، أو حتى الغرب الليبى.

وبطبيعة الحال، فإن فكرة استمرار جماعة إثنية أو قومية واحدة منذ فجر التاريخ إلى الآن، رغم إحلال اللغة العربية محل اللغة المصرية القديمة فى مرحلتها القبطية، ورغم إضافة الانتماء الجديد إلى الثقافة العربية، تثير إشكالية حقيقية. وربما وجدت هذه الإشكالية حلاً فى حقيقة أن هذه التطورات والتبدلات لم تحدث من خلال إبادة أو تهجير شعب وإحلال شعب آخر محله، بل حدثت فى إطار استمرارية نفس الجماعة

الإثنية التى اكتسبت لغة جديدة وثقافة جديدة؛ مما أدى إلى تراكب طبقات الانتماءات الثقافية والقومية داخل الجماعة البشرية الأصلية الواحدة؛ حيث لا يستبعد التكوين الأصلى الانتماءات الجديدة (العربية) التى لا تستبعد بدورها خصائص وخصوصيات إثنية طويلة الأمد.

ولعل ما سبق أن يكون مفيداً فى محاولة استيعاب عنوان هذا الكتاب، فى علاقته بموضوعه، بعيداً عن أىّ التباس ممكن.

والحقيقة أن عنوان الكتاب فى أصله الإنجليزى، وهو Egypt in Nubia أىْ "مصر فى النوبة (أو فى بلاد النوبة)"، يختلف بعض الشىء عن عنوانه فى الطبعة العربية "مصر وبلاد النوبة". وقد نفهم من العنوان الأصلى للكتاب (ما دام المؤلف عالم مصريات) أنه يتناول آثار الحضارة المصرية فى منطقة النوبة فى العصور القديمة، غير أن الكتاب يتناول إلى جانب ذلك حضارات نوبية مستقلة: حضارات كوش فى ممالك كرما (كرمة karmah أو Kerma ، ونباتا Napata ، ومروى Meroë ، وحضارة المجموعة x (س) النوبية المجهولة، وحضارة نوبية مستقلة بالمعنى المتطابق إثنياً ولغوياً مع النوبة الحالية، وذلك فى النوبة القبطية، بل تعود بنا الدراسات الأحدث إلى الوراء، إلى حضارة قديمة فى منطقة النوبة فى فجر التاريخ (وما قبل التاريخ) ربما كانت نقطة انطلاق الحضارة فى وادى النيل فى زمن سابق حتى على أقدم عهود حضارة المجموعة الإثنية المصرية. على أن عنوان الطبعة العربية لا يقدم حلاً يزيل هذا الالتباس؛ ذلك أنه يوحى بأن موضوع الكتاب يتناول مصر كما يتناول النوبة، على حين أنه لا يتناول الحضارة المصرية فى الواقع إلا من حيث آثارها وتاريخها فى منطقة النوبة، السفلى والعليا، فى مختلف عهود التاريخ المصرى القديم.

ومهما يكن من شىء، فإننا إزاء حضارة واحدة متفاعلة الأجزاء امتدت على ضفاف النيل بين الشلال السادس شمالى الخرطوم والبحر الأبيض المتوسط شمالاً، طوال عدة آلاف من السنين، وهى حضارة واحدة مهما تعددت مراكزها وقواها المركزية الطاردة، ومهما تعددت الهجرات الكبرى لسكانها شمالاً وجنوباً، ومهما تعددت

الفتوحات والتوسعات الإمبراطورية فى الاتجاهين، ومهما تعددت إسهامات المجموعات الإثنية التى سيطرت الواحدة منها على الأخرى أو خضعت الواحدة منها للأخرى، فى هذا العصر التاريخى أو ذاك، مع التسليم بأن المجموعة الإثنية المصرية الواحدة كانت هى الصانعة الكبرى لحضارة أو حضارات وادى النيل فى أغلب مراحلها. ويكفى دليلاً على هذا التفاعل الحضارى الكبير احتمال أن حضارة "قسطل" النوبية (المجموعة A ألِف) قد تكون نقطة انطلاق حضارات وادى النيـل، وكذلك واقع أن حضـارات كوش كانت فى كثير من مـراحلها من صنع مجموعات نوبية متمصرة ثقافةً ودينًا وأحيانًا لغة وكتـابة.

ويقدر ما يتعلق الأمر بالحضارة أو الحضارات النوبية، فإن المقصود بها يتمثل فى الحضـارات التى تعاقبت على إقليم أو أرض أو بلاد النوبة، والتى أقامها المصريون مباشرة، أو أقامتها مجموعات سكانية ربما كانت لا تختلف إثنياً عن الجماعة الإثنية المصرية، أو بناهـا سكان يمكن أن نسميهم نوبيين باعتبارهم سكان النوبة رغم أنهم كانوا يتمثلون فى مجموعات إثنية أو قوميـة متباينة إثنيًا تعـاقبت على تلك الأرض، ولم تكن الحضارة بمعنى أن النوبيين الحاليين يشكلون امتدادها القومى إلا فى النوبة القبطية وما تلاها.

ويقع الكتاب فى ثلاثة أقسام، أو بالأحرى أبواب وفقًا للطبعة العربية. الباب الأول مقدمة (فصلان)، والثانى حول التنقيبات الأثرية فى منطقة النوبة (أربعة فصول)، والثالث بعنوان موجز تاريخ النوبة (عشرة فصول).

والحقيقة أنه لا مناص من أن يستحوذ على قارئ الكتاب ذلك الإحساس غير العادى الذى كان يسيطر على المؤلف نفسه وهو يكتب عن النوبة باعتبارها موشكة على الغرق، أو حتى "الموت" كما يقول، متحسراً على حياتها الجميلة التى كانت توشك على الاختفاء، متعاطفا مع أهلها، مدفوعاً بقوة هائلة إلى الغوص فى أعماق الأسرار التاريخية والحضارية التى أخذت تتكشف مع تواصل التنقيبات الأثرية، فى محاولة مستميتة للتحقق من تاريخ موجز دقيق يقدمه لهذه المنطقة، رغم النواقص والثغرات والألغاز بحكم حدود المعطيات الأثرية المتوفرة.

ويبدأ الكتاب في مقدمته بعرض صورة عامة عن النوبة التي يقول إنها "كانت من أهم مناطق الصراع الرئيسية في العالم القديم؛ حيث كان الصراع مستمراً بين الأجناس المختلفة، البيضاء منها والسوداء، للوصول إلى السيادة في شمال أفريقيا" بحثاً عن الذهب والعاج والأبنوس والأخشاب والنحاس والحديد والديوريت والزمرد ومختلف منتجات كوش، وهو الاسم القديم لشمال السودان، وبين سكان كوش، العدوّ الجنوبي لمصر القديمة، الذين "نزحوا نحو الشمال إلى الأراضي الأكثر خصوبة من وادي النيل حتى شاطئ البحر المتوسط".

كما تعرض المقدمة لحياة النوبيين الحاليين وعاداتهم ولغتهم، غير أنه يؤكد أن "الصلة التي تربط سكان النوبة الحاليين بسكان العصر القديم أمر مشكوك فيه"، وأنه "يبدو أنه وُجدت على الأقل فترة واحدة كانت النوبة السفلى فيها غير مسكونة"، على أنه يعود فيشير إلى أن "بعض العادات والفنون والحرف" النوبية الحالية "تؤيد الفكرة القائلة بأن النوبيين الحاليين ينحدرون إلى حد كبير من نسل هؤلاء الذين عاشوا في هذه المنطقة من وادي النيل في عصر فراعنة الدولة الوسطى". ويقدم المؤلف، حول حياة وعادات وحرف النوبيين الحاليين، معلومات وملاحظات واستنتاجات سريعة، بالإضافة إلى أنها متسرعة، لا يبرر الموضوع الحقيقي للكتاب التعليق عليها.

وفي الفصل الثاني من المقدمة يتناول المؤلف مشروع بناء السد العالي الذي اتخذت التنقيبات الأثرية في المنطقة النوبية، المصرية والسودانية، ذلك الحجم الضخم الهائل بسبب تهديده بإغراق الآثار التي كان من الضروري إنقاذها والكشف عن المزيد منها قبل الطوفان. ويشير المؤلف إلى مفارقة حقيقية تتمثل في أننا ندين لبناء خزان أسوان (١٨٩٩-١٩٠٢)، وتعليته الأولى (١٩٠٧-١٩١٢)، وتعليته الثانية (١٩٢٩-١٩٣٤)، وأخيراً بناء السد العالي الذي توّج هذه الإنشاءات التي دمرت آثار النوبة وحياتها، بمعرفتنا ومعلوماتنا عن آثار وتاريخ النوبة. فلولا التهديد المتعاقب بالدمار الذي تعرضت له منطقة النوبة بسبب مشروعات الري هذه لما حدثت تلك التنقيبات والمسوح الأثرية على ذلك النطاق الواسع في سباق مع الزمن "الآن أو أبداً"، كما يقول.

ويتعاقب البابان الثانى (التنقيبات) والثالث (موجز تاريخ النوبة) ليرويا نفس القصة الواحدة ولكن بطريقتين مختلفتين؛ ففى فصول الباب الثانى يروى المؤلف قصة التنقيبات التى قامت بها بعثات أثرية حكومية وغير حكومية مختلفة، قبل كل من التعلية الأولى لخزان أسوان (المسح الأثرى الأول) والتعلية الثانية (المسح الأثرى الثانى)، بمختلف مواسمهما، فى مختلف مناطق النوبة المصرية والسودانية، ثم التنقيب العالمى الواسع النطاق استجابة لنداء اليونسكو قبل بناء السد العالى فى أوائل الستينات.

وفى سرد هذه القصة فى هذا الباب لا وجود لتسلسل زمنى لتاريخ النوبة، بل تتتابع الكشوف الأثرية مع تقدم أعمال المسح؛ حيث يلقى هذا الكشف أو ذاك الضوء على فترة أقدم أو أحدث من تاريخ المنطقة. ولا يقوم المؤلف بتقديم معلومات إدارية وتنظيمية عن البعثات وخطط عملها بطريقة تقريرية جافة، بل يقف عند هذا الكشف الأثرى أو ذاك لتوضيح طبيعته والحضارة التى ينتمى إليها والضوء الذى يلقيه على التاريخ، وكذلك اللغز الذى قد ينطوى عليه، فتتكشف هذه المعلومات والأسرار والألغاز بترتيب التوصل إليها، والذى لا يتطابق بطبيعة الحال مع تعاقب مراحل تاريخ المنطقة.

وإنما فى الفصل المعنون "موجز تاريخ النوبة" سنجد القصة نفسها مسرودة بالتسلسل الزمنى لمختلف مراحل هذا التاريخ، بالاعتماد على الكشوف الأثرية وبالعودة المتواصلة إليها بالإضافة إلى مختلف مصادر التاريخ المكتوب.

ولا شك فى أن القارئ سيجد إلى جانب المعرفة التاريخية والحضارية متعة غير متوقعة إلا فى رواية شائقة، خاصة فى باب التنقيبات الأثرية؛ ذلك أن هاجس "الآن أو أبداً" الذى تمت به تلك التنقيبات على أيدى مختلف بعثات وفرق المسوح الأثرية ينتقل، من خلال السرد الحى، من المؤلف إلى القارئ؛ حيث يعيش مع الكتاب دراما حقيقية. ذلك أن الخيار الذى كان مطروحا أمام مصر كان قاسياً حقًا: بناء السد العالى (وقبله بناء خزان أسوان وتعليته مرتين) بحكم الضرورة الاقتصادية القصوى، وبالتالى التضحية بكل ما لا يمكن إنقاذه من الآثار والتاريخ والماضى، أم العكس؟ أىْ التضحية بالحاضر؟ وكما يقول المؤلف، فإن "الحاضر لا يمكن أن يُضَحَّى به من أجل الماضى".

وكان لا مناص من الاختيار: بناء السد العالى مع إنقاذ ما يمكن إنقاذه. ونحن نعرف ما تم إنقاذه، ونعرف جانبًا مما تم دماره، ولكننا لا نعرف بالطبع كل ما تم دماره، فهناك آثار وأسرار ضاعت إلى الأبد، كما ضاعت حياة خاصة حميمة عاشها الإنسان النوبى فى تلك المنطقة كموطن تاريخى، ولكنْ ربما ليس إلى الأبد، فربما حقق المستقبل نبوءة المؤلف الذى يقول"إن كثيراً من هؤلاء النوبيين سيرجعون إلى هذه الأراضى".

أما المادة التى يقدمها موجز تاريخ النوبة، وهو موضوع الفصول العشرة التى يتألف منها الباب الثالث، فإنه يمكن تصنيفها إلى:

أولاً، وقبل كل شىء، الآثار المصرية منذ فجر التاريخ وطوال التاريخ المصرى القديم فى النوبة السفلى (واوات) والنوبة العليا (كوش)، وما تدل عليه هذه الآثار، وكذلك مصادر التاريخ الأخرى بشأن الفتوحات والحروب المصرية (وكذلك الأشورية والفارسية والبطلمية والرومانية) فى النوبة. ولا شك فى أن هناك فارقًا حقيقيًا بين منطقتين نوبيتين متمايزتين؛ فالنوبة السفلى ليست مركز حضارة مصر، كما أنها ليست مركز حضارة كوش، كما أنها فى أكثر الأحيان ليست مركزًا لحضارة مستقلة، بل كانت ساحة صراع بين الحضارتين المصرية والكوشية، وهو صراع يمتد فى أكثر الأحيان جنوبًا إلى أعماق كوش من كرما إلى نپاتا إلى مروى، كما يمتد فى بعض الأحيان شمالاً إلى الحدود الجنوبية لمصر وحتى إلى أعمق أعماقها فى طيبة ومنف وحتى البحر المتوسط.

ثانيًا، حضارة كوش فى ممالك كرما ونپاتا ومروى، التى امتدت منذ بداية الدولة الوسطى فى مصر حتى القرن الرابع الميلادى.

ثالثًا، حضارة المجموعة (س) النوبية المجهولة، أىْ حضارة بلانة (وقسطل)، فى القرون الميلادية الرابع والخامس والسادس.

رابعًا، حضارة نوبية مستقلة يعتبر النوبيون الحاليون جميعًا فى النوبة الحالية (المصرية والسودانية معًا) امتداداً مباشراً لمجموعتها الإثنية اللغوية، والمقصود بذلك حضارة ممالك النوبة القبطية الثلاث من القرن السادس الميلادى إلى القرن الرابع عشر الميلادى، وهى المجموعة المستمرة بعد ذلك إلى الآن.

على أننا سنشير فى النهاية إلى حضارة قسطل (المجموعة "A أَلِف") التى ربما كانت أقدم حضارات وادى النيل كما سبقت الإشارة.

ويقدم الكتاب هذا التاريخ من خلال استعراض مراحله على أساس المجموعات السكانية النوبية التى عاصرت مراحل تاريخ مصر القديمة، وهى - كما يقرر علماء الآثار - أربع مجموعات، ويمكن تلخيصها من قائمة وردت فى الكتاب كما يلى:

١ - المجموعة النوبية الأولى: وقد عاصرت فى مصر العصر التاريخى المبكر - الأسرات ١-٣ (٣٢٠٠-٢٦٨٠ ق.م).

٢ - المجموعة النوبية الثانية: وقد عاصرت فى مصر الدولة القديمة - الأسرات ٤-٦ (٢٦٨٠-٢٢٥٨ ق.م) وعصر الانتقال الأول - الأسرات ٧-١٠ (٢٢٥٨-٢٠٥٢ ق.م).

٣ - المجموعة النوبية الثالثة: وقد عاصرت فى مصر الدولة الوسطى- الأسرتان ١١ و ١٢ (٢٠٥٢-١٧٨٦ ق.م) وعصر الانتقال الثانى - الأسرات ١٣-١٧ (١٧٨٦-١٦٠٠ ق.م).

٤ - المجموعة النوبية الرابعة: وقد عاصرت فى مصر - الأسرات ١٨-٢٠ (١٦٠٠ ١٠٨٥ ق.م).

على أننا سنرى أن هذه المجموعة النوبية الأخيرة عاصرت أيضاً العهد التاريخى المتأخر - الأسرات ٢١-٣١ (١٠٨٥-٣٣٢ ق.م) ومنها: أسرة ليبية (٢٢)، وأسرة كوشية (٢٥)، وأسرتان فارسيتان (٢٧ و ٣١)، كما عاصرت العصرين البطلمى والرومانى، واستمرت حتى نهاية مملكة مروى فى القرن الرابع الميلادى.

ويقدم الباب الثالث موجزاً لتاريخ النوبة فى مسارين؛ يتمثل أحدهما فى رسم صورة صارت أوضح ، بفضل الكشوف الأثرية خلال القرن العشرين، لانتشار حضارة مصر فى مختلف مناطق النوبة (المعابد، الحصون، مناجم الذهب والنحاس والحديد،... إلخ)، وكذلك معارك وحروب السيطرة على النوبة أو التصدى لاعتداءاتها.

ويتمثل المسار الآخر في محاولة لاستكشاف المجموعات البشرية التي شغلت أرض النوبة، بحثًا عن حضاراتها وثقافاتها ودولها وممالكها وإمبراطورياتها من حيث خصائصها وأسرارها وقيامها وانهيارها. وسأحاول رسم "هيكل عظمي" لتعاقب المجموعات السكانية الأربع السالفة الذكر، بما يساعد القارئ على استيعاب المادة الغنية التي يقدمها المؤلف.

حضارة المجموعة النوبية الأولى : يؤكد المؤلف أن سكان هذه المجموعة الأولى، وهي التي عاصرت العصر التاريخي المبكر في مصر القديمة "لا يختلفون في مميزاتهم الجسدية عن المصريين فيما قبل الأسرات، وفي الحقيقة لا شك أنهم هم السكان أنفسهم الموجودون في بيئة لا اختلاف بينها". ولأن النوبة كانت قليلة السكان قبل أن يغزو جنس الأسرات مصر (٣٤٠٠ ق.م)، ثم شهدت زيادة السكان ودخول حضارة جديدة، فإن الاحتمال الوحيد – كما يرى المؤلف لتفسير هذه الزيادة السكانية – هو "تسرب عدد كبير من سكان ما قبل الأسرات منسحبين تحت ضغط الشمال نتيجة غزو المتقدمين من فراعنة مصر الأُوَل". وقد تمتع "قوم" المجموعة الأولى في النوبة السفلى بعصر انتعاش نسبي، كما يقول. على أن حضارة المجموعة الأولى لم تتطور فيما يبدو تحت السيطرة المصرية؛ لأن اختفاءها يعاصر غزو المصريين الأوائل للمنطقة واستعمارها. وقد حدث الاختفاء المفاجئ لحضارة المجموعة الأولى عند غزو النوبة في أواخر عصر الأسرة الثانية.

حضارة المجموعة النوبية الثانية : مع أن المجموعة الثانية كانت تنحدر إلى حد ما من المجموعة الأولى، فإنها كانت تنطوي على نواحي اختلاف كثيرة ربما كانت ترجع إلى تدهور عام أو إلى ظهور عناصر سلالية جديدة آتية من الجنوب. وقد عاصرت هذه الحضارة الفقيرة الدولة القديمة في مصر، وكذلك عصر الانتقال الأول. وفي هذا العصر "ضاعت قوة الحكم المركزي، وأعقب ذلك عصر فوضى في الوطن؛ مما أدى إلى نتيجة حتمية وهي أن مصر ضيعت كل ممتلكاتها في الجنوب". وبالتالي نشأت حضارتان هما حضارة المجموعة النوبية الثالثة وحضارة المجموعة النوبية الرابعة.

حضارة المجموعة النوبية الثالثة : أعطى الفراغ الناشئ عن انسحاب القوة المصرية من النوبة، فى العصر الانتقالى الأول، الفرصة للنوبيين لكى يُنشئوا حضارة مستقلة عُرفت بالمجموعة الثالثة عاصرت الدولة الوسطى والعصر الانتقالى الثانى. "ولا يزال اسم هؤلاء المهاجرين وأصلهم غير معروف، ولكن يبدو أن لهم علاقة – من ناحية الشكل والحضارة – بسكان النوبة السفلى الأوائل. فالمهاجرون والسكان القدامى ينتمون أساساً إلى المميزات الزنجية فى المادة التشريحية المكتشفة فى مقابرهم". على أن "هذا العنصر الزنجى القليل جعل السكان الجدد يختلفون تشريحيًا عن سكان المجموعتين الأولى والثانية إلا أنهم ورثوا حضارة أجدادهم، وعملوا على تنميتها". ذلك أن "فخَّار المجموعة الثالثة يشبه إلى حد كبير فخَّار مصر فى عصر ما قبل الأسرات، ولعل هذا يمكِّننا من أن نرى فى حضارتهم الرعوية ما يمكن أن يكون تطوراً للحضارة 'النيوليثية' [حضارة العصر الحجرى الحديث] المتأخرة التى وُجدت فى كل وادى النيل الشمالى، إلا أن هذه الحضارة سرعان ما انتهت بغزو المصريين فى آخر الألفية الرابعة ق.م."، ولكنْ "ما زالت معرفتنا بهؤلاء الناس قليلة، ومع أننا نستطيع أن نتقصى آثار تطور حضارتهم منذ أقدم عصورها فى عصر الانتقال الأول (٢٢٥٨ ق.م.) حتى انتهائها فى أوائل الدولة الحديثة (١٥٧٠ ق.م.)؛ فهناك سؤال حيوى عنهم لم يجد جوابًا، وهو حدود حضارتهم الجنوبية: هل انتهت عند الجندل الثانى أم امتدت فى النوبة العليا، وإنْ كانت قد امتدت جنوبًا فإلى أىّ مدى وصلت؟ وترجع أهمية الإجابة عن هذا السؤال إلى أنها سوف تجلو لنا ستمائة عام من تاريخ النوبة الغامض". وقد وصلت حضارة المجموعة الثالثة إلى ذروة نضجها، فى النوبة السفلى (واوات)، التى لم يشملها النشاط العسكرى المصرى للدولة الوسطى، فظلت بعيدة عن تأثير الحضارة المصرية. وكان أهل النوبة السفلى عندئذ "أكبر عدداً منهم فى أىّ عصر أثناء الحكم المروى أىْ بعد حوالى ألف سنة"، ومع أن بقايا المجموعة الثالثة "تشبه ما عثر عليه فى كرما [أولى ممالك وعواصم كوش] إلا أنها تختلف تماماً عنها، وتُنسب إلى قوم آخرين".

وبعد تحرير مصر من الهكسوس بدأ أحمس (الأسرة الثامنة عشرة) الحروب الجنوبية التى أسفرت عن استعادة السيطرة على النوبة وتعمير المصريين لها. وبتأثير

المرور المتواصل الطويل للجيوش المصرية عبر النوبة السفلى فى طريقها إلى ساحة القتال مع كوش فى الجنوب، إلى جانب زيادة عدد المستعمرين المتصلين بالجيش والمحطات التجارية، على معتقدات وأسلوب حياة سكان هذه المنطقة اختفى "كل ما تبقى من حضارة المجموعة الثالثة". وهكذا، فإن "النوبة، بعد غزوها، كان يسكنها جنس فقير يعتمد على الأشياء الرخيصة المستوردة من مصر"، ولم تكن لهم ثقافة خاصة بهم. ولم يرد ذكر للنوبة السفلى (واوات) فى سجلات الحملات المصرية باعتبارها عدوًّا، "ومن الواضح أن هذه الأرض كانت تعتبر جزءاً من مصر، وكان أهلها متمصرين إلى حد كبير، وكان لزعمائهم ونبلائهم أسماء مصرية".

حضارة المجموعة النوبية الرابعة (كوش) : أظهرت الحفائر الأثرية فى "كرما"، فى النوبة العليا، "حضارة نوبية أخرى تشبه حضارة المجموعة النوبية الثالثة، وفى الوقت نفسه تختلف عنها وتنتمى إلى شعب آخر" - "ولم نعرف بعد حدودها الجغرافية ولا تتابعها التاريخى، مثلها فى ذلك مثل حضارة المجموعة الثالثة". وقد صار من الممكن بفضل الكشوف الأثرية "تأكيد الصلة بين حضارة أصحاب المقابر 'الناقوسية' وأهل 'كرما' واستبعاد صلتهم بحضارة المجموعة الثالثة. وبذلك يظهر أن الفرق السمراء التابعة للجيش المصرى [أىّ أصحاب المقابر الناقوسية] كانت تأتى من النوبة العليا". ويضيف المؤلف أنه "يبدو أن المجموعة الثالثة لم تكن قد انتشرت جنوباً حتى الجندل الثانى، ولكنها اقتصرت (على) النوبة السفلى (واوات) تاركة النوبة العليا (كوش) لجيرانها المحبين للحروب. والتشابه الشديد بين الحضارة المعروفة بالمقابر 'الناقوسية' فى مصر العليا والمادة التى عُثر عليها فى كرما واختلافها الواضح عن المجموعة الثالثة تجبرنا على أن نصل إلى نتيجة هى: أن المصريين لم يجمعوا المرتزقة من النوبة السفلى، وأن 'واوات' و'كوش' كانتا تختلفان جنسيًا وحضارياً. وعلاوة على ذلك، فإن المادة التشريحية فى المقابر الناقوسية المصرية زنجية العنصر، أكثر بلا شك، من المجموعة الثالثة النوبية".

إذن، فيما بعد الشلال الثانى، فى النوبة العليا، وأثناء الفترة التى ساد فيها الضعف فى مصر، "تكونت قوة عسكرية هائلة فى الجنوب سماها المصريون 'كوش'

ومنذ ذلك الحين أصبحت كوش قوة دائمة التهديد للحدود الجنوبية – ولمصر نفسها – إلى درجة أنه عندما اتحدت مصر مرة أخرى تحت حكم فراعنة الأسرة الثانية عشرة العظام، وجد حكامها أنه من المحتم إنفاق جزء كبير من الثروة القومية فى بناء مواقع حماية كبيرة".

ويؤكد المؤلف أن الإشارة إلى عدوّ مصر الجنوبى باعتباره "الزنجى" كانت مضللة؛ لأن أهل كوش لم يكونوا زنوجًا، وكان المصريون يستعملون كلمة 'زنجى' ('نحسى') "للإشارة إلى كل قاتمى اللون الذين يأتون من الجنوب مهما كانت أجناسهم".

ويعبر المؤلف عن اعتقاده أن ما عُثر عليه فى المقابر الناقوسية فى مناطق عسكرية متفرقة من مصر "يرجع قطعًا إلى أهل كرما ولا صلة له بحضارة المجموعة الثالثة ".

ومن الجلى أن المجموعتين الثالثة والرابعة متعاصرتان خلال مرحلة طويلة وليستا متعاقبتين كما قد يبدو من الترتيب العددى فى تسميتهما، غير أنهما مختلفتان جغرافيًا، فقد كانت إحداهما (الثالثة) فى النوبة السفلى (واوات) بينما كانت الأخرى (الرابعة) فى النوبة العليا (كوش). على أن حضارة المجموعة الثالثة اختفت، على حين استمرت حضارة المجموعة الرابعة، التى لم تكن على كل حال المجموعة الإثنية الأخيرة، فمع تطور واستمرار حضارة كوش فى كرما ثم نپاتا ثم مروى، ومع هجرات وغزوات لكوش من الغرب (النوباتاى) والشرق (أكسوم)، وفى سياق انهيار حضارة مروى ، تأتى مجموعات إثنية متعددة ستكون أشهرها مجموعة البليمى Blemmae (أو البليمز Blemmyes كما ترد فى هذه الترجمة وفقا للصيغة الإنجليزية) ومجموعة النوباتاى Nobatae اللتين يختلف علماء الآثار حول مسألة كون هذه أو تلك هى المجموعة النوبية المجهولة (س) التى أقامت حضارة "بلانة" فى النوبة السفلى خلال القرون الميلادية الرابع والخامس والسادس.

ومنذ أواخر الأسرة الثانية عشرة (الدولة الوسطى) تسرب الهكسوس إلى مصر ومع ضعف الأسرة الثالثة عشرة قاموا بغزوها، وامتد نفوذهم فيها حتى "قوص" جنوبًا،

وصارت مصر كلها تحت حكم ملوك الهكسوس، بينما اتخذ الحكام الأصليون فى الجنوب من طيبة عاصمة لهم وحكموا محليًا دافعين الجزية للمنتصر الأجنبى فى الشمال. وهكذا لم تبق لمصر قوة فى النوبة العليا فامتدت سلطة الحكام الكوشيين إلى منطقة واسعة من النوبة، مع أن جزءاً كبيراً من النوبة السفلى (واوات) كان لا يزال تحت السيطرة المصرية أو تحت تأثير المصريين إلى حد كبير ولم يمتد إليها سلطان كوش، فيما يعتقد المؤلف استناداً إلى "تبنى أهل المجموعة الثالثة لطقوس الدفن المصرية التى ترجع إلى ذلك العصر" إلى درجة أن هذا "يمكن أن يدل على وجود عدد كبير من المهاجرين المصريين الذين هربوا من ضغط الهكسوس". أما كوش فقد صارت نصف مستقلة، وفى نپاتا تكونت حكومة منقى فى عام ٩٥٠ ق. م.، عندما كانت مصر تحت سيطرة ملوك الأسرة الثانية والعشرين الذين كانوا من أصل ليبى، وترعرعت الحضارة الكوشية المصرية، وأصبح لها طابع مميز، وانقلبت الأوضاع وكانت كوش "هى التى ستغزو مصر".

وقد توطد سلطان ملوك الأسرة المالكة الكوشية قبل أن يحاولوا تأكيد سيادتهم على مصر، واستقبلت الجبانة الكبرى فى "كورو" موتاهم منذ عام ٨٦٠ ق.م. أىْ قبل قيامهم بغزو الشمال بأكثر من مائة سنة. على أن أسلاف الأسرة الخامسة والعشرين الكوشية التى حكمت مصر فى العصر التاريخى المتأخر (الفترة بين نهاية الدولة الحديثة وبداية الحكم البطلمى) يمتون بالصلة إلى جماعة أخذت بالحضارة المصرية مع أنها تنحدر من أصل كوشى، لعله يرجع إلى رؤساء مدينة كرما. وكانت "الطبقة الحاكمة فى كوش قد أصبحت بصفة عامة منذ عصر 'كاشتا' والد 'بعنخى' مصرية الفن والعمارة والديانة والثقافة والجنس؛ إذ نتجت روابط وثيقة بزواج أجيال من المستوطنين المصريين بأهل المنطقة".

وكما هو معروف؛ فقد دخلت مصر، بعد نهاية الدولة الحديثة، عهود العصر المتأخر، التى شهدت تدهور الحضارة المصرية وانهيارها، وقلّتْ فيها فترات الازدهار. وخلال الألفية الأولى قبل الميلاد، وحتى الفتح العربى، تعاقب على مصر والنوبة فاتحون كثيرون:

الليبيون (الأسرة الثانية والعشرون الليبية ٩٥٢-٧٤٩ ق.م)، والكوشيون (الأسرة الخامسة والعشرون الكوشية ٧١٥-٦٧٢ ق.م)، والآشوريون الذين غزوا مصر، وهزموا الأسرة الكوشية، ووضعوا نهاية لحكمها فى القرن السابع قبل الميلاد، والفرس (الأسرتان الفارسيتان السابعة والعشرون ٥٢٥-٤٠٤ ق.م والحادية والثلاثون ٣٤١-٣٣٢ ق.م)، ثم جاء المقدونيون (فتح الإسكندر الأكبر مصر وطرد منها الفرس فى ٣٣٢ ق.م) ثم الرومان (٣٠ ق.م) واستمر حكم البطالمة (٣٣٢-٢٣ ق.م) والرومان (٣٠ ق.م-٦٤٢م) على مدى قرابة ألف سنة منذ الفتح المقدونى فى القرن الرابع قبل الميلاد حتى الفتح العربى فى القرن السابع الميلادى.

وفيما يتعلق بكوش فقد كانت حضارة مملكة مروى مرحلتها الأخيرة، وقد دامت هذه المملكة قرونا عديدة؛ فقد انتقلت عاصمة كوش جنوباً إلى مروى بعد أن قضى الغزو المصرى على العاصمة نپاتا فى عام ٥٩١ ق.م. وإنْ كانت نپاتا قد استمرت كمركز دينى. ويقول المؤلف إن الحضارة المصرية فى الجنوب تقهقرت وحلت محلها حضارة غير أصيلة سماها الأثريون باسم العاصمة الجديدة مروى. "ومع أن التأثير المصرى الدينى والفنى بقى هو الغالب على الحضارات المروية الجديدة إلا أن التأثير الأفريقى والإغريقى كانت لهما مكانة أيضاً". ومكان الهيروغليفية ظهرت "هيروغليفية المروية مكتوبة بخط مختصر، وأصبحت فيما بعد طريقة الكتابة فى لغة أهل المنطقة. وهذه الكتابة المروية 'المختصرة' حلُّلها بعد جهد كبير عدة علماء، ولكنها لم تزل غير معروفة لنا؛ لأنها كُتبت فى لغة غير معروفة أيضاً". ومع نمو إمبراطورية مروية قوية بقيت النوبة السفلى - رغم أنها صارت تحت حماية الرومان - جزءاً منها فى الوقت نفسه. وبعد أن صارت مصر ولاية رومانية مُنيت الإمبراطورية المروية بهزيمة ساحقة لم تفق منها على أيدى الرومان فى عام ٢٣ ق.م. على أن مملكة مروى بقيت قروناً أخرى إلى أن استولى جيش أكسومى على مدينة مروى ودمرها؛ فأنهى بذلك الوجود المستقل للمملكة.

حضارة المجموعة النوبية (س) أو حضارة بلانة : مع أن النوبة السفلى تمتعت بفترة من الرخاء تحت حكم الرومان والحكم الاسمى لملكة مروى فى الجنوب، جاءت فترة تغير كبير، "وهى الفترة التى احتلتها فيها مجموعتان من المحاربين، والتى شهدت أيضاً النزاع الأخير بين المسيحية والوثنية، وتُعرف حضارة هذه الفترة، التى انحدرت من الحضارة المروية، عند رجال الآثار، بالمجموعة (س) **[X-Group]**؛ لأننا ما زلنا لا نعرف إلى أىٍّ من الشعبين المقاتلين ترجع هذه الحضارة".

ولا شك فى أنه حتى أواسط القرن الثالث الميلادى كانت النوبة جزءاً من الإمبراطورية المروية المتدهورة. ومع ذلك فقد كان يحتل جزءاً كبيراً منها شعب عرفهم الرومان باسم البليمى أو البليميين **Blemmae** (بالإنجليزية **Blemmyes**). "ولا زالت معرفة أصل هؤلاء الناس وكيف دخلوا النوبة ومن أين أتوا موضوع جدل".

وفى العصر الواقع بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين الذى انتعشت فيه حضارة المجموعة (س)، كان يحتل النوبة شعبان مختلفان هما البليمى والنوباتاى. ورغم أن الرأى السائد هو أن المجموعة (س) يجب اعتبار أنها تنتمى إلى "النوباتاى"، فإن المؤلف يرى أن هذه الحضارة كانت تنتمى إلى خصومهم "البليمى". ويقول المؤلف إن "جنس النوباتاى غير مؤكد، ولا يمكننا إلا أن نرضى بما يقوله 'بروكوبيوس' من أنهم كانوا قوماً محاربين يحتلون منطقة الواحة (الخارجة) فى الصحراء الغربية. ويرجح البعض أنهم فرع من قبائل 'النوبا' الذين انتقلوا من كردفان، وطنهم الأصلى، نحو الشمال قبل بداية العصر المسيحى بقليل. فاستقروا فى الواحة تاركين الجزء الأكبر من جنسهم يغزو منطقة الجزيرة ويقضى فى النهاية على الإمبراطورية المروية فى القرن الرابع الميلادى. وبالإضافة إلى ذلك فقد عُرفوا بالبربر الليبيين كما اعتُبر أنهم من نپاتا العاصمة الأصلية لكوش". وهناك نظرية (توردها مصادر أخرى) تقول بأن النوباتاى أو النوبا غزاة متنقلون قادمون من الغرب فرضوا ثقافتهم ولغتهم على الشعوب المستقرة، كما توجد نظرية أخرى تقول بأنهم سكان محليون فى منطقة نپاتا تحت سيطرة مروى لعدة قرون، وأن كلمة "نوباتاى" **Nobatae** مرتبطة مباشرة باسم مدينة "نپاتا" **Napata** .

ومهما يكن من شيء فقد هزم شعب النوباتاي شعب البليمي في عام ٥٤٠ م عندما تحول ملك النوباتاي إلى الدين المسيحي، فكانت النتيجة المحتومة هي الحرب ضد البليمي، الذين اختفت بهزيمتهم المعتقدات الدينية الفرعونية. ويضيف المؤلف: "وإذا اعتبرنا أن المجموعة (س) هم 'البليمز' [أيْ: البليمي أو البليميين بالصيغة الإنجليزية] فيلاحظ أنه في وقت غزو [الملك النوبي] 'سلكو' تشير الأبحاث الأثرية إلى أن حضارة هذه المجموعة كانت تتقهقر، واختفت أخيراً واستُبدلت بالحضارة النوبية المسيحية التي اختلفت عنها تماماً".

ويعود المؤلف إلى "سؤاله المحير": "من هم أهل المجموعة (س) 'البليمز' أم 'النوباتاي'؟"، ويستدرك قائلاً "ليس في نيتي أن أكتب بالتفصيل عن هذا الموضوع الذي لا يزال موضع جدل لكثير من رجال الآثار. وهو موضوع يمكن أن تطرأ عليه دلائل جديدة في أيِّ وقت عن طريق معول الحفار". على أنه يفحص عدداً من نتائج الحفائر الحديثة المتصلة بأهل هذه المجموعة، منها: انحدار أجناسهم من أصل مختلط قريب من المرويين، ولكن من عنصر زنجي أقوى، واحتلالهم الجزء الأكبر من النوبة العليا والنوبة السفلى في الفترة ٢٥٠-٥٥٠ م، وطريقة دفن ملوكهم في بلانة وقسطل، وكونهم وثنيين عبدوا آلهة مروى ومصر القديمة، ومجيء حضارتهم بعد حضارة مروى مباشرة وعدم الشك في انحدارهم منها، واتخاذ ملوكهم تيجان ورموز الملكية المروية، وعلاقة تصميم مقابرهم بالشكل المروى، وتأثر فخّارهم بالفخّار المروى، وتأثر أثاثهم بالطراز المروى والبيزنطي، ونوع أسلحتهم، وعدم معرفتهم الكتابة، وغير ذلك. ويُنهي المؤلف كتابه مؤكداً نظريته: "وفي تقريري الرسمي عن كشف المقابر الملكية في 'بـلانة' و'قسطـل'، والذي نُشر في عام ١٩٣٨ وضحت أسبابي لاعتباري مجموعة (س) أنهم 'البليمز' والحفائر في عام ١٩٦٢-١٩٦٣ في جبانة (ابريم) "بريمس" لم تعطني أيَّ سبب لتغيير رأيي. ونظراً لأن الإسهاب في هذا الموضوع بعيد عن هذا الكتاب فإني أعتقد أن الحقائق التي أجملتها فيما سبق هي في نظري، الدليل لاعتبار حضارة المجموعة (س) تابعة للقوم الذين سماهم الرومان 'البليمز' الذين يعتبرهم المؤلف الأبطال الأخيرين للعقائد الدينية البائدة لمصر القديمة.

الحضارة النوبية القبطية : وقد امتدت هذه الحضارة أو الثقافة بين القرنين السادس والرابع عشر؛ ذلك أنه بحلول القرن السادس الميلادى تكونت ثلاث ممالك مسيحية نوبية جديدة على الأراضى التى كانت تحت سيطرة مملكة مروى، وهى مملكة نوباتيا Nobatia وهى معروفة أيضًا باسم بلانة، وكانت عاصمتها فرس، ومملكة المقرة أو المغرة Maqurra وعاصمتها دنقلا القديمة، وألوا (أو: علوة) Alwa فى عمق مروى القديمة فى الجنوب وعاصمتها سوبا، وفى الممالك الثلاث جميعًا حكمت الأرستقراطية المحاربة سكانًا مرويين. أما البجة Beja الذين كان البليميون (البليمى) أسلافهم فقد طردهم ملوك النوبة إلى الصحراء حوالى عام ٤٥٠ م.

وكانت هذه الدول ناطقة باللغة النوبية التى كانت تكتب بالحروف القبطية المعدلة عن الحروف اليونانية مع إدخال تعديلات نوبية عليها (لإضافة حروف تقابل الأصوات اللغوية النوبية الزائدة عليها وحذف حروف تقابل الأصوات اللغوية غير الموجودة فى النوبية)، ويبدو أن المروية وكتابتها قد اختفتا تمامًا.

وقد بلغت هذه الحضارة أوج ازدهارها فى القرنين التاسع والعاشر. وكما هو معروف فقد تحول سكان النوبة إلى الإسلام بصورة تدريجية، ولم يشكل المسلمون الغالبية الدينية إلا فى القرن الخامس عشر أو السادس عشر.

وبطبيعة الحال، فإن هذه الحضارة أو الثقافة النوبية هى التى تتميز وحدها بالصفة النوبية؛ بمعنى أننا إزاء جماعة لغوية واحدة مستمرة إلى الآن. ومن المحتمل بالطبع أن هذه الجماعة اللغوية كانت موجودة منذ زمن طويل للغاية قبل فترة ظهور النوباتاى منذ العصر الرومانى فى مصر والنوبة. على أننا نجد أنفسنا أمام لغز كبير: إذا كان النوباتاى، أىْ أسلاف النوبيين الحاليين، جماعة لغوية مختلفة تمامًا عن الجماعة اللغوية التى تمثلها حضارة كوش وعن اللغة المروية التى يُعتقد أنها كانت لغة الممالك المتعاقبة لحضارة كوش، فكيف حدث أن حلت اللغة النوبية محل لغة حضارة كوش أو اللغة المروية فى كل المنطقة النوبية السودانية؟ هل حدث هذا من خلال غسيل دم لغوى شامل للشعب المروى بالطريقة التى حلَّت بها اللغة العربية محل اللغة المصرية

القديمة فى مرحلتها الأخيرة: القبطية؟ وإذا صحت، على العكس من ذلك، فرضية أن اللغة النوبية هى ذاتها اللغة المروية، فكيف نفسر هذا العجز المتواصل عن فك شفرة الهيروغليفية المروية بافتراض أن الحروف اليونانية القبطية حلت محلها كما كانت قد حلت قبل ذلك محل الهيروغليفية (فى شكلها المعاصر لفترة التحول إلى الكتابة القبطية) فى مصر؟

عودة إلى حضارة المجموعة النوبية الأولى : استعرضت فى الصفحات السابقة المجموعات النوبية الأربع التى يتحدث عنها علماء الآثار، كما يقدمها الكتاب الذى بين يدى القارئ. والحقيقة أن هذا ليس بالتصنيف الوحيد للمجموعات النوبية، وفى أكثر الأحيان يتركز حديث علماء الآثار على المجموعتين النوبيتين "ألف" A-Group و"ج" C-Group اللتين تناظران المجموعتين الأولى والثالثة فى تصنيف الكتاب الحالى؛ فأين المجموعة "ب" B-Group التى تناظر المجموعة الثانية فى هذا التصنيف؟ إنها مجموعة افتراضية عند علماء الآثار لملء الفجوة الزمنية بين المجموعتين الأولى والثالثة (أو "ألف" و"ج") ولإيجاد استمرارية بينهما ومن المحتمل أنها لم توجد أصلاً باعتبار أن النوبة السفلى كانت خالية من السكان خلال مئات السنين التى استغرقتها هذه الفجوة الزمنية بين اختفاء المجموعة الأولى وظهور الثانية. ويتحدث الكتاب، كما رأينا، عن مجموعة نوبية رابعة تختلف ثقافتها عن الثالثة عاصرت حضارتها فى النوبة العليا حضارة المجموعة الثالثة فى النوبة السفلى، واستمرت بعدها طويلاً حتى نهاية مملكة مروى. غير أن أغلب المصادر لا تتحدث عن مجموعة رابعة أو مجموعة "د" D-Group، بل تتحدث فقط عن مجموعة ثالثة أو "ج" تشمل حضارتها النوبة العليا (كوش) والسفلى (واوات) معًا باعتبارها حضارة شعب واحد. وهكذا تتنوع التصنيفات والآراء، وتتسع الخلافات أحيانًا بين العلماء حول تصنيف المجموعات المعنية، وقد سبقت الإشارة إلى الخلاف حول المجموعة (س) X-Group فى النوبة السفلى بين القائلين بأنهم شعب النوباتاى والقائلين بأنهم شعب البليمى.

وإذا عدنا إلى المجموعة الأولى (أىْ المجموعة "ألِف") فقد أضافت المعطيات الجديدة المكتشفة فى أوائل الستينات قبيل بناء السد العالى حضارة مملكة قسطل التى كانت حضارة متطورة فى إطار دولة ملكيــة أعـلى من مستوى الحضارة النيوليثية، وقد عاصرت أقدم مراحلها الحضارة النيوليثية فى كل من مصر والسودان، وكانت أقدم من أقدم عهود الحضارة المصرية فى عصر الأسرات، وربما كانت نقطة انطلاق مختلف حضارات وادى النيل. وبالتالى يبرز احتمالان لا يستبعد أحدهما الآخر، الأول إسهام حضارة قسطل فى نشأة الحضارة الفرعونية فى مصر العليا قبل توحيد مصر، والاحتمال الثانى هو هجرة حضارة قسطل إلى النوبة العليا مع هجرة المجموعة الأولى من النوبة السفلى إلى النوبة العليا تحت ضغط الغزو المصرى فى عصر الأسرات للنوبة السفلى، وبالتالى الإسهام الذى قدمته المجموعة النوبية الأولى فى تكوين حضارة كوش فى كرما رغم الفجوة الزمنية بين اختفاء حضارة المجموعة الأولى فى النوبة السفلى وبداية حضارة كرما الكوشية فى النوبة العليا.

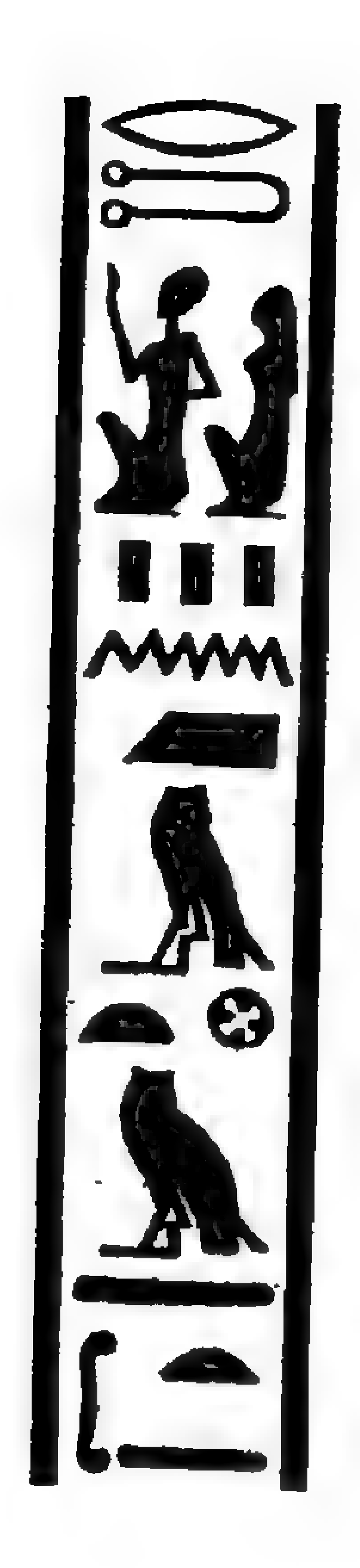
وهذا الكتاب، الذى ترجمته بدقة واقتدار أستاذة المصريات الدكتورة تحفة حندوس، من تأليف والتـر برايان إمـرى Walter Bryan Emery (يوليـو ١٩٠٣ – مـارس ١٩٧١) الذى كرس حياته بكاملها، باستثناء ست سنوات فى الجيش البريطانى أثناء الحرب العالمية الثانية، وأربع سنوات فى السلك الدبلوماسى بالقاهرة، لتنقيب المواقع الأثرية على طول وادى النيل. وقد عمل فى مجال التنقيبات الأثرية فى مصر منذ ١٩٢٣، وساعد فى تنقيب تل العمارنة (مدينة أخناتون). وفى ١٩٢٤ أصبح المدير الميدانى لتنقيبات السير روبرت موند Mond التابعة لجامعة ليفربول فى طيبة، وبين ١٩٢٤ و ١٩٢٨ عمل مديراً ميدانياً لبعثة موند فى تنقيبات النوبة والأقصر وطيبة. وفى ١٩٢٩ عُيِّن مديراً ميدانياً للمسح الأثرى للنوبة تحت إشراف مصلحة الآثار المصرية لاستكشاف وتنقيب كل المواقع القديمة فى النوبة، والتى كانت توشك على الغرق فى مياه التعلية الثانية لخزان أسوان. وعمل فى قبان وبلانة وقسطل، وقام بتنقيب مقابر المجموعة (س)

المجهولة الملغزة. وانتهى عمله فى النوبة فى تلك الفترة بتنقيباته فى حصن بوهن، ثم صار مديراً للمسح الأثرى فى الأقصر وأرمنت. وبين عامى ١٩٣٥ و ١٩٣٩ عمل مديراً للمسح الأثرى للنوبة. وخلال تلك الأعوام قام إمرى أيضاً بتنقيب عدة مقابر للأسرات المبكرة فى سقارة؛ حيث قام هناك باكتشافه البارز لحديقة حيوانات لبقايا حيوانية محنطة. وفى أعقاب سنوات من الانقطاع بسبب الحرب وخدمته كدبلوماسى عمل إمرى فى السودان (بوهن، قصر أبريم). وفى ١٩٦٤ عاد مرة أخرى إلى سقارة حيث اكتشف حظيرة الحيوانات المقدسة. وفى ١٩٧٠ جاء إعلان اكتشاف ضريح للبقرة المقدسة، وهو أحد أهم الاكتشافات فى حوليات علم المصريات.

وقد عمل إمرى أستاذاً للمصريات بجامعة لندن ١٩٥١-١٩٧٠، واختير لزمالة الأكاديمية البريطانية فى ١٩٥٩ . ومؤلفاته الرئيسية هى: المقابر العظيمة للأسرة الأولى Great Tombs of the First Dynasty (ثلاثة مجلدات) ١٩٤٩-١٩٥٨، مصر العتيقة Archaic Egypt ١٩٦١، مصر وبلاد النوبة Egypt in Nubia ١٩٦٥ .

وأخيراً، فإنه لم يكن بوسعي أن أتحدث عن خصائص الحضارات النوبية المعنية، وقد اكتفيت بالحديث عن إشكالية المجموعات السكانية التى تنتمى إليها تلك الحضارات. وبهذا أعفيت نفسى من مهمة شاقة فوق قدراتى، وأعفيت القارئ من عرض مبتسر لا حاجة إليه لمن يقرأ هذا الكتاب البالغ الأهمية.

خليل كلفت



مصر وبلاد النوبة

تأليف : "وولتر امرى"
ترجمة : تحفة حندوسه
مراجعة : د. عبد المنعم أبو بكر

فهرس

الموضـــوع | صفحة

● الباب الثالث ●
موجز تاريخ النوبة

تمهيد

هذا الكتاب يهدف الى تزويد القارىء العادى بصورة عامة عن بلاد النوبة ، التى ستختفى سريعا تحت أمواج الميـــاه المتلاطمة لتلك البحيرة الممتلئة التى ستتكون بانشاء السد العالى عند أسوان •

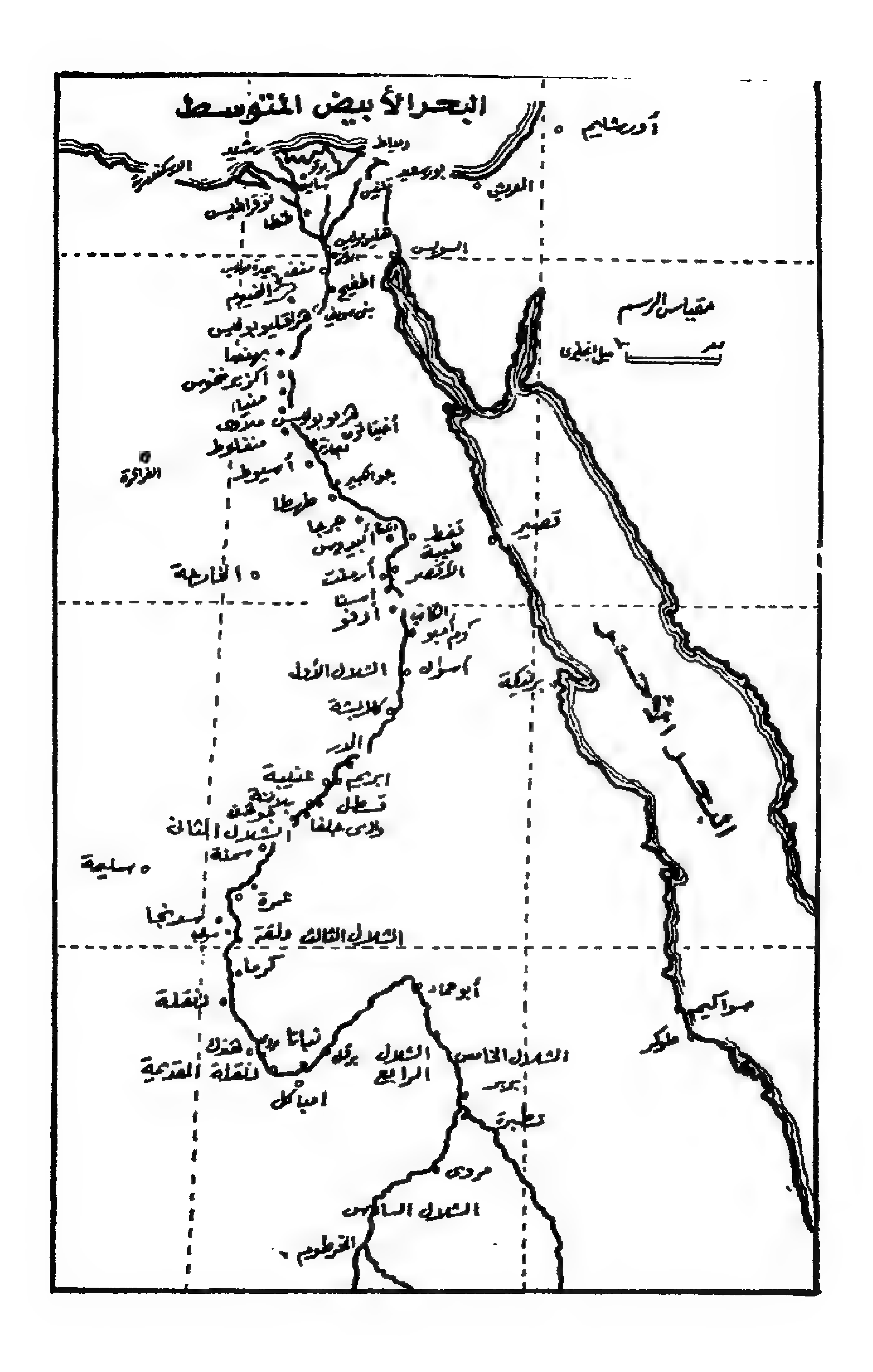
ولعل المتخصص لا يجد ما يفيده فى هذا الكتاب الذى يقوم على اعطاء تلخيص للجهود التى بذلت للكشوف الأثرية مع موجز لتاريخ النوبة الذى نســـتمده من الكشوف ومن بعض المصـــادر الاخرى من النوبة نفسها ومن مصر •

ولقد إعتمدت كثيرا على النصوص التاريخية التى ترجمهـا « جيمس هنرى برستد » ونشرهـــا فى كتــابه : Ancient Records of Egypt

و • ل امرى

الباب الأول

مقدمة



البحر الأبيض المتوسط
أورشليم
دمياط
رشيد
الإسكندرية
بورسعيد
العريش
نوقراطيس
طنطا
هليوبوليس
السويس
منف
بحيرة موريس
الفيوم
بني سويف
هراقليوبوليس
أكزيرنخوس
منيا
أخيتاتون
منفلوط
أسيوط
الفرافرة
جو الكبير
طهطا
جرجا
أبيدوس
قفط
طيبة
الأقصر
أرمنت
الخارجة
إسنا
أدفو
كوم أمبو
الشلال الأول
أسوان
قصير
برنيكة
كلابشة
الدر
أبريم
عنيبة
قسطل
وادي حلفا
الشلال الثاني
سمنة
سليمة
عمرة
الشلال الثالث
كرما
أبو حماد
سواكن
طوكر
دنقلة
دنقلة القديمة
نباتا
الشلال الرابع
الشلال الخامس
عطبرة
مروي
الشلال السادس
الخرطوم
مقياس الرسم

الفصل الأول

ساحة قتال في العالم القديم

ان النوبة ، تلك البلاد القديمة التى بقيت آلافا من السنين من أهم مناطق القارة الافريقية قد أصبحت الآن مهددة بالموت ومع أنها اذا قورنت بمناطق أخرى من وادى النيل فسوف نجد أنها منطقة جدباء الا أن التاريخ سطر على أرضها صفحات من فصوله الحية ، مسجلا بذلك كثيرا من الأحداث التاريخية الهامة التى عرف بعضها وما زال بعضها الآخر قيد البحث والدراسة ، ولقد كان لهذه الاحداث تأثيرها الحاسم والكبير على تطور الحضارة فان التاريخ ينبئنا بان النوبة كانت من أهم مناطق الصراع الرئيسية فى العالم القديم حيث كان الصراع مستمرا بين الاجناس المختلفة ، البيضاء منها والسوداء ، للوصول الى السيادة فى شمال افريقيا • فان المصريين القدماء الذين كانوا يمثلون أرقى الحضارات حينئذ كانوا يتوغلون جنوبا لاستغلال مناجم الذهب وللتجارة فى العاج والاخشاب الثمينة ومنتجات «كوش» وهو الاسم القديم لشمال السودان • أما سكان الجنوب ، الذين بدأنا نتعرف على حضاراتهم من خلال الحفائر والابحاث المعاصرة والذين كانوا مهملين فلقد نزحوا نحو الشمال الى الاراضى الاكثر خصوبة من وادى النيل حتى شاطىء البحر المتوسط •

ولقد شاهد هذا الطريق المؤدى الى ساحة معارك جيوش الشمال والجنوب مؤشر النصر يتأرجح من ناحية الى أخرى وكانت بلاد النوبة تتمتع بسلام ورخاء فى الفترات التى كانت تقع فيها تحت نير القوى المناوئة وكان هذا بين الحروب المتقطعة ومرور الجيوش فيها • ولم تدم عادة فترات الحروب هذه طويلا فتاريخ المنطقة دائم التغيير ، أما الآن فان التغيير الاكبر وشيك الحدوث فمن أجل مستقبل كله رخاء فى شمال وادى النيل والدلتا سوف تختفى بلاد النوبة تحت مياه الخزان الكبير الذى سيقام وراء السد العالى فى أسوان •

فاذا ما طرح أمامنا السؤال التالى : أين تقع بلاد النوبة ؟ فسوف نقع فى عجب وحيرة شديدين عندما نجد أن مثل هذا السؤال غير واضح حتى عندما يرد عليه أكثر الناس معرفة • وذلك لان حدودها ليست محددة تماما على خريطة فتاريخها عبارة عن سجل واسع لتحركات الجيوش لذلك لم تصل النوبة أبدا الى أن تستقل بنفسها • ومع أن سكانها الحاليين لهم جنسية مميزة فهم يرتبطون ارتباطا وثيقا عن طريق الدم والاسلوب الواحد فى الحياة الا أن وطنهم مقسم بين الشمال والجنوب ــ فالنوبة السفلى تمتد بين الشلال وادندان وتعتبر جزءا من مصر أما النوبة العليا فتمتد بين أدندان ودنقلة وتعد جزءا من السودان • (صورة رقم ٢)

وكلمة نوبة نفسها غامضة الاصل ، فيقول « استرابو » نقلا عن « اراتوستينيس » : يعيش النوبيون على الشاطىء الغربى للنيل فى ليبيا وهم شعب متعدد الافراد وتمتد بلادهم من مروى وتصل الى منحنى النهر» ومن المغرى حقا أن نجد فى اسم هؤلاء الناس كلمة نوبة ولكننا اذا تعرفنا على انحناءات النهر حتى منطقة دنقلة ، فسوف نجد أن هؤلاء الناس قد سكنوا جزءا من الوادى يقع كله جنوبى النوبة التى نعرفها ــ ومما يجب علينا ألا نغفله هو أن المصريين القدماء أطلقوا على الذهب كلمة «نوب» وأن هذه المنطقة التى نعرفها الآن بالنوبة كانت بلاد الذهب • ومع أن هذا قد جاء بمحض الصدفة الا أننى أشعر أنها نظرية معقولة لأصل كلمة نوبة •

ومن بين الاسماء الكثيرة التى أطلقها المصريون القدماء على النوبة بل أكثرها شيوعا « تا ــ كنس » أى « الأرض المقوسة » أو « أرض القوس » ولكن لم يكن هذا الاسم الا تعبيرا عاما ، اذ أنهم فرقوا بين النوبة العليا والنوبة السفلى بتسمية الجزء الشمالى الذى يقع بين الجندل الأول والجندل الثانى « واوات » • وتسمية الجزء الجنوبى الذى يقع جنوبى الجندل الثانى «كوش» • وعلى قدر ما نستطيع أن نعتمد على الآثار الموجودة نجد أن أهل واوات وكوش كانوا من جنسين مختلفين مع أن بينهما قرابة • ويبدو من

هذا أن سكان منطقة واوات كانوا عادة لا يميلون للحرب بينما أهل كوش كانوا محاربين ، لذلك استعان بهم المصريون فى النوبة عندما أصبح الحكم الاستعمارى ثابتا فجندوا فى الجيش الفرعونى فى عصر الامبراطورية ٠

والنوبيون يختلفون فى لغتهم حتى عصرنا هذا ـ ونجد أن الحدود اللغوية لا تتفق مع الحدود الجغرافية للنوبة العليا والسفلى ٠ فبينما نجد سكان المنطقة الواقعة مابين «اسوان» و«السبوع» يتكلمون حتى اليوم اللهجة المعروفة باسم «كنوز» ومن كورسكو حتى الشلال الثالث يتكلمون «المحسى» نجد أن سكان الجنوب يتكلمون « دنقلى» ولو أن هذه اللهجة ليست الا شكلا آخر للكنوز ٠ واللغة النوبية التى تنتمى الى نوع خاص من اللسان الافريقى لا تكتب ولذلك تعتمد على العربية فى الكتابة ، فالعربية تستعمل فى كل أنحاء البلاد ٠

والصلة التى تربط سكان النوبة الحاليين بسكان العصر القديم ـ أمر مشكوك فيه لان منطقة كهذه قاست كثيرا من الغزو الاجنبى يصبح المزج فيها بين الاجناس أمرا لا بد منه ٠ ويبدو انه وجدت على الاقل فترة واحدة كانت النوبة السفلى فيها غير مسكونة وبالرغم من ذلك نجد أن تخلف بعض العادات الجنائزية والفنون والحرف تذهب بنا بعيدا لتؤيد الفكرة القائلة بأن النوبيين الحاليين ينحدرون الى حد كبير من نسل هؤلاء الذين عاشوا فى هذه المنطقة من وادى النيل فى عصر فراعنة الدولة الوسطى ، وكما كان الحال فى العصور القديمة نجد أن النوبى المعاصر يختلف جنسيا عن المصرى ومع أن جزءا كبيرا من السكان يقضون معظم سنى عمرهم فى مصر الا أنهم يبقون كجنس منفصل على حدة الى حد كبير اذ أنهم من النادر أن يتزوجوا بمصريات ٠ وعقيدتهم أن الوطن والزوجة والعائلة يجب أن تبقى فى النوبة وحتى الآن وبعد أن تغيرت معالم النوبة ببناء السد العالى فانها بقيت بالنسبة اليهم أحب الأراضى فى العالم كله فاليها سيرجعون بلا شك فى كل فرصة سانحة ٠ ونجدهم اذا مرضوا أو تقدمت بهم السن فان أملهم الوحيد هو الرجوع الى أرضهم التى وهبتهم الحياة ٠

ونحن نتساءل عن السبب الذى يدفع هؤلاء الناس الى ترك وطنهم الذى يكنون له هذا الحب ويعيشون بعيدا عنه لفترات طويلة فنجد ان هناك سببين ، أولهما سبب اقتصادى لأنه حتى قبل بناء خزان أسوان لم تكن النوبة تكفى سكانها ـ والسبب الآخر هو أن النوبيين على عكس المصريين يحبون السفر والتجوال وعندهم حب استطلاع ليس له نهاية لمعرفة بلاد جديدة وشعوب جديدة ٠ ولقد قابلت نوبيين عاشوا فترة فى

أمريكا عملوا فيها كميكانيكيين وطهاة على البواخر ، وعرفت آخر أمضى بضع سنين كسائق لقاطرة في الهند ـ ولكنى لم أسمع مطلقا عن أحدهم وقد استقر فعلا فى بلاد غربية بمحض ارادته •

ان الاراضى الزراعية النوبية محدودة ولا تنتج ما يكفى لغذاء قلة من سكانها فنظرا لهذا ولعدم قيام صناعات بالمنطقة كان لزاما على الرجال الأشداء والشباب أن يبحثوا لهم عن مهنة في المدن المصرية أو السودانية الكبيرة • وهكذا نجد أن النوبيين قد اكتسبوا عيشهم من أعمالهم كخدم أو بحارة بالسفن الشراعية فى نيل مصر العليا ويعتبرون فى هذه الاعمال « ممتازين » فأحسن الخدم أو الطهاة في مصر وأكثر البوابين ثقة عند أصحاب المنازل والعمارات الكبيرة بالقاهرة وفى الفنادق والمكاتب يأتون دون استثناء من جنوب أسوان •

ولقد كان النوبيون يتمتعون بنظام قبل انشاء مكاتب العمل واهتمامها بمصالح العمال فى مصر • ولقد وفر لهم هذا النظام حماية لا نجد لها نظيرا فى أوربا الا عن طريق نقابة قوية • فقد كان لكل قرية نوبية كبيرة كانت أو صغيرة ممثل فى القاهرة أو فى احدى المدن المصرية الكبرى ويعمل هذا الممثل فى معظم الاحيان بوابا لعمارة أو هيئة حكومية أو ما شابه ذلك ، وعليه تقع مسئولية سعادة ورفاهية أبناء قريته الذين يعملون فى منطقة عمله ، واذا ما كبر أحد الصبية فى القرية يبعث به الى أحد أقاربه الذين يعملون بمصر • ومع ذلك يقدم نفسه لممثل قريته الذى يلحقه بعمل اذا احتاج الأمر ، كما يضعه تحت رعايته ، وبعد تدريبه كصبى مطبخ أو مايشبه ذلك لمدة سنتين تقريبا ، يرقى الى وظيفة مساعد خادم (سفرجى) أو مساعد طاه ويحصل على مرتب • ومن ثم يدفع نسبة مئوية من مرتبه لهذا الممثل كتأمين ضد البطالة يؤمن له المسكن والطعام فى الظروف العصيبة • والواقع أن أى ساكن جديد فى القاهرة وغيرها يحتاج الى خادم يسلك مسلكا حكيما بطلبه من بواب مسكنه خادما أمينا ، وبهذا يعتبر البواب هو المسئول أيضا عن عدم رضا المخدوم • وهذا نظام ناجح وفعال، ويلاحظ عادة أن عددا كبيرا من الخدم فى مبنى واحد ينتمون الى قرية نوبية واحدة ، ولذلك يعيشون متحدين يساعد بعضهم بعضا وفى الوقت نفسه تسهل الحياة بالنسبة للمخدوم •

والنوبى ، بالاضافة الى كونه خادما من الدرجة الاولى ، تجده أيضا بحارا عظيما ، فجميع المرشدين بالبواخر النيلية يأتون من النوبة السفلى، وبالرغم من أن السفر نيليا ما بين الدلتا والشلال الاول أصبح وسيلة قديمة ، والى جانب انتشار السفر بالطائرة فالتنقل بين الشلال الأول

ووادى حلفا يعتمد على بواخر الحكومة السودانية لعدم وجود خط سكة حديد فى هذه المنطقة • فطاقم جميع البواخر النيلية من النوبة ، هذا الى جانب أن عددا كبيرا منهم يعملون على المراكب الشراعية أو التجارية التى تنقل البضائع بين مصر العليا والقاهرة فالعائلات النوبية اتخذت من النهر مهنة لأجيال ، فالاب يدرب ابنه عن طريق قصص قديمة ارتبطت بالنيل ولا تعتبر المعلومات مهـارة لديهم وانمـا هى خبرة نتجت عن تراكم عدة خرافات على مر السنين فى القصص النيلية • وعلى كل فالبحارة النوبيون منظمون مثلهم فى ذلك مثل زملائهم خدم المنازل • فاذا أردت أن تستأجر طاقم باخرة مثلما اضطررت أنا اليه عنـدما كانت لى باخرة فى النيل ، فيجب عليك أن تذهب الى مقاه مخصصة يتجمع فيها البحارة الذين ينتظرون من يطلبهم وهناك أسعار محددة لانواع مختلفة من البحـــارة ومما يجدر الاشارة اليه هو ارتباطهم الوثيق بعضهم مع بعض فان أى ظلم يقع على أحدهم يعتبر ظلما للجميع ، وسرعان ما يجد صاحب البـاخرة نفسه فى القائمة السوداء ان لم يمتثل لقانون وعادات الطاقم المشهورة ، واظن أن هذا بالاضافة إلى التعصب للعشيرة هو الذى أساء الى سـمعة النوبى بين الرحالة الأوائل الذين جابوا بلاده • وفى الحقيقة ان من يتعمق فى التعرف على عاداتهم وتحيزهم هذا يجد فيهم الصديق الوفى الذى لا ينسى الجميل أبدا •

وبناء على ما ذكرناه سابقا فان معظم الرجال الاشداء القادرين على العمل يعملون خارج النوبة ، فسكانها الآن هم كبـــار السن والسيدات والاطفال وهؤلاء يقومون باستثمار الاراضى الزراعية وهى محدودة ، هذا ماعدا مناطق معينة مثل وادى حلفا وعنيبه • وبلاد النوبة لا تصدر الا التمر والفاكهة من مناطق حلفا ــ أما محاصيلها القليلة فهى لا تكفى السكان فى المناطق الشمالية • ولذلك فانه عندما تغمر مياه السد العالى الجـــديد ما تبقى من الاراضى الزراعية يتحتم على سكان النوبة من انسان وحيوان أن ينتشروا فى أماكن أخرى من وادى النيل ولكننى أعتقد أن كثيرا من هؤلاء سيبقون على الحوافى الجدبة يعتمدون على المأكولات التى يبعث بها أقاربهم الذين يعملون فى مصر والسودان • أما فى المرحلة المتأخرة عندما يرسب النيل طميه الخصب فى المناطق الممتدة وراء « أبو سمبل » و « سيالة » و « دندور » فان كثيرا من هؤلاء النوبيين سيرجعون الى هذه الأراضى •

ان الارض النوبية صعبة الوصف فى فقرات محددة فهى تبدو للزائر الذى يمر عليها سريعا عن طريق النهر كسلسلة مملة لمناطق زراعية ضيقة ومتعاقبة ، ومناطق صحراوية قاحلة تتخللها تلال صخرية ، فهى أرض

متنوعة التكوين اذ يعترض الوادى حاجز من الجرانيت ما بين خط عرض ١٤ و ١٨ شمالا مكونا الحدود الاولى بين مصر الخصبة والاراضى القاحلة فى الجنوب وحتى فى الشمال عند اسنا نجد ان السهل الجيرى الذى يحد الوادى قد تقهقر لتحل محله تلال غير منتظمة من الحجر الرملى وبالرغم من هذا فان الاراضى على جانبى النهر لا تزال خصبة خضراء الى أن يظهر الحاجز الجرانيتى فيظهر حينئذ الطابع الموحش للنيل الافريقى ٠

وعند الشلال توجد آخر محطة للسكك الحديدية المصرية كما أننا نجد ميناء نهريا للسفن والبواخر السودانية التى بوساطتها يصل المسافر عن طريق النوبة السفلى الى وادى حلفا ومن ثم يستقل المسافر القطار مرة أخرى ليصل الى الخرطوم ٠ ولقد بقى أثر ضئيل من العمار عند الشلال لا يتعدى بضعة أكواخ بالاضافة الى محطة السكة الحديد ورصيف لرسو السفن ولكنى عند زيارتى له سـنة ١٩٢٩ لأول مرة كانت قرية مبعثرة واسعة كبيرة المساحة يحيط بهـا من كل جانب صخور جرانيتية عالية وكأنها احترقت واسودت من حرارة الشمس ٠ وبعد ذلك ارتفع منسوب مياه النيل بعد تعلية خزان أسوان سنة ١٩٣٤ ولم يبق فى القرية الا عدد قليل من سكانها ، ومما يجدر ذكره انها تعتبر من أشد المناطق النوبية حرارة وأقلها هواء ، اذ تبلغ درجة الحرارة فيها ١٢٠ درجة فهرنهايت لأن التلال الجرانيتية المحيطة بها تمنع عنها تلك التيارات الهوائية الملطفة القادمة من الصحراء ٠ ونجد أن مجرى النهر يتسع عند الشلال والى الجنوب من الجندل الاول ثم يتخلله عدة جزر صخرية لا ترى بعضها الا بعد انخفاض منسوب المياه الى مستواه الطبيعى عندما يفرغ الخزان فى الصيف ٠ وفوق « فيلة » احدى الجزر الكبيرة نجد معبد « ايزيس » المشهور والمهدد بالتهدم الكامل بعد المشروع الجديد ٠ ولذلك فهو أحد الأهداف الهامة التى تهتم بها اليونسكو لانقاذ الآثار النوبية القديمة وحتى الآن لا نسـتطيع أن نتمتع بجمال وروعة هذه الدرة المعمارية الا فى أواخر الصيف ، لأن المياه تغمرها تماما طوال بقية شهور السنة ٠

ولقد تركت على التلال المجاورة علامات المحاجر القـديمة ، وسجلت عليها تواريخ ترجع الى أقدم العصور الفرعونية حتى العصر المسيحى ٠ فالى الغرب من جزيرة « فيلة » ، نجد « بيجة » حيث شيد عليها معبد صغير من عهد بطليموس الثالث عشر (٥١ ــ ٨٠ق٠م) ولم يبق منه الا القليل ٠ ولقد اعتبرت « بيجة » مكانا مقدسا قبل العصر البطلمى بكثير ٠ وقد عثر فيها على آثار ترجع الى الأسرة ١٨ كما عثر على آثار تدل على وجود قلعة من هذا العصر ٠ومع أن معظم الآثار القديمة لهذه الجزيرة المشهورة بجمالها الطبيعى

قد اختفت تحت المياه، الا انها أخذت تكتسب أهمية كبيرة من جديد كاحدى النقاط الهامة فى مشروع انقاذ وترميم معبد فيلة الذى سأشرحه فيما بعد.

فبعد التعلية الاولى لخزان أسوان سنة ١٩١١ غمرت المياه منطقة النوبة جنوبا حتى « وادى السبوع » ومع ذلك لم يشوه جمالها • كما أن المناطق الزراعية العالية التى لم تغمرها المياه قد بقيت كما هى • وفى عام ١٩٢٩ عندما رأيت لأول مرة هذه القرى النوبية الطابع ممثلة فى « دابود » كانت تبدو من النهر عبارة عن قرى مشيدة على حافة خط رفيع من الزراعة الخضراء تحتضنها تلال جبلية ورملية شاحبة • لقد كان المنظر جميلا للغاية ويستحق التصوير لان المنازل النوبية التى شيدت من الطين ذات الجدران البيضاء والأسقف التى على هيئة قباب ، والأبواب المزخرفة ، لها طراز معمارى يفوق فى روعته ما نجده فى أية قرية مصرية • أما معابد دابود وقرطاس وطافا وكلبشة والدكة فكانت لا تزال موجودة ومرئية حتى عند ما كانت المياه عالية • وبالرغم من أن مناطق مثل كلابشة قد أصبحت قاحلة الا انه كانت توجد قرى صغيرة مبعثرة هنا وهناك بها بقع زراعية يرتفع فى وسطها النخيل •

وفى الجنوب بعد وادى السبوع ، وفى مأمن من المياه المدمرة لم تتغير النوبة هناك • وكم كنت محظوظا لأننى رأيتها كما رآها الرواد الأوائل من الرحالة منذ زمن بعيد ، فبين وادى السبوع وحدود النوبة السفلى عند وادى حلفا تتغير المناظر على جانبى النهر ، فالنهر يمر بين الصخور التى لا تصلح للبيئة السكنية ، ماعدا المنطقة التى عند المالكى حيث نجد هناك قرية واسعة تحيط بها غابات كثيفة من النخيل • وأخيرا نصل الى « كورسكو » حيث يبدأ الانحناء الكبير للنيل ؛ ولقد كان الشاطىء الغربى كله تقريبا بين كورسكو وتوماس قاحلا تتخلله تلال رملية تصل إلى حافة النهر ، هذا بينما نجد أن الشاطىء الشرقى يتميز بشريط ضيق من الارض الزراعية الخصبة تتسع عند « الدر » التى كانت فى ذلك الوقت مقرا للحكومة وكان بها مركز للشرطة ومدرسة • أما أكبر منزل فى النوبة فقد كان هو منزل الكاشف ويقع فى الطرف الشمالى للمدينة وقد كان الكاشف حاكما نصف مستقل للمنطقة كلها حتى وقت قريب • ومن يرى « الدر » ومعبد « رمسيس الثانى » المنحوت فى الصخر ، والذى يختفى وراء أشجار النخيل والجميز يرى جمالا باهرا حيث النباتات المورقة النضرة • ولقد اختفت الآن هذه الخضرة تحت المياه ، وحتى فى الاوقات التى ينخفض فيها منسوب المياه فلا نجد الا منظرا قاحلا يعطى لمن رآه من سنين مضت رمزا حيا لمأساة النوبة •

لقد كانت الأراضي الصالحة للزراعة كلها جنوبي « الدر» في الناحية الغربية ــ بينما كان الشاطيء الشرقي عبارة عن صحراء ذات صخور قليلة الارتفاع وتصل الى حافة النهر ، وعند «توماس» كانت هناك جزيرة ذات أرض خصبة ، كما كان بالشاطيء الغربي غابة كثيفة من النخيل ذات تمر له شهرة كبيرة حتى في مصر ــ أما جنوبي «توماس» فتتضاءل الأراضي الزراعية حتى « عنيبة » مقر المدينة القديمة «ميعام» ومقر الحاكم الجنــوبي ومركز الحكومة في عصر الفراعنة في الدولة الحديثة • (١٥٧٠ ــ ١٠٨٥ق.م) • وبالرغم من أنها كانت قاحلة في الناحية الغربية عندما زرتهــا لاول مرة سنة ١٩٣٠ بعد التعلية الأولى ، الا أنها ، في سنة ١٩٣٤ ، أصبحت مكتظة بسكانها الذين ما لبثوا أن زرعوا أراضيها ــ وأصبحت لوجودها أعلى من مستوى المياه مقرا جديدا للحكومة بعد « الدر » التي زالت • والآن يجب أن نضحي بعنيبة أيضا لان مياه السد الجديد ستغطي سهولها الخصبة وتصل حتى تلك التلال الرملية المحيطة بها • أما على الشاطيء الشرقي والى جنوب عنيبة فنجد جبال «ابريم » العالية والتي شيد فوقها الحصن القديم الذي بدأنا التنقيب فيه سنة ١٩٦٣ • وفي المنطقة جنوبي « أبريم » و « عنيبة» تتضاءل الخضرة والنباتات على الشاطئين ــ حتى تلتحم الصحراء بالنهر في نقط متعددة • أما في أبي سمبل فتتسع الرقعة الزراعية حيث يسكن عدد كبير من الناس يعيشون في تلك الأرض الخصبة على الشاطئين الشرقي والغربي مثلما كان في الزمن القديم • وعلى الضفة الغربية نجد أعظم آثار النوبة ــ المعبدين المنحوتين في الصخر واللذين شيدهما « رمسيس الثاني ــ وفي سنة ١٩٣١ كان المعبدان بعيدين عن النيل وأمامهما رقعة واســعة من الارض المزروعة ــ أما الآن فان مياه النهر على بعد بضعة أقدام من التماثيل الكبيرة التي تتكون منها واجهة المعابد ، والتي تعمل هيئة اليونسـكو على نقلها وانقاذها من الغرق(١) •

كانت البلاد ، على ضفتي النهر، فيما بين أبي سمبل والحدود السودانية في «ادندان» مسطحة ليس فيها ما يأخذ بلب الرائي ، فالمناطق المزروعة فيها محدودة والجبال البعيدة في الصحراء الشرقية مخروطية الشكل ، هــذه المنطقة الجدباء غنية في آثارها القديمة ومن أهمها تلك المدينة المحصنة في «عداء» ، والمقابر التي يعلوها كومة للملوك النوبيين من العصر المتأخر والتي عثر عليها في «بلانه» و «قسطل» سنة ١٩٣٢ ــ وأثناء تنقيبنا وحفائرنا في

(١) لقد تم الشروع وقامت الحكومة المصرية بافتتاح المعبدين في مكانهما الجديد في سبتمبر سنة ١٩٦٨ في احتفال كبير اشترك فيه ممثلون عن منظمة اليونسـكو والجمهورية العربية المتحدة •

«بلانة» عثرنا على الطبقة الطميية الخصبة تحت الرمال الصحراوية ـ وبوساطة طرق الرى الحديثة توصلت الحكومة المصرية الى تحويل هذه المساحة الجدباء الى أكثر المناطق الزراعية خصوبة .

هكذا كانت النوبة السفلى منذ خمس وعشرين سنة مضت أرضا متباينة الالوان ، جبال في لون البن القاتم تتعاقب مع صفرة رمال الصحراء ـ وخضرة المناطق الزراعية ولكن هذا كله قد تغير كثيرا ، لان التعلية الثانية لخزان أسوان سنة ١٩٣٤ قد غيرت بل ودمرت الى حد كبير تلك اللوحة الطبيعية ، فأصبحنا منذ ذلك الحين لا نرى غابات النخيل الصغيرة فى «توماس» و «الدر» ـ ولكنا نرى بحيرة كبيرة عندما يكون الخزان ممتلئا ، كذلك نرى مسطحات طميية هنا وهناك عندما تقل المياه فى الشهور الاخيرة من الصيف ، وقد اختفت تلك القرى الجميلة ببيوتها الجذابة البيضاء الملفتة للنظر فأصبحت لا ترى منها سوى مجموعات منعزلة بعضها عن بعض مثل البقع الصغيرة من الاراضى المزروعة فوق واد ضيق تحده صخور رمادية كالحة ترتفع فوق سطح الماء .

والنوبة العليا ومعظم المناطق جنوبى أبى سمبل تقع فوق مستوى الفيضان للخزان الحالى ولذا فهى تشبه المنطقة جنوبى وادى السبوع قبل سنة ١٩٣٤ اذ لم يصبها تلف ولم تتغير كثيرا عما كانت عليه قديما حينما كانت تتلاحم القوى المتحاربة الشمالية والجنوبية .

ان ما يعرف باسم منطقة وادى حلفا على الضفة الشرقية من «دبيرة» حتى أوائل الشلال الثانى فهى من أخصب المناطق فى تلك البلاد وبها عدد كبير من السكان عدا التجار والموظفين والمهندسين الذين تستخدمهم الحكومة السودانية فى الترسانة وورش السكك الحديدية .

وجنوبى وادى حلفا نجد الحاجز الجرانيتى الثانى الذى يخترق النيل (الجندل الثانى) وهو يمتد بمياهه المتدفقة على مسافة ٩٠ ميلا وهذه المنطقة هى المعروفة «ببطن الحجر» وهى أكثر مناطق النوبة جدبا ـ وفيها النيل لا يصلح للملاحة لاعتراض تلك الصخور الجرانيتية مجراه . حيث تكون ارخبيلا يتكون من أكثر من ٣٥٠ جزيرة صغيرة خمسون منها مأهولة بالسكان ولهم فيها زرع وثمر .

وهنا فى هذه المنطقة النيلية القاحلة شيد المصريون القدماء سلسلة من الحصون لأن الطبيعة الموحشة الوعرة التكوين وصعوبة الملاحة جعلت المنطقة لها حدود طبيعية تستعمل قاعدة للدفاع وموقعا استراتيجيا للهجوم . ان سلسلة تلك الحصون الحربية تبدأ فى الشمال عند «بوهن» التى كانت فى

غالبا مركزا للقيادة ، وتنتهى فى أقصى الجنوب من الشلال بالحصنين «سمنه» و « قمه » • ان هذه الابنية القديمة قد شيّد بعضها على حافة النهر كما شيد البعض الآخر على جزر يصعب الوصول اليها — وهى الى الآن تمثل تحديا كبيرا لكل مهتم بالآثار ، لأنها عظيمة الحجم ولم تنقب كلها • وعندما يتم بناء السد العالى سوف تختفى تلك الحصون تحت مياه النهر • وجمعية التنقيب المصرية قد أتمت حفائرها فى حصن «بوهـن» أمام «وادى حلفا » — وهذا العمل قد أظهر نتائج على جانب كبير من الأهمية سنتناولها فيما بعد فى هذا الكتاب — وبناء على نداء اليونسكو قامت مصلحة الآثار السودانية وبعثات أخرى أجنبية تمثل معاهد علمية فى أوربا ، تنقيبـات فى قلاع ومناطق أثرية أخرى فى بطن الحجر •

هذا الجزء من النوبة الذى يمتد جنوبا حتى دنقلة ، يتميز بأهمية خاصة بالنسبة لكل أثرى لأنه كان يحوى بلاد «كوش» القديمة التى لانعرف عن تاريخها وحضارتها الا القليل• فالمنطقة لم تفحص جيدا من قبل الأثريين• وانى أعتقد أن التنقيبات الكبيرة التى شرع فيها بسبب الخوف من فيضان النيل بعد السد العالى ، ستظهر اكتشافات ذات أهمية تاريخية كبيرة وربما تغيرت كلية فكرتنا عن خصائص وقوة العدو الجنوبى لمصر القديمة •

الفصل الثانى

السد العالى

لعله من الغريب حقا أن نكون مدينين لمشروعات الرى المتتالية ، التى هدمت فيما مضى وسوف تهدم فى عصرنا هذا آثار وعمائر النوبة ، بمعرفتنا ومعلوماتنا عن آثار هذا الجزء من نهر النيـــل وتاريخه • فلولا التهديد المتعاقب بالفناء ما قامت المجموعات المنقبة بأعمالها منذ بناء خزان أسوان بين ١٨٩٩ و ١٩٠٢ • ان الحفر فى النوبة صعب ، بسبب بعدها وعزلتها علاوة على أن ما يسفر عنه الحفر من قطع أثرية ليس مجزيا الا أنه يعطينـا معلومات علمية قيمة ، لذلك فمعظم الحفائر كانت نتيجة للضرورة ولم تكن اختيارية ولا شك أن الجزء الأكبر للكشوف المهمة قد تم بتأثير التهـديد القائل « الآن أو أبدا » •

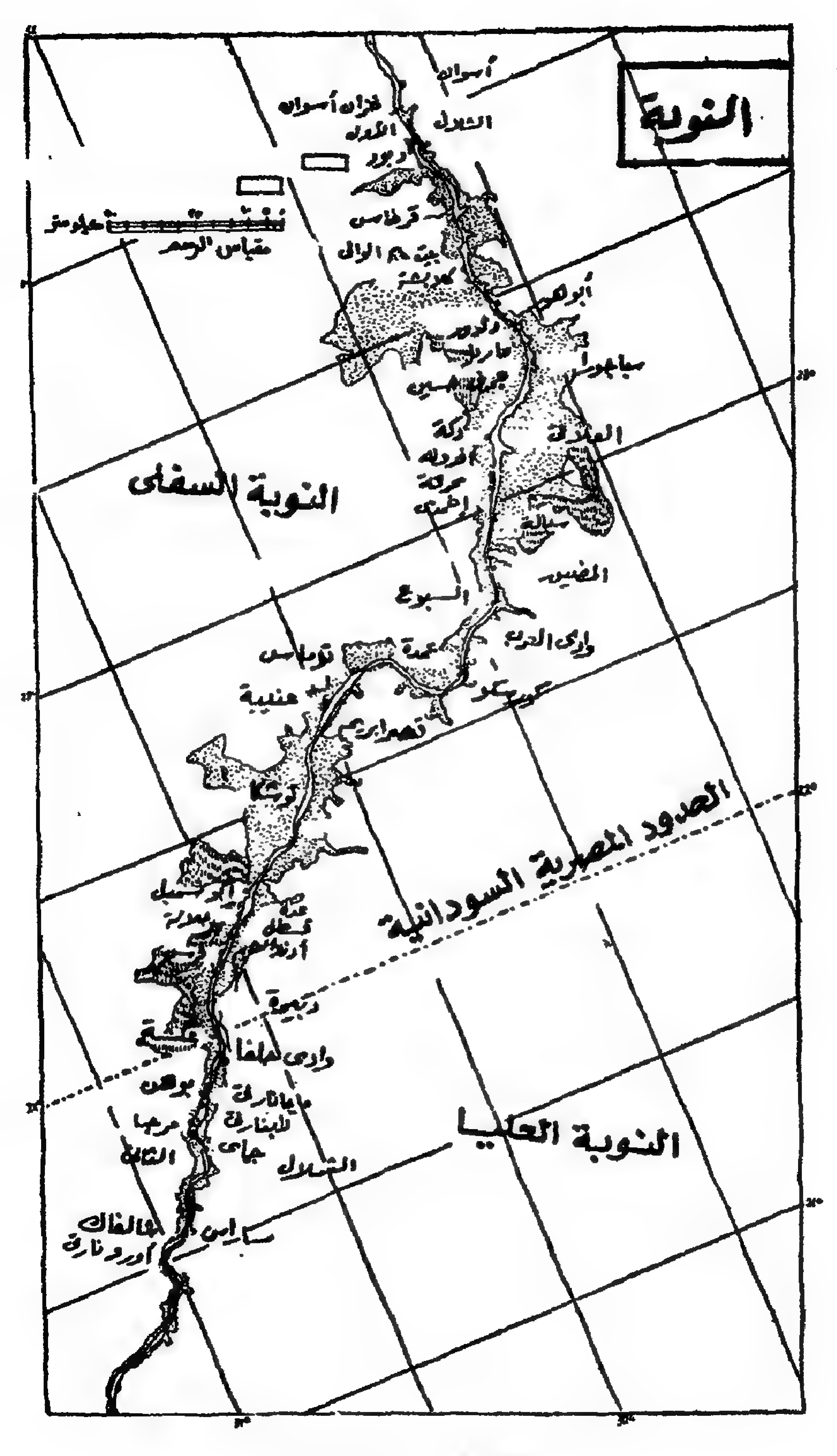
والآن يجب على رجل الآثار أن يواجه التهـديد الاخـير • فالحاضر لا يمكن أن يضحى به من أجل الماضى ومـع أن بعض العـمائر الضخمة ستحفظ الا أن المواقع القديمة للمدن والجبـانات التى تحـوى الاسرار وتسجيلات الأجيال القديمة يجب أن تدمر • فمرة أخرى يتسابق المنقبون ،

الذين يأتون من عدة بلاد ، مع الوقت ، ليغتصبوا من أرض النوبة القاحلة ما تبقى من أسرار تاريخها الطويل •

وبعد غزو السودان مرة أخرى في عام ١٨٩٨ والهدوء الذى عم منطقة نهر النيل العليا ، اتجه المهندسون واخصائيو الرى الى غزو النهر نفسه• فسكان مصر يتزايدون باستمرار وأصبح توسيع رقعة الارض الزراعية فى الدلتا ضرورة ملحة عاجلة والتوسع الزراعى يعتمد على المياه المأخوذة من النيل • فمصر ، حتى فى نهايتها الشمالية ، بلاد متعطشة للمطر ، لذلك كان فيضان النيل السنوى هو منبع الحياة الوحيد فيها • ومنذ أقدم العصور اتخذت كل الوسائل لمنع هبوط المياه السريع ، فبنيت أحواض لخزنها • ولكن ــ حتى مع وجود تلك الطريقة كانت كمية كبيرة من المياه تضيع فى البحر • ولضبط بعض هذا التبذير على الأقل ، بدىء فى تشييد خزان عند الجندل الاول جنوبى أسوان فى عام ١٨٨٩ وانتهى منه فى عام ١٩٠٢ وكان الغرض منه هو التحكم فى مجرى النهر بتخزين المياه فى نوفمبر وديسمبر عندما يكون الماء فائضا وتترك هذه المياه فى مايو ويونيو ويوليو عندما تحتاج الاراضى الزراعية لكمية أكثر من المياه لا يمكن لمجرى النيل الطبيعى أن يعطيها •

ويمتد خزان أسوان أكثر من ميل فى الطول ويعلو مائة قدم وكان يخزن تسعمائة وثمانين مليون متر مكعب من الماء فى بحيرة صناعية تمتد جنوبا مسافة مائة وأربعين ميلا • ويعتبر الخزان تحفة فى علوم الهندسة حتى وقتنا هذا • ومع ذلك فلم يكن الا تحويرا للتصميم الاصلى الذى قدم للحكومة المصرية فى عام ١٨٩٣ • اذ أن التصميم الاصلى كان يرفع منسوب المياه سبعة وعشرين قدما عن منسوب الخزان الحالى • ونتيجة لهذا الارتفاع غمر جزء كبير من معبد «فيلة» • فاستقبل المشروع باحتجاجات ونقد • وبعد جدل طويل انحنى المسئولون أمام العاصفة وخفض ارتفاع الخزان الاصلى • ومع أن بعض أبنية المعبد كانت تغمرها المياه لفترة قصيرة من السنة الا أن العمائر الاساسية بقيت فوق مستوى المياه • ومع ذلك ، وخوفا من الرطوبة ، قويت الاساسات ورممت كل نقاط الضعف فى البناء •

وبعد بناء السد ظهرت محاسنه ومنافعه حتى أن احتجاجات رجال الآثار والفنانين قد نسيت ، وبين عام ١٩٠٧ ، ١٩١٢ زيد فى ارتفاع السد ستة عشر قدما فارتفعت مياه الخزان حتى وصلت الى منطقة وادى

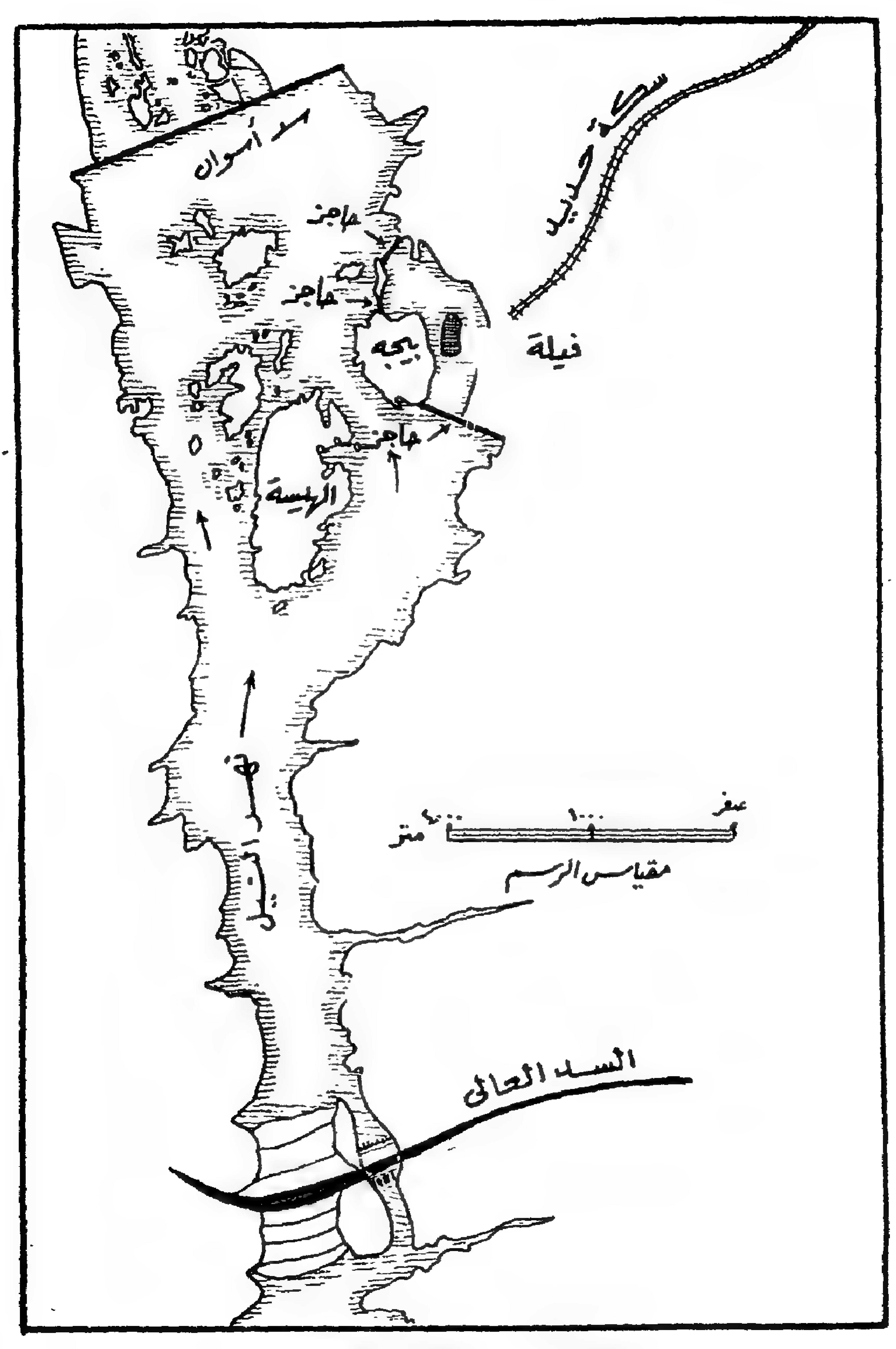


الشكل ٢ ـ النوبة

السبوع أى أن طوله قد امتد الى خمسة وأربعين ميلا (شكل ٢) وأصبحت سعته ألفين واربعمائة مليون من الامتار المكعبة من المياه • وهذه البحيرة الصناعية التى امتدت مائة وخمسة وثمانين ميلا كانت تغمر جزءا من فيلة ومعابد أخرى متعددة كما أنها هددت عدة مستعمرات وجبانات قديمة • ولم يكن رجال الآثار ليسكتوا على ذلك فقبل أن يتم العمل فى السد فى عام ١٩٠٢ كانت الحكومة المصرية قد نظمت المسح الأثرى الأول الذى كشف وسجل كل البقايا القديمة التى كانت ستهدمها المياه بعد تعلية الخزان •

ولكن ما زالت الأراضى المصرية المتعطشة غير راضية ومرة أخرى بين عام ١٩٢٩ وعام ١٩٣٤ زيد فى علو السد ثلاثين قدما وامتد الخزان مائتين وخمسة وعشرين ميلا حتى وادى حلفا وأصبحت سعته خمسة آلاف مليون متر مكعب من الماء • وأرسلت الحكومة المصرية بعثة للمسح الاثرى الثانى لانقاذ الآثار المهددة فى النوبة والكنوز التى لا تقدر بثمن فى « بلانه » و « قسطل » والتى سأكتب عنها فيما بعد •

واليوم ، بعد أن زاد سكان البلاد كثيرا ، أصبح من الصعب على مصر أن تطعم نفسها والى جانب احتياجها لاراض منتجة للطعام يجب عليها أن تتجه نحو انتاج صناعى وبعد هذا يأتى احتياجها للقوى • والنيـل هو المصدر الوحيد الذى يمكن أن يرضى هذه المطالب • لذلك بدىء فى واحد من أكبر المشروعات الهندسية العالمية ألا وهو بناء السد الجديد ذى الحجم العظيم فى النهر عند نقطة تبعد أربعة أميال جنوبى السد الاصلى • ويعرف بالسد العـالى • والغرض منه هو الاستفادة من كل ميـاه النيل حتى « لا تضيع نقطة واحدة من مياه النهر فى البحر » • وهذه العمارة الجبارة ستصل فى ارتفاعها الى مئتين وخمسـة وعشرين قدما وعرضها أكثر من ثلاثة أميال (شكل ٣) أما الخزان فيصل طوله الى ثلاثمائة ميل على مساحة ألف ومائة وخمسين مترا مربعا ومحتويا فى أقصاه حوالى مائة وثلاثين ألف مليون متر مكعب من الماء • ومن المنتظر أن يضيف السد العالى الى الاراضى الزراعية فى مصر ما يقرب من نصف المساحة الحـالية وحتى فى النوبة فسوف تكون هناك أراض زراعية بعد أن يترسب الطمى فيها وبعد امتصاص الجو لعدد كبير من ملايين الامتار المكعبة من المياه نتيجة لحرارة الجو فى الأشهر الصيفية • وفضلا على ذلك فان المياه التى سوف تخرج من السـد أثناء الفيضان ستستعمل لتحريك توربينات قوتها تصل الى مليونى حصان وانتاج سنوى ما بين عشرة آلاف واثنى عشر ألف كيلوات من الكهرباء فى الساعة سنويا • اذن فالمنافع التى ستجنى عظيمة بحيث لا يمكن التضحية بها فى سبيل التاريخ ، والكنوز الفنية مهما كانت قيمتها • هذه الحقيقة



الشكل ٣ ـ فيلة والسد العالى

الصعبة وغير المقبولة يعترف بها رجل الآثار ولكن فى الوقت نفسه يرى أيضا مسئولياته فى انقاذ ما يمكن انقاذه من التدمير نتيجة تحقيق هـذا المشروع الضخم للاجيال القادمة ٠

ان العبء الضخم فى ايجاد طرق عملية لانقاذ معبدى أبى سمبل ومعبد فيلة وفك واعادة بناء معابد أخرى وتسجيل الجدران المنقوشة بل وأكثر من هذا ، تنقيب المناطق التى لم يسبق فيها الحفر وخاصة فى النوبة العليا ، كانت أكبر من الموارد المالية والفنية المصرية والسودانية ٠ لذلك التجأت الحكومتان الى اليونسكو تطلبان مساعدة عالمية لحفظ تلك الكنوز القومية التى تعتبر أيضا تراثا لكل البشرية ٠ وقبل اليونسكو الطلب وفى افتتاح « الحملة العالمية لانقاذ آثار النوبة » والتى أقيمت فى باريس فى ٨ مارس عام ١٩٦٠ قال المدير العام ، حينئذ ، السيد « فتورينو فيرونيز » :

« لقد بدأ العمل فى سد أسوان العظيم ٠ وفى مدى خمس سنوات ستصبح منطقة وداى النيل الوسطى بحيرة كبيرة ٠ وسوف يترتب على ذلك أن تصبح آثار رائعة تعتبر من بين أعظـم ما على الأرض ، معرضـــة لخطر الزوال تحت المياه ٠ ان السد سيجلب خصوبة لأراض صحراوية واسعة ٠ ولكن خلق مجالات جديدة لعمل الجرارات وتخزين قوة كهربائية لمصانع المستقبل الجديدة تهدد بدفع ثمن رهيب ٠

« حقا ، عند ما تكون سعادة البشر المعذبين فى خطر ، يجب التضحية بلا تردد بالصور المصنوعة من الجرانيت والبورفير ٠ ولـكن أى فرد مضطر لأن يختار لا بد له من أن يتأمل فى ضيق ضرورة العملية ٠ أنه من الصعب الاختيار بين تراث الماضى ورفاهية الناس الذين يعيشـــون الآن فى ظل أبهر أرث فى التاريخ ٠ وليس من السهل الاختيار بين المعابد والمحاصيل وانى لأشعر بالحزن لأى شخص يطلب منه اتخاذ قرار فى هذا الشأن ــ أيا كان هذا القرار ــ دون أن يشعر بالندم ٠

لذلك ، فليس غريبا ، أن تطلب حكومتا الجمهورية العربية المتحدة والسودان من جهة عالمية ، هى اليونسكو ، لتحاول انقاذ الآثار المهددة ٠ ان هذه «الآثار » التى يمكن فقدها قريبا جدا ، لا تخص هذين البلدين فقط ، فالعالم كله له الحق فى أن يراها دائما باقية ٠ فهى جزء من تراث مشترك يضم رسالة « سقراط » ولوحات « الأجانتـــا » وجدران « أوكسمـــال » العالمية ٠ ان التحفة الجميلة تزداد جمالا عندما يشترك الناس فى الاستمتاع برؤيتها ، أما اذا فقدوا هذه المتعة ، فانهم يفقدون الكثير ٠

« وفضلا عن ذلك ، فليست المسألة فقط هي حفظ شيء سيفقد • وانما هي اظهار كنز لم يكشف عنه بعد يمكن أن يستفيد منه الجميع • ومقابل مساعدة العالم ستفتح حكومتا القاهرة والخرطوم كل بلادها للحفائر الأثرية وستعطى نصف القطع الفنية التي سيكشف عنها علميا أو بالصدفة للمتاحف الأجنبية • وستوافق أيضا على نقل بعض الآثار النوبية • وهكذا سيفتح عصر جديد في حقل الآثار المصرية • فبدلا من حرمان العالم من جزء من عجائبه ، تأمل البشرية أن تظهر عجائب لم تعرف بعد •

ان قضية نبيلة كهذه تستحق ردا لا يقل عنها نبلا • لذلك أدعو بكل ثقة الحكومات والمعاهد والمؤسسات العامة أو الخاصة والرجال ذوى الارادة القوية من كل مكان ليسهموا في نجاح مهمة ليس لها مثيل في التاريخ • اننا في حاجة الى الخبرة والمعدات والمال • وهناك طرق متعددة يمكن الاسهام بها • انه لمن المناسب واللائق أن ينبع من بلد كانت في كل الأجيال مسرحا لمشاجرات وأطماع متعددة برهان مقنع لتضامن عالمي •

« ان مصر هبة النيل » • وكانت هذه العبارة لطلاب عديدين ، الجملة الأولى باليونانية التي تعلموا ترجمتها • فليأتمر العالم ليضمن أن النيل ، بعد أن أصبح موردا أكبر لخصوبة وقوة كهربائية ، لن يدفن تحت مياهه عجائب ورثناها اليوم من أجيال زالت من زمن بعيد » •

ان اشارة المدير العام لهيئة اليونسكو الى العهد الجديد في ميدان علم الآثار بعد اعلان القاهرة والخرطوم أن المنقب له الحق في نصف حصة نتائج العمل ، لم تقع على أذن صماء ومن ثم كانت الاستجابة للنداء مشجعة للغاية• ويبدو محزنا أن تكون الاستجابة السريعة بسبب المكافأة الموعودة ، ولكن في الحقيقة لم يكن الأمر هكذا كما سنرى فيما بعد ، من دراسة اقتصاد البحث الأثرى فقد كان قانون الآثار في مصر ، في عام ١٩٢١ أى قبل العثور على مقبرة « توت عنخ آمون » يقضى بأن المنقب يجب أن يعطى نصف حصة الأشياء التي وجدها وكان هذا شرطا حيويا في تنظيم بعثات أجنبية متعددة تنوى أن تقوم بحملات تنقيبية واسعة المدى لأن هذه البعثات كانت تعتمد على تبرعات ادارات المتاحف أو المؤسسات التي تتمنى أن تزود مجموعاتها الأثرية المصرية بتحف جديدة ، وفي الحقيقة ، نظمت المتاحف الأجنبية بعثاتها الخاصة الى وادى النيل بغرض زيادة المعرفة التاريخية والأثرية واكتساب قطع جديدة لمجموعاتها •

وبدأت واحدة من أهم البعثات وأكثرها انتاجا في مصر على أيدى موظفين تابعين لمتحف كبير • وهذان الموظفان كانا في رحلة لشراء بعض

القطع ثم أقنعا مجلس أمنائهما بأن مجموعتهم ستزيد من المحصول العلمى للحفائر أكثر مما تزيد بالشراء من تجار الآثار • وأظهروا أن قيمة القطع الجميلة فى الفن القديم تزيد بمعرفة أصلها ، واستعمالها وتاريخها الحقيقى • فمن الصعب تأريخ قطع عثر عليها عن طريق سرقة المقابر • ولقد أدرك علماء الآثار المصرية أن الأدلة الأثرية تضيع سنة بعد سنة بسبب سلب ونهب عملاء التجار الذين اذا سرقوا مقبرة أو موقع أثرى ، أضاعوا مادة علمية لا تقدر بثمن • لذلك بدأ الجامع يعتمد على العالم الأثرى أكثر مما يعتمد على التاجر حتى أسفر الأمر عند رصد اعتمادات واسعة لحساب البحث العلمى فى الحقل • واقتنت متاحف العالم فى كل سنة كمية كبيرة من القطع نتيجة للحفائر الواسعة فى مصر • ولكن بعد الضجة التى نتجت عن اكتشاف مقبرة «توت عنخ آمون» وتأثرا بعدد من بلاد البحر الأبيض المتوسط ، عدلت الحكومة المصرية فى هذا الوقت قانون الآثار بحيث لم يعد للمنقب الحق فى أى شىء مما يجده وأصبحت كل الآثار تخص الدولة • حقا انه فى السنين الأولى لصدور هذا القانون كان المنقب يعامل معاملة سخية وكان يعطى قطعا مزدوجة على أساس تبادل المنفعة • ولكن بعد فترة وعن طريق النقد الصحفى أصبحت المسألة شاقة ووجدت المتاحف الأجنبية صعوبة فى تمويل حفائر البعثات العلمية والمنظمات التى كانت تصرف بسخاء • وبالتدريج أصبح عدد البعثات الأثرية الأجنبية قليلا فى وادى النيل وتقهقر علم الآثار المصرية فى ميدان الحقل العملى •

لقد ظلت بعض المؤسسات الأثرية تعمل وتبحث فى مصر مثل جمعية التنقيب المصرية وكانت تقوم بعملها بصعوبة وكانت تترك مشروعات كثيرة لتمويلها المحدود • ومن المضحك أن المخازن فى الطابق السفلى لمتحف القاهرة والمخازن الموجودة فى منطقة الحفائر مثل سقارة كانت تحشد بالقطع المزدوجة التى لا قيمة لها لتوضع بين المجموعات المهمة فى القاهرة ، بينما كانت لها قيمة كبيرة اذا ما وضعت فى متحف أجنبى • ولعلها كانت تساعد الطالب فى بحثه وكانت تصبح شاهدا للناس على مدى عظمة وبهاء مصر القديمة •

وعلى أية حال فالنداء الى اليونسكو جعل الحكومة المصرية ترجع الى القانون القديم الذى يعطى المنقب الحق فى نصف ما يكشف عنه ويعنى ذلك أن المتاحف سوف تساعد المنقب ماليا • وهذه السياسة الجديدة المستنيرة لن تكون للبعثات الأجنبية فقط ولكنها ستسرى على مصر نفسها • أما فى

السودان فقانون النصف بالنصف كان يعمل به دائما • لذلك فقد توفرت كل الحوافز لرجل الآثار كي يعود الى البحث العلمى فى الحقل فى البلدين •

ولقد مالت الشعوب فى الأعوام الأخيرة ـ مع نمو احساسها بالوطنية ـ الى اعتبار ماضيها كنزا مقصورا عليها وأن تتجاهل الحقيقة بأنه حتى لو كانت هى حارسه القانونى ، فهو تراث البشرية كلها • وأصبحت هذه الحقيقة ، بعد نداء اليونسكو ، معترفا بها أخيرا ، واكتسب المجهود العالمى العظيم حافزا على مستوى لم يكن يحلم به منذ سنوات مضت • لذلك ، وبتأثير هذا الباعث لن يكون فناء النوبة القديمة قد ذهب عبثا •

الباب الثاني

التنقيبات

الفصل الأول

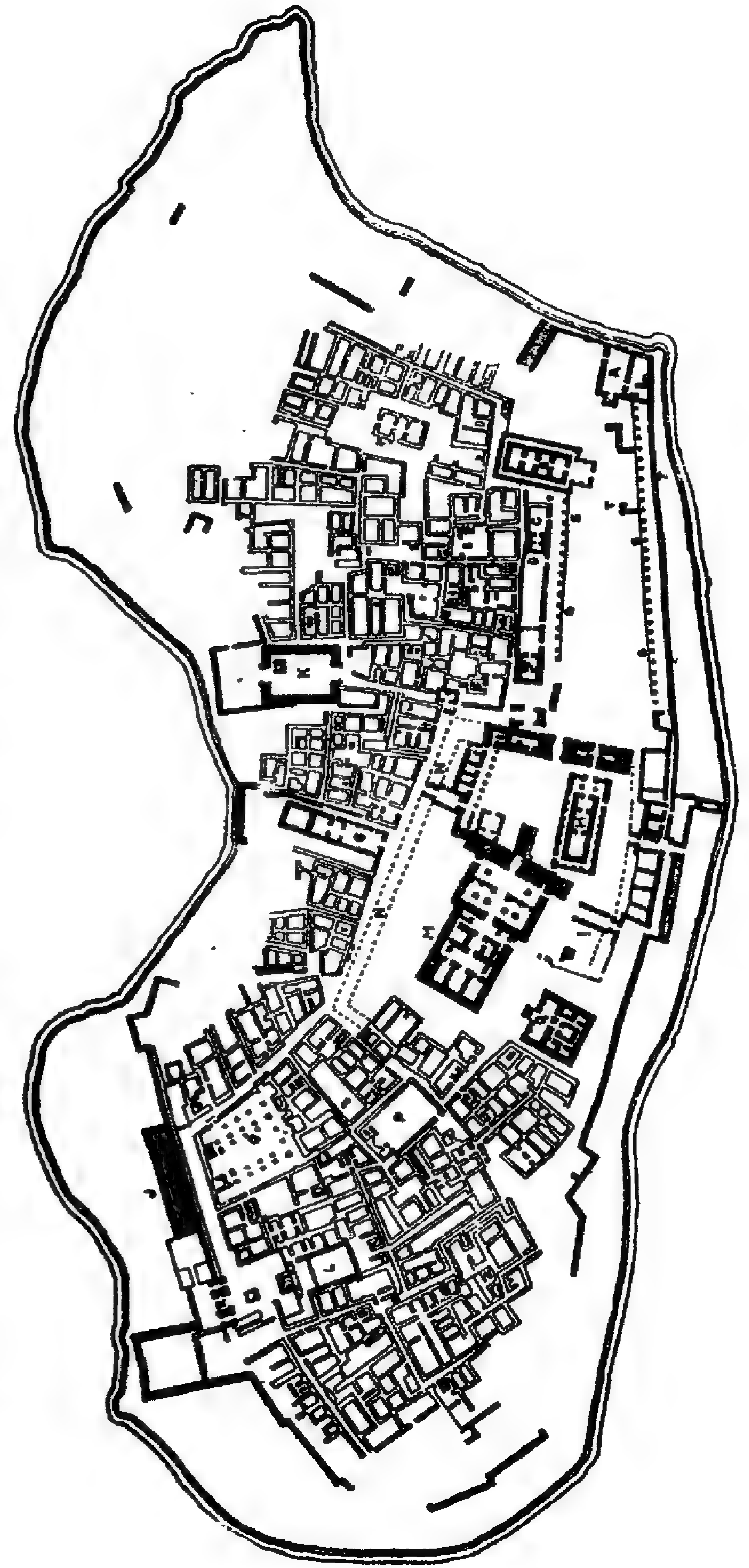
المسح الأثرى الأول

لم يحدث أن استرعت النوبة انتباه المهتمين بالآثار قبل بناء خزان أسوان الأصلى سنة ١٨٩٨ الا قليـــلا ، ويرجع السـبب فى ذلك الى أن مناطق كثيرة من تلك البلاد كانت حينئذ مسرحا لمعارك جيوش المهدى ضد القوى البريطانية والمصرية ، هذا مع أن مصر فى ذلك الوقت كانت تتيح للمنقبين فرص العثور على اكتشافات جديدة بالاضافة الى منح من تحف تضم الى المجموعات الخاصة والمتاحف • فقد كانت الفـكرة السائدة فى تلك الأيام هى اقتناء الآثار وليس دراسة الآثار وتاريخها القديم • ونحن من جانبنا يجب أن نعترف بما جد من حفائر كثيرة كان هدفهـــا الرئيسى اكتشاف قطع فنية لها قيمتها • لذا فالنوبة بتاريخها المجهول لم تكن تجذب المنقبين بالرغم من أن معابدها الضخمة كانت هدفا للزيارة وكانت تثير الاعجاب ، الا أن جباناتها الفقيرة ومدنها المهجورة الغنيـــة بأسرار الماضى كانت مجهولة •

ولقد تغير الموقف بعد تشييد خزان أســـوان ، وبعد ما أعلن أن أساسات عدد من المعابد الكثيرة من بينها معبد فيله ستغمرها ميـــاه الخزان الجديد • فقد كان لهذا النبأ صدى كبير فى أوساط الفنانين والدوائر

الشكل ٤

جزيرة فيلة



A ـ بوابة نكتانبوس

B ـ معبد أرسنوفيس

C ـ المعبد الصغير

D ـ معبد مندوليس

E ـ مقصورة متأخرة

F ـ معبدى اى ـ ام ـ حتب

G ـ معبد حتحور

H ـ بيت الولادة

I ـ بوابة هادريان

J ـ انحدار

K ـ جوسق

L ـ معبد أغطس

M ـ معبد ازيس

N ـ السور الخارجى

O ـ الكنيسة الكبرى

P ـ الكنيسة الصغرى

Q ـ معبد حارندوتس

R ـ بوابة المدينة

S ـ البواكى

T ـ مقاييس النيل

العلمية فى أوربا وأمريكا • وقد ارتفعت أصوات كثيرة تعارض تخريب تلك الآثار القيمة فى صورة خطابات ومطبوعات ومحاضرات ، وبالرغم من أن هذه النداءات المدوية لم تكن تصدر الا من جمهور عصبى الا أنها أدت خدمة جليلة لعلم الآثار •

بعد هذا ركز الاهتمام الأكبر على المحافظة على المعابد بالاضافة الى العناية بدراسة النوبة دراسة أعمق من ذى قبل وقبل فوات الأوان ، وقد بعث وزير الأشغال العامة فرقا من المهندسين لتقوية أساسات المعابد ومنها معبد فيله بصفة خاصة حيث أجريت عدة تنقيبات فى المناطق المجاورة له ، ولقد كان لهذا أهميته الكبيرة نظرا لأن أكثر الأبنية التى تكونت منها المدينة الصغيرة على الجزيرة المقدسة كانت مبنية من اللبن ولم يكتب لهذه الأبنية البقاء حتى بعد أن قل النشع الناتج من الملء المبدئى للخزان ، وقد حالف التوفيق العمل فى الحفائر الا أن نشر النتائج لم يكن كما ينبغى اذ أنها لم تتعد تخطيط المنازل والشوارع يصحبها بعض التفاصيل المعمارية دون ما تسجيل حقيقى للأوانى الفخارية أو الأشياء التى عثر عليها •ولذلك فقد ضاعت معلومات تاريخية قيمة كثيرة ولكنه كان درسا للعلماء حتى انه منذ ذلك الحين أصبحت الأعمال الأثرية فى يد أشخاص تمرنوا وتعلموا ودرسوا علوم الآثار ولم يكونوا من المهندسين أو من رجال المساحة الذين لا يهتمون لهذا النوع من العمل الا عرضا • وهكذا كانت أعمال الصيانة والانقاذ على جزيرة فيله كاملة ومتقنة وكذلك ترميم الأبنية الحجرية تم باتقان لدرجة أنها ما زالت موجودة حتى يومنا هذا وبعد أن تعاقب عليها الغرق والظهور لأكثر من ستين عاما ، وقد كان من المحتم أن تتلف مناظر المعبد الملونة التى تغطى السقف الا اننا يجب أن نسعد لكل ما تبقى حتى يومنا هذا حتى انه يمكننا أن نبعث «فيلة» من جديد ، وحتى تظهر لؤلؤة مصر مرة أخرى ليراها الناس فى الأجيال القادمة فى مكانها وبشكلها الأصلى • وخريطة فيلة (شكل ٤) المأخوذة من المسقط الأصلى الذى وصفه « كابتن ليونز H.G. Lyons, R.E. سنة ١٨٩٣ تظهر لنا المنازل والكنائس الطميية وكذلك المبانى الأخرى التى عثر عليها حينئذ ، والتى ليس لدينا عنها سوى القليل أو لا شىء • فقد تلاشت جميعها بفعل المياه عندما بنى خزان أسوان ، وقد اختفت معها معالم تاريخية وأثرية لها أهمية حيوية كبيرة لدارس تاريخ النوبة المتأخر فى عصر «البليمز» و «النوباد» الذين أتوا ليعبدوا الالهة «ازيس»وليأخذوا تمثالها للزيارة السنوية الى بلادهم فى الجنوب • وما زالت المبانى

الحجرية باقية على الجزيرة الا أننى اعتبر أن ضياع المعلومات التى لا بد انها كانت موجودة فى المبانى الطميية المتواضعة احدى المآسى الكبرى فى السجل الطويل للبحث الأثرى • وعلى أية حال فان النكبة قد اقتصرت على « فيلة » والمناطق المتاخمة لها ، لأن منسوب المياه وراء خزان أسوان الأصلى من حسن الحظ لم يصل الى ارتفاع عال حتى أن الأماكن الهامة والقيمة الى بضعة أميال جنوبا ما زالت موجودة وسليمة •

ان النداءات والدعايات الهستيرية ضد تحطيم « لؤلؤة مصر » وجهت نظر الاثريين والمتخصصين فى الدراسات المصرية القديمة الى النوبة ،خاصة بعد نجاح مشروع الرى الكبير وبعد أن بدأ المهندسون والعلماء يتحدثون عن ضرورة تعلية السد وتوسيع رقعة الخزان ، وهكذا كلما مرت الأشهر أصبحت آثار النوبة مهددة بصورة أكثر وضوحا • ولهذا فقد زار « ماسبيرو» مدير عام مصلحة الآثار ، النوبة حينئذ وكان هذا فى شتاء سنة ١٩٠٤ — ١٩٠٥ وقام بالتفتيش بنفسه على الآثار التى وجدها فى حالة اهمال شديد وعند عودته أمر « أرثور ويجال » الذى كان قد عين فى ذلك الوقت كبير مفتشى الآثار فى الوجه القبلى ، أمره بتفقد آثار النوبة وان يتوغل جنوبا حتى « أبى سمبل » • وعندما أعد « ويجال » تقريره المبدئى للمدير العام ، كانت قد تقررت تعلية خزان أسوان وبهذا فان منسوب مياه الخزان سوف يصل الى ١١٣ مترا فوق سطح البحر • وبذلك ستهدم مناطق أثرية قديمة كثيرة فيما بين الشلال الأول ووادى السبوع • لذلك بعث «ويجال» ثانية الى النوبة سنة ١٩٠٦ ليعد تقريرا أكثر تفصيلا وان يقدر تكاليف حفظ وصيانة المبانى الموجودة وكذلك التنقيب فى المناطق التى يمكن تحديدها من المشاهد السطحية وكان «ويجال» من أكثر الأثريين الشباب لمعانا خاصة وأنه تدرب على يد «بترى» ، والمسح الأثرى للنوبة الذى نشره سنة ١٩٠٧ تحت عنوان A Report on the Antiquities of Lower Nubia أكد حسن الظن به الذى كان فى ذهن رؤسائه عنه ، ولقد سافر مع بعثته فى دهبية على النيل ، وجاب النوبة السفلى على قدميه بطولها ، وعن طريق المشاهدة السطحية فقط حدد أماكن هامة ومتعددة وفى حالات كثيرة قدر تلك الأماكن بالتقويم التاريخى للنوبة ولقد كان لكتاب ويجال بالنسبة لى أهمية كبيرة بعد ٢٢ سنة وذلك عندما أشرفت على المسح الأثرى الثانى ، بل ما زال بعد خمس وخمسين سنة من نشره من أهم المراجع لأية بعثة أثرية تعمل فى النوبة السفلى •

وبعد أن قررت الحكومة المصرية نهائيا تعلية خزان أسوان نظمت وزارة الأشغال العمومية « المسح الأثرى الأول » للنوبة سنة ١٩٠٧ . وقد كان فى هذا المشروع بعض النقاط الغريبة . أولا : كان الاسم يوحى بأن الغرض منه هو مسح وتوقيع أماكن المناطق القديمة لفحصها فى المستقبل بينما كانت مهمته الحقيقية هى الحفر والتسجيل بالتفصيل لكل قطعة أثرية ترجع الى الحضارة القديمة مما يعثر عليها فى الأراضى المهددة وراء السد . وهذا ما حدث فعلا ، وانى أذكر هذه الواقعة كمثل لعنوان خطأ لمشروع يمكن أن يضلل الناس ، لأنه عندما أعيدت مسألة انقاذ وحفظ آثار النوبة قبل بناء السد العالى ، وجدت أن أثريين كثيرين كانوا يجهلون ان المستويات السفلى على شاطىء النيل فى النوبة السفلى قد تم الكشف عنها تماما ، وان المسح الأثرى قد ذهب الى أبعد مما تدل عليه الكلمة . أما النقطة الثانية الغريبة فهى أن المشروع لم يسلم لمصلحة الآثار كما هو الحال بالنسبة للمسح الاثرى الثانى سنة ١٩٢٩ ولكنه بقى تماما تحت اشراف وزارة الأشغال العمومية من الناحية المالية وغير ذلك ، وهذا الترتيب الذى وضع غالبا لأسباب شخصية أو سياسية مازال يسبب مضايقات لرجال الآثار الحاليين الذين يريدون الحصول على التقارير المنشورة عن المسح الأول فلا يستطيعون الحصول عليها بطريق الشراء كما يحصلون على العديد من مقطوعات مصلحة الآثار ، فهذه الكتب ذات الغلاف الأخضر قد أصبح الوصول اليها صعبا . ومع أن التنقيب فى النوبة لم يكن تحت اشراف مصلحة الآثار الا أنها وجهت اليها بعثات منفصلة عن وزارة الأشغال لترميم وتسجيل الآثار الموجودة ، وعن هذا العمل الهام سأكتب فيما بعد .

ولقد وضع تنظيم المسح الأثرى فى أيدى « ليونز » المدير العام لمصلحة المساحة الذى عين الدكتور « جورج ريزنر » على رأس بعثة النوبة . ولقد قيل عن ريزنر الذى كان قد بلغ الأربعين حينئذ أنه « أعظم المنقبين والاثريين الذين أنجبتهم الولايات المتحدة فى أى حقل والحقيقة أن عمله فى النوبة يوضح ان هذا التقديم ليس من قبيل المبالغة » . ولقد حدد ريزنر الغرض من هذا المسح الأثرى كما يلى :

« أقيم المسح الأثرى فى النوبة السفلى أولا بغرض تأكيد قيمة المادة التاريخية المدفونة فى الأرض ومدى انتشارها ، وثانيا لوضع هذه المادة فى متناول اليد لبناء تاريخ النوبة وعلاقاتها مع مصر . والموضوعات التى نأمل أن يلقى عليها الضوء هى : تتابع السلالات واختلاطها بعضها

ببعض وعدد السكان فى العصور المختلفة والأسس الاقتصادية التى عاش عليها هؤلاء الناس وتنوع محاصيلهم وصناعاتهم ودرجة تلك الحضارة • »

وقد كان الأسلوب الذى اتبعه «ريزنر» لتنظيم طريقة الحفر وتسجيل الحفائر فى النوبة من أجل تحقيق برنامجـــه آية فى التصميم الدقيق ـ وبصفة عامة ـ ما زال الأثريون يسترشدون به حتى يومنا هذا عنـــد قيامهم بأى عمل علمي فى هذه المنطقة •

وكم كان «ريزنر» محظوظا لأنه فى هذا الوقت الذى كانت بلاد النوبة مجهولة تماما من الناحية العلمية استطاع أن يعثر على ثلاثة مســـاعدين نابهين هم : «سيسيل فرث» ، «وايلوارد بلاكمان » «وأوريك بيتس» •

وقد احتل هؤلاء الرجال فيما بعد مكانة مرموقة فى علم الآثار المصرية وكان «فيرث» انجليزيا يبلغ من العمر التاسعة والعشرين قد تدرب ليعمل فى المحاكم ولكن زيارة واحدة الى مصر كانت كافية لتجعل منه طالبـــا متحمسا لدراسة الآثار المصرية وحينئذ تلقى تدريبه الأول فى الحفائر على يد السير فليندرز بترى وكان اكتشافه للعمائر الجنائزية العجيبة المحيطة بهرم زوسر فى سقارة هو أعظم أعماله ، بعد سنوات عديدة من المسح الأثرى النوبى • أما «بلاكمان» وهو أيضا انجليزى فقد بدأت صلته بالمسح النوبى فى سن الرابعة والعشرين وكان هذا بعد عمل أكاديمى ممتاز فى أكسفورد وأصبح «بلاكمان» نفسه ثقة فى اللغة والديانة المصرية القديمـة واعترف به كمدرس ذى شهرة عالمية عندما كان أستاذا لعلم الآثار فى جامعة ليفربول وقد أنهى حياته العلمية عضوا فى الأكاديمية البريطانية• واما «أورك بيتس» فكان أمريكيا فى الرابعة والعشرين من عمره عندما عمل مع ريزنر فى النوبة وأصبح فيما بعد أمينـا للآثار الافريقية فى متحف بيبودى فى هـــارفارد ومازال كتـــابه The Eastern Libyans من أهم المراجع فى هذا الموضوع والقريبة الصلة بدراسة الآثار المصرية•

وكان من الطبيعي أن تدرك الحكومة المصرية أن الباحث فى النوبة لا بد له من أن يستعين بدراسة وتسجيلات علماء التشريح وهنا أيضـــا كانت الحكومة المصرية محظوظة فى اختيارها للرجال الذين نيط بهـــم مساعدة ريزنر فى هذا الجزء الحيوى من العمل • وكان بكلية الطب فى القاهرة حينئذ استرالى اسمه « جرافتن اليوت سميث » والذى كان أستاذاً للتشريح وعالما معروفا فى المخ وفى تطور الانسان وعضوا فى الجمعيـــة الملكية أيضا • وافق «اليوت سميث» على أن يشرف على هذا الجزء من العمل

وعاونه في ذلك أولا : الدكتور «وود جونس» والدكتور «دجلس درى» بعد ذلك • ومنذ ذلك الحين لم نجد أية بعثة أثرية كان لها مثل هذه القدرة على دراسة بقايا البشر التى يعثر عليها أثناء التنقيب في الجبانات العديدة وقد خلف «اليوت سميث» كأستاذ للتشريح بجامعة القاهرة الدكتور «درى» الذى أصبح أكبر مرجع فى التحنيط بعد الفترة التى شغل فيها ذلك المنصب • وأهم ما اشتهر به فى حياته العلمية هو أنه قد عهد اليه فحص مومياء الملك « توت عنخ آمون » سنة ١٩٢٣ •

هؤلاء هم الرجال الذين وضعوا أسس علم آثار النوبة من ناحية الأسلوب والممارسة وقد حالفهم النجاح فى تفسير الحقائق التى جمعت خلال حفائر عامي ١٩٠٧ و ١٩٠٨ •

وقد كان هذا كله تحت الاشراف الكامل لجورج ريزنر • وعلى الرغم من أن بعض استنتاجاتهم قد عدلت بل استبعدت احيانا الا أن النتيجة الأساسية لأبحاثهم وخاصة تلك التى تناقش التقويم والسلالات النوبية لم تتغير حتى يومنا هذا •

ولا بد من أن الموسم الأول الذى استغرق أكثر من ستة شهور في شتاء ١٩٠٧ كان أكثر صعوبة من المواسم التالية وهذا لأن تركيز المواقع القديمة والجبانات كان أكثر تجمعا فى المنطقة التى تقع جنوبى الشلال الأول والمتاخمة لفيله • وقد نقبت باستفاضة أكثر من خمسين جبانة وبالرغم من أن هذه الجبانات تقع على ضفتى النهر وعلى الجزر المتناثرة فى الشلال فقد كان نقل مائة وتسعين عاملا من موقع الى آخر احدى المعضلات التى لا يمكن أن يقابلها ويتغلب عليها الا رجل له قدرة ومهارة «ريزنر» • بل وبعد مرور سنوات طويلة عندما كنت على وشك الرحيل للمسح الأثرى الثاني يصف كبير مساعدى «ريزنر» وهو «فرث» ، شهرى أكتوبر ونوفمبر من عام ١٩٠٧ بأنهما كانا أشبه بكابوس اذ تحتم نقل مخيم العمال كل بضعة أيام من مكان الى آخر وتغيير مكان الدهبيات التى كان يسكنها أعضاء البعثة الأثرية والبعثة التشريحية بجرها من شاطىء الى آخر ومن جزيرة الى أخرى فى مواجهة التيار القوى • وعندما أتذكر بعض متاعبى ، وهى اذا قورنت بغيرها اعتبرت بسيطة ، فانى أتساءل أحيانا كيف

استطاعوا أن يتموا عملهم ؟ ان الجزء التالى من يوميات «ريزنر» يعطينا فكرة عن المجهودات غير المنتظمة للرحلة التنقيبية الأولى فى النوبة •

« يناير ٣٠ ـ ٣١ كل الفرقة فى الجبانة رقم ٢٥

« فبراير ١٣ خمس فرق مزدوجة من العمال على الشاطىء الشرقى ـ لتنظيف الجبانات ٢٠ و ٢١ و ٢٩ ست فرق مزدوجة على الشاطىء الغربى لتنظيف الجبانات ٢٧ و ٢٨ و ٣١ و ٣٢ و ٣٣

فبراير ٣ ـ مخيم الرجال ينقسم وينقل الى برين لفرقة الشاطىء الشرقى وخرطوم لفرقة الشاطىء الغربى •

فبراير ٤ ـ ٥ فرقة الضفة الشرقيـــة تفحص كل المنحدرات بين « خور منات » و « برين » •

فبراير ٤ ـ ١١ فرقة الضفة الغربية فى جبانات ٣٤ و ٣٥ و ٣٦

فبراير ٦ نقل مخيمنا الى وادى قمر حيث سجلت جبانات ٣٠ و ٣٦

فبراير ٦ ـ ١٠ فرقة الضفة الشرقية فى جبانة ٣٠

فبراير ١٠ فرقة الضفة الشرقية انتقلت جنوبا الى سيالى فاحصين الارض فى الطريق •

وانتهت أعمال الموسم الأول للمسح الاثرى حوالى ٢٩ مارس ١٩٠٨ ورجع أعضاء البعثة الى القاهرة لتحليل وترتيب نتائج بحوثهم واعدادها للنشر • فقد غطيت المنطقة كلها جنوبى قرية شلال حتى جينارى وعثر على جبانات ومواقع سكنية من كل عصور التاريخ النوبى حتى انه قد تم وضع قواعد وأسس ثابتة لكل بحوث المستقبل فى هذا الجزء من وادى النيل •

ومع بداية الموسم الثانى للتخطيط الاثرى فى أول أكتوبر ١٩٠٨ تغير بعض أعضاء البعثة • فلقـــد ارتبط الأستاذ « اليوت سميث » والدكتور « وود جونس » بمجال انثروبولوجى آخر الأمر الذى أرغمهـا على الاستقالة

وبذلك أصبح الدكتور « دوجلاس ديرى » هو المشرف على الأبحاث من ناحية التشريح . أما «ريزنر» نفسه فاضطر الى أن يقضى الجزء الأول من الموسم فى القاهرة ولذلك كانت البعثة تحت اشراف «سيسل فرث» لمدة طويلة ومع ان الحفائر كشفت عددا كبيرا من الجبانات من كل عصر تقريبا الا أن العمل البارز كان الكشف عن القلعة المبنية من اللبن فى «ايكور» والتى كانت أقصى نقطة وصل اليها المسح جنوبا عندما انهت البعثة عملها فى مارس ١٩٠٩ وقد كانت قلعة «ايكور» ذات شهرة كبيرة منذ زمن طويل ذلك لأن المسافر لا بد من أن يرى جدرانها الضخمة فمنظرها الضخم الجبار كان يبدو كأنه يبرز من الأفق على الضفة الغربية شمالى الدكة . ومع ان علماء الآثار قد زاروا هذه القلعة عدة مرات الا أنها لم تفحص معماريا باسهاب وقد كشف التنقيب عن وجود نوعين من الحصون المستطيلة الشكل اما النوع الداخلى والاقدم فيتكون من حفر ضيقة تخرج منها أبراج مستديرة تشبه تلك التى كشف عنها فى «كوبان» و «عنيبه» و «بوهن» . أما حوائط الجزء الأحدث فكانت تتكون من جدران عالية مربعة تعلوها أبراج مربعة بنيت على واجهة المبنى غالبا كالتى عثر عليها فى بوهن . وكانت قلعة « ايكور » أولى الحصون التى فحصت بالتفصيل ولقلة المعلومات عن الحفائر التى أقيمت فيما بعد فقد توصل المنقبون الى النتائج غير الصحيحة القائلة بأن العمائر الاقدم بأبراجها المستديرة ترجع الى عصر المجموعة الاولى من تاريخ النوبة بينما تعتبر العمائر الجديدة من أعمال المصريين المنتصرين فى الاسرة ١٢ ولكن الحفائر التى أقيمت فى كوبان أثناء المسح الاثرى الثانى أظهرت أن الابنية كلها قد شيدت فى الغالب فى عهد الدولة الوسطى ، الأولى من عصر سنوسرت الأول والثانية من عصر سنوسرت الثالث .

أما فى الموسم الثالث للمسح الأثرى (١٩٠٩ — ١٩١٠) فكان «سيسل فرث» هو المسئول الوحيد عن العمل والنشر يعاونه مصرى واحد لأن « ريزنر » تسلم البعثة التنقيبية فى فلسطين التابعة للقسم السامى فى جامعة هارفارد» وكان «اليوت سميث» قد ترك مصر ليتسلم كرسى التشريح فى مانشستر وخلفه دوجلاس ديرى فى جامعة القاهرة ومع ذلك وجد ديرى الوقت الكافى ليشرف على العمل التشريحى الآتى من النوبة . ولقد تركز الجزء الأهم من العمل أثناء الموسم الثالث للمسح الاثرى (١٠ — ١٩٠٩)

حول منطقـــة « الدكة » (بســـلكيس القديمة) التى كانت من أكثـر المناطق سكانا فى وادى النيل الأعلى طوال التاريخ · وكانت المقـــابر الكبيرة عبارة عن تكرار لما عثر عليه شمالا ولكن فحص المنطقة فى الضفة الغربية للنهر شمال المعبد أظهر مادة مشوقة وهامة · فلقد عثر بجوار بقايا مبنى صغير من اللبن لا يبعد عن المعبد على أوان رومانية كثيرة منها عدد كبير من الأوانى مغطاة بطبقة من الخزف الازرق الجميل ويرجح ان هذه الأوانى استعملت للنبيذ وان المبنى كان يستعمله جنود الفرقة العسكرية المقيمة على مقربة منه أو الاحتمال الآخر فهو انها كانت منزلا للجمرك توضع فيه البضائع ·

وحول المعبد عثر على أساسات لمبني لم يكمل وبقايا بسور خارجى للمعبد نفسه ولكن من الناحية المعمارية كان أهم اكتشاف هو المخيـــم المحصن للفرقة الرومانية التى كانت تحمى المعبد من ناحيتيه الجنوبيـــة والغربية · ولقد بينت الأدلة أن هذا الحصن كان يستعمل ما بين عـــامى ١٠٠ و٢٥٠ م وعلى ذلك فانه قد بنى فى الغالب كجزء من نظام الدفاع عن هذا المركز المهـم ضـد « المرويين » و « البليمز » فى تلك الأيام العسـيرة قبل أن ترجع الحدود الى الشلال الأول فى عصر « ديو كليســـان » ســـنة ٢٩٧ م · حقا ان علامات النار على اللبن وعلى الغطاء القوى للباب الخشبى فى البوابة الغربية تدل على أن الحصن قد اقتحم وسلب فى أواخر أيامه ·

أما الموسم الأخير للمسح الاثرى الأول (١١ ــ ١٩١٠) فقد تم فى ظل متاعب كثيرة لأسباب متعددة منها مثلا أن الأعضاء أصبحوا لا يتجاوزون أكثر من اثنين هما«سيسل فرث»ومساعد آخر مصرى، فكيف استطاع«فرث» أن يعمل وحده دون مساعدة متخصص فى التشريح وكيف نجح فى انهـاء عمله العظيم الشاق فى حفر شاطىء النيل بين «الدكة» و «وادى السبوع» هذا ما يصعب علينا فهمه ومن ثم فلا عجب انه لم يستطع نشر نتائج عمله الا فى عام ١٩٢٧ · وهو يعلق على ذلك فى مقدمة كتابه فيذكر انه كان من المحتم عليه أن يغير أجزاء من الخطة الاصلية ولكن لا وجود للتغيير فى التقارير المفصلة والاخيرة لهذا العمل الجبار فى منطقة غمرتها المياه مابين سنة ١٩٠٧ و ١٩١١ وهى التى تقع بين الشلال و «وادى السبوع» وبالرغم من العمل الشاق القيم الذى استمر طوال هذه المواسم الأربعة لم تظهر الحفائر عن اكتشاف باهر ومع ذلك فان تتابع التاريخ الحضارى النوبى أصبح ثابتا ومدعما بأدلة تقوم على التأثيرات المصرية فى حضارة هـــذه المنطقة : وتتابع هذه العصور يمكن ذكرها كالآتى :

النـــوبة	مصر	ق • م
عصر ما قبل الأسرات المبكر	عصر ما قبل الأسرات المبكر (التاريخ المتتابع ٣٠ ــ ٣٩)	٤٠٠٠ ــ ٣٦٠٠
عصر ما قبل الأسرات	عصر ما قبل الأسرات الأوسط (التاريخ المتتابع ٤٠ ــ ٥٢)	٣٦٠٠ ــ ٣٤٠٠
عصر ما قبل الأسرات المتأخر	عصر ما قبل الأسرات المتأخر (التاريخ المتتابع ٥٣ ــ ٧٩)	٣٤٠٠ ــ ٣٢٠٠
المجموعة الأولى	العصر التاريخى المبـــكر من الأسرات الأولى الى الثالثـــة	٣٢٠٠ ــ ٢٦٨٠
المجموعة الثانية	الدولة القـديمة من الأسرات الرابعة الى السادسة	٢٦٨٠ ــ ٢٢٥٨
	عصر الاضـــمحلال الأول من الأسرات السابعة الى الحادية عشرة	٢٥٥٢ ــ ٢٢٥٨
المجموعة الثالثة	الدولة الوسطى من الأسرات الحادية عشرة الى الثانية عشرة	١٧٨٦ ــ ٢٠٥٢
	عصر الاضمحلال الثـانى من الأسرات الثالثـــة عشرة الى السابعة عشرة	١٦٠٠ ــ ١٧٨٦
المجموعة الرابعة	الدولة الحديثـة من الأسرات الثامنة عشرة الى العشرين	١٠٨٥ ــ ١٦٠٠
عصر نباتا	العصر المتـــأخر من الأسرات العشرين الى الثلاثين	٣٣٢ ــ ١٠٨٥
مرويتى ــ بطلمى	بطلمى ــ الأسرة بطلمية	٣٠ ــ ٣٣٢
مرويتى (س)		٣٢٤ ــ ٣٠
المجموعة الرومانية	رومانى ــ اقليم رومانى	٥٦٥ ــ ٣٢٤
العصر البيزنطى (س)	العصر البيزنطى	٣٢٤٠ ــ ٥٦٥

وبينما كان العمل فى حفائر المسح الأثرى الاول يسير قدما تحت اشراف مصلحة المساحة كانت مصلحة الآثار أيضا تعمل بهمة فى المناطق النوبية المهددة والى الجنوب من هذه المناطق أيضا وبعد فحص عـام للآثار الموجودة نظم السير «جاستون ماسبيرو» المدير العام مجموعة من الاثريين مكونة من الفرنسى «هنرى جوتييه» والالمانى «جونتر رودر» والانجليزى «ايلوارد» «بلاكمان» لتخطيط ونقل النقوش التى على المعابد ولقد نشرت هذه النقوش فيما بعد فى مجموعة من الكتب الرائعة المتعددة الاجزاء تحت اسم عام هو Les Temples immergés de la Nubie أما «بلاكمان» الذى كان قد ترك عمله فى المسح الاثرى بعد موسمه الأول سنة ١٩٠٩ فانه قد عمل فى معابد «دندور» و «الدر» و «بيجة» • وأنهى عمله الذى كان يمارسه فى جو شديد الحرارة بعد وقت قصير لا يتجاوز خمسة أشهر وذلك فى مايو سنة ١٩١٠ ونشر النتائج فى ثلاثة أجزاء :

The Temple of Dendur (1911)
The Temple of Derr (1913)
The Temple of Bigeh (1915)

أما « جوتييه » فنشر تسجيلاته لمعبد « كلابشه » بين سنة ١٩١١ و ١٩١٤ ومعبد « وادى السـبوع » سنة ١٩١٢ ومعبد « عمـدا » سـنة ١٩١٣ أما معـابد « دبود » و « دكة » فنشرا ما بين عامى سنة ١٩١١ و ١٩١٣ •

ان علم الآثار يدين بالكثير لهؤلاء العلماء الذين أتموا عملهم دون أن تكون هناك أية تسهيلات أو معدات كتلك التى نجدها تحت تصرفنا الآن• واذا كان البعض يرى من الواجب اعادة تسجيل واعادة فحص بعض هذه الآثار فان هذا القرار قد جاء من أجل تحسين وتسجيل النصوص الصعبة فحسب بوساطة المعرفة أو التكنولوجيا الحديثة التى لم يكن من المستطاع من قبل أن يستعان بها وهذا قبل أن تزول هذه الآثار تماما •

الفصل الثانى

المسح الأثرى الثانى

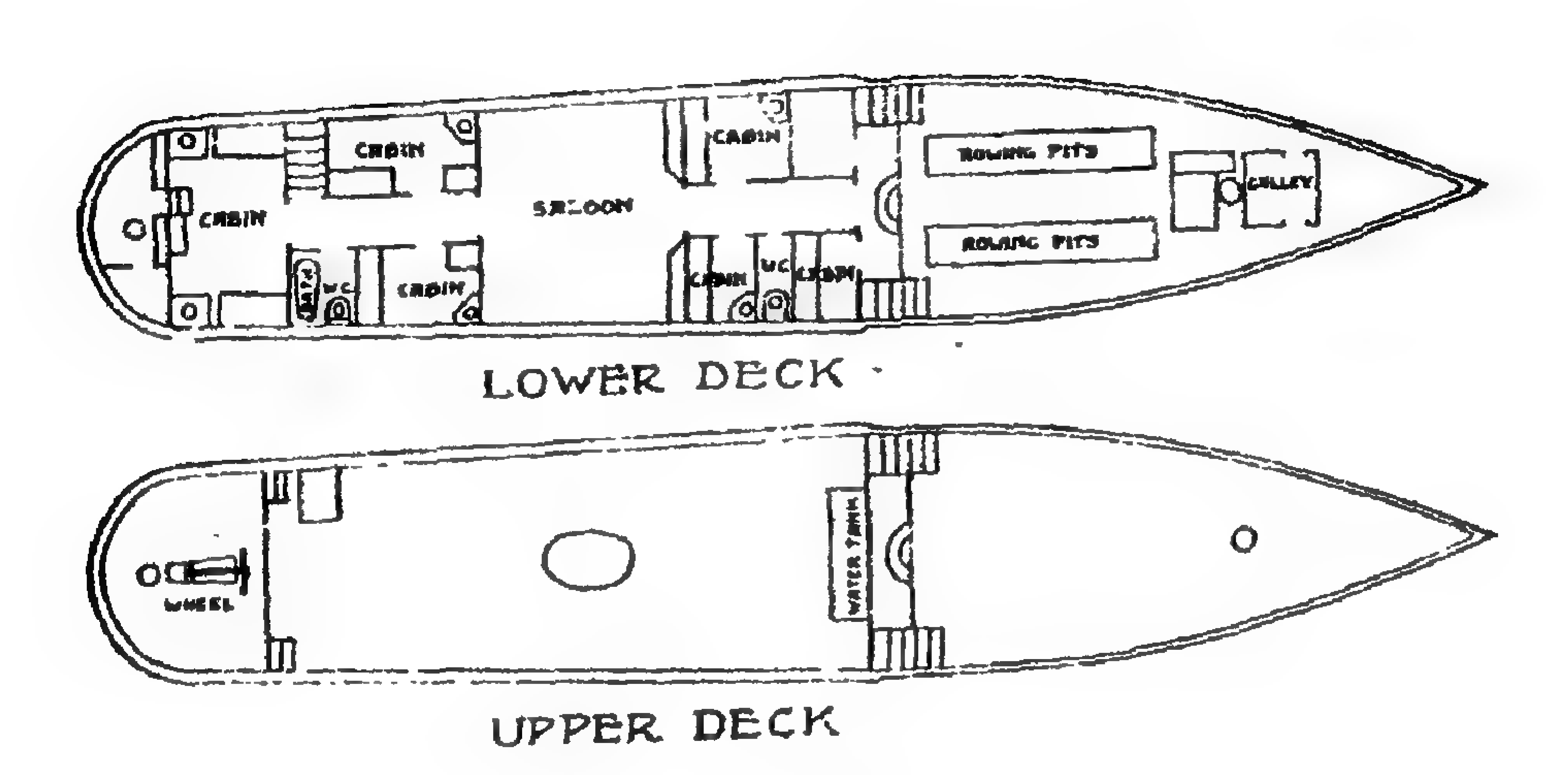
تمنى علماء الآثار أن تمتد الحفـــائر الى منطقة الشـــلال الثـانى بعد نجاحهم فى تجربتهم الأولى وقيامهم بحفائر منظمة فى تلك المنطقـــة الواسعة وذلك على الرغم من أن المنسوب الجديد للمياه خلف خزان أسوان لم يصل الى أبعد من «وادى السبوع» ولكن حكومة القاهرة فى ذلك الوقت كانت قد رفضت اعطاء أى قروض مالية أخرى لأن المنطقة الواقعة جنوبى «وادى السبوع» كانت فى مأمن من مياه النيل الغامرة ٠ كما ألغيت طلبات الحفائر الأثرية بانتهاء العمل فى خزان أسوان وتم بذلك مسح تلك الاراضى فى مارس عام ١٩١١ ولقد أظهر المسح قيمة تلك الآثار كما استرعى انتباه المعاهد الأثرية وخاصة الأجنبية منها الى القيمة التاريخية لهذه المنطقة من وادى النيل ٠ وكانت النتيجة أن قامت حفائر أخرى مستقلة عن الحكومة فى مناطق متفرقة ٠

وفى نهاية المسح ، لم يتجه نظر الاثريين نحو النوبة فقط وانما تنبه تجار الآثار فى الأقصر الى وجود مصادر لمواد قيمة لأسواقهم التى كانت مشغولة حينئذ بسد مطالب المتاحف المتكاثرة وطلبات جـــامعى التحف والسائحين وفعلا أرسلت مجموعات من المنقبين غير الشرعيين الى الجنـــوب

حيث استطاعوا تجميع ما أرادوا دون خوف من تدخل مفتش الآثار ومن الصعب حراسة الأماكن الأثرية الموجودة فى مناطق شاسعة غير آهلة بالسكان حراسة دقيقة • ولقد تم القبض على كثير من التجار الا ان معظمهم استطاعوا الهرب من القانون وعادوا الى الاقصر محملين بتحف ثمينة تعد مفقودة من الناحية التاريخية نظرا لعدم تسجيلها ولعل فى ذلك درسا يجب كل مشتغل فى حقل الآثار أن يعيه • فالمنقب يجب أن يتم عمله ، وألا يترك شيئا دون تسجيل ، ذلك أنه يلفت باكتشافه أنظار التجار • ويعطى الفرصة اذا ما ترك منطقة مكتشفة دون أن يتم عمله فيها ، للكثير من اللصوص الذين يتحينون دائما تلك الفرص لنهب الآثار •

وانني لا أود أن أقول هنا بأن كل المنطقة التى تركها المسح الأول دون اكتشاف قد وقعت تحت سطوة هؤلاء اللصوص ولكن لا شك فى أن بعضها قد نهب وهى التى كانت أكثر جاذبية من غيرها• ان العلم الذى ضاع لم يكن معروفا وربما كان ذى أهمية ومن ناحية أخرى فان الادلة الحيوية المرتبطة بمظاهر غير معروفة فى التاريخ النوبى قد ضاعت ولن نعثر عليها ثانية •

ونتيجة لقرار الحكومة المصرية سنة ١٩٢٩ بتعلية خزان أسوان وما يترتب عليه من اغراق بقية منطقة النوبة حتى الحدود السودانية وجه نداء الى مصلحة الآثار لتنظم مسحا أثريا ثانيا • وكنت حينئذ أدير بعثة « موند » للحفائر التابعة لجامعة ليفربول فى الاقصر وارمنت حيث عثرنا على مقابر الثيران المقدسة والتى كانت على شكل سراديب تشبه السرابيوم المشهور فى سقارة وكان هذا الاكتشاف أكبر مما تتحمله بعثتنا ماديا ومن ثم أخذت « الجمعية المصرية للتنقيب » الحفائر وعينتنى مستشارا للعالم الراحل الدكتور فرانكفورت الذى كان مديرا لهم فى حقل التنقيب وفى عام ١٩٢٩ اعتزل فرانكفورت العمل وطلبت منى الجمعية المصرية للتنقيب أن أعمل مكانه • وكان من الطبيعى أن يجتذب هذا المكان اهتمامى بوصفى المكتشف الأول للسرداب Bucheum وكنت مهتما بالموقع وكنت أتشوق لاكمال هذا العمل • ولكن قبل أن يبت فى أى قرار بهذا الشأن عينتنى مصلحة الاثار فى منصب مدير المسح الاثرى فى النوبة • وبعد فترة تردد قصيرة وبشىء من الخوف ، ودعت « ارمنت » وتأهبت للنوبة المجهولة ، ذلك الجزء من وادى النيل الذى لم أكن أعرفه الا من خلال الكتب فحسب. وكانت هذه هى الحالة نفسها بالنسبة لبقية أعضاء البعثة المرافقين لى ومعظم المائة والخمسين من العمال المصريين الذى رافقونا • وكان من حسن حظى ان « سيسل فرث » ، الذى أشرف



الشكل ٥

الدهبية « زينة النيل »

طولها ١١٢ قدم وعرضها ١٩ قدم

الطابق السفلى

الطابق العلوى

على أكبر جزء من المسح الأول كان معى يتصححنى ويكاد يكون أبا للبعثة كلها وكان «فرث» مشغولا جدا فى حفرياته المهمة فى سقارة حينئذ ومع ذلك فلم يمانع فى قطع عمله ليسهر على نداء القلب الذى كثيرا ما كنا نوجهه اليه خاصة فى اول أيام تنقيباتنا .

وكم كنت أيضا سعيد الحظ مع أفراد البعثة الذين كانوا قليلى الخبرة مثلى ومع ذلك نظموا أنفسهم واعتادوا الحياة فى النوبة . كما عين «كروان» (١) مساعدا للمدير . وقام على مساعدتى بمهارة وقدرة كل من : نجيب مكرم الله ، عبد الباقى ، وعبد المنعم الحاصلين على درجة الدبلوم من جامعة القاهرة وبعد ثلاث سنوات اضطر مكرم الله أن يتركنا ليأخذ أعباء أخرى فى مصلحة الاثار وخلفه زكى يوسف سعد الذى حضر معنا الاكتشافات العظيمة فى بلانه وقسطل أما بقية الأعضاء فهم الدكتور أحمد البطراوى للتشريح ومحمد حسنى مهندس مساحة ومحمد حسنين كاتب أعمال . وهناك عضو مهم جدا ولكنه عضو غير رسمى انه زوجتى التى تولت الاشراف العام على ادارة الإمدادات التموينية وكانت هذه المهمة تعتبر منذ ثلاثين سنة مضت وظيفة صعبة فى النوبة اذ كان محصول النوبة السفلى حينئذ أقل من يومنا هذا وحتى اليوم لا تكفى منتجاتها لسد حاجة سكانها من الطعام . على أية حال فقد عوضتنا الراحة التى وجدناها فى أماكن السكن عن أنواع الغذاء الرديئة المتكررة المملة وقد إضطرتنا الظروف لأن نجعل اقامتنا فى دهبيتين كبيرتين كما كان الامر فى المسح الأول نظرا لأن كل المناطق التى كنا سنقوم بالكشف عنها فيما بين «وادى السبوع» والحدود السودانية كانت تقع على النهر وكان لا بد لنا من سرعة التحرك ، فاستأجرنا هاتين الدهبيتين لوازمهما من شركة « توماس كوك . وقد هيأت السفينتان زينة النيل والتيمز » سبل الراحة الوفيرة لكل الموظفين علاوة على وجود المكان الكافى بها لاستيعاب حجرة للرسم وأخرى مظلمة للتصوير وتسهيلات لتنظيف وتخزين الآثار . وهذا وصف مكتوب عندنا لزينة النيل التى كنا نعيش فوقها وهو يعطينا فكرة عن الراحة التى توفرها مثل هذه السفن للمنقب عن الآثار . (شكل ٥)

« قاعها الحديدى مسطح وضحل ، يبلغ طوله ١١٢ قدما ، وعرضه ١٩ قدما ، والصارى الرئيسى مقام بجانب مقدمة السفينة . ويبلغ طول الشراع الرئيسى ١٣٠ قدما ، والشراع المساعد ٦٠ قدما ، وهما من الطراز المثلث الشكل . ويمكن دفع السفينة فى الجو الهادىء بواسطة مجاديف كبيرة

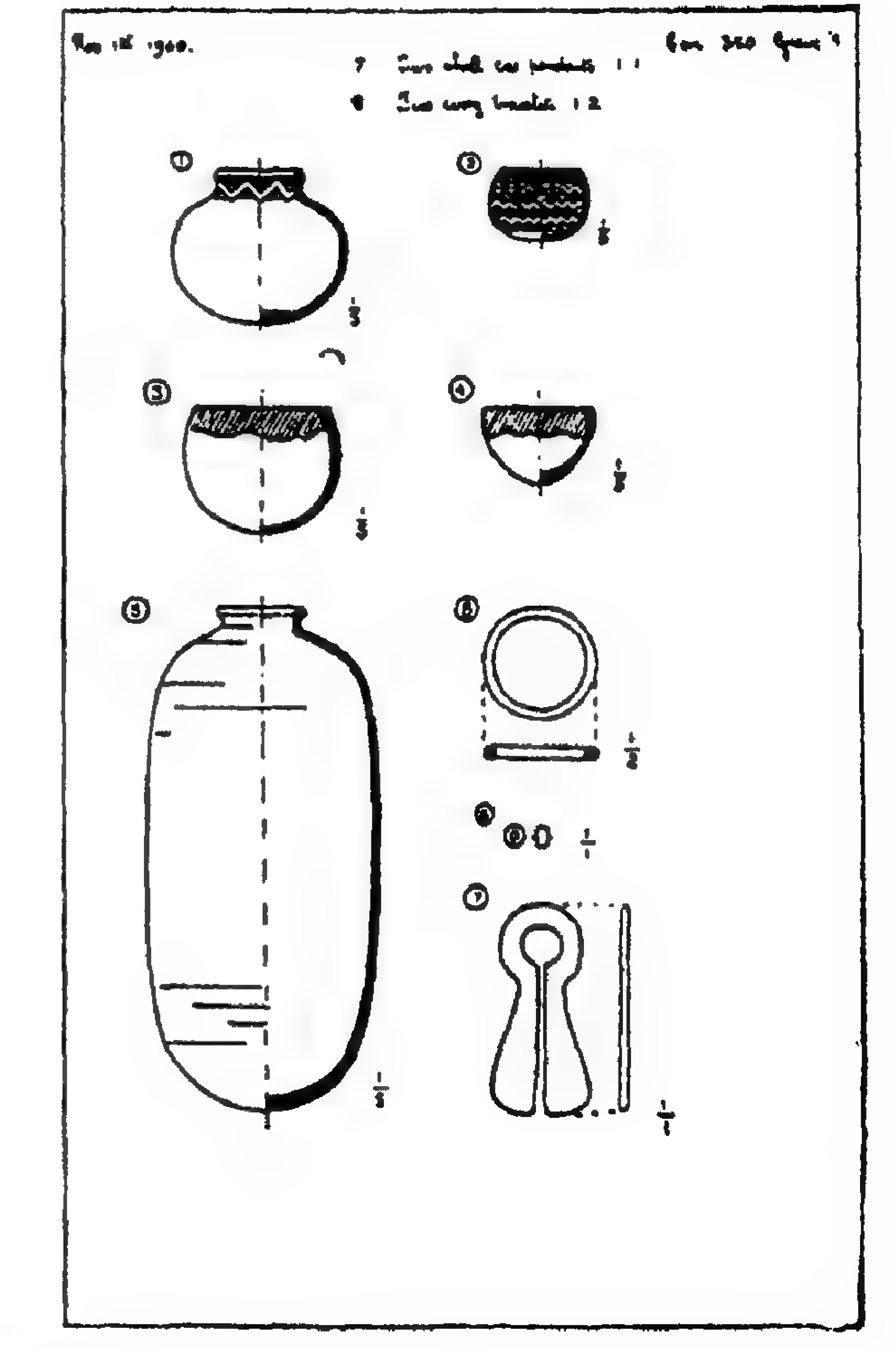
(١) وهو الآن مدير الجمعية الجغرافية الملكية .

طولها ٣٠ قدما ، وتحرك من فتحات التجـــديف فى مؤخرة السفينــــة ، وعلى جانبها مخازن يستعملهـــا طاقـم السفينـــة الذى لا يزيد على ١٤ رجلا • أما حجرات الركاب فتشغل الجزء المتبقى من السفينة ويتكون من صالة وقمرة كبيرة لشخصين وأربعة قمرات كل منها لشخص واحد ودورتين للمياه وحمام وحجرة للخدم ومكان لحفظ المأكولات وعلى جانبى المدخل المؤدى الى قمرات الركاب نجد سلمين يوصلان الى الدور العلوى ويوجد مطبخ أمام مقدمة المركب بعيدا عن منطقة السكن • وبكل قمرة مياه جارية تضخ من النهر وتمر على نظام ترشيح محكم ثم تخزن فى خزانات فى الدور العلوى » •

وهكذا أقلعنا فى أوائل شهر أكتوبر ١٩٢٩ فى هذه السفن المريحة بقصد عملية المسح الأثرى الثانى متجهين نحو وادى السبوع ، أى عند حدود المسح الأول الذى انتهى منه «فرث» عام ١٩١١ والى جانب الدهبيتين اصطحبنا عددا من المراكب الصغيرة من بينها زورق بخارى خصص لاستعمال المساح ومساعديه وصندل وبعض المراكب الشراعية التى كانت تحمل الخيام وأمتعة العمال الذين يتبعوننا على سفينة بخارية نهرية كانت توصلهم الى نقطة بداية العمل •

وكان هؤلاء الرجال البارعون فى الحفائر كلهم من المصريين اذ لا يوجد عمال محليون فى النوبة السفلى ولقد كان علينا نقل خبزهم أيضا فهـــو أهم جزء فى غذائهم وان المرء ليعجب حقا لكمية الخبز التى يأكلها مائـة وخمسون رجلا فى ستة شهور وقد قامت زوجات العمال فى مصر بصنع هذا الخبز • وبعد أن يجفف حتى يصبح صلبا كالحجر يوضع فى أكياس ويعد للسفر وعند احتياج المستهلك له يغمسه فى الماء فيصبح صالحـــا للأكل •

وأخيرا، وبعد أخطاء كثيرة وما يمكن أن نعده من قبل المعجزات وصلنا الى «وادى السبوع» وأصبحنا مستعدين لبدء العمل ووضعنا الخطط لثلاثة مواسم عمل مختلفة لأشهر الشتاء الستة لسنوات ١٩٢٩ و ١٩٣٠ و ١٩٣١ آخذين فى الاعتبار امكان التنقيب عن كل ما تبقى من النوبة السفلى متجهين جنوبا حتى حدود السودان عند ادندان • وهذا النوع من العمل لا يمكن أن يتم أثناء الصيف بسبب شدة الحرارة التى تصل أحيانا الى (١٢٠) درجة فهرنهايت • وعلى أية حال كان علينا قضاء جزء كبير من الصيف فى المتحف فى القاهرة حتى نستطيع تنظيف وفحص القطع الأثرية التى تم الكشف عنها ثـــم اعداد اللازم لنشرها وقد منحتنا الحكومة المصرية ثلاثة وثلاثين ألف جنيه للصرف على هذه الأعمال التى كانت ستستغرق ثلاث سنوات بما فى ذلك



الشكل ٦ - نماذج لبطاقات تسجيل المقابر

بيانات عما عثر عليه داخل المقبرة

الجبانة ٣٥٠ (١ نوفمبر ١٩٦٠)

٧ ـ قرطان من القواقع ١ر١

٨ ـ اسورتان من العاج ١ر٢

الجزء الحجرى المستدير الذى يعلو سطح الارض :

الحشو رمل ودبش

المقبرة : لم تنهب ـ الحشو رمال نظيفة ـ لا اثر للسقف

الدفنة : انثى بالغة ـ بقايا نقبة جلدية ، وسادة من التبن تحت الراس

الاشياء الموجودة خارج المقبرة :

١ ـ فخار احمر اشعث ذو زخارف	١ر٥
٢ ـ فخار اسود ذو زخارف محفورة	١ر٥
٣ ـ فخار احمر ذو فوهة سوداء	١ر٨
٤ ـ فخار احمر ذو فوهة سوداء	١ر٥
٥ ـ اوان كبيرة صفراء	١٠٥
٦ ـ قلادة من حبات قشانى زرقاء من نوع ٧٨	١ر١

تكاليف النشر • ويبدو هذا مبلغا تافهـا اذا قارناه بما نصرفه فى الحملة الحالية للتنقيب فى النوبة • الا أن أسعار الحاجيات كانت تختلف تماما فى ذلك الوقت عما هى عليه الآن ، ومع أنه قد قابلتنا بعض الازمات المالية ، الا أن المبلغ كان كافيا فى نهاية الامر •

ولنرجع الى عملنا الذى بدأناه فى جبانة كبيرة ترجع مقابرها الى عصر الدولة الحديثة والعصر المروى وقد أعطتنا نتائج البحث والتنقيب شجاعة كنا فى أشد الحاجة اليها فى ذلك الوقت • اذ كان المسح فى النوبة مختلفا جدا عن تجاربى الماضية فى مصر ، حيث لا يشعر المرء فى ذلك الموقع بقلق من ناحية الوقت • أما هنا فقد كان المسح يقتضى أن أحدد بسرعـة الجزء الذى يجب ازالته والحصول على أكبر قيمة علمية فنية والوقت اللازم لازالة عدد بعينه من مقابر كل عصر ، ثم ارسال مجموعة المنقبين الى الموقع التالى ثم تحديد الوقت اللازم لعمليات التصوير والمسح وتنظيم التحـاق المجموعة الاخرى بنا فى المنطقة التالية •• وهكذا فبالنسبة للمبتدىء قد يصبح العمل فى النوبة كابوسا ثقيلا اذ يقع الانسان تحت تهديد دائم بأن الذى يفقده الآن لن يسترده أبدا وينتابه الاحساس بأن الوقت لن يعطيه الفرصة للاطمئنان على عمله •

ومن حسن الحظ أن « سيسل فرث » قد أعطانا قبل أن نترك القاهرة بعض أوراق مكتوبة عن موضوع سماه The Nubian Body Snatcher's Vade Mecum وقد احتوت هذه الأوراق على تقرير مفصل عن طريق ريزنر فى التسجيل أثناء المسح النوبى الأول • وبطبيعة الحال فقد اتبعنا الأسـلوب نفسه ووجدت بعـد تجربة طويلة أن بعض التغيير والاضافة ضرورى اذ أن هذا هو الطريق العملى الوحيد لحفر جبـانات عندما تكون البعثة دائمة التنقل وحتى لا يضيع الوقت عبثا •

وتزودت ، بناء على طلب اليونسكو ، بصورة من هـذه الطريقة ، والتغييرات التى اعتبرتها أكثر صلاحية فيما بين سنة ١٩٢٩ وسنة ١٩٣٤، وربما كان من المهم لبعض قرائى أن أستعرض معهم هذه الطريقة هنا ، فقد اخترت جبانة من المجموعة الثالثة الوسطى حتى أستطيع عرض هذا الوصف فى شكل مبسط • ويمكن تطبيق هـذه الطريقة نفسها ، مع التغييرات اللازمة على جبانات من عصور مختلفة فى النوبة •

التسجيل فى موقع العمل (الشكل ٦)

١ ــ عندما يكشف عن موقع الجبانة تنظف المنطقة حتى المستوى الأصلي للارض ويكشف بذلك عن جزء المقبرة الذى يعلو سطح الارض ان وجد أو الجزء العلوى لبئر المقبرة وأثناء هذه العملية تؤخذ مذكرة عن الطبقات الأرضية والتى يندر وجودها فى الصحراء النوبية وعن مكان الاوانى الفخارية خارج الجزء الذى يعلو سطح الأرض (وهى ظاهرة عامة فى عصر المجموعة الثالثة) •

٢ ــ يعطى رقما لكل مقبرة أو الجزء العلوى لها ويكتب باللون الأسود على قطعة حجرية مسطحة •

٣ ــ تؤخذ صورة عامة للجبانة قبل أن يجرى الكشف •

٤ ــ يصور كل جزء يعلو سطح المقبرة مبينا فى الصورة بمقياس الرسم والرقم بوضوح •

٥ ــ يرسم المسجل حينئذ مسقطا أفقيا وقطاعا للمقبرة على بطاقته طبقا لمقياس الرسم ١ : ٢٥

٦ ــ يقوم المسجل برسم كل آنية فخارية على بطاقة المقبرة طبقا لمقياس الرسم ١ : ٥ ملاحظا النقاط الآتية :

(أ) نوع الفخار ، والشقة والرسم السطحى أو الغائر •

(ب) مكان القرابين بالنسبة للجزء الذى يعلو المقبرة •

٧ ــ يسجل فوق أوانى القرابين بالشيناجراف ما يلى :

٣٥٠ (رقم الجبانة) و ٥ (رقم المقبرة) و ١ (رقم الكتالوج) = ١ ــ ٥ / ٣٥٠

٨ ــ تنقل الأوانى الفخارية •

٩ ــ بعد تسجيل كل ما على السطح يزيل العمال الجزء العلوى كاشفين عن فوهة بئر المقبرة وتوضع القطعة الحجرية التى تسجل رقم عند قمة الركن الأيمن للبئر •

١٠ ــ تصور الجبانة بعد ازالة الجزء السطحى الذى يعلو المقبرة •

١١ ــ ينظف العمال المهرة المقبرة تحت الاشراف المباشر للمسجلين الذين يذكرون على بطاقة المقبرة بعض الملاحظات مثل نوع الحشو •

١٢ ــ تصور المقبرة أمامها عصى المقياس والرقم بوضوح بعد تنظيفها والكشف عما فى داخلها •

١٣ ـ يرسم المسجل مسقطا أفقيا للمقبرة وما تحتويه بمقياس٥ر٢٪ موضحا النسبة بينها وبين الجزء الذى يعلو سطح الارض المرسوم على بطاقة المقبرة .

١٤ ـ ينقل المسجل القطع واحدة واحدة دون أن يحرك الهيكل العظمى وكلما نقل قطعة رقمها (بالشيناجراف) وسجل هذا الرقم على بطاقة المقبرة موضحا مكان القطعة من المقبرة .

١٥ ـ يرسم المسجل كل قطعة تنقل بالمقياس على بطاقة المقبـــرة الفخار ٥ : ١ خرز أو قطع أصغر حجما ٢ : ١ أو ١ : ١ .

١٦ ـ يفحص الهيكل العظمى بعد نقل كل الاشياء وتسجل عـلى البطاقة الملحوظات العامة مثل الجنس أو السن الخ ـ تنقل الجمجمة لتقاس واذا أظهرت الجمجمة أو أى جزء آخر من الهيكل أى ظاهرة تشريحية هامة تحفظ هذه القطعة واذا كان العكس فيترك .

ملحوظة : لا تسجل معلومات التفاصيل التشريحية على بطاقة المقبرة ولكن يسجل فقط الجنس والسن وملحوظات عامة .

١٧ ـ يغربل الرمل بعد نقل الهيكل وكل ما تبقى فيه .

١٨ ـ يؤخذ توجيه المقبرة بالبرجل ويعلم المسقط الأفقى على بطاقة المقبرة بسهم كبير مرسوم داخله .

١٩ ـ عندما سجلت كل المقابر ، كان مهندس المساحة يقوم باعداد خريطة يوضع عليها مكان كل قطعة حجرية ـ عند الركن الأيمن من المقبرة ـ ورقمها .

٢٠ ـ بعد انتهاء هذا العمل يقوم المهندس برسم خريطة على ورق شفاف أو تيل (مقاس ٢٥ : ١) مكونة من عدة نقط مرقمة . ثم عنـد وضع كل بطاقة مقبرة منفردة تحت رقمها يمكن تحريك البطاقة فى اتجاهها الصحيح ورسم المسقط فوق الخريطة . ولا يظهر على هذه الخريطة العامة للجبانة الا مسقط أفقى للمقبرة والهيكل .

التسجيل في المعسكر

١ ـ التسجيلات الأربعة الضرورية التي يجب أن تدون يوميا هي :

١ ـ اليوميات التي يكتبها المدير في نهاية كل يوم بعد الانتهاء من العمل وعلى كل عضو من أعضاء البعثة أن يعطي المدير بطاقات المقابر وملاحظات العمل في حقل الحفر التي دونها خلال اليوم ويجمع المدير المادة ويكون منها تقريرا قصيرا عن تقدم العمل وملاحظاته ونتائجه .

٢ ـ تسجيل الفخار في نسختين وتصنيف كل آنية حسب نوعها وهناك قائمة تسلسل موجودة منذ المسح الأول ١٩٢٩ ـ ١٩٣٤ ، ومن واجب عالم الآثار المختص بهذا القسم أن يجعل هذا التسلسل متكاملا بأن يضيف اليه أي نوع جديد يظهر ويرسم فخار قائمة التسلسل بمقياس ٥ : ١

٣ ـ تسجيل القطع (من نسختين) ويتضمن معه تسلسل لأنواع الخرز معتمدا على ما هو موجود في قائمة تسلسل المسح الاثرى في الاعوام ١٩٢٩ حتى ١٩٣٤ ·

٤ ـ تسجل الصور وتلصق المناسب منها (بعد طبعها) على ظهر بطاقة المقبرة ·

وتحركت بعثتنا نحو الجنوب ببطء متبعة هذا النظام في التسجيل ومنقبة عن المواقع القديمة التي وجدناها على ضفتي النهر والتي كانت تحت مستوى مياه الخزان الجديد · وكان الوقت ثمينا جدا الى درجة أننا اضطررنا أن نتبع التعليمات الدقيقة ـ التي تقتضي منا إن نترك كل المواقع الأثريه العالية التي لا تهددها مياه الفيضان دون أن نقترب منها · ومن حسن الحظ ان معظم الآثار الباقيه كانت موجودة في المناطق المهددة قريبة من حافة النهر فاستطعنا ان نكتشفها وضمائرنا مستريحة · ولكن كانت هناك مناطق أخرى أحسسنا أننا مضطرون لفحصها · لكنني أعترف أنها لم تكن في جدولنا ، وان بعضها لم يكن هناك مايبرر العمل فيه فتركناه بعد فحص عام ، وحدث مثل ذلك في جبانة ابريم الكبيرة ، وهي مأساة سأكتب عنها فيما بعد ·

ولقد عثرنا على جبانات ومساكن من كل عصر نوبي تقريبا تتراوح في التاريخ بين ٣٥٠٠ ق‌م حتى ٥٠٠ م مع أن هذه الجبانات انتجت أشياء كثيرة للمتاحف الا أنها لم تزودنا الا بالقليل في معلوماتنا وكانت تكرارا للنتائج التي أحرزها «ريزنر» «وفرث» في الشمال. ولقد شجعنا اعتبارنا بأن جزءا كبيرا من موسمنا الثاني سيكون مركزا في منطقة عنيبة، موقع «ميعام» القديمة التي كانت عاصمة النوبة أثناء الدولة الحديثة فهنا كان مركز نائب الملك المصري وعرفنا ان بها بقايا حصن المدينـــة الكبير وعلى أية حال خاب أملنا قبل أن نصل الى حدود هذه المنطقة المهمة ، اذ تلقيت تعليمات من القاهرة بأن نترك كل المنطقة لأنها محجوزة لمعهد الآثار الالماني الذي يريد اتمام عمل «ارنست سيجلن» الذي كان قد أعطى هذا الامتياز في عامي ١٩١٢ ـ ١٩١٤ شعرنا حينئذ بخيبة أمل شديدة ولكن عند استرجاعي لما مضى ألاحظ ان القرار كان عاقلا لأن زملاءنا الألمان زودوا بأدوات وخاصة بالوقت الذي لم يكن تحت تصرفنا لأن العمل في مثل هذا الموقع يتطلب تركيزا لبعثة ثابتة وعلاوة على هذا كله وضع هذا العمل تحت ادارة الدكتور «جورج شتيندورف» أحد المجربين الأوائل في الحقل النوبي وأحد الأثريين الكبار العظام في جيلنا وعوضنا من خيبة الامل التي كانت قد أصابتنا أن «فيرث» طلب مني أن أبدأ موسمنا الثاني في خريف سنة ١٩٣٠ بالحفر في قلعة « كوبان » التي تركت أثناء المسح الأثري الأول لأنها كانت فوق مستوى المياه حينئذ . أما الآن فستغمرها المياه وجدرانها الكبيرة المشيدة من اللبن ستزول في أسابيع قليلة ومضينا حوالي شهرين في الكشف عن البناء العظيم الذي عرف قديمـا باسـم « باكت » والتي كونت وحده واحدة مع قلعة «ايكور» على الضفة المقابلة للنيل والتي حفرها «فرث» سنة ١٩١٠ .

وانتجت أعمال التنقيب الكاملة لكوبان الكشف عن قلعة أقدم تحت أساسات البناء الأساسي للتصميم نفسه الذي عثر عليه «فيرث» في «ايكور» والتي أعتقد أنها ترجع الى الدولة القديمة ، وعلى أيـــة حال فان الدلائل التي كشفت عنها الحفائر أظهرت ان هذا البناء القديم لم يكن أقدم من بداية التعمير المصري في الأسرة ١٢ تحت حكم سنوسرت الاول وان القلعة الحديثة نسبيا كانت في الغالب قد بنيت علة سنوات بعد هذا العصر ، عندما امتدت القوة المصرية الى الجنوب تحت حكم سنوسرت الثالث .

ومن أهم ما تميزت به قلعة كوبان حالة الحفظ التي بقيت عليهـــا مباني ثكنات الجيش وسورها الخارجي المحيط للجدران الدفاعية التي كانت

لا تزال قائمة على ارتفاع ٨ م وتحت تلال كبيرة من الطين وجدنا عددا كبيرا من المبانى الداخلية بسقفها الطمى المقبى فى حالة سليمة كما أن بعضها ما زال الدور العلوى فيها سليما • ان صعود الدرج والوقوف على الارضية العلوية لمبنى شيد منذ أكثر من ٣٨٠٠ سنة كانت تجربةلاتنسى ومن الغريب انها تجربة تختلف عن الدخول فى مقبرة مغلقة منذ أقدم العصور انها أقرب الى دخول منزل هجر حديثا ، وخاصة إذا وقف الانسان أمام مدفأة لا تزال تحوى بقايا فحم وخشب يحترق •

وانى أعتقد أن كوبان كنت ، قطعا ، ألمع الاكتشافات للموسمين الأولين للمسح • وتركنا المنطقة بحسرة فى ٢٨ ديسمبر ١٩٣٠ لنكمل ماكان يبدو سلسلة غير منتهية من الجبانات المسروقة الواقعة جنوبى عنيبه حتى وصلنا الى أبى سمبل فى ١٤ مارس سنة ١٩٣١ وهنا توقفنا ونحن نتأهب لموسم عمل آخر وبذلك تكون قد أكملنا شروعنا بالكشـــف والتنقيب عن بقية المناطق شمالى « ادندان » • ولم نتصـــور حينئذ اننا ســـنمضى ثلاث سنوات أخرى فى النوبة نكشف خلالها عن مقابر ملوك عصر المجموعـة س التى عثرنا عليها فى بداية موسمنا التالى فى « بلانة » و «قسطل » •

والى جانب المسح الأثرى بعثت مصلحة الآثار الأستاذ الايطالى «مونوريه فيلار » لدراسة وتسجيل الآثار المسيحية فى النوبة فلقد كان حجة معترفا بهـــا وله شهرة عالية فى الآثار المســـيحية ومن الغريب أنه لم يعط التسهيلات اللازمة للتنقيب واضطر الى أن يكتفى بالمســاقط والتســجيل العام للكنائس وغير ذلك من مواقع كما عثر عليها مدفونة جزئيا • ومع ذلك فلقد تمــكن من نشر سجل رائع لهـــذه البقايا يجب علينـــا أن نعتبرها أهم عمل وصل الينا حتى الآن عن العصر المسيحى فى النوبـة ولكن لعدم وجود حفائر منظمة كان تسجيل مونوريه دلا فيـــلار غير كامل ولا يزال الأمر يتطلب فحصا مستفيضا اذ أن هذه الآثار ترجع الى عصر من أهم العصور فى تاريخ النوبة •

الفصل الثالث

بلانة وقسطل

من الصعب عادة أن نعود بالذاكرة الى الوراء ثلاثين عاما لنسترجع مشاعرنا ونتذكر التجارب المثيرة التى مضت ، ولكن لما كانت ظروف غير متوقعة أرجعتنى الى النوبة ، فاننى لا أجد صعوبة فى احياء هذه الأيام الجميلة المثيرة التى عثرنا فيها على مقابر ملوك عصر المجموعة (س) فى بلانة وقسطل ولدى علماء الآثار نوع من التعالى المقنع الذى يجعلهم يقللون من شأن البهجة أو الفرحة التى يتصور غير المتخصص فى الآثار ، أنها لابد من أن تظهر عند مايكتشفون قطعا أثرية من الذهب أو الفضة أو من الأحجار الكريمة . حقا اننا كثيرا ما نجد اهتماما أكبر باكتشاف حقائق جديدة عن أشياء متواضعة مثل الفخار أو بقايا المدن فهذه الاشياء تعرف تاريخ أمة ماتت منذ زمن وطواها النسيان ولكن عندما يعثر عالم الآثار ، كما عثرنا فى بلانة وقسطل ، على كنز عظيم الى جانب مواد آخرى كشفت القناع عن حضارة وعادات دينية لقوم غير معروفين ، فما يهز المشاعر هنا حقيقى والتجربة لا تنسى بعد ذلك .

ولقد جاء الاكتشاف تعويضا عن نتائج الموسمين الماضيين ، فى المنطقة ما بين « وادى السبوع وأبو سمبل » التى كشفت عن أشياء قليلة ليست ذات قيمة علمية كبيرة . ولم ينجز عملنا السابق أكثر من اثبات النتائج التى وصل اليها السابقون فى المسح الاول . وهنا فى بداية موسمنا الأخير، وعلى بعد بضعة أميال من الحدود الجنوبية للمنطقةالمهددة، ليس أمامنا الا أمل بسيط فى أن أبحاثنا ستضيف الكثير الى التاريخ النوبى الطويل والمتغير . ومع ذلك فقد كان لزاما علينا أن تتم العمل . وفعلا وصلنا الى «أبو سمبل » لنبدأ ما كنا نتصوره موسمنا الأخير فى الثانى من نوفمبر سنة ١٩٣١ .

وصلنا كالعادة على دهبيتين يرافقنا زورق المسح انبخارى ورسونا جنوبى معبد رمسيس الثانى الكبير منتظرين وصول العمال المائة والخمسين الذين استقلوا احدى البواخر التابعة للحكومة السودانية والتى تسافر من الشلال . وبينما كنا ننتظر وصول العمال صممت على أن أشغل وقتى بالكشف عن المنطقة المعروفة باسم «بلانة» والتى تقع على الضفة الغربية للنهر جنوبى « أبو سمبل » . وكانت آنذاك تتكون من عدد من المنازل المتواضعة المبعثرة بين أشجار النخيل القليلة على حافة النهر حيث يسكنها عدد قليل من السكان . وكانت الرمال التى قذفت بها الرياح قد غطت المنطقة وحولتها الى صحراء يتخللها مجموعات صغيرة من شجر السنط ونبات الطرفاء الذى يوحى مظهره بحياة قلقة على ضفاف النهر . لقد كانت منطقة غير مغرية الا أن بلانة أصبحت اليوم بلدا كبيرا وغنيا ، منازلها مبنية تحيط بها مناطق واسعة من الأراضى الخصبة المزروعة . وهذا التغيير الكبير فى حياة بلانة يرجع الى اكتشافنا كما سأبين ذلك فيما بعد .

وتابعنا طريقنا المعتاد فى الكشف فسرنا فى تكوينات ممتدة بين الكثبان الرملية والأعشاب الطلحية فى هذه المنطقة الكئيبة محاولين الاهتداء الى أية بقايا قديمة وقد قمت بنفسى باستكشاف المنطقة القريبة من النهر متجولا فى المنطقة التى تقع جنوبى القرية وبعد قليل وصلت الى مجموعة من التلال مغطاة بنبات الحلفا وعندما اقتربت من هذه التلال وجدتها تأخذ شكلا دائريا أكثر انتظاما ولكنى لم أقدر شكلها المنتظم أو أتبين الاحتمال فى أن تكون تلالا صنعتها يد انسان الا بعد أن تسلقت قمتها وألقيت نظرة من فوقها على الصحراء المحيطة . وفى وقتنا هذا يؤثر عالم الآثار أن يستعين بصور جوية ، اذ أنها لاشك ستظهر له تلال « بلانة » على أنها غير طبيعية ، فى حين أن مشاهدتنا لها من مساحة أرضية غير مسطحة لم تظهر

هذه التلال كما هى فى الواقع • وأكدت بعثـــة جيولوجيـــة كانت قـــد زارت المـكان منـــذ سنتين قبلنا أن هذه التلال عبـارة عن ترسيب طبيعى لطمى النهر تعاقبت عليه عوامل الطبيعة فأعطته هذا الشكل المستدير • وربما كان من حسن الحظ انى فى هذا الوقت كنت أجهل هذا لأننى لو كنت قد عرفته ربما كان قد أثر على وجعلنى آخذ بنظرتهم أو ان أهمل التلال كمادة مهمة للبحث الأثرى • ولما كنت أجهل الاشكال العجيبة التى تخلقهـــا عوامل الريح والطبيعة فالتل الذى جلست فوقه ظهر لى بأنه صناعى ومن صنع الانسان • وبنظرة أخرى من فوق هذه القمة المرتفعة على باقى التلال تأكد لى رأيى • واذا كان قد ساورنى أدنى شك فى طريقة تفكيرى فان هذا الشك سرعان ما تلاشى عند وصول كروان الذى لحق بى فوق قمـــة التـــل بعد ان جاب صحراء المنطقة وبنظرة حوله من مكاننا العالى سرعان ما اتفق معى على انها تلال من صنع الانسان واقتنع بأنه يجب فحصها بأى ثمن •

ورجعنا هذه الامسية الى دهبيتنا فى أبى سمبل ونحن نفكر فى هذا الاكتشـــاف غير المنتظر اذ لم تكن لدينـــا معرفة ســـابقة بمثل هـــذه التشـــكيلات الارضية الضـــخمة • وفى بعثة أثرية مثل بعثتنا لم يكن فى مقدورنا أن نحضر معنا مراجع كثيرة ولم نكن نعتمد الا على كتاب « ويجال » الذى أعطانا نتائج مرضية • وهذا الكتاب عبارة عن تقرير منشور لحفائره الأولية فى النوبة السفلى التى قام بها نيابة عن مصلحة الآثار سنة ١٩٠٧ (١) وقد فحصنا كتابه القيم ولكنه تركنا أكثر حيـــرة بقوله أن : « البلاد غير مشوقة بالنسبة لعالم الآثار وانه لم يجـــد (الكاتب) أى أثر لمناطق قديمة ما عدا بضع قطع من الفخار الرومانى من العصور الوسطى يدل على وجـــود قرية من هـــذا العصر » • فعرفنا بذلك أن «ويجال» كان منهكا متعبا فى آخر استكشـــافاته الطويلة التى أجراها سائرا على قدميه وانه لم يدقق النظر جيدا • ويجب على أن اعترف بأن انكاره لوجود أى أثر ذى قيمة فى المنطقة قد هز ثقتى فيه •

وليتنى عرفت ان كتابا فى هذا الموضوع كان تحت يدى اذ أن مكتبتنا الصغيرة كانت تحوى نسخة من طبعة **Tauchnitz** لكتاب «اميليا ادواردز» وهو كتاب رحلات يعرف باسم **A Thousand Miles up the Nile** وهو عبارة عن تقرير هذه السيدة الموهوبة عن رحلة قامت بها فى دهبيتها فى مصر العليا والنوبة سنة ١٨٧٤ فقد كان ذلك كفيلا ببث الطمأنينـــة

(١) Weigall, A Report on the Antiquities of Lower Nubia, Oxford, 1907.

فى نفسى • وكنت قد قرأت كتابها أيام الدراسة ولكنى نسيت وصفهـــة للبلاد جنوبى « أبول سمبل » ولم أتصور أننى سأجد فيه أية معلومات تهمنى ومن ثم لم أقرأ كتابها الا بعـد مضى سنين عديدة أثنـــاء فراغى بعد اكتشافاتنا ، فدهشت لأنى وجدت فيه هذا التقرير الذى يعطينـــا فكرة عن مـــدى بعد نظرها بالنسبة لهذا التـــل الترابى من الناحية الاثرية وللأشياء التى وجدناها فيه فيما بعد • فقد كتبت : «وعلى بعد من قلعة « عدا » عندما تشتفى منطقة «أبوسمبل» وجزيرة النخيل وبعد أن نترك القمة الوحيدة المعروفة «بجبل الشمس» وراءنا نصل الى شىء جديد غريب وهو مجموعتين من التراكم الطميى والرملى ، أحداهما على الضفة الشرقية والأخرى على الضفة الغربية • واذا أردنا أن نكون عنها فكرة ما ، فسوف نجد أنها ليست تكوينات بركانية ، كما أنها ليست أشكالا مســتقرة ، فبعضها صغير الحجم وبعضها الآخر كبير • وهى كلهـا مستـديرة وناعمة ومغطاة بطبقة طميية لونها بين الاخضر والبنى • كيف جاءت الى هنا ؟ ومن الذى صنعها ؟ وماذا تحوى ؟ ان الاطلال الرومانية المجـاورة ــ والمائتين وأربعين الف هارب الذين مروا منهذا الطريق ــ والجيوش المصريةوالحبشية التى بلغت الآلاف على هذه الضفاف والتى قامت بالمعارك على هذه السهول توحى بعدة احتمالات وتملأ رأسنا بأشباح أذرع مدفونة وحلى وأوعية لحفظ رماد الجثث • اننا نود أن نبحر فى هذه اللحظة ولكننا نكتفى بعد التريث بأن نعد أنفسنا ــ للتنقيب فى أحد التلال الصغيرة على الأقل ــ فى طريقنا للعودة• ولم تجد الآنسة ادواردز الفرصة أبدا لفحص وتنقيب الكومة ولكن تخمينها لما كانت تحويه كان قريبا من الحقيقة •

وقد أشار بعض الرحالة الآخرين مثل « بورخاردت » سـنة ١٨١٣ و « جولينيشف » سنة ١٨٨٣ الى احتمال أن تكون هذه التـلال صناعيـة ولـكن ، كما أقول عندما اكتشفنا هذه التلال التى على الضفة الغربية كنا نجهل ذلك ولم يكن معنا الا بيان «ويجال» السلبى الذى لم يكن مشجعا • وعلى أية حال فقد اتفقنا بعد مناقشات كثيرة على أن الكومة كانت تستحق فعلا البحث وبعد وصول عمالنا نقلنا الذهبية بالقرب من بلانه •

فى هــذا الوقت ركزنا اهتمامنا كله على الضـــفة الغربية من النهر ولم نهتم الا بوجود التــل فى بلانة • وقبل أن نبـــدأ بتنظيم مجسات

فى هذه المنطقة زارنا أحد الخفراء المحليين التابعين لمصلحة الآثار وقال لنا أنه قبض على ثلاثة من السكان يحفرون المقابر فى قسطل على الشـاطىء المقابل للنهر قبل أسبوعين من وصولنا ، ومع أننـا لم نهتم بما حـدث واعتبرنا الموضوع من قبيل الحفائر غير المشروعة الا أننا عبرنا النيـل لنتفقد مسرح الجريمة وكم كانت دهشتنا حينما وجدنا ان لصوص المقابر قد نهبوا بعض مقابر عصر المجموعة (س) التى كانت موجودة فى الأرض المنبسطة بين الكومات الطينية المماثلة لتلك التى فى «بلانة» ٠ وكان شكلها الصناعى ظاهرا لأن الرمال والبقايا لم يغطها ٠ وهكذا زال ما تبقى لدينا من شك بالنسبة لبلانة ٠ وكان السؤال الوحيد كيف نواجه هذه المعضلة؟ هل ننقب ؟ وأى المجموعتين نبدأ بكشفها « بلانه » ــ أم « قسطل » ؟

ولقد كان همى الاول متعلقا بالامور المالية لأن سنة ١٩٣١ ــ ١٩٣٢ كانت السنة الاخيرة للقرض الذى أعطاه لنا وزير المالية للعمل بالمسح الأثرى النوبى ٠ وبهذا المبلغ الأخير الذى يبلغ أحد عشر الفا من الجنيهات كان علينا مهمة التنقيب فى منطقة تمتد بين أبو سمبل والحـدود هـذا بالاضافة الى الشاطىء الشرقى للنيل كله حتى «وادى السبوع» ٠ وعلاوة على ذلك كان الوقت أحد العوامل الهامة التى يجب أن نضعها فى الاعتبار لأن الوقت الذى حدد لنا ، كما ذكرت من قبل ، لا يزيد على ثلاث سنوات لانهاء عملنا ٠ وتنتهى هذه المهلة باتمام تعلية خزان أسوان ، ولم يكن أحد منا يتصور أنه سيكون علينا ازالة احجام ضخمة من الاكوام الترابيـة كالتى فى قسطل وبلانة ولكنها مغامرة لأنه اذا كانت النتـائج التى سنتوصل اليها غير ذات قيمة بعد ما تكبدناه لازالة بعض التـلال فقـد كنت اعرف أننا لن نحظى الا بقليل من العطف ، وخاصة أن معظم تلك التلال كانت على مستوى من الارتفاع أعلى من المناطق المهددة من الخزان الجديد ٠ وعلى أية حال فبالنسبة لبلانه وقسطل كانت الفرصة الوحيدة فى حياتى العملية التى وجدت نفسى فيها سعيدا جدا لاكتشاف ان لصوص المقابر كانوا قد وصلوا اليها قبلى ٠ فبعد فحص مبدئى لقـاع أحد الاكوام الكبيرة فى قسطل اتضح لى وجود انحدار طفيف فى سطح الأرض من الناحية الغربية ٠ وبعد تنقيب أطول ، اتضح أن هذه الظاهرة كانت ظاهرة عامة أى مشتركة فى الاكوام كلها ٠ ولقد تصورنا أولا ان هذا المنخفض علامة للمدخل الحقيقى الذى استعمل للدفن ولكن بعد القيام تعليل من بتنقيب سطحى ظهرت لنا قطع مبعثرة من فخار مكسور يرجع الى المجموعة (س)وكان واضحا انها تدل على مداخل انفاق اللصوص وهنا واتتنا الفرصة

لنقرر نوع التل وقيمته دون تكاليف كثيرة ودون ضياع وقت• وبدأ عمالنا الحفائر عند المدخل الذى مر منه اللصوص فى المقبرة رقم ٣ التى كانت أكبر ما فى مجموعة قسطل • وكنا نعمل بسرعة فى طريق مسطح عرضه قدمان وارتفاعه ثلاثة أقدام وقد نحت دون تهذيب فى رواسب النهــر المتجمدة التى شيد عليها التل • وكان العمل فى التنظيف صعبا وخطرا أحيانا لأن بعض الأجزاء من جوانب الممر كانت قد وقعت تاركة سقفا غير ثابت فوقنا • وعلى أية حال تقدمنا بسرعة بوساطة عمالنا المهــرة المدربين وبعد بضع ساعات كان الممر مفتوحا فزحفنا فيه لمسافة خمسين قدما حيث انتهى الممر الى جدار من اللبن فوجدنا أنفسنا فى احدى الحجرات المقبية لبناء تحت سطح الأرض وأظهر ضوء شموعنا المتأرجح منظرا من الصعب وصفه لشدة الغموض والتشويش به • وكان واضحا جدا ان من سبقنا كان قد قام بعمل كامل متقن • فالأرض كانت مغطاة بأكوام من الفخار المكسر وقطع من أخشاب متعفنة وعظام آدمية مبعثرة • وأظهــر الكشف عن الحجرات الاخرى نفس الحالة : أكوام من العظـام الآدميـــة وفخار مكسرا وكان احساسى الأول هو الرجوع عن فكرة ازالة الكومة وان أكتفى بفحص هذه المقابر الغريبة بالدخول فيها من ممرات اللصوص وان أنقذ ما يمكن من أدلة أثرية باقية مهما كانت قليلة • ولم يكن هناك ما يشجع على الاستمرار فقد كنت أجلس وسط الانقاض المبعثرة التى كانت يوما كنز أثريا ، ولم تعد تمثل الآن غير انقاض آمالنا التى أخذت تشرق قليلا منــذ رأينـــا هـــذه الكومات فى بلانة • وسرعان ما بدأنا نقيم اكتشافنا باتزان وأمل بعد أن تغلبنا على خيبة الأمل الكبيرة التى أصابتنا•

ان الحجرة التى كنا قد دخلناها من ممر اللصوص كانت قطعا حجرة الدفن ووراءها كانت غرفة الانتظار وفى جانبها الشرقى باب المقبرة • اذن فنحن قد دخلنا منزل الاموات من الباب الخلفى وكنا نواجه الجدار الداخلى للباب الأمامى الذى كان لا يزال مفتوحا•وكان المدخل المكون من عتب حجرى ثقيل ، مسدود بقوالب من الطوب ولقد أزال من سبقنا بعض قطع هذا الحائط متصورين ان من ورائه حجرات أخرى • ولكنهم سرعان ما أدركوا غلطتهم عندما انهمر الرمل من الفتحة التى صنعوها وأصبح واضحـــا ان ما وراء المدخل المسدود كان فناء مفتوحا أمام المدخل الحقيقى للمقبرة • وهذا الفناء كان يملأ برمل وطين تعلوه الكومة طبعا •

وعندما قدرنا هذه الحقيقة وووجهت مرة أخرى بالقرار الصعب: هل

أزيل الكومة أو اكتفى بالمعلومات التى يمكن الحصول عليها بتنظيف داخل المقبرة من ممر اللصوص ؟ اذ أن الحقيقة بسيطة لقد نهبت المقابر نفسها تماما • ولكن المساحة الخارجية التى ربما تكونت من فناء خارجى وسلم لابد وأنها كانت سليمة لم يمسها أحد • ولقد كان من الواضح أن هذه المقابر كانت ملكا لقوم ذوى أهمية كبيرة وأن هؤلاء القوم كانوا فى الغالب حكام المجموعة (س) غير المعروفين ومع أن المقابر كانت نهبت فتنظيفها جيدا يمكن أن يعطينا مادة أثرية لها أهمية ولكن هذا التنظيف صعب وخاصة اذا دخلنا من ممر اللصوص الخطرة •

وفوق هذا كله فان شغفنا المحدد بالأمل بأننا اذا وضعنا كل اهتمامنا فى المقابر المنهوبة يجوز أن نعثر فى المدخل غير الملموس على مادة لا تقدر بثمن من الناحيتين الفنية والتاريخية •

وقررنا أخيرا أن نجازف ، ففى العاشر من نوفمبر ١٩٣١ بدأنا فى ازالة الجزء الغربى للمقبرة فى طريقنا الى الكشف عن المدخل • ومع ان المقبرة رقم ٢ كانت لها الكومة الاكبر فى مجموعة قسطل فان حجمها كان أصغر من المقبرة رقم ٣ • ومع ذلك شعرت ان الظروف كانت مناسبة وخاصة اننا كنا متشوقين لاثبات قيمة ما كنا نعرف انه الجزء الوحيد الذى لم يعبث به بعد فى بناء المقبرة •

ان مجموعة العمال لم تكن تزيد حينئذ على مائة وخمسين رجلا وصبية وكان تقدمنا آنذاك يبدو بطيئا جدا ولكننا فى أواخر شهر نوفمبر كنا قد أكملنا خندقا يخترق الكومة على شكل حرف V وفى جانبه الشرقى كنا قد وصلنا الى سطح الأرض كما ظهرت قمة منحدر متجه الى أسفل نحو الغرب وبدأ النزول تدريجيا الى مدخل المقبرة وكانت أول الأشياء التى ظهرت رأسى فأس حديدية محفوظتين تماما حتى أنهما ما زالا يحويان اللون الأزرق القاتم للحديد كأنهما قد خرجا من تحت سندال الحداد فى الحال • وانى أعترف أنه لو كنت قد وجدتهما فى ظروف آخرى ما كنت ظننتهما قطعتين أثريتين • أما الكشف الثانى عند قمة المنحدر فقد كان شيئا معدنيا ثقيلا وعندما وجدناه أصبحنا فى حيرة • ومع أننا ضحكنا على الاقتراح الا اننا لم نتصور أى شىء عصرى يشبهه أكثر من « كلبش » الشرطة وعلى كل فقد كان ، مثل الفأس فى حالة جيدة ، كالجديد ، فأخذناه معنا الى الدهبية ونحن نشعر بالزهو حيث نظفته زوجتى

فى الحال • وبعد تلميعه ظهر أنه مصنوع من الفضة الخالصة ولـكننا لم نتعرف على حقيقة أمره الا بعد أن عثرنا على قطع مشابهة له أثناء العمـل فيما بعد - ولقد كان فى الحقيقة شكيمة للحصان ، والشكيمة مكونة من قطعتين منفصلتين على شكل نصف دائرة من ناحية وقضيب مستقيم من الناحية الأخرى • أما الناحيتان المقوستان فهما مركبتان معا فى القمـــة بحيث يكونان دائرة كاملة يدخل فيها فك الحيوان الأسفل • أما القضيبان المستقيمان فيتحدان فى نهايتهما بوساطة حلقة واسعة يربط فيها ســير اللجام توضع الحلقات الجانبية لترتبط قطع الوجنتين التابعة لرأس اللجام• وبشد اللجام يجذب القضيبان المستقيمان معا وتغلق قطعة الفم المستديرة حول فك الحصان السفلى •

وعلى أية حال ففى هذا الوقت لم يخطر على بالنا كنه هذه البدعة الغريبة ولـكننا فى اليوم التالى عندما اكتشفنا هيكلا لحصان يتدلى منـــه اللجام فهمنا حقيقته ولا يمكننى أن أقول ما الذى أثار دهشتنـــا أكثـــر : الـكشف عن حقيقة استعمال ذلك الشىء الغـــريب أم الحصان نفســـه ، قبل أن ننزل الى أســـفل المنحـــدر لم نـــكن قد عثرنا على هيـــاكل أخرى لجيـــاد وحمير وجمال بل اننا فهمنا بعـــد ذلك معنى هذا الخليط لبقـــايا الحيوانات: ان صاحب المقبرة أخذ معه جماله لخدمته فى الحياة الثانية• وكما كان الحال فى الحياة الدنيا فقد جعلهم ينتظرونه أمام مسكنه • وبعد قليل وصلنا الى فناء صغير فى آخر المنحدر وأمام مدخل المقبرة عثرنا على بقايا يبدو أنها كانت لجياد صاحب المقبرة المفضلة لأن بعضها كان لها سرج من الخشب مطعم بالفضة كما عثرنا على زينات للخيل من الفضة مكونة من حلقات ذات أقراص مسطحة أو محدبة الى حد ما ويتدلى منها دلايات طويلة حلزونية ومع ان الاشغال الفضية كانت محفوظة تماما الا أن الاشغال الخشبية التى فى السرج ومقاعده الجلدية كانت فى حالة تحلل وبمعنى آخر أصبح الجلد على هيئة ورق محروق حتى اننا عندما عثرنا عليها لم نستطع بعد تصويرها ورسمها الا أن نغمسها فى شمع برافين لنحتفظ بها مستقبلا• ووجدنا مع بقايا الجياد أيضا هياكل الخدم الذين كانت عليهم مهمـــة الاشراف عليها فى الحياة الثانية • والحيوانات كلها كانت قد قتلت بالبلطة ولكننا لم نعثر على أى أثر من بقايا الآدميين تدل على انهم سمموا أو خدروا قبل مراسيم الدفن •

وبهذه الاكتشافات قدرنا قيمة ما عثرنا عليه ولقد كان واضحا ان

الجزء الخارجي للمقبرة سيكون دائما سليما ما دامت الكومة التى تعلوها موجودة وأصبح مؤكدا ان أشياء فريدة ستكون مطمورة فيه وأكثر من هذا فان الفحص التفصيلي لداخل المقبرة التى عبث بهـــا أظهر فى كثير من الاحيان وجود مواد أثرية قيمة تركت وتجاهلها اللصوص لذا وجدنا دلائل كثيرة للتضحية البشرية لاننا عثرنا على عظام مبعثرة للسيدات والرجال بين الفخار المكسر الذى احتوى على المأكولات والمشروبات • وكما يحدث عادة أعطانا الفخار فكرة واضحة عن شخصية هؤلاء القوم الذين شيدوا هـذه المقابر الهمجيـــة ولقد تأكدنا الآن من ذلك الجنس الغامض الذى نسميه المجموعة (س) وهو الذى احتل النوبة بين القرنين الثالث والسادس بعد الميلاد •

وكم كنت متأكدا ان هناك كنزا أثريا كبيرا يوجد فى متناول اليد ولكن صعوبة المهمة كانت فى ازالة الملايين من أطنان الرمال • وبقى أن هذا هو المعضلة الكبرى وكنا نحتاج الى المال والوقت وشعرت انه لابد أن أجلب أدلة ملموسة لاهمية الاكتشاف وقيمته قبل أن اقترب من رؤسائى فى مصلحة الآثار بالقاهرة • لذا قررت أن أزيل الغموض عن أكبر مقبرة فى مجموعة قسطل قبل أن أبعث اليهم بأخبار الاكتشاف وهى المقبر رقم ٣ التى فحصناها سريعا من داخل ممرات اللصوص فى بداية البحث •

وفى أوائل ديسمبر بدأنا بازالة الجانب الشرقى لهذه الكومة الكبيرة وقطرها ٤٠ر٥٣م وارتفاعها ٧٠ر٩م ولقد كان تقدمنا بطيئا ، هذا مع وجود مائة وخمسين رجلا فى حالة عمل مستمر • وكان علينا أن نقضى وقتا مملا غير مشوق حتى وصولنا الى مستوى الارض لنجد فيه مدخل المنـحدر • ولكن كومة قسطل كان بها مفاجأة أخرى لنا : وهى عادة من عادات قوم مجموعة (س) فى دفن أشياء متنوعة فى الكومة نفسها مثل الزبيب فى الفطيرة أو قطعة فضية من العملة فى كعكة عيد الميلاد • وعندما عثرنا على هـــذه الاشياء اعتقدنا انها أشياء أضاعها أو نسيها أحد العمال الذين اشرفوا على تشييد الكومة • ولكن تكرار هذه الكشوف أظهرت انهـــا كانت تقدمة جنائزية وضعت عمدا بعد الدفن • كان أول شىء عثرنا عليه هو درع كبيرة مستديرة من الجلد فى حالة جيـدة من الحفظ • ونظرا لمشابهتها للدرع التى لا تزال تستعملها قبائل البجه فى السودان فقد جعلنـا ذلك بادىء ذى بدء نتشكك فى قدمها وخاصة انها كانت قريبة جدا من سطح الكومة • وكان الدرع مزخرفا باتقـــان زخرفة بارزة على شـــكل حلزونات والجزء التالف الوحيد فى الدرع هو ظهر قبضة اليد الخشبية •

أما الشيء الثاني الذى عثر عليه في حطام الكومة فهو سكين حديدية لرمح من نوع « المجرفة » وهو نوع مألوف لدى قبائل «الماساى» فى كينيا . كانت الآلة فى حالة جيدة الا من بعض آثار الصدأ ٠ أما المقبض الخشبى الذى يركب فيه السلاح فلم يبق منه الا خط من مسحوق بنى اللون ٠ وبالقرب منه عثر على مسمار حربة حديدية ٠ وبما انها كانت قد وضعت فى غير مكانها فلم نستوثق من طول السلاح الحقيقى ٠ أما اكتشافنا التالى فكان مجموعة من ثلاث سكاكين للاستعمال المنزلى ذات سن مجوف من الحديد وكان لاثنين منها مقابض مسطحة مصنوعة من قرون الحيوان ، أما الثالثة فكان مقبضها من العاج المنحوت على شكل الاله المصرى القديم بس ٠ وكانت هذه السكين أول شكل فرعونى نعثر عليه ولقد كان من الغريب أن أواجه بشكل تقليدى مصرى قديم فى وقت كانت المسيحية فيه منتشرة منذ خمسمائة عام ٠ ففى هذه المرحلة الاولية من عملنا لم تكن ندرك اننا نحفر فيما أسميه الفصل الاخير للسجل الطويل لمصر القديمة ٠ والى جانب سكين بس وجدنا مشطا من العاج ذا شكل مغولى ، ومؤخرة مستديرة ومزخرفا بأشكال نباتية ملونة باللونين الاحمر والبنى ٠

وعثرنا على مثل آخر لقرابين مطمورة فى قاع الكومة على مستوى الأرض تقريبا وكانت من نوع غريب وغير مألوف بالقياس الى الاشياء التى عثرنا عليها من قبل ، فهى عبارة عن لوحة خشبية للعب التسلية ذات طابع غير عادى ، على شكل صينية مسطحة محوطة باطار دعمت أركانه بالفضة ٠ أما «الاماكن» فأشير اليها بنقش مفرغ مطعم بالعاج وتتكون من ثلاثة صفوف كل صف به اثنا عشر مربعا على الشكل النباتى التقليدى ٠ وكل صف من هذه الصفوف الثلاثة قد قسم الى مجموعة من ستة أقسام وقد ظهرت فى الصف العلوى والصف الاخير على شكل نصف دائرة وفى الوسط دائرة كاملة ٠ واللوحة لهـا مقبض فضى فى أحد جوانبها ٠

وعندما رفعنا لوحة اللعب وجدنا تحتها بقايا حقيبة (كيس) من الجلد كانت تحتوى على خمس عشرة قطعة عاجية وخمس عشرة قطعة من الابنوس ومعهما أيضا خمس من قطع النرد العاجية وقطعة أخرى يبدو انها كانت صندوقا خشبيا صغيرا مرصعا بالفضة ولقد كان شكل قطعة النرد واضحا لأنها صنعت بشكل النرد الحديث نفسه من رقم واحد الى ستة ٠ أما الصندوق الخشبى فكان لغزا ولم نستطع الا بعد شهور عدة وبعد تجارب وأخطاء أن ندرك ان القطع قد وفقت مع بعضها البعض وقد تم هذا فى معمل متحف

القاهرة . وكم كان غباء منا الا نلاحظ فورا اننا لكي تلعب النرد فانه لابد من أن يكون هناك صندوق للنرد وكان هذا الصندوق من طراز غريب جدا . لقد كان المقامرون يلعبون هذه اللعبة بكثرة في العصرين اليوناني والروماني وكانت تعرف باسم Pyrgus ويرجع شعبيتها الى صعوبة الغش فيها فالقطعة لا تتحرك أثناء اللعب بل تسقط قطعة النرد من الفتحة الملوية وتقع على مجموعة من اللوحات المحزوزة التي كانت تقلبها قبل أن تنزل من فتحة في القاع . واني أعتقد ان هذه اللعبة كانت هي الشكل الوحيد الذي وصلنا حتى الآن مع أن منظرها وشكلها العام عرف من صور رومانية . وفيما بعد أعجب الأصدقاء في القاهرة بصندوق النرد هذا حتى أننا صنعنا صورة طبق الأصل منه وقدمناه للنادي « تورف » استعمله الأعضاء عندما كانوا يجلسون للشراب . وعلى أية حال فقد ضعفت شعبيتها ويرجع الأعضاء بعد وقت قصير الى استعمال النرد الجلدي فطلبت الصندوق وما زلت أحتفظ به كتذكار لأول كشف في قسطل . كل هذه الاشياء المكونه من لوحة نرد وصندوق كانت من غير شك تستعمل للعبة واحدة تشبه في الغالب ما يعرف عند المصريين بالضامة . والطريقة الصحيحة لاستعمالها غير معروفة . ولكني أعتقد ان النرد كان يقذف ليحدد عدد التنقلات على اللوحة مثل ما يحدث في لعبة الطاولة .

ولقد كان ظاهرا أن أشياء أخرى كانت مطمورة في أجزاء أخرى من الكومة لأن الفتحة التي على شكل حرف V في الجانب الشرقي كانت قد وصلت الى مستوى الارض وكانت حواف مدخل الممر المنحدر قد كشفت . الا انني أحسست ان الاستمرار في الكشف الى أبعد من ذلك ليس له داع أو ليس له ما يبرره الا العثور على تحف أخرى مطمورة على بعد بضعة أقدام منا وكانت تلك الفكرة مغرية ولكن كان هذا التنقيب سيتبعه ازالة كل البناء وهذا معناه زيادة في النفقات بالاضافة الى الوقت . لذا ركزنا كل اهتمامنا في الكشف عن الممر المنحدر المتجه الى الشرق والغرب مثل المقبرة رقم ٢ . وأثناء النزول في الممر كشفنا عن هياكل جياد وجمال وحمير وكلاب وأغنام . وكانت بعض الجياد لها سروج من الفضة وحلي يتكون من سلاسل فضية والجمة جلدية مطعمة بالفضة ومشغولات من البرونز ووجدنا فوق السرج بقايا أغطية السرج المشغولة وجلود الحيوانات المصبوغة باللون الازرق . إن اختلاط بقايا حيوانات التضحية بلجامها ولوازمها مكدسة الواحدة فوق الاخرى لا يمكن وصفها الا بانها كابوس لعالم الآثار . وعلاوة على الاختلاط والارتباك فان اجساد الحيوانات كانت قد تركت حيث وقعت بعد ذبحها على أرضية مدخل الممر المنحدر . فكانت

النتيجة ان تراكمت الجثث الواحدة فوق الأخرى ولم يبق شيء من الانسجة -
كما كان من الصعب جدا التفرقة بين هيكل وآخر • ولكن كان من بين عمالنا
القفطيين المختصين في تنظيف المواد التشريحية من قام بالتدريج بتنظيف
تلك الهياكل من الاتربة واستعرض هيكل كل حيـــوان لكيلا يختلط مع
هيكل حيوان آخر • أما لوازم الجياد فكان من الصعب التصرف فيها •
فمع ان السروج الجـــلدية كانت ظاهرة بوضوح عندما استخرجت من
الارض الا انها تحللت بسرعة تاركة الحصير المتجمد الذى حشيت به المقاعد
مكشوفا للرؤية • وعلاوة على ذلك فان السيور الجلدية التى ربطت اطراف
السروج الخشبية مع بعضها البعض تقطعت من أقل لمسة • ولاعادتها كما
كانت ، اضطر المختصون الى دراسة تصنيعها وأمضيت ساعات في الرسم
والتصوير وسكبنا شمع البرافين المغلى عليهـــا لتصبح كتلة واحدة يمكن
نقلها وكانت هذه الكتلة مكونة من الاطارات الخشبية وحشو القش وبقايا
الجلد وأقمشة السرج والطين والرمل ، كلها مختلطة مع شمع البارافين •

وانى أعترف أن منظر هذه الأشياء الثمينه حينما نقلناهـــا ، بعـــد
الاسعافات الأولية ، كان مقبضا ولكن بعد ما أزيل الشمع الذى أخذ معه كل
المواد القذرة مثل الرمل والطين أصبحت الاشياء الخشبية القيمة في حالتها
الكاملة • أما الاشياء الجلدية فلم يبق منها الا القليل وكان نقل هيكل كل
حيوان مهمة شاقة ولكن من حسن الحظ كانت العظام محفوظة وغير هشة
حتى ان العلاج الكيمائى لم يكن له داع •

عملنا تحت هذه الظروف لمدة من الزمن قبل أن يظهر الفناء الخارجي
المواجه لمدخل المقبرة الذى ما كاد يبدو لنا حتى فرحنا لعثورنا على قنينتين
على الارضية أمام البوابة وفى حالة سليمة احداهما من الفضة والاخرى من
البرونز • وكان معهما آنية أخرى من الفضة ذات شكل غريب جدا الى درجة
اننا ظننا أولا انها خنزير كبير سمين • وكانت هذه الآنية الاخيرة في حالة
سيئة الى درجة اننا اضطررنا الى أن نغطيها بشمع البرافين قبل أن ننقلها -
ولكن بعد تنظيفها ظهر شكلها الطبيعي وهى عبـــارة عن قربة للماء يكون
عنقها غطاء منفصلا ولها مقبض مستدير متصل بالارجل الاربعة بوساطة
سلاسل •

وفي طرفي الفناء الضيق وجدنا البوابات المسدودة المؤدية الى حجرات
منحوتة في الصخر • وبعد الكشف عن المنطقة أمام المقبرة وجهنا نظرنا الى
الباب الجنوبى • بيد أن ازالة السـدة اللبنية لم يستغرق بضع دقائق

وسرعان ما دخلنا الحجرة وفي ضوء الشموع أخذنا طريقنا بين الهياكل التي غطت الارض . وإلى جانب المدخل وجدنا هيكل رجل ومعه سيف من الحديد وطبلة خشبية على شكل برميل وخلفه ترقد هياكل لستة جياد لوحظ من أول نظرة انها زينت بألجمة وبحلى من الفضة .

وفي غمرة فرحتنا بالاكتشاف نسينا أن نلاحظ حالة الصخر غير المستقرة فوق الباب وسرعان ما انتبهنا اليها عندما سمعنا صوت وقوع القطع الهشة المتفتتة فاستدرنا لنجد المدخل وقد ملىء بالحجارة الصغيرة والطوب واللبن المكسر . وكم كانت تلك اللحظات كريهة ولكن سرعان ما فتح العمال المدخل من الخارج وأخرجونا وعلى أية حال فقد كانت تجربة لا تنسى : جلوسنا في جو نصف مظلم وشعورنا مقسم بين الفرحة بالكشف عن الكنز وبين الخوف من أن ندفن معه وأخيرا زال الفزع واتجه اهتمامنا الى ما اكتشفناه .

لقد كان من الواضح ان هذه الجياد الستة كانت من أحب الجياد لدى صاحب المقبرة وان الرجل المضحى به لا بد وانه كان خادمهم . ومن الجائز أن يكون السيف الخالي من الجراب هو السلاح الذي استعمله لقتل نفسه مع انه لم يوجد بهيكله أى أثر لطعنة سيف . أما الطبلة فلم أجد لوجودها أى تفسير اذ ان وجود شيء غير ملائم كهذا في المقبرة صعب التصور . ان الجمة ثلاثة من الجياد كانت من طراز متقن مكون من سيور من الجرز وسير اللجام ولقمة اللجام . أما السيور فكانت مكونة من شرائط فضية ثقيلة متماسكة محلاة على شكل رأسي أسد تتدلى خلف الاذن وعلى الجبين وفي وسط الانف . وكانت الحلية مصنوعة من الفضة المطروقة أما العيون فمطعمة من حجر اللازورد واللسان الممدود منحوت من العاج . أما لقمة اللجام المصنوعة من الفضة الخالصة فكانت من النوع البدائي نفسه الذى عثرنا عليه في المقبرة رقم ٢ الا انها تتفوق في زينتها المتقنة . وكانت مربوطة في رأس اللجام بوساطة دعائم ذات مفاصل متحركة على شكل أسود جالسة مبرشمة من جانبي الفم . أما سيور اللجام فكانت مصنوعة من سلاسل فضية طولها ٧٨ سم ولقد أظهرت الالجمة الثلاثة المتشابهة دقة في الصنع لا يمكن أن يتفوق عليها أى صانع حلى وجواهر في عصرنا هذا ولذلك لم تصل الى حقيقتها حتى الآن . ان العلامات العامة لبقايا المجموعة(س) لا توحى لنا انهم كانوا على مستوى متحضر عال . وكما سأوضح فيما بعد فاننا نعرف أن كثيرا من التحف الخفيفة والدقيقة التي عثر عليها في مقابرهم كانت صناعتها بيزنطية ووصلت الى متناول أيديهم عن طريق النهب في الحروب أو عن طريق المبادلات التجارية . الا أن

أشكالها وزخارفها لا توحي بأصل أوروبي وأكثر من هذا فشكل اللقمة فريد حسب معلوماتي وليس له مثيـــل في مصر أو في أي مكان آخــر من الامبراطورية الرومانية في الشرق • واني أعتقد ان هذا الطاقم البديع من الجياد كان موروثا من العصر المروي القديم •

ولكن هذه الاسئلة لم تضايقنا أثناء الاكتشاف فلقد كنا مذهولين بالحالة الجيدة التي بقيت عليها تلك الاشـــياء وجمال صناعة السلاسل وليونتها التي جعلتها وكأنها مصنوعة من الجلد والجياد الستة التي كان لها أجراس مربوطة حول أعنـــاقها بواسطة حبال لها شراشيب • وكان لبعضها (عقود) أو أربطة للعنق من الصدف • اما الاكتشاف الاكثر أهمية فكان تلك البقايا المتحللة لطوق حصان من الجلد الاحمر يتدلى منه مجموعة من الحلي الفضية المطعمة بفصوص من الاحجار الكريمة ولقد كانت خمسة من هـــذه الحلي على شـــكل رءوس عقيق يمني لاسـود عيونها من حجر «الجارنيت» أما الباقي فكان من الفضة المزخرفة يتوسطها حجر «الاونيكس» يميل شكله الى الطول • وكان أكبر هذه الحلي تلك التي تتوسط الطوق كان محوطا باطار من فصوص من حجر ســيلان والزمرد المصري والجزء الاوسط جعران مصري من القاشاني الازرق مثبت بأظافر (مخالب) وكذلك حلية أخرى كانت مطعمة بكاميو لامبراطور روماني مصـــنوع من العقيق اليمني الجميل • وهذا الخليط العجيب من المجوهرات البيزانطية والجعارين المصرية القديمة وجواهر كاميو الرومانية كانت بداية للخليط العجيب من الكنز التي اكتشفناه فيما بعد ومنها ملاعق فضـية تماثل ما عثر عليه في الجبانة الكبرى في « ستون هو » Sutton Hoo في انجلترا هـذا الى جانب أشياء ترجع الى العصر الصاوي المصري •

وعندما رفع اللجام والأشياء الأخرى فحص الدكتور أحمد البطراوي ، المتخصص في التشريح ، هياكل الآدميين والحيوانات ثم أخذها بعـد ذلك ونقلها الى القاهرة حيث فحصت ثانية في كلية الطب وكان علينا بعد ذلك أن نوجه أنظارنا الى حجرات وجـــدت مختومة في الطرف الشمالي للفناء متوقعين كنوزا جديدة • ولكن خاب ظننا فمع أنهـا احتوت على حصانين لم يتحليا بالسرج واللجام فقد عثرنا معهما على هيكلين لرجلين وخمسين كلبا كانت تتدلى من أعناق بعض منها أجراس صغيرة من البرونز وضـــع حول أعناقها أطواق من الشعر المجدول وأغلب الظن انها كانت كلاب صيد ومعها حراسها الذين قتلوا ليدفنوا معها حتى يقوموا بخدمة هـــذه الكلاب في الحياة الثانية •

وبتنظيف هـــذه الحجرة كنا قد اتممنـا فحص المنحـــدر الخارجي

والفناء وبدأنا نتجه الى المقبرة نفسها · وكانت تتكون من ست حجرات مبنية من الطوب المحروق والحجارة ، وكان لها سقف مقبي ، لقد بنيت المقبرة كلها في حفرة كبيرة طولها ٩٫٨٠ م وعرضها ٩٫٢٨م وعمقها ٥٫٣٠م عن سطح الأرض الطبيعي وكنا قد دخلنا المقبرة نفسها من قبل من ممر اللصوص لذلك لم تكن نتوقع العثور على أى جزء منها غير مسروق · ولقد كان المدخل في وسط الجدار للفناء المفتوح وعندما نظفناه لاول مرة وجدناه مسدودا بقوالب من الطين المحروق (الآجر) فازلناها ووجدنا وراءها بوابة مستطيلة ذات عتبتين من الحجر وكانت هناك عتبة في الارض من الحجر نفسه · ويبدو انها في البداية كان لها باب خشبي ثقيل تدعمه عدة حلقات برونزية مربوطة في الناحية الخارجية · ولكن مع أن الخشب قد تعفن والقطع البرونزية المستديرة قد تساقطت على الارض الا اننا عثرنا على بقايا خشبية ما زالت بها تلك القطع البرونزية في أماكنها القديمة حتى اننا تأكدنا من تفاصيل كل التصميم القديم وبنائه ولكننا لم نتوصل لمعرفة شكل الزخارف التي كانت تستعمل فيها هذه الدوائر البرونزية ·

وفوق عتبة باب المقبرة وجدنا عظاما مبعثرة لبقرة يبدو انها نحرت ووضعت في هذا المكان كنوع من القرابين للميت · وعندما دخلنا المقبرة وجدنا ان الحجرات الستة قد نهبها من سبقونا اليها تاركين كومة مختلطة من عظام السيدات والرجال وأواني نبيذ من الفخار وأوعية وكئوسا كلها موضوعة في وسط بقايا حقائب من الجلد وقطعا من خشب متعفن وخرزا من القاشاني الاخضر والازرق والاحمر · ولم يترك اللصوص الا قطعة واحدة وهي مصباح يدوى من البرونز على شكل راس رجل وكانت فتحة الزيت في أعلى جبين الرأس والموقد في أسفل العنق · وكانت العينان من الفضة المطعمة بحجر « الجارنيت » (حب الرمان) ·

وبعد فحص مرهق لهذه الكومة من الحطام وبعد تصنيف الفخار كل حسب نوعه وطرازه وتسجيله وبعد أن درس الدكتور البطراوى البقايا التشريحية ، اتفقنا على فحص ممر اللصوص مرة أخرى لأننا كنا نعرف من خبرات مضت ان اللصوص باستعجالهم، وفي الضوء الخافت لمصابيحهم كانوا يتركون الكثير في طريقهم الى الهرب وبينما كنا نمارس نحن عملنا بين كميات الاحجار المتراكمة على أرض الممر عثرنا هناك على جزء من درع صغير من الجلد وجعبة سهام جلدية ربما كانتا من بين لباس صاحب المقبرة · ولقد تعود اللصوص قديما أن يجروا جسد صاحب المقبرة الى النور حتى يسهل عليهم نهب المجوهرات وأظن ان هذا هو ما حدث في حالتنا هذه لان الملابس الجلدية والعتاد غير ذات قيمة بالنسبة لمن قاموا

بالنهب ولكننا لم نعثر على أى أثر للجسد مع اننا قمنا ببحث دقيق فى الرمال والبقايا عند بداية المدخل ولكن بحثنا هذا أصبح مجزيا لاننا عثرنا بعد ذلك على صندوق حلى مستدير من الخشب المطعم بالعاج كان قد كسر بوساطة اللصوص عندما عبثوا بما فى داخله • ومع ان جزءا فقط هو الذى تبقى الا انه كان كشفا هاما لأننا صنعنا صندوقا آخر مطابقا لشكله الاصلى حتى تمكنا من تذوق جمال شكله •

ومع نهاية عملنا الناجح فى المقبرة رقم ٣ شعرت ان الوقت قد حان لاذاعة ما اكتشفناه فبعثت بتقرير متحفظ قصير الى مصلحة الآثار فى القاهرة • وأقول «متحفظ» لاننى كنت أعرف ان الاعانات المالية للمسح الأثرى كانت تقل ومن المنتظر أن ينتهى عملنا فى آخر هذا الموسم • وكنت أعرف ان رؤسائى لن يرحبوا بطلباتى لزيادة المال والوقت ويجب أن نعترف ان النتائج الحالية للمسح لم تكن غاية فى الاهمية اذ أدركنا انه بالرغم من تلك الاكتشافات الا انها كانت اعادة لما كشف عنه فى المسح من عام ١٩٠١ الى عام ٩١١ وكان عملا يجب أن ينتهى• هذا بالاضافة الى انهم كانوا يدركون اننى أريد أن أمتد بالبحث حتى شمال السودان لكى نعرف حدود حضارات المجموعة الثالثة وبالنسبة لهذه الفكرة لم يكونوا يكنون لى أى عطف وفى الحقيقة أنه كان ينظر للمسح الأثرى فى القاهرة على أنه واجب لا بد من أدائه وكم كانت فرحتهم بانهائه واتمامه • لذلك كنت أخاف ان أى تقرير يتحدث عن اكتشافات هائلة فى ذلك الوقت ، سينظر اليه بعين التشكك • ورؤية الآثار فى المتحف بالقاهرة من غير مشاهدة الكومات نفسها التى كانت أصلا مطمورة فيها لن تعطى فكرة لقوة وقيمة ماكشفناه • ولقد شعرت اننى يجب أن أحضر المدير العام الى قسطل بأى طريقة ليرى بنفسه كل شىء ، وفى هذا كان تقريرى ناجحا • ففى اليوم الخامس عشر من يناير وصل المدير العام مع بعض الموظفين الى قسطل وفى صالة مركبنا عرضنا الألجمة الفضية ، وحلى الجياد وأشياء أخرى • وقد قدر فى الحال شكلها الفريد وأهميتها التاريخية • واصطحبته بعد ذلك ليزور المنطقة موجها نظره الى ان تحت كل كومة مدخل للمقبرة لا بد وأن يكون سليما وانه حتى المقابر المنهوبة لا بد وأن بها معلومات تاريخية ذات قيمة حيوية • وغير ذلك فلقد قررنا أن القرابين معلومات فى الكومات يمكن الكشف عنها وكان أمامنا بعد ذلك على الشاطىء الغربى من النهر فى بلانة المجموعة الثانية من الكومات التى تعطينا امكانيات أخرى لاكتشافات واسعة • وعلى أية حال فلم يكن المدير العام يحتاج الى اقناع فلقد دبر فى الحال سلفة صغيرة توضع تحت تصرفنا للعمل فى قسطل وأخذ على عاتقه

مقابلة وزير المعارف ليعطينا اعتمادا كافيا لتواجه به مصاريف مجموعة عمال أكبر وموسميين آخرين للتنقيب ، وفعلا نجح في طلبه • وبالاعتماد الجديد ازداد عدد العمال من مائة وخمسين الى اربعمائة وتقلنا من «سقارة» ديكوفيل كان مهما لمواجهة الكومات الكبيرة في بلانة •

وفي هذه الاثناء وقبل أن يصل عمالنا الجدد والديكوفيل بدأنا العمل في الكومة الاخرى في قسطل وفحصناها مقبرة بعد مقبرة وكانت كلها قد نهبت دون استثناء ولكن في جميع الحالات كان المدخل سليما وأمامه التضحيات المكونة من جياد وحمير وجمال ومع أننا لم نجد مقبرة غنية مثل رقم ٣ الا ان هذه المقبرة أعطتنا مجموعة كبيرة من الجمة الجياد المصنوعة من الفضة وسروج مغطاة بالبرونز أحدها على ما أذكر ذو صورة جميلة للالهة «أزيس» تزين خبور «قربوس» السرج • وعثرنا أيضا على رماح من الحديد ، ومصابيح وحلى وأشياء أخرى كثيرة ومختلفة عوضتنا العمل الشاق في ازالة اجزاء كبيرة من الكومة • وهذا غير ما عثرنا عليه مطمورا داخل الكومة نفسها وهذه العادة الغريبة لم تجدها في كل كومة فبعض الكومات لم تعطنا شيئا على الاطلاق بينما كومات أخرى اخرجت لنا أنواعا متواضعة من أسلحة وأوان للطبخ ولكن أهم الاكتشافات من هذا النوع كانت في كومة مقبرة رقم ١٤ •

وعلى ارتفاع عال في الكومة كشفنا مابدا في أول الامر ـ صرة من الاقمشة ذات الالوان الزاهية وبعد ازالة الرمال والطين ظهر أمامنا كشف رهيب • فصرة الأقمشة كانت الملابس الكتانية لفتاة شابة يبدو أنها قتلت • وكان الجسد محفوظا وليس ذلك شيئا غريبا في النوبة عندما تكون البقايا مدفونة في الرمل • وكان جسد الفتاة في حالة غير متحللة لدرجة أنه كان واضحا كيف لقيت حتفها : فلقد قطع عنقها وكانت نقط الدم البنية ما زالت واضحة على الجرح وعلى ردائها • ومهما كان سبب الجريمة فانها لم تكن للسرقة لأن الفتاة كان بجانبها صرة من الأقمشة وبقايا حقيبة من الجلد حوت الاثنتان حليا ثمينة وأشياء أخرى ويتصور المرء عدة حلول بالنسبة لهذا الكشف • هل كانت الفتاة منذ البداية احدى التضحيات مع نساء أخريات في المقبرة ثم هربت ليعثر عليها بعد مراسيم الدفن واقامة الكومة ؟ أو ضحى بها ووضعت في الكومة كقربان ؟ أم لقيت الموت كذنب لسرقتها صندوقا يحوى كنزاً كان قد وضع في الكومة كتقدمة (لقد عثرنا على صندوق مسروق قريبا من الجثة) •

ان الحقيبة التي كانت بجانبها كانت حديثة الشـكل ومصنوعة من الجلد الغليظ ولها مقابض من الحديد وقفل ذو سقطة يبدو في حالة سليمة ولكن بعد الفحص وجدنا ان شمع البرافين لن يستطيع حفظه . وبعد رسومات بالمقياس والصور العادية تحطم من أول لمسة لنكتشف ماتحويه الحقيبة : سكينا صغيرا من الحديد ذا مقبض من القرن ووعاء من النحاس استعملا في الغالب لخلط المساحيق . ومن الأدوات الأخرى وجدنا مكحلتين من الخشب وأدوات من الحديد لوضع المسحوق الأسـود الرمادي اللازم لجمال العيون الشرقية . وكانت للمكحلتين أهمية كبرى بالغة لأنهما كانتا من طراز مصري قديم اذ كانت احداهما على شكل « أبو الهول » جالسا على قاعدة والرأس الآدمية كانت محوطة بالشـعر المشـهور والعيون مطعمة بالعاج . أما المكحلة الثانية فتمثل شـكلا محنطا للاله رع . وعلى الرأس التي على شكل الصقر كانت الباروكة الثقيلة يعلوها شكل مخروطي منفصل يمثل غطاء المكحلة وهاتان المكحلتان الخشبيتان كانتا ذات حجم صغير اذ لم يزد ارتفاع الواحدة منهما على أربع بوصات .

كانت محتويات الحقيبة الباقية مكونة من الحلى وأهمها زوج من الأقراط الفضية (ذات الصياغة المخرمة ومرصـعة « بحجرتان » من البزيل وحجرتان من العقيق . ثم أربعة أختام دائرية ثقيلة احدها محفور عليه منظر لزهرة اللوتس المصرية وآخر عليه شكل أسد واقف أما الاثنـان الآخران فخاليان من الحفر . وهنـاك خاتم خامس من الفضة المطروقة مرصعة بخمس حبات من البيريل وخمس قطع من « الجارنيت » وعثرنا في قاع الحقيبة على عقود جميلة من الفضة ومن الخرز المرجاني وسوار من الفضة مرصع بقطع صغيرة من الاليستر والفضة والعقيق .

وعندما فحصنا صرة الملابس وفتحناها ظهرت لنا حلى أسرى وخاصة عقود من الفضـة والعقيق والمرجان وخرز من القاشـاني الأزرق والزجاج ذات أشكال عدة ومقاسات مختلفـة . أما القطعتان الأكثـر قيمـة فكانتا زوجين من الأقراط الفضية من طراز واحد ولكن مع الطراز نفسه اختلاف في طريقـة الترصيـع . ولقـد أخذ طرازها شكـل لوحة فضية صـغيرة يتوسـطها أميتست كبيرة مستطيلة وكان يتـدلى من قاع اللوحة الفضية دلايتان من الفضة المخرمة مرصعة بالمرجان وعثرنا في الصرة أيضا على شيء آخر لافت للنظر وهي أسورة فضية مرصعة بخمسة أحجار أميتست وأربعة جارنت واثنين بريل . ومن الجائز أن تكون هذه المقتولة كانت تتحلى بهذه المجوهرات عندما كانت طفلة .

وكما ذكرت من قبـل عثرنا بالقرب من الفتاة المقتولة على صندوق

خشبي كبير كان قد كسر وفتح وسرق • وهذا الصندوق الذى أصبح الآن من كنوز متحف القاهرة عثر عليه وقد وقع على جانبه وغطاؤه مكسور • وكان مستطيل الشكل وارتفاعه حوالى ٣ أقدام وله أربع أرجل لم يكن لها وجود عندما عثرنا عليه• وكان الظهر والجوانب والجزء الأعلى مصنوعا من الخشب. ولكن الجزء الأمامى كان مزخرفا باتقان ومطعما بالعاج والابنوس البارز •. وهذه الزخارف معشقة بين قطع من العاج المطعمة بأشكال ميثولوجية شهوانية ذات ألوان حمراء وخضراء وكان غطاء الصندوق يمسك بوساطة مفاصل من النحاس وسقطتين تدخل فى قفل مستطيل • وهذا القفل كان أية فى الصناعة والصحيفة المنحوتة بدقة وأواخر السقطتين منحوته على شكل أسدين رابضين • وكان بالقفل خدعة فكما تحدى اللصوص تحدانا نحن أيضا لأن الخشب كان هشا فأصبح من الصعب ازالته لفحص طريقة استعماله • ان الذين سلبوا الصندوق جاءوا مستعدين لأن السقطتين كسرتا بوساطة ضربات متتالية من أزميل حاد • أنه من التفاهة أن نفكر فى علاقة بين الصندوق المسروق والفتاة المقتولة ولكنى أعترف أن الحلى التى وجدت فى حوزتها تجعلنى أميل الى الاعتقاد بان هناك علاقة بينهما واذا كانت الفتاة قد هربت من التضحية العامة أثناء مراسيم الدفن فى المقبرة ، فلا يبدو طبيعيا أنها ستعطل هربها بحملها الصندوق وصرة الحلى؛ ومن ناحية أخرى فصرة الحلى تعطينا فكرة بأنها ربما سقطت من اللصوص • ولكن اذا كان قد قبض عليها وهى تسرق الصندوق فلابد وأن يكون هؤلاء الذين قبضوا عليها قد إرجعوا المسروقات بعد أن نفذوا فيها العقاب • لانهم لم يثقوا فيها وظنوا أنها تعرف أكثر مما يجب ؟ وحتى هذا الاعتقاد ضعيف لانهم بعد أن تخلصوا منها أصبح من غير المعقول أن يتركوا المجوهرات وراءهم • على أية حال فأمامنا حادث قتل غامض يرجع إلى ألف وخمسمائة سنة وهنا يجب أن نتركه •

ان العثور على أشياء مختلطة مدفونة بطريقة غريبه فى الكومات جعلتنا لا تستطيع أن تجيب على تساؤلاتنا باطمئنان حتى اليوم وعلى قدر ما يمكننا أن نؤكد فان كومات قسطل مليئة بالأشياء المدفونة هذا بالاضافة الى ان بعضها كان رءوس رماح أو أوانى لطهى الأكل • فالتساؤل اذن هو : هل من الأفضل ان تنفق كميات من النقود فى ازالة كل الكومات آملين فى العثور على تحف ؟ ولاننسى أن الفحص أساسا موجه للمقبرة بما فى ذلك الجزء الذى يعلو سطح الأرض والجزء الذى حفر فى باطن الأرض وذلك لا يتطلب ازالة أكثر من ثلث الكومة • ويجوز بعد ذلك بالازالة المرتقبة للكومة أن تستخرج بعض الأشياء ربما كان لها قيمة • ولكن هل لهذا

قيمة ؟ وبعد سنتين من عملنا في النوبة رجعنا لبضعة أيام الى قسطل وازلنا ما تبقى من كومة المقبرة رقم ٢ • ونجحنا في العثور على ابريقين بديعين من الفضة المطروقة في حالة سليمة جداً والاثنان يرتفعان ٢٥ سم ولكن هذا كل ما وجدناه حتى في المجسات التى قمنا بهـا في الكومات الأخرى •

وفي آخر شهر يناير من عام ١٩٣٢ وبعد الكشف عن كل مقابر قسطل أحسست ان اخلاء الكومات أكثر من هذا لن يفيد في شيء وفي أوائل شهر فبراير انتقلنا الى الشاطىء الآخر للنهر لنبدأ الجزء الأكبر من عملنا الا وهو الكشف عما تحويه الكومات في بلانه •

وكومات بلانه في شكلها الخارجي لاتشبه كومات قسطل وخاصة أنها بدت وكأنها تلال صناعية لأنهـا دفنت تحت الرمال وتآكلت أطرافهـا من عوامل الاحتكاك (التعرية) حتى أن مظهرها أحيانا كان يرجح أنها ليست من صنع الانسان وكنت أحس أنني مضطر الى أن أنظر الى كومات قسطل لأسترجع ثقتي • وكنا قد عزمنا على ان نؤجل الكشف عن مجموعة بلانة حتى الموسم القادم عندما سيكون العمـال الكثيرون قد وصلوا ويكون الديكوفيل معهم • ولـكن نظرا لوجود فرصـة طارئة للعمـل جعلتنـا لا نقاوم اغراء وضع نظرياتنا تحت التجارب فبدأنا عمليات تنظيف وازالة الكومة التى فوق المقبرة رقم ٣ وقبل أن نقتحم الكومة بحثنا عن مدخل لصوص كالذى عثرنا عليه في قسطل ولكن مع الجهد الشديد في البحث لم نعثر عليه فزاد هذا من شكوكي فالكومة رقم ثلاثة كانت ذات حجم كبير يفوق كومات مجموعة قسطل فارتفاعها ١٢ م وقطرها ٧٧ م ويوما بعد يوم كنا نزيل كميات الأتربة والطين متقدمين في بطء دون جدوى وطوال شهر فبراير الذى كان من أبرز الاشهر في النوبة كان رجالنا يكافحون للوصول الى قطع على شكل حرف ٧ يصل الى مستوى الأرض عندما وصلنا الى الهدف وجدنا ان هذا القطع يجب أن يوسع والسبب في ذلك هو نوع الصخر الهش الذى يجعل الحروف المنحدرة غاية في الخطورة • ولم نعثر على شيء في الـكومة يشجعنا على المضى في العمل أما بالنسبة لى فهذه الاسابيع الاربعة التى لم أعمل فيها شيئا الا ان آراقب فيها تقدمنا البطىء كانت من أثقل الايام في حياتى وأكثرها مللا • ولكن كل شيء يجب ان يصل الى نهاية وفي أمسية السادس من مارس وصـلنا الى سطح الارض بعـد ازالة أكثر من نصف الكومة ــ ونظفنا منطقة واسـعة تحت مركز الكومة وتوقعنا أن نصـل الى جوانب بئر المقبرة كما كان الحال في قسطل • ولكن بدلا من هـذا رأينا منطقة مسطحة شبه صخرية صلبة نتجت عن الرواسب الطميية اعتبرها

عمالنا «جبلا» أي أرضا طبيعية وإذا قلت أني كنت مصابا بخيبة أمل فهذا قليل جدا بالنسبة لشعوري حينئذ فلقد كنت مذعورا ورجعت كل مخاوفي المكتومة بأن كومات بلانة لم تكن الا رواسب طبيعية وبينما كنا واقفين نتناقش أخذ أحد عمالنا المهرة في شق الأرض الصلبة حتى وصل الى حفرة صغيرة وعلى عمق قدمين من سطح الأرض عثر على ثلاث قطع صغيرة من الفخار . وبينما كان يناولنا هذه الاشياء لنفحصها ادركت بسرور ان مخاوفنا لم تكن في محلها وان الأرض التي وقفنا عليها كانت فعلا طبيعية وان سبب ذلك هو أن الرطوبة الناتجة من تسرب مياه النيل العالية أو من الفيضانات قد خلطت الرواسب الطميية والقوالب اللبنية التي تكون بناء المقبرة حتى أصبحت قطعة واحدة متماسكة وصلبة .

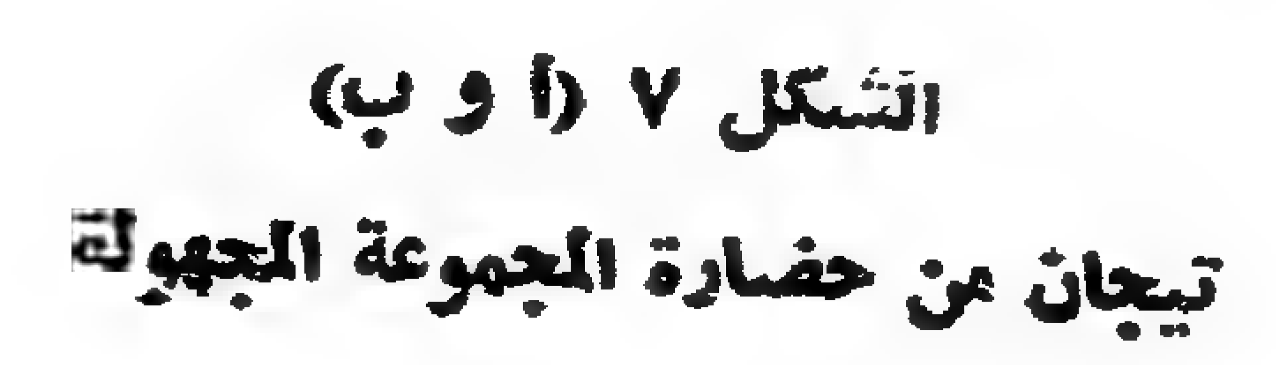
ولم نستطع أن نعمل أكثر من ذلك في تلك الليلة ورجعنا الى مراكبنا والامل كبير في الغد . وفي الحقيقة كانت آمالنا أكبر مما كانت عليه عندما كشفنا عن مقابر قسطل وذلك لأنه اذا كانت المقابر قد أصبحت قطعة صلبة بوساطة الماء فمن الجائز أن نجدها سليمة لأنه من الصعب في هذه الحالات الدخول بوساطة ممرات حتى لأمهر اللصوص . وفيما بعد وجدنا ان آمالنا في هذه الناحية قد تحققت بعض الشيء فمع أن بعض المقابر قد سرقت بوساطة الممرات وربما حدث هذا قبل الفيضان الا ان معظمها كانت سليمة تماما . لذلك فان تلف بناء المقبرة بوساطة الماء كانت نعمة بالنسبة لنا الى حد ما لأن الماء والرطوبة اتلفا أشياء كثيرة كانت قد حفظت جيدا كما حدث في قسطل وعلاوة على ذلك فصعوبة التنقيب كانت مضاعفة لأن كل قطعة نعثر عليها كان علينا أن نقطعها لنتخلص من الطين المتجمد الذي كان عالقا بها وكان لابد لنا ان نقتفي أثر جدران المقابر وكان عملا شاقا لان البناء أصبح كتلة واحدة من الطين المتجمد .

وفي اليوم التالي بدأت عمليات الحفر باجتهاد عندما تعود عمالنا على العمل في هذه الكتلة الغريبة من الطين ولم يمض وقت طويل حتى خططوا حوافي الحفرة التي بنيت فيها المقبرة وبسرعة تعرفنا على بقايا السقف المقبي المصنوع من اللبن لاحدى الحجرات التي ملئت وتكدست بأواني النبيذ وعندما ازلناها وجدنا في آخر الجزء الجنوبي للحجرة كنزا صغيرا من أشياء فضية وهي تتكون من أطباق واوعية وكئوس مزخرفة وصندوق واناء لحرق البخور وملاعق وكان أحد هذه الاطباق جميلا بصورة خاصة فلقد صب ونحت وكان له قاعدة مستديرة غير عميقة الصق بها بوساطة لحام . أما سطحه فكان مزخرفا بأشكال كلاسيكية للاله هرمس وهو نصف عار يجلس على كرة . وعندما ذهبنا الى حجرة أكبر وجدنا عظاما مبعثرة وهي على ما يبدو بقايا مقبرة نهبها اللصوص الذين دخلوها بالطريقة نفسها المتبعة في

قسطل • ولكنهم هربوا تاركين بعض الاشياء مثل مصباحين من البرونز وأواني وأشياء أخرى من الفضة وقلادة بديعة من الخرز الذهبي ودلايات لاشكال مضرية قديمة •

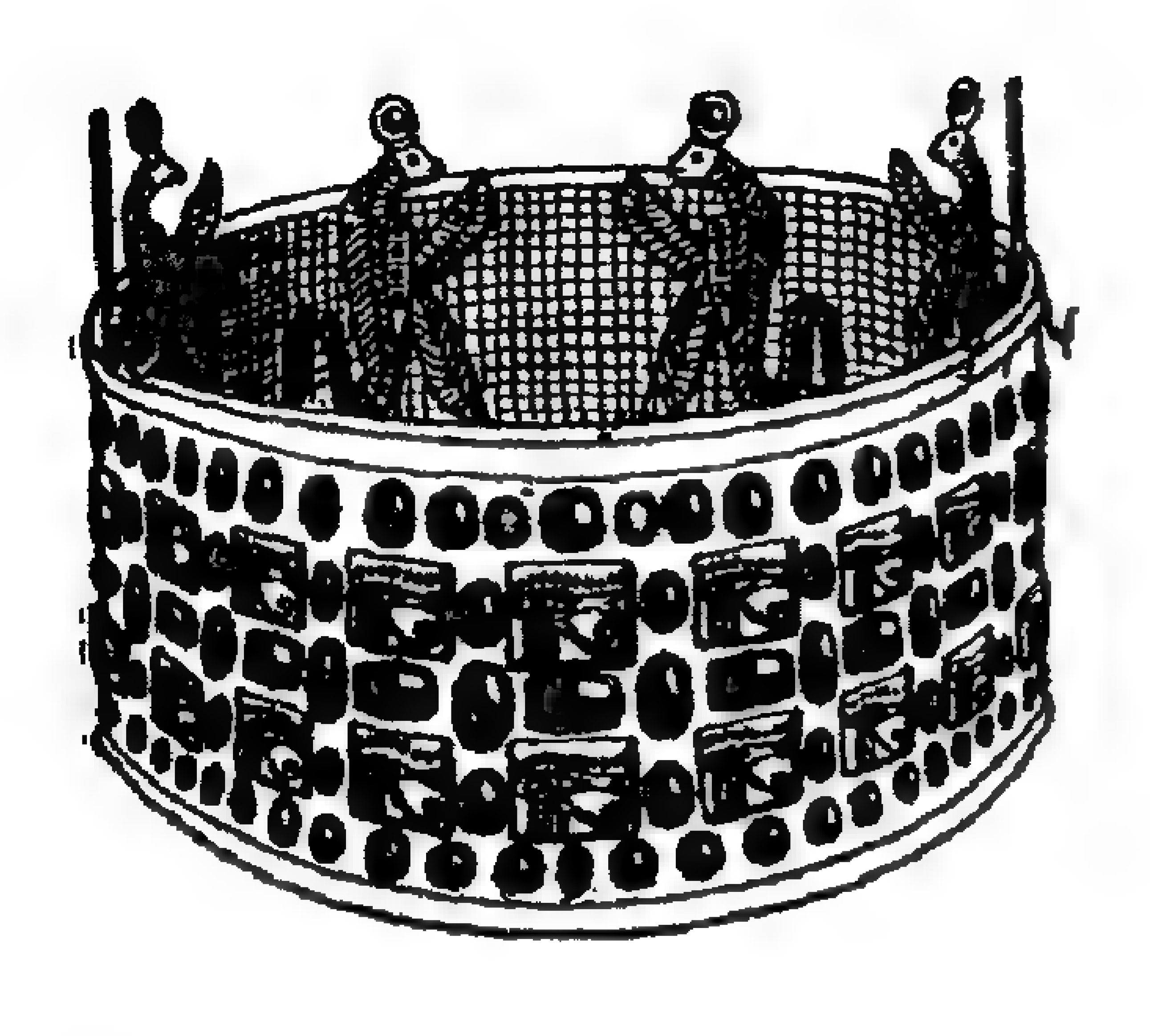
وبانتهاء عملنا في مقبرة رقم ٣ ختمنا الحفائر ورجعنا الى القاهرة متلهفين للحصول على بضعة شهور لدراسة الاشياء التي عثرنا عليها • ومن أكثر الأشياء التي تقلق الباحث في حقل الحفائر ان معظم البعثات التي تذهب الى اماكن مقفرة مثل النوبة السفلى لايمكنهم أن يحملوا معهم الا كمية محدودة من الكتب للمراجعة حتى انه في بعض الأحيان يجد المكتشف قطعة غريبة لا يعرف تاريخها أو نوعها فحينئذ لابد له أن يكتم شغفه ويصبر حتى يصل الى المدينة حيث عالم المكتبات والمراجع وهذا هو ماحدث بالنسبة لاكتشافاتنا في بلانة وقسطل لانها كانت ترجع الى عصر كنت اجهله الى حد بعيد وكنت شغوفا ان اقارن ماعثرت عليه باشياء تماثلها كانت قد عثر عليها من قبل • فكانت فترة الثلاثة الأشهر التي امضيناها في القاهرة قبل اجازتنا السنوية التي قضيناها في انجلترا فترة ، مثيرة مثل الشهور التي كشفنا فيها الآثار• ان اثبات شخصية أشياء غامضة مثل صندوق النرد الفني وجدناه في قسطل وتنظيف مصوغات الجياد في معمل المتحف امدتنا باكتشافات جديدة متتالية • وطبعا لم يكن ذلك مثيرا على طول الخط فكثيرا مامرت ساعات طويلة من العمل المتواصل كانت تنقضي في ترتيب وفهرسة وتنويع الفخار وغيره وحينما قارب شهر يونيو على الانتهاء كنا مستعدين لفترة نستريح فيها في جو اكثر برودة •

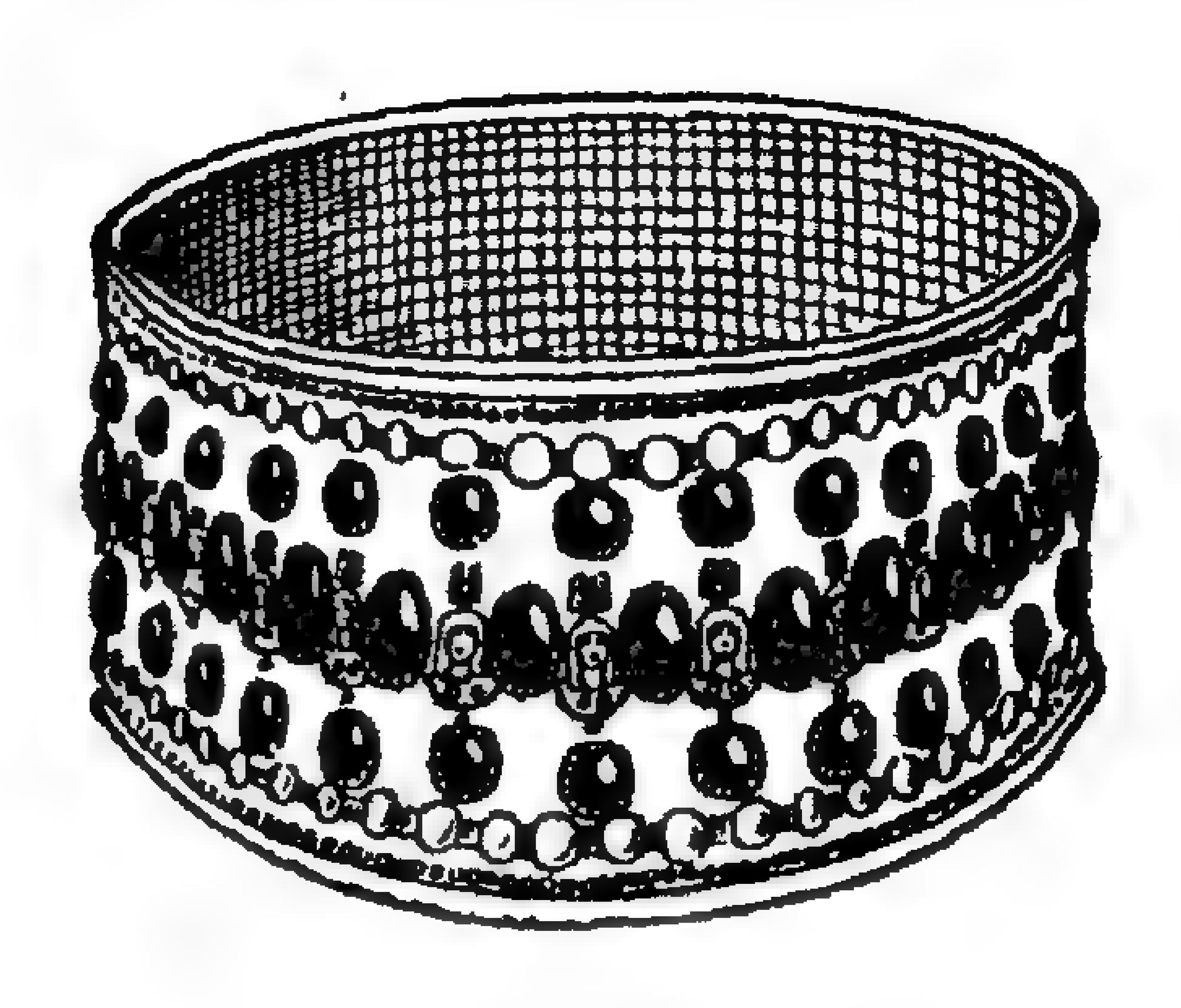
وفي خلال فترة الراحة سمحت وزارة المعارف المصرية بالسلفة الاضافية التي طلبتها مصلحة الآثار وفي أوائل شهر اكتوبر ١٩٣٢ رجعنا الى النوبة بصحبة أربعمائة عامل مع لوازم الدكوفيل وقد كنا طبعا نتوقع أن الكومات الأكبر ستكشف لنا عن مقابر أغنى ومن أجل هذا الاعتقاد وقفنا كل هذا الموسم للكومات الكبيرة ولكن كانت النتائج بصفة عامة مخيبة للأمل فان عددا من هذه المقابر كان سليما ولكن معظمها كانت صغيرة وليست غنية مثل مقابر قسطل وكلما ازدادت حصيلتنا من الخبرة والمعرفة أدركنا أنها من عصر متأخر عن مقابر قسطل وانها كانت تنتمي الى فترة اتسمت باضمحلال قوة المجموعة س وثرائها ومع ذلك فقد عثرنا في المقابر على قطع فنية وثمينة اكثرها لافت للنظر مثل تاج من الفضة موضوع فوق رأس صاحب المقبرة رقم ٦ وكان هذا التاج عبارة عن دائرة عميقة ليس لها غطاء ومزين بزخارف بارزة تكون راس الالهة ازيس مطعما بين كل صورة واخرى بحبات مستديرة ومستطيلة من العقيق ركبت فيها جواف فضية



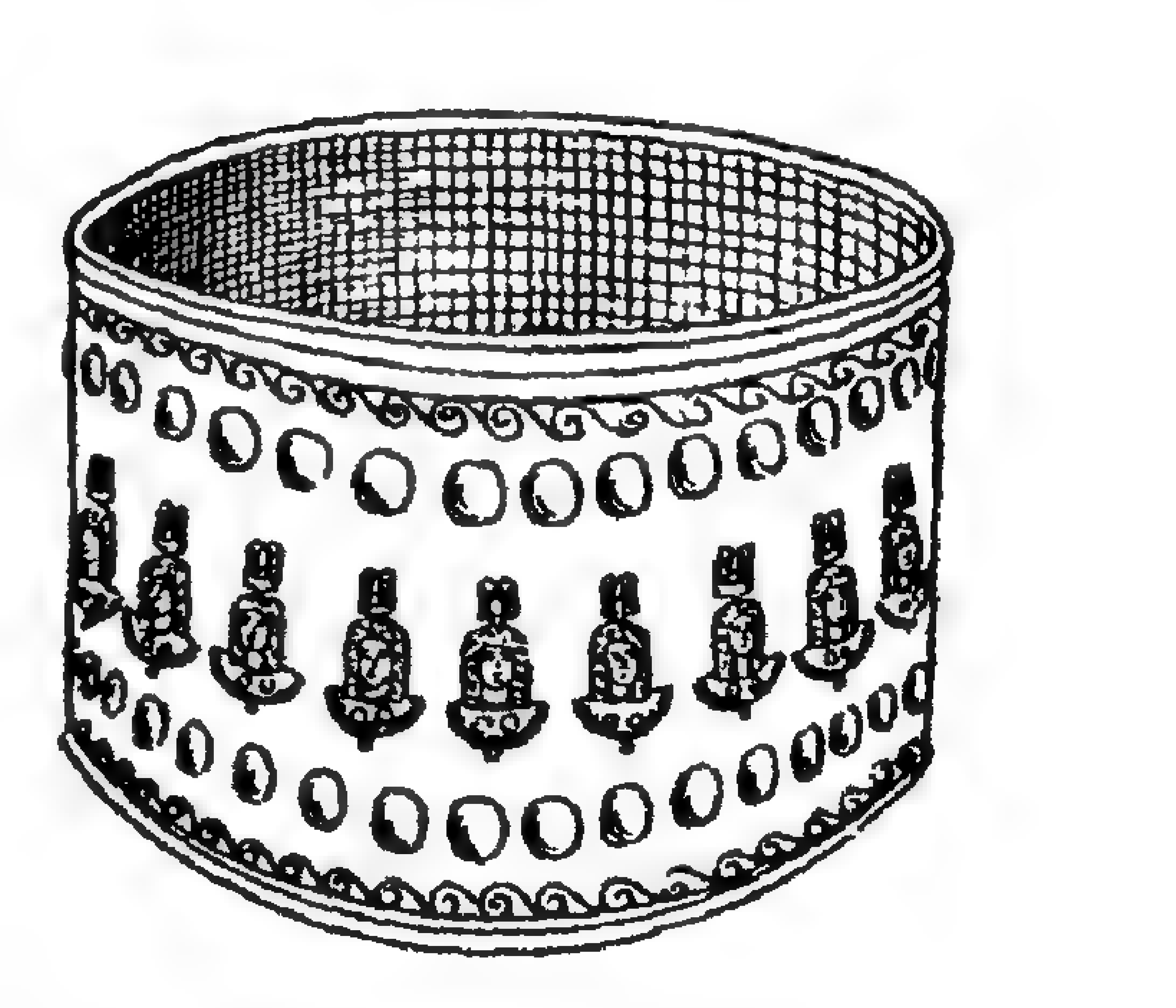
الشكل ٧ (أ و ب)

تيجان من حضارة المجموعة المجهولة

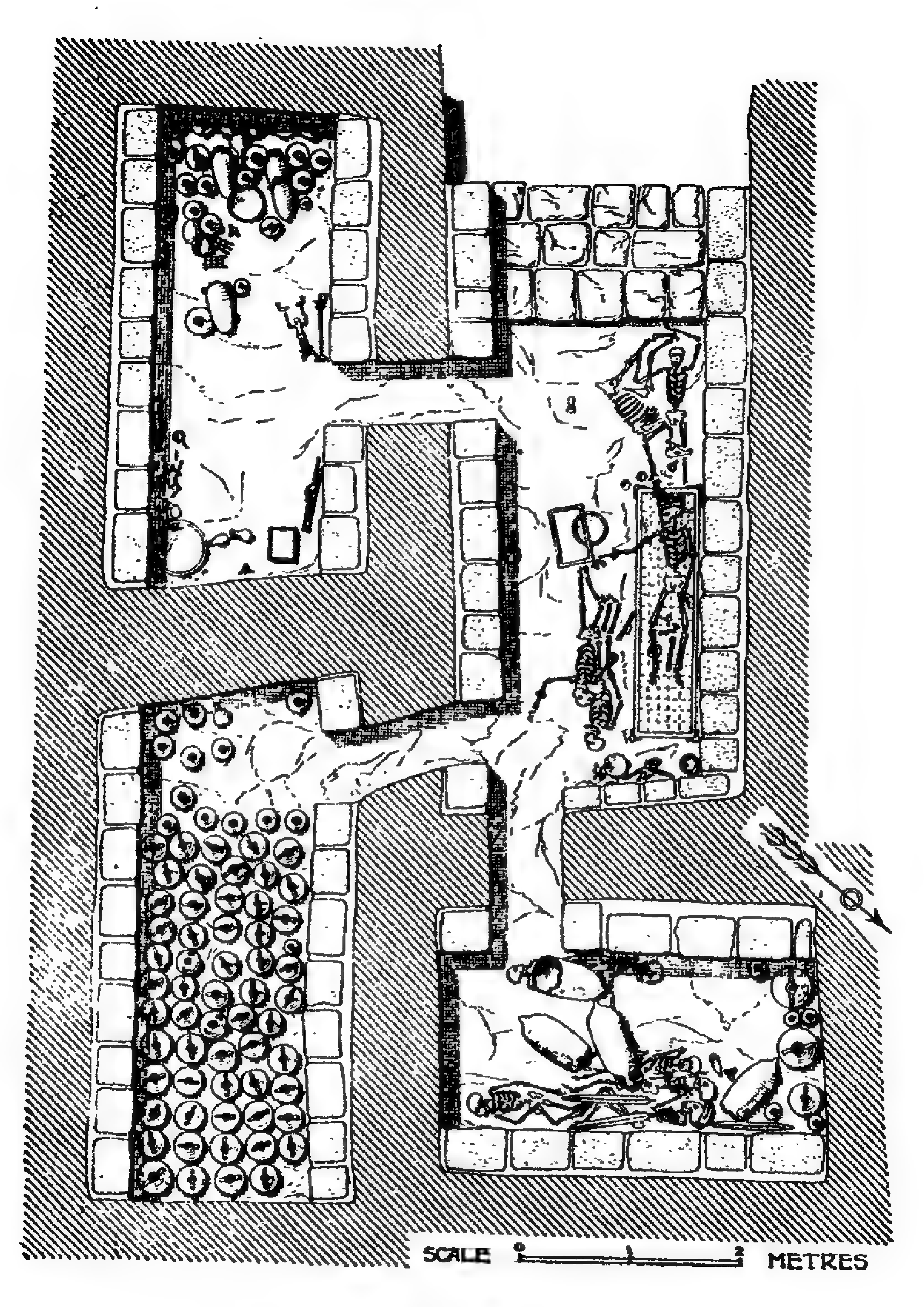








الشكل ٧ (ب)



الشكل ٨

طريقة الدفن فى المقبرة رقم ٨٠ فى بلانة

انظر ايضا شكل ٤٤

مزركشة وهو بصفة عامة عبارة عن خليط من الفن المصرى القديم والفن البيزنطى (الشكل ٧) ومن الأشياء المهمة الاخرى رماح من الحديد المطلى بالفضة وكراب للأقواس من الفضة وسهام كما تم العثور على كمية كبيرة من الحلى • ولكنا مع ذلك لم تكن راضين ، لأننا توقعنا الكثير بعد النتيجة المذهلة لحفائر الموسم الماضى والحقيقة اننا رجعنا الى القاهرة فى شهر فبراير ١٩٣٣ وقد انفقنا تقريبا ثلاثة اضعاف ما انفقناه فى السنة الماضية مع اننا عثرنا على أشياء أقل بكثير • ومع ذلك فأن اكتشافاتنا وبالأخص ذلك التاج قد استرعى النظر كما استرعى اهتماما كبيرا فى متحف القاهرة • ومما اثلج صدرى انه لم يقترح وقف العمل أو اختصاره لذا صممت على أن نفحص جيدا كل كومة مهما كانت صغيرة •

وبينما كنا فى القاهرة وكانت المدة قد طالت لاكثر من شهر حتى بدأنا نحس باحساس لذيذ وهو اننا فى « اجازة » حدث ان استدعانى المدير العام على عجل وقال لى أن مصلحة الرى اعلنت أن العمل فى خزان اسوان سينتهى قبل التاريخ المحدد وكان هذا الخبر يعنى ان كل التنقيبات فى النوبة وليس فقط بلانة وقسطل ، يجب أن تنتهى قبل آخر مارس ١٩٣٤ فلم يكن هناك امامنا خيار فى ذلك اذ كان لابد من رجوعنا الى النوبة حالا دون تفكير مبكر فى السفر الى انجلترا لقد كانت لنا تجربة طويلة مع الشتاء فى النوبة ففى بعض الأحيان كانت الحرارة تبلغ فيه حدا مرهقا ومن ثم فقد كانت فكرة العمل هناك فى شهور ابريل ومايو ويونيو غير مقبولة • وعلى اية حال فلقد استعدنا ثقتنا بعد الاهتمام الذى لاقيناه فى المتحف بماظننناه نتائج غير مرضية لعمل موسمنا الأخير فرحلنا الى الجنوب ومع الجزازة المتوقعة فقد كنا فى حالة نفسية مرضية • ولو علمنا ما كان ينتظرنا ما احتجنا الى اقناع بالسفر فى هذه المدة القصيرة وغير المريحة أو قمنا باعظم اكتشافاتنا • • •

فبعد وصولنا الى بلانة فى بداية شهر ابريل بدأنا التنقيب فى المقبره رقم ٨٠ التى كان يعلوها كومة صغيرة فى الطرف الشمالى للجبانة وهنا لاول مرة عثرنا على مدفن ملكى لم يمس ابدا حتى اننا اخيرا راينا وعرفنا طريقة مراسيم الدفن لحكام المجموعة س (شكل ٨) وان دفنة المقبرة رقم ٨٠ لم تكن غنية ومتطورة مثل مدافن العصر المبكر فى قسطل ولكنها كانت كاملة لذلك عرفنا كل الاجوبة لأسئلة لم تجد لها حلولا وكنا قد صادفناها فى المدافن المنهوبة فى الشاطىء المقابل للتيل • ولقد كان التنقيب بطيئا لأن الحجرات الأربعة المقبية للمقبرة المبنية من اللبن كانت قد أصبحت قطعة صلبة من الطين بسبب عامل الماء ولذلك فان الجدران اذا لم تكن قد قويت

بمدماك سفلى من الحجر فانى لااعتقد اننا كنا سنعثر عليهم • ففى حالة كهذه لم يكن هناك اى دليل على شكل المقبرة فوق سطح الارض اسفل الكومة أو حتى أى اثر لحواف مجموعة الحفر التى بنيت المقبرة فيها • فحفرنا حفرة اختبار على امل أنها تمس نقطة بجانب الممر المنحدر المؤدى الى مدخل الجزء الذى تحت الأرض ولكن بدلا من ذلك وجدنا أنفسنا فى داخل حجرة الدفن • وعلى أية حال فلقد مضى بعض الوقت قبل ان ندرك هذا لأنه كما شرحت من قبل ، كانت مقابر بلانة قطعة صلبة من الطين ولم يكن من المستطاع التعرف عليها الا بعد الكشف عن كل جدار وكل قطعة بوساطة الحفر بالسكين وسط الطين المتجمد بالحجرة وكذلك التعرف على طريقة وصفها • وبالفعل فان أول شيء اظهرته لنا سكاكين العمل كان تاجا من الفضة الخالصة مازال موضوعا على راس الملك ولكننا فى هذه الاثناء لم نتعرف عليه كتاج كما اننا لم نعرف أنه موضوع على جمجمة آدمية فكل ماشدناه كان شـيئا غـريبا مصنوعا من الفضة ومرصعا بفصوص من الاحجار الكريمة • وللكشف عن اى قطعة فى مثل هذه الظروف فمن الضرورى أن نقطع ونزيل قطعة صغيرة من الطين الرطب الذى يكسوها وننتظر حتى تجف القطعة المقطوعة ليمكننا تنظيف السطح المكشوف بوساطة فرشاة ومنفاخ • ويستغرق كل هذا وقتا طويلا الى درجة ان المكتشف يعمل لعدة ساعات قبل ان يتعرف على الشيء الذى يسترعى الانتباه • وهذا ماحدث عندما عثرنا على التاج وتعرفنا أولا على الجزء العلوى الذى كان على هيئة الريشتين اتف واخيرا على الجزء المستدير الذى كشف لنا لأول مرة عن لباس الراس الملكى النموذجى للملك المروى (شكل ٧) الذى كنا نعرفه من قبل من مناظر له على جدران الآثار القديمة • واظهر العمل الشاق الذى استغرق عدة ساعات بوساطة السكين والفرشاة والمنفاخ أولا الجمجمة المكسورة وفوقها التاج وأخيرا الهيكل الملكى كله وكان متمددا على ظهره وذراعه الأيمن ممدودا الى الأمام • وكانت حول عنقه قلادات من خرز الكارنيلين والحجر الرملى والكرستال والجاسبر وحول ذراعيه أساور من الفضة وعلى يمينه وجد سهم من الفضة وعلى يساره مبخرة من الفضة المنحوتة بأشكال مصرية قديمة • أما بين ساقيه فقد عثرنا على خنجر صغير من الحديد له مقبض فضى وجراب فضى ذى زخارف بارزة • وبعد التنظيف فهمنا الوضع لهذا الهيكل الغريب • فلقد كان فى الاصـــل موضـــوعا على نعش ذى مرتبه من الحبال المجدولة وقد كسر ووقع تحت ضغط سقف الحجرة الذى انهار ولذلك تلاشى خشب النعش ولكن الحوافى الأربعة البرونزية التى كانت تقوى البروز كانت لا تزال فى مكانها الأصلى اذ أن مقابيات النعش كانت معروفة • اما عن الحبال المجدولة فهى ايضا قد اختفت ولكن شكلها كان ظاهرا على الطمى المتجمد على الارض أما العظام

التى لم تتناثر فكانت توحى بأن انهيار المقبرة الذى نتج عن مياه الفيضان قد حدث بعد الدفن بقليل عندما كانت انسجة الجسد لاتزال قوية ٠

وتحت راس النعش وجدنا هيكل كلب كبير وبين السرير ومدخل المقبرة المسدود عثرنا على بقايا جمل ورجل راقد على ظهره وذراعاه مرفوعتان كأنه يحمى رأسه من ضربات المنقذ ٠ عثرنا أيضـــا على بقايا مفتتة لعظام آدميين فى الجزء الجنوبى من النعش ولكنا لم نستوثق من جنسها فاحدهما كان يرتدى اساور من الفضة المطعمة بالفصوص والثانى كان معه سيف من الحديد له مقبض وجراب من الفضة كما عثر فى الركن الشمالى للحجرة على كمية من السيوف والحراب المطلية من الفضة وسكاكين طولها يصل الى ثلاثة أقدام ويبدو من شكلها ان بعض الحراب وضعت واقفة مستندة على قدم النعش ومعها وجدت أيضا أوان برونزية ومجموعة من السهـــام رءوسها مصنوعة من احجار نصف الكريمة ٠ وفى منتصف حجرة الدفن عثرنا على أوان برونزية أخرى وكرسى من الحـــديد يشبـــه تماما كراسى المخيمات الحديثة ٠ وكانت قاعدته مصنوعة من الجلد أو القماش الذى تلف منذ زمن ٠ وعندما ظهر كل ما تحويه حجرة الدفن بدأ المصور عمله ورسمت صور تفصيلية تشير الى مكان كل قطعة بعينها ٠ واخيرا جاء العمل الشاق فى نقلها وفحص البقايا الآدمية من المتخصص فى التشريح ٠ واخذت قطع الجمجمة الملكية من داخل التاج ٠ وهذه العملية الدقيقة كان لابد من اتمامها من غير نقل التاج أو تحريكه لأنه كان فى حالة هشة ٠ ولنقله لجأنا طبعا الى صديقنا الأثرى الثمين فى منطقة العمل واقصد به شمع البرافين ، فمن غير مساعدته لاشـــك فى أننا كنا سنحفظ أهم اكتشافاتنا فى بلائه وقد صنعنا صندوقا من القطع الخشبية ليس له قاعدة حول التاج والقطع الدقيقة الخفيفة للجزء الخارجى ذى الفصوص وقد دهنت القمة بزيت سلاطة ثم بعد ذلك صب شمع البرافين المغلى داخل الصندوق بحيث اصبح التاج مطمورا فى الشمع والطين ٠ وعندما جف الشمع وبرد نقل الى سفينتنا حيث سخن الشمع مرة اخرى حتى يمكن قشره بسهوله من على سطح التاج الخارجى الذى دهن بالزيت اما الشمع الذى وضع داخل الجزء المستدير للتاج وفى ظهر الجزء العلوى المرتفع فقد ترك فى مكانه حتى وصلت التحفة الى معامل المتحف بالقاهرة حيث أزيل الشمع اخيرا ٠

وبعد نقل كل محتويات حجرة الدفن وجهنا اهتمامنا نحو منحدر المدخل المتجه الى المقبرة وهناك عثرنا على بقايا جياد التضحية والجمال من غير اثر لسرج أو لجام أو زينتهما وبالرغم من ثراء المدافن الا ان هذه المقابر الصغيرة الحجم اظهرت انها كانت فقيرة بالنسبة لمقابر قسطل ، ويمكننا

أن نتصور فقط مدى غنى مقابر من سبقهم لانه كما اشرنا من قبل ، كانت مقابر بلانة من عصر لاحق لعصر مقابر قسطل . وهناك فى الناحية الاخرى للحجرة أمام المدخل الرئيسى باب صغير يؤدى الى حجرة حيث وجدنا هيكل الملكة ومن حولها اماء قد قتلوا عند دفن سيدتهم وكان على راس الملكة تاج له جزء علوى اما الجزء المستدير فكان مزخرفا باشكال بارزة للملك مصرى اما من الامام فرصع بثلاثة احجار بديعة من العقيق . والى جانب البقايا الآدمية عثر على هذه الحجرة أيضا على رماح مطلية بالفضة وكمية من الأوانى الفخارية .

وأخيرا فحصنا الحجرتين الباقيتين ووجدنا ادوات جنائزية من كل نـــوع وصنف : مصابيح برونزية كبـيرة ومناضد برونزية وركيزة ثلاثية الارجل واوانى برونزية لا حصر لهـــا واوانى من البرونز لحرق البخور ذات شكل صينى وموازين برونزية ومعهـا مجمـوعة من المثاقيل وخاتما من الذهب مرصـعا بقطعة من الجارنيت كان قد وضـــع مع الموازين لارتباطه بها فى بعض المراسيم . وعلاوة على ذلك وجدنا كمية كبيرة من الاوانى الفخارية بعضها لم يزل يحوى طعاما وشرابا لاستعمال الملك فى الحياة الثانية . وبعض اوانى المجموعة كانت جميلة جدا وتذكرنا برسوماتها بالفخار المروى الرقيق الجوانب والذى يتصل به تماما .

وهناك مجموعه أخرى ذات أهمية خاصة وهى كمية كبـيرة من رءوس الحراب الحديدية ورءوس الفؤوس وسبائك من الحديد وآلات من الحديد تستعمل للاعمال المعدنية . وبذلك نجد هنا تكملة لعادات جنائزية مصرية نعرف انها كانت موجودة فى مقابر ملوك الاسرة الاولى من حوالى أربعة الاف سنة قبل ان يتوق هذا الملك النوبى غير المعروف . ان المصرى القديم كان يعتقد انه عندما يموت « يمكنه ان يأخذ معـه » ولذلك كان يدفن معه الطعـــام والشراب والاثاث والملابس والالعـاب والسلاح ليستعملها فى الحياة الثانية ولأنه كان بعيد التفكير فلقد ادرك أن الاشياء المهمة مثل السلاح بعـــد فترة ستكسر أو تتلاشى وليضمن وجودها فكان يترك فى المقبرة الآت وادوات وما يمكن ان يصنع منـــه أسلحة أخرى . فمثلا فى مقابر ملوك الاسرة الأولى في سقارة عثرت على سكاكين من الظران وبجانبهـــا قطع من الظران الطبيعى يمكن للميت ان يصنع منها سكاكين أخرى اذا احتاج الأمر لذلك . وهنا فى النوبة فى عصر كانت الأفكار والاعتقادات القديمة فيه قد نسيت بعد أن دخلت المسيحية مصر كان ملوك المجموعة س لا يزالون يتمسكون بها والى جانب سيوفهم وحرابهم وضعوا حديدا وآلات ليصنعوا بها أسلحة أخرى فى حالة

كسرها • وكانت تلك الآلات الحديدية حديثة الشكل الى درجة أنها اذا عثر عليها فى ظروف أخرى لاعتقدنا أنها تستعمل فى أيامنا هذه وأنها صنعت فى أى مصنـــع • والى جانب هذه الآلات المكونة من مطـــارق وأزاميل ومناشير وكماشات وقاطعات معدنية فلقـد زود الملك نفســه بفئوس حتى يمكنه زراعة حقول الحياة الثانية •

وطوال مدة تنقيب المقبرة رقم ٨٠ كان جو شهر ابريل فى النوبة جميلا ومع ان النهار كان حارا الا أن الليالى كانت تخفف عنا والمعيشــة على ضفاف النهر كان لها ميزة وهى وجود نسيم الشمال الملطف • وفى الحقيقة سررنا لأن الحرارة لم تكن أعلى مما كنا قد تعــودنا عليه فى أواخر شهر مارس ولكن فى بداية شهر مايو طرأ علينــا تغيير سريع ففى خلال أربع وعشرين ســاعة واجهتنا حرارة الصيف النوبى غير المحتملة وكان مقياس الحرارة الذى نمتلكه فى سفينتنا يســـجل ١٢٠ درجة فهرنهايت فى العاشرة صباحا والحقيقة ان الحرارة دائما شديدة ولكن منـذ بداية شهر مايو حتى تركنا المنطقة لم ينخفض مقياس الحرارة تحت الدرجة ١١٠ فارنهايت أثناء النهار ولم تكن الحرارة تنخفض كثـــيرا أثناء الليل •

وعلى أية حال فبعد الاكتشافات المثيرة فى المقبرة رقم ٨٠ كنا كنا مستعدين ان نتحمل كثيرا وبدأنا بفحص كل المقابر واحدة واحدة فى المجموعة الشمالية وكانت النتائج ناجحة لأن معظمهـــا نجا من عدوان اللصوص ومع أن هذه المقابر صعبة التنقيب الا أنها كانت مجزية •

وعلى الرغم من اختلاف المقابر فى الحجم والشكل الا أن الطريقة العامة فى المدافن كانت واحدة وبالتدريج اخذنا فكرة واضــحة لطبائع وعادات الدفن البدائية لهؤلاء القوم الغرباء الذين حــذوا حذو المصريين القدماء فى اعتقاداتهم الدينية منذ القرن الرابع الى السادس بعد الميلاد • ولكن طبيعة المصرى الانسانية نسيت وانتشرت التضحية البشرية • ان المصريين القدمـــــاء اعتقدوا ان الخدم والجوارى مهمين لراحة العظمـــاء والأموات كما كان الأثاث والأكل والشراب لازما أيضا ولم نجد تضحية بشرية الا فى العصور الموغلة فى القدم • فعندما ادركوا وحشية هـــذا الاجراء حل المصريون هذه المسألة بواسطة السحر • فوضعت نمـــاذج للخدم فى المقابر معتقدين ان الروح ستبعث فيهم الحياة الثانيــة لتقـــوم بخدمة صاحب المقبرة • ولكن قوم مجموعة س فضـلوا التضحية الحقيقية فعثرنا فى مقابر ملوكهم وتبلائهم على الدلائل القاطعة لوحشية التضحية البشرية • ومن الواضح ان موت احد هؤلاء الحكام القـــدماء كان يتبعـــه

التضحية بكل المقربين له حتى زوجته أى الملكة التى كانت ترتدى تاجها ومجوهراتها . اذ كان المحتم عليها ان تصحب سيدها فى الحياة الثانية . فكان الحاكم يأخذ كل شيء معه : خدمه من ذكور واناث وحراسه وسائس الخيل وكذلك الخيل حتى كلابه أيضا ولقد عثرنا على هياكل لآدميين كانوا يرقدون على وجوههم كما لو كانوا قد ضربوا من الخلف ببلطة وآخرين وكانهم قد ماتوا خنقا . فأثناء تنظيف هذه المقابر المملوءة بخليط من مظاهر الترف البشرى والتعذيب الانسانى لم يكن صعبا علينا ان نتصور المنظر المرعب لجثة الملك الراقدة على السرير فى المقبرة يعقبها سيدات ورجال قد أخذهم الرعب يجرهم قاتلوهم فى الظلام .

وكلما كشفنا عن مقبرة جديدة فى الحر الشديد اكتشفنا تيجانا فضية مرصعة بالجواهر بعضها ادق صنعا من التى عثر عليها فى المقبرة رقم ٨٠ ولكن كان لا بد من معالجتها كلها بسائل البرافين حتى نتمكن من نقلها سالمة (شكل ٧) ان هذا العمل فى داخل حفرة وبجوار موقد بريموس وجرادل من الشمع المغلى وفى درجة حرارة تزيد على المائة وعشرة فهرنهايت فى الظل كان شاقا للغاية وغير محتمل ولا أعتقد أننا كنا سنكمل التنقيب لولا أننا عثرنا على هذه الاكتشافات العجيبة . وكما قلت من قبل فان المقبرة كانت ذات شكل واحد عامة الا فى بعض الاحيان عندما تتغير تفاصيلها أو عندما يطرأ عليها تغييرات جوهرية فى التصميم لتضليل اللصوص وهذا ماحدث فى المقبرة ٤٧ التى دفنت فيها ملكة لقبناها باسم « ميلى المدندشة » « Jingling Millie » وقد نهب جزء من المقبرة ولكن مهندسى المقبرة استطاعوا ببراعتهم أن يخدعوا اللصوص فى السرقة ففى مقابر ثلاثة مثلا أقيمت حيل لتضليل اللصوص، مثل اخفاء المدفن تحت سطح الأرض وفى كل الحالات التى دخل فيها اللصوص المقبرة كشفوا عن حجرة الدفن ووصلوا اليها ماعدا مقبرة هذه الملكة لأن حجرة الدفن وضعت عالية فوق مستوى الارض ولم نكتشفها نحن الا عندما كنا نقطع فى الكومة التى كانت تعلو حوافى الحفرة التى بنيت فيها المقبرة . وحجرة الدفن كانت صغيرة جدا ومتصلة بالجزء الاساسى للمقبرة عن طريق بوابة مقبية عالية فى الجدار الغربى للحجرة الاساسية وبعد الدفن بنى هذا الباب باللبن وغطى بطبقة من الجص . ويجب ان اقول اننا فرحنا جدا عندما تصورنا خيبة امل من سبقنا الى المقبرة وخاصة عندما ظهر لنا مدى ثراء « ميلى المدندشة » أن الوصول الى مقبرة ملكية عن طريق ممرات متعبة وبعد حوادث السرقة ومحاولات

العثور على حجرة الدفن شيء صعب . وعلى أية حال فمصيبتهم كانت ذات فائدة لنا . وبعد التنظيف العادى وازالة السقف المقبى المنهار ظهر هيكل الملكة راقدا ومغطى بالحلى أو قل محملا لأنه لايمكن أن تتحلى الملكة بهذا العدد الكبير منها . ولسوء الحظ ان الرطوبة قد اتلفت الهيكل ولم يبق منه الا القليل ولكن استطعنا أن نتأكد من أن الجثة كانت راقدة على ظهرها بالطول . وعلى الراس كان التاج الفضى ذو الثلاثة أجزاء المستطيلة على شكل قرون وريش أزيس مطعمة بالفصوص أما ذراعاها فقد عثرنا عليهما على عشرين أسورة فضية بعضها مستدير وبعضها ذو نقوش جميلة مغلفة بحجارة العقيق اليمنى والزمرد المصرى والجمشت والجارنت . اما حول عنقها فقد ارتدت طوقا فضيا يشبه تماما ماترتديه العذارى فى واحة سيوة فى عصرنا هذا . وعلاوة على الطوق كان حول عنقها اربعة عشر عقدا من خرز فضى وعقيق وكوارتز واليسب والأوليفين والسبج والستياتيت ذات الطلية الزجاجية . وعلى كل ناحية من الرأس عشر على تسعة أزواج من الاقراط الفضية المزينة بالمرجان والخزف وفى الاصابع أحد عشر خاتما من الفضة بعضها بسيط وبعضها مزين بالاحجار الكريمة . اما الأرجل فوضعت فيها خلاخيل ثلاثة من الفضة واربعة من المرجان . اما أصابع الأرجل فزينت بأشكال عدة لخواتم فضية . ان هذه المجموعة تعتبر أكبر مجموعة من المجوهرات فى نوعها مع ان هناك مقابر أخرى اعطتنا اشياء ذات طابع مثير .

وفى اواخر شهر مايو بدأت الحرارة الشديدة تؤثر على العمال واعضاء البعثة . ومع اننا حاولنا ان نعمل فى الصباح الباكر والليل الا اننا بدأنا نلاحظ ان المدة لن تطول وأخير اعلن العمال انهم لن يقدموا اكثر من هذا واظن انهم كانوا قد وصلوا الى اقصى مايستطيعون عندما اضطروا الى أن يرتدوا أحذيتهم أثناء العمل لشدة حرارة الرمل . ففى أوائل شهر يونيو أمضينا أسبوعا مضنيا حزمنا فيه الأشياء الثمينة التى عثرنا عليها ورجعنا الى القاهرة منتصرين ولكننا كنا فى حالة اعياء شديد .

وبعد سفر قصير الى انجلترا رجعنا الى النوبة فى أكتوبر ونقبنا عن بقية المقابر فى بلانه وفحصنا بعض المدافن فى قسطل مرة أخرى وقبل أن نغادر المكان اخيرا قمنا بالبحث الجذرى لعلنا نجد أى أثر لقبيلة أو مدينة تكون قد جاورت مثل هذه الجبانة الكبيرة ولكن مع اننا قد عثرنا على بقايا مدينة مدفونة الا ان البحث اثبت انها من عصر لاحق ولم يكن لها أى اتصال بمقابر المجموعة س الا اذا كانت قد أنشئت لتزود الرجال

الذين كانوا ينهبون المقابر • وعلى أية حال فقد أوصلنا هـذا البحث الى اكتشاف ثمين لاننا لاحظنا فى الصحراء قريبا من النهـر قنوات صغيرة للرى استعملت قديما لزراعة الأرض وطمرتها الرمال • وتكملة للبحث فقد ظهر لنا ان المنطقة كلها كانت منطقة خصبة وانه تحت الرمل وعلى عمق قدم أو قدمين يمكن أن تصل الى التربة الســوداء الطميية • وكانت الحكومة المصرية تبحث عن مناطق جديدة فوق مستوى الميـاه يمكن أن يستقر فيها بعض سكان النوبة الذين ستضيع قراهم فقدمت اقرارا سريعا بالكشف لوزير الزراعة الذى بعث بمختصين يفحصـون الامكانيات وبعد أن أعطوا تقريرا طيبا شق وزير الاشغال العامةالقنوات ووضع جهاز مضخات محكم وكانت النتيجة أن الأرض التى وجدناها صحراء أصبحت من أكثر الأراضى خصوبة فى النوبة • وزرت بلانة بعد مضى ست وعشرين سنة فى أكتوبر ١٩٦٠ وقد ادهشنى أن أرى التغيير فى مظهرها بغابات النخيل والنباتات الخضراء وللأسف فانهـا ستهلك أخيرا عن آخرها بسبب ارتفاع آخر لمنسوب مياه خزان جديدة •

ان اكتشافات قسطل وبلانة كانت آخر العمل للمسح الاثرى الثانى فى النوبة • وقد أمضينا سنة أخرى فى متحف القاهرة نحضر المـادة التى ستنشر والتى أكملت وانتهت سنة ١٩٣٥ ؛ لقد كانت اكتشافات مثيرة ومرضية ومع ذلك فقـد تركت أسئلة كثيرة دون اجابة • من هم سكان المجموعة س ؟ إلى أى مدى انتشرت حضـاراتهم جنوبا ؟ لقد كنـا نعلم بوجود كومات اصغر ترتفع فوق مقابر فى « فركا » و « سـاى » وأماكن أخرى من شمال السودان • وعلاوة على ذلك فقد اثيرت مشكلات أخرى بعد المسح الاثرى فمثلا مسألة الحدود الجنوبيـة لحضـارة المجموعـة الثالثة لن تحل الا اذا استؤنفت الابحاث نحو الجنوب فى السودان ولحـل هذه الغوامض فكرت فى أن أحاول تدبير اسـتمرار العمـل ومع أن اقتراحاتى كانت محل اعتبار فى بداية الأمر الا أنها فيمـا بعـد رفضت على اعتبار أن آثار النوبة العليا فى السودان غـير مهددة بميـاه الخزان الجديد ولن تهـدد حتى فيما بعد • وفى هـذا الوقت كنت متأكدا أن مشروعى لن يرفض الى درجة اننى كنت قد هيـأت كل شىء حتى الخرائط للحملة ولكنى أصبت بخيبة أمل كبرى حينئذ • أما الآن وبعـد خمس وعشرين سنة فان هذه الخرائط قد اثبتت انها ذات فائدة اذ ان عالم الآثار المصرية يواجه مشكلة المسح الأثرى الثالث فى النوبة الذى يجب ان يمتد الى شمال السودان •

وحتى بعد اتمام النشرات كان لا يزال ينقصنا ما يجب أن يعمل

فى القاهرة مثل عرض القطع الأثرية فى المتحف ولو أن قطعة من الاكتشافات فقط هى التى كان من الممكن أن نعرضها لأن القطع المكررة كانت كثيرة . الا اننا احتجنا الى صالتين وكانت احدى المشكلات الكبرى هى كيف نعرض السروج والالجمة وحلى الجياد وكانت أول فكرة طرأت لنا هى وضعها على حصان محشو . ولكنها لم تكن سهلة المنال فى القاهرة حينئذ . وأخيرا تذكر رئيس امناء المتحف ان احد محلات السروج كان عنده حصان خشبى بالحجم الطبيعى لوضع السروج عليه . وكان صاحب المحل رجلا طيبا رضى ان يعيرنا الحصان الذى قلد بالجص فى معامل المتحف . وكان الخطأ هو ان الحصان الخشبى كان مصنوعا على مقاييس حصان استرالى بينما اللجام والحلى والسروج كانت مصنوعة لجياد أفريقية صغيرة ولكن أمكن أخيرا تثبيت هذه القطع على الحصان مع ان السروج الصغيرة تبدو سخيفة على الحصان الكبير ولكنى لم أسمع أى تعليق على هذا الموضوع وما زال الحصان الجصى واقفا حتى يومنا هذا فى المتحف مزينا بكل اللوازم القديمة وأظن انه منظر اخاذ جدا .

ومن الناحية الأثرية لم ينته العمل فى بلانة وقسطل . ان التنقيب وتجميع الكنز الذى كان تحت الكومات اكتمل ولكن درجة معرفتنا لقوم المجموعة س لايزال محدودا جدا وكما قلت من قبل مازلنا غير متأكدين من اصلهم ومن هم . ومحتويات مقابرهم الملكية تظهر خليطا عجيبا لحضارات مصرية قديمة وبيزنطية مسيحية وافريقية بحتة اذا كان من الممكن ان نسميها كذلك ــ ولكن صلة الارتباط هذه ما زالت غير مؤكدة وقد اختارت الجمعية المصرية للتنقيب ، واضعة فى اعتبارها هذه الحقيقة الى حد ما ، اختارت موقع ابريم كواحدة من التزاماتها فى الحملة العالمة لانقاذ آثار النوبة لعل اكتشافات ابريم تعطينا الدليل الذى يحل لنا مشكلة حضارات المجموعة (س) .

الفصل الرابع

التنقيبات الحرة

توثت عدة منظمات ومعاهد للآثار القيام بالحفر والتنقيب والتسجيل فى النوبة وهذا الى جانب العمل الرئيسى الذى قامت به الحكومة المصرية نتيجة للتعليمات المتعاقبة لخزان أسوان ، وقد ساهمت نتائج العمل – الى درجة كبيرة فى بعض الاحيان وصغيرة أحيانا اخرى – فى معرفة تاريخ النوبة • ومع أن الحفائر كانت قليلة على شاطىء النيل فيما بين الشلال الأول والشلال الثانى قبل انشاء الخزان وتهديد تلك الحضارات النوبية القديمة بالفناء ، الا أن تسجيل الآثار والنصوص الصخرية فى المنطقة نال اهتماما كبيرا ومنذ انشاء علم الآثار فقد ركز العلماء اهتمامهم واجتهدوا فى هذا الحقل الغنى من البحث العلمى •

ولقد زار مؤسس علم الآثار المصرية « جان فرنسوا شمبليون » النوبة مع « نكولا روسالينى » فى عام ٢٩ – ١٩٢٨ وقام بتسجيلات هامة للنصوص وعمارة الأبنية • وقبل هذا فى سنة ١٨١٩ أقام المهندس الفرنسى الشهير « هويرت » الذى صمم قوس النصر ، رسوما أفقية لعدد من المعابد ووضع عددا من رسوماته تحت تصرف شمبليون الذى استعملها لتصحيح تفاصيل الصور فى كتابه « وصف مصر » •

ولم يكن البحث الأثرى سهلا حينئذ فى النوبة . فالسفر البطىء بالمراكب الشراعية وحالة الأمن غير المطمئنة جعلت حيـاة المنقب صعبـة جدا . ونلمس هذا من خلال التسجيلات التى خلفوها لنا ، فى صـورة غير دقيقة ، تحمل كل علامات العمـل العاجل الذى تم تحت تهديد مستمر بالتوقف .

وفى الحقيقة لم تؤت المعلومات لآثار النوبة ثمارها بنجاح الا فى منتصف القرن الماضى . ولقد قاد « كارل ريتشارد لبسيوس » بين سنة ١٨٤٢ وسـنة ١٨٤٥ البعثة البروسية فى مصر والنوبة وبمسـاعدة مجموعة مؤهلة من ناقلى النقوش epigraphists فجمع مادة كبيرة نشرها سنة ١٨٥٩ فى الاجزاء الاثنى عشر من كتابه «الآثار» الذى لا يزال الى يومنا هذا من أهم المراجع فى مكتبة الآثار المصرية . ولقد خصص جزءا كبيرا من هذا العمل الضخم لمعالم النوبة ، وانا لنعجب لنـوع العمل التسجيلى والدقة العامة للرسومات الهندسـية اذا قدرنا الوقت المحدود الذى استغرقته البعثة اذ لا بد أنها كانت معجزة فى النظام . ومع كل هذا العمل والمسئولية فلقد وجـد « لبسيوس » الوقت ليقـوم بدراسة اللهجات النوبية ونشر نتائج أبحاثه فى عام ١٨٨٠ .

ومع أن التصوير قد عرف منـذ أوائل القرن الحـالى وكان عاملا مساعدا للسجل الأثرى الا أنه لم يستعمل فى النوبة الا منذ سنة ١٩٠٧ . ففى هـذا العـام زار المنطقـة عالم الآثار المصرية والمؤرخ الإمريكى المعروف « برستد » . وفى اثنـاء جولة طويلة وصل خلالهـا حتى السودان . فالى جانب نسخ يدوى لنصوص مهمة ، استعمل برسـتد التصوير الفوتوغرافى ، وكثير من تسجيلاته بهـذه الطريقة لا يمكن أن يفوقها تصويرنا الآن . وكان عمله قيما ، الا أن بعضـا من المادة التى درسها قد ضاع الآن .

كما فحص أيضا القلاع التى على حدود الشـلال الثانى تاركا معلومات ذات قيمة كبيرة « لريزنر » عندما نقب فيما بعد بعض هـذه المناطق . و « ريزنر » مدين أيضا « لسومرز كلارك » الذى كان فى وقت من الأوقات يعمل مهندسا فى مصنع كاتدرائية سانت بول الا انه كان دائما مهتما بالعمارة المصرية القديمة . ولقد نشر « كلارك » دراسة عن القلاع المصرية فى النوبة سنة ١٩١٦ . ومع انها دراسة ذات طابع عام الا أنها وضعت الأساس لدراسة هذا النوع من العمارة المصرية .

ومن بين التنقيبات التى أجريت في النوبة خارج المسحين الأثريين منذ منتصف القرن الماضي يمكننا أن نذكر الآتى :

ان بعثة الألماني « ارنست فون سيجلين » التي تمت تحت إشراف الاستاذ « جيورج شتايندورف » ما بين عام ١٩١٢ : ١٩١٤ قد حفرت في منطقة عنيبة التي كانت « ميعام » العاصمة القديمة للنوبة السفلى فى الأسرة ١٨ . وهنــاك عثر « شتايندورف » على مقــابر عديدة مهمة من عصر المجموعة الثالثة كما عين مكان الجدار العظيم لقلعة بنيت فى ذلك العصر مثلها مثل كل الحصون العسكرية التى بنيت فى زمن الأسرة ١٢ ووسعت فيما بعد في عصر الامبراطورية حتى انهـــا أصبحت حينذاك من أكبر المدن المحصنة فى النـوبة كلهـــا . وبنشـوب الحرب العـــالمية الأولى منع « شتيندورف » من فحص حفــائره بالتفصيــل ولم يرجـــع ويحفر هذا المكان المشهور الا أثناء المســـح الأثرى الثانى ما بين عام ١٩٢٩، ١٩٣٣ نيابة عن مصلحة الآثار المصرية . ومع أن حالة اطـــلال القلعة الواسعة كانت مخيبة للأمل نتيجة لعوامل التآكل بسبب الرياح الا أن « شتيندورف » خرج منها بمعلومات قيمـــة عن العمـــارة العسكرية في هذا العصر عوضته كل سنى البــحث وكميات النقـود التى صرفها على المشروع .

ولقـــد كانت هنـــاك بعثة « اكلى ب . كوكس » التابعة لجامعة « بنسلفانيا » تحت اشراف الدكتور « رندال ماكيفر » وحفرت عدة مواقع ما بين الشلال الأول والشـــلال الثانى فى الفترة ما بين أعوام ١٩٠٧ ، ١٩١١ . وكان يعـــاون « ماكيفر » ، « ليونارد وولى » الذى أصبح فيما بعد المكتشف المعروف للمقابر السومرية لملوك « أورو » والذى حصل على لقب فارس لخدماته فى حقل آثار الشرق الأوسط . هذان الرجلان ساهما فى بداية حياتهما العلمية الى درجـة كبيرة فى تطـــور معلوماتنا عن تاريخ النوبة بعد قيامهما بالحفائر فى « أريكا » «وكارانوج» « وبوهن » كما نشرا نتائجهما بالتفصيل . ولقد كانت معلوماتنا بدائية فى ذلك الوقت عن آثار النوبة وكذلك كان بعض التاريخ والتعرف على حفرياتهما خاطئا ولكن طريقة تسجيلهما التفصيلى صححت ذلك الخطأ بسهولة في السنين التالية بعد أن وضحت صورة التاريخ النوبى . .

وفى الفترة ما بين سنة ١٩١٠ ، ١٩١٢ قامت بعثة « اكسفورد » فى النوبة تحت اشراف الأســـتاذ « جريفث » بحفائر طويلة فى « فــرس » « باخورس » القديمة والواقعة على الحدود بين مصر والسودان ، وعلى

بعد خمسة وعشرين ميلا شمال الجندل الثانى . هناك فى ذلك الموقع القيم كشف « جريفيث » عن بقايا من كل العصور تقريبا منذ عصر ما قبل الأسرات ، والمجموعة الأولى من العصر النوبى حتى العصر المسيحى • وقد تمت حفائر جريفيث فى النوبة على مساحة واسعة ومع ذلك فان الكثير لم ينقب عنه ، والموقع الآن تحت فحص البعثة البولندية التى وصلت الى نتائج مثيرة للغاية خاصة ما يمت ببداية العصر المسيحى فى وادى النيل •

ولقد انتهى ريزنر من المسح الأثرى الأول سنة ١٩٠٩ ولكن مشاكل آثار النوبة لا تنسى بسهولة ففى سنة ١٩١٢ بدأت مرة أخرى حفائر فى كرما بجانب الجندل الثالث • وقد كان كشفه فى ذلك الموقع من بين الاكتشافات الأكثر اثارة فى النوبة ومع ان النتائج التاريخية التى استقصاها منها وضعت موضع التساؤل فى ضوء الحقائق التى أنتجتها الاكتشافات الجديدة الا أنها أصبحت أكثر أهمية لتسجيله الدقيق الذى كانت احدى خصائص ريزنر فى العمل . وهناك فى كرما عثر على بقايا بناءين كبيرين من اللبن وبجوارهما مقابر غطيت بكومات كبيرة من الطمى وأكبرها كان لها مساحة أرضية حوالى ٥٠٠ م مربع • واعتبر ريزنر أن احدى هذه الأبنية اللبنية محطة تجارية محصنة شيدها المصريون فى الدولة الوسطى وربما كان اعتقاده صحيحا ولكن شخصية البناء الثانى ما زالت فى حاجة الى دراسة مع أنه من المؤكد أنه من أصل مصرى . اما المقابر ذات الكومات فهى من أصل نوبى وفى الغالب كانت مكانا لدفن ملوك كوش القديمة عندما كانت تكافح ضد مصر فى الدولة الوسطى وعصر الاضمحلال الثانى • وهذه الدفنات البدائية حيث وجدنا التضحيات البشرية كأهم خاصية لها ؛ ليست مصرية مع أننا عثرنا على قطع مصرية فيها • فلقد أتت هذه عن طريق التجارة أو النهب أثناء الحرب • وليست كما ظن ريزنر دليلا على أن أصحاب المقابر مصريون حكموا كرما كمستعمرين وبعد موتهم دفنوا على طريقتهم وعادات بلادهم . ومع أن كرما لا تهددها مياه الخزانات الجديدة فأظن أنه لا يوجد مكان فى النوبة يستحق التنقيب مرة أخرى أكثر منها وأتمنى أن تلقى الاهتمام الذى تستحقه عن قريب •

ورجع ريزنر مرة أخرى الى النوبة بين سنة ١٩٢٤ ، ١٩٣٢ عندما أشرف على بعثة جامعة « هارفارد » ومتحف « بوستون » للفن

لحفره بعض القلاع المصرية الواقعة فى منطقة الجندل الثانى وهنـا أيضا ندين لهذا العالم الكبير لتسجيلاته التفصيلية التى مكنت من نشر أعماله بصورة مشرقة والتى ظهرت سنة ١٩٦٠ أى بعد وفاته سنة ١٩٤٢ بعدة أعوام .

ومن البعثات الأخرى التى خرجت بنتائج تاريخية قيمة البعثات البريطانية فى مواقع جنوبى المناطق التى كانت ستغمرها مياه الخزان الجديد ففى أعوام ١٩٣٠ ، ١٩٣٤ ، ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ نقبت بعثة إكسفورد مواقع « كاوا » « وفركا » تحت اشراف « جريفيث » « وكروان » ونشرت نتائجها باسهاب ، وفى «كاوا» سنة ١٩٣٠ كشف جريفيث عن معبد طاهرقا وبقايا الأبنية الدينية من عصر أمنحتب الثالث واخناتون وتوت عنخ آمون . وأصبح مؤكدا أن « كاوا » هى « جمآتون » المدينة التى أنشأها اخناتون فى النوبة العليا لنشر عبادته الجديدة فى الجنوب . ولم تجر اكتشافات أخرى فى «كاوا» حتى ١٩٣٥ ، عندما رجعت بعثة أكسفورد تحت اشراف كروان الذى خرج بمعلومات كثيرة عن الاحتلال الطويل للمدينة والذى دام على الاقل حتى العصر المروى الأعلى . ولكن تاريخ انشاء المدينة غير معروف فربما يرجع بعيدا حتى الدولة الوسطى . وما زال الكثير باقيا فى « كاوا » التى يمكن اعتبارها أحد المواقع ذات القيمة الكبيرة فى النوبة العليا .

ولقد قامت بعثة اكسفورد تحت اشراف كروان بالتنقيب فى «فركا» سنة ١٩٣٤ حيث كشفت عن آثار مهمة فى جبانة من المجموعة س ومع أنها نهبت بوحشية الا أنها أخرجت مادة قيمة أسهمت فى معرفتنا للسنين الأخيرة للنوبة الوثنية .

كما كشفت « جمعية التنقيب المصرية » مدن من الدولة الحديثة فى «سيسبى» «وعمرة» غرب تحت اشراف الاساتذة «بلاكمان» و «فيرمان» . ودلت «سيسبى» التى قام بتنقيبها فيرمان سنة ١٩٣٧ على انهـا مدينة أنشأها أيضا اخناتون حيث شيد معبد للاله آتون ولم يبق منه أكثر من ثلاثة أعمدة نتيجة لعوامل الرياح . ولم يبق الكثير فى موقع «عمرة غرب» نتيجة للعوامل الطبيعية وخاصة الرياح ، ومع ذلك فحفائر سنة ١٩٣٩ - ١٩٤٧ كشفت عن نتائج مهمة ستنشر عما قريب . ان البقايا العارية من جدران المدينة تستحق التنقيب لأنه لابد أن هـذه المدينة بناهـا « سيتى الأول » كانت هى المركز الادارى للنوبة العليا أثناء الأسرة ١٩ .

وأثناء المسح الأثرى الثانى استغل « دونبار » ، أحد موظفى الحكومة السودانية حينئذ ، أعماله وواجبه فى النوبة فأمضى أوقات فراغه فى النقل باليد وتصوير النصوص التى لا حصر لها والمناظر التى وجدها على الصخور على شاطىء النيل باسهاب وسجل كشوفاته التى لا تقدر بثمن فى أحد سجلات مصلحة الآثار المصرية ، مما ظل بعد ذلك أساسا للعمل فى هذا الموضوع • وعلى الرغم من الاكتشافات الجديدة التى سيكشف عنها مستقبلا فإن عمل «دونبار» وحده يقف شامخا باعتباره إطارا لأى أبحاث جديدة فى هذا الفرع من آثار النوبة •

الفصل الخامس

نتائج نداء اليونسكو

ان عددا كبيرا من الناس يعتقدون ، نتيجة الجهـل ، بأن نداء اليونسكو لعلم الآثار العالمى كان فاشلا والسبب هو أنهم اعتبروه زيادة تأكيد فى الدعاية التى أعطيت للمصير غير المعروف لآثار ابو سمبل . وهذا غير صحيح فمع أن بعض العمائر سيضحى بها نتيجة لقلة التمويل، الا أننا متأكدون بأن كل موقع أثرى سينقب ويسجل بنظام ودقة قبل أن تغمر مياه الخزان بلاد النوبة . والحقيقة أن عالم الآثار لم ينقب منطقة واسعة فى العالم مثلما حدث فى هذه المنطقة . ونرفق هنا الى جانب المساعدة المالية التى أسهمت بها دول كثيرة ملخصا للعمل فى حقل التنقيب والتسجيل والحفظ ، ليعطينا فكرة عن المجهود العالمى الواسع الذى أقيم استجابة لنداء اليونسكو .

الأرجنتين : بدات جامعة « لابلاتا » بالاشتراك مع وكالة الحفـر الوطنية الفرنسية بدأت الحفر فى «عكشة» فى بداية عام ١٩٦١ واتجه

نظرهم فى عام ١٩٦٢ الى أطلال قلعة «مرجيسه» • ولم يتجاوز العمل فيها مراحله الاولى (انظر فرنسا أسفل) •

النمسا : ومنذ بداية شهر ديسمبر عام ١٩٦١ قامت بعثة جامعة « فينا » بالحفر وتسجيل المواقع التى ترجع الى عصر ما قبل التاريخ فى منطقة « سيالة » . وسجلت هذه البعثة أيضا النقوش الصخرية لعصور مختلفة فى المنطقة نفسها بحيث ثبت أن مناظر الزرافة كانت تعاصر حضارة المجموعة الأولى فى النوبة •

بلجيكا : قامت بعثة ترعاها الحكومة البلجيكية بتسجيل معابد « سمنه » و « قمة » بالتصوير الفوتوجرامترى وبموافقة جمعية التنقيب فى مصر قاموا بمسح معبد وجزء من حصن الدولة الوسطى فى بوهن بالفوتوجرامترى وهذا لصنع نموذج للحصن يوضع فى متحف الخرطوم •

كندا : وقام المتحف الوطنى فى « كندا » بالاشتراك مع « جامعة هارفارد » بمسح لعصر ما قبل التاريخ فى النوبة السفلى •

تشيكوسلوفاكيا : قام المعهد التشيكوسلوفاكى للمصريات التابع لجامعة « شارلس » بالحفر فى حصن من العصر المتأخر في « قرطاس » وفى مواقع « تافا » فى منطقة بين « وادى السبوع » و « عمدا » .

الدنمرك : انظر اسكندنافيا .

فنلاندا : انظر اسكندنافيا .

فرنسا : قام المعهد الفرنسى لدراسة الآثار الشرقية I.F.A.O. بالاشتراك مع المعهد السويسرى للبحوث الأثرية بالحفر والتنقيب فى « وادى السبوع » كما قاموا بمسح للنصوص ودراستها فىمعبد « رمسيس الثانى » الموجود فى المنطقة •

ولقد قامت بعثة من قبل المعهد الوطنى الفرنسى للجغرافيا بمسح كامل بالفوتوجرامترى لكل النوبة المصرية • ومن هذه الصور أمكن رسم خرائط •

أما فى النوبة السودانية فقد أنهت الوكالة الوطنية الفرنسية للتنقيب بالاشتراك مع جامعة « لابلاتا » الحفائر فى « عكشة » وتحفر الآن فى « مرجيسه » (انظر الأرجنتين) .

ألمانيا : (الاتحادية) : أنهى معهد الآثار الألماني فى القاهرة حفائره فى منطقة قريبة من معبد « عمدا » . فقد قامت بعثة ألمانية عملت تحت اشراف المعهد الألماني للآثار فى القاهرة ، بفك معبد «كلابشه» وإعادة بنائه على ربوة بالقرب من السد العالى .

غانا : تقوم « غانا » منـــذ عام ١٩٦١ بالحفر فى منطقـــة « سرا » على الشاطىء الغربى للنيل فى النوبة السودانية . وينقبون ، فى المنطقة، عن مدينة كبيرة من العصر المسيحى المبكر لها أهمية خاصـــة من الناحية المعمـــارية .

الهنـد قامت بعثة تحت رعاية الحكومة الهنــدية بالحفر فى منطقة « عافية » فى النوبة المصرية حيث عثروا على مادة ثمينـــة ترجع الى حضارتى المجموعة الأولى والمجموعة الثالثة .

ايطاليا : قام متحف « تورينو » للمصريات بالحفـــــر فيما بين « دابود » فى الشمال وخور « دهميت » فى الجنوب . ولقد سجلوا فى خور « دهميت » نقوشا ورسوما صخرية متعددة .

قامت جامعة « ميلان » بالحفر فى منـــاطق « ســـــبجورة » و « كوبان » و « تاميت » وعلى الضفة الشرقية للنيل فى « أبو سمبل » ولقد أنهت هذه البعثة تنقيباتها فى « محرقه » و « اخمندى » .

هولندا : قامت بعثة من متحف « ليدن » بالحفر على الضـــفة الغربية للنيل شمال أبو سمبل . وعثروا هناك على موقع لمدينة مرتبة طبقة فوق طبقة من العصر المروى وعصر المجموعة (س) .

النرويج : انظر اسكاندنافيا .

بولندا : أتم المركز البولندى لآثار البحر الأبيض المتوسط التابع لجامعة وارسو ، الحفر فى النوبة المصرية فى المنطقة المتاخمة لمعبـــد « دابود » كما قام بالحفر فى الموقع الكبير فى «س» فى النوبة السودانية. ولقد أدت الحفائر فى فرس الى نتائج رائعة لأنهم كشفوا تحت كومـــة كبيرة عن كنيسة في حالة جيدة ترجع الى القرن السابع الميـــلادى ورسمت جدران الكنيسة والعمائر التى تحيطها من العصر نفســه بألوان لا تزال براقة وهذه المناظر الدينية الدقيقة الصنع ليس لها مثيل حتى الآن فى وادى النيل . ولقد أقام هذا الكشف مشاكل عدة اذ أنه على

جدار واحد رسمت (فرسكو) الواحدة فوق الاخرى ويجب نقـل كل واحدة منهـا على حدة ، طبقة طبقة قبل أن تزيلهـا ميـاه الخزان فى دقائق . ولقد أتى الى الموقع متخصصون من وارسو نقلوا أكثر من مائة فرسكو رائعة تعتبر من أجمل ما عثر فى الفن المسيحى . وستعرض فيما بعد فى المتاحف .

ولقد عثرت البعثة البولندية أيضا على مقابر الأساقفة المسيحيين الأوائل فى فرس وعدة قطع جميلة ذات شـكل فريد . وتسجل هذه الآن . ولكن قبـل أن تعلو المياه فى آخـر عام ١٩٦٤ يجب على البعثـة البولندية أن تنهى عدة أعمال عظيمة فلقد اظهروا تحت الكنيسـة المسيحية قطعا حجرية ترجع الى معبد مصرى قديم للفرعون تحتمس الثالث وليس غريبا أن يجدوا أيضا معالم حصن من الدولة الوسطى تحت معبد الدولة الحديثة .

اسكندنافيا : ان البعثـة الاسكندنافية المشتركة المكونة من « النرويج » و « السويد » و « فنلنده » قد قامت بمسح أثرى عام على الشاطىء الغربى للنيـل ما بين « فرس » و « جاماى » فى النـوبة السودانية . ولقد نظفت وسجلت جبانات ومستعمرات من كل عصور ولقد كشفت هـذه الحفائر الواسـعة عن مجموعة غنية لأدوات ترجع الى حضارة المجموعة الثالثة . وقد قام الاسكندنافيون أيضـا بالتنقيب على الشـاطىء الآخر عند « دبيرة » حيث عثروا على المقبرة المنقـورة فى الصخر للأمير « آمون ـ أم ـ حيت » وكان حاكما نوبيا متمصرا من القرن السادس عشر ق. م.

أسبانيا : أتمت البعثة الوطنية الاسبانية للنوبة حفـائرها فى « شيخ داود » فى النوبة المصرية وفى « أرجن » فى النوبة السودانية . وستكون اعمالهم المقبلة فى موقع «قصر ايكو» على جزيرة «أبكَنارتى».

السودان : قامت مصلحة الآثار السـودانية بمسـاعدة عالمين فى الآثار من قبل اليونسكو بالحفر الواسع على شاطىء النيل وعلى الجزر الموجودة فى الجندل الثـانى . والمعلومات التى اكتسبوها ساعدت المصلحة فى اعطاء نصيحة للبعثات الاجنبية عن أهمية المواقع المناسبة للحفر . ويقومون الآن بالحفر فى جزيرة « مايانارتى » حيث توجـد بقـايا كثيرة من العصر المسيحى .

وقد كشف التنقيب عن أن نقوشها المائية لها قيمتها الا أنها ليست فى نفس مستوى ما عثر عليه فى « فرس » .

السويد : أنظر اسكندنافيا .

سويسرا : اشتركت بعثة المعهد السويسرى للبحث الأثرى فى مصر القديمة مع المعهد الفرنسى للآثار الشرقية فى عمـــل مسح للنصوص ودراستها لمعبد « وادى ـ السبوع » . كما اشترك المعهـد السـويسرى أيضـــا مع المعهـــد الشرقى فى شـــيكاغو بالحفـر بين خور « دهميت » و « كلابشة » فى النوبة المصرية . ففى هذه المنطقة فحصت البعثـــة المشتركة أكثر من خمسمائة مقبرة من عصر المجموعة (س) وعثروا على نوع جديد من الأوانى الفخارية يمكن أن يعطينا معلومات جديدة عن أصل أهل المجموعة (س) (انظر ص ٢٣٢) .

الجمهورية العربية المتحدة : قامت مصـــلحة الآثار المصرية بفـــك معـابد « تافا » و « دابود » و « قرطـــاس » و « دكة » و « دندور » و « محرقة » وينتظر أن تقام هذه المعابد مرة أخرى على مواقع مرتفعة عن منسوب مياه الخزان .

ولقد أتمت بعثة جامعة القاهرة حفائرها الواسعة فى « عنيبة » حيث فحصت جبانات من كل عصور التاريخ النوبى تقريبا واقتنت معلومـات جديدة ذات قيمة تاريخية ثمينة .

المملـكة المتحدة : أتمت بعثـة جمعيـة التنقيب المصرية حفـائرهـا الواسعة فى قلعة « بوهن » فى النوبة السودانية . وســـجل معبـــد « حتشبسوت » كله وتم فك المعبد حجرة حجرة ونقل الى الخرطوم اذ أن مصلحة الآثار السودانية ستعيد بناءه فى فناء المتحف . ولقـد عثر الى شـــمال القلعة على بقايا مدينـــة ترجع الى الأسرتين الرابعـــة والخامسة وتم الكشف عنها . وعندما ينتهى العمل فى القلعة والمدينة التى ترجع الى الدولة القديمة ستتجه البعثة الى « كور » الذى يبـــدو أنه موقع لمستعمرة محصنة من الدولة الوســـطى أو الدولة الحديثـة . ولقد أتمت البعثـة فى النوبة المصرية مســـحا أثريا عاما لشـــاطىء النيل بين الشلال وأدندان كما تقوم الآن بالحفر أيضا فى جبانة قصر ابريم وحصنها (انظر ص ١١٦) .

وبعثت كلية « كوين » فى « أوكسفورد » متخصصا فى فن نقل النصوص ليساعد فى تسجيل النقوش الصخرية فى منطقة «أبو سمبل».

الولايات المتحدة الأمريكية : أنهى المعهـــد الشرقى بجامعة شيكاغو مسحا للنصوص ودراستها لمعبـد « بيت الوالى » ويقـــوم الآن بحفر فى

منطقة « قسطل » . وأنهى المعهد بالاشتراك مع المعهد السويسرى حفائره فى المنطقة الواقعة بين « دهميت » و « كلابشة » (انظر سويسرا) .

أما فى النوبة السودانية فيقوم المعهد أيضا بالحفر فى حصن « سرا » الشرقى من عصر الدولة الوسطى .

وتقوم جامعات « كولومبيا » و « نيومكسيكو » معا بمسح عصر ما قبل التاريخ فى المناطق المهددة من النوبة السودانية .

وتقوم بعثة لجامعة « براون » بعمل مسح النصوص ودراستها فى معابد « سمنه » ، « وقمة » فى النوبة السودانية .

وتقوم جامعة « كولورادو » بالحفر فى منطقة « دابروزا » غربى فى النوبة السودانية .

أما البعثة المشتركة لجامعتى « ييل » و « بنسلفانيا » فقد وجهت نظرها بعد أن حفرت في المقبرة الصخرية « لحكانفر » ، أمير « ميعام » ، فى « توشكا » — الى المناطق المجاورة وبدأت فى الكشف عن علاة مقابر لجبانات مهمة من العصر المروى والمجموعة(س) ولكن أهم ما عثروا عليه كان ختم آنية من الطين ترجع الى الأسرة الأولى . وهذا دليل آخر على توغل المصريين المبكر فى النوبة فى فجر التاريخ وتقوم هذه البعثة الآن بالحفر فى جبانة « جبل علة » .

روسيا : قام معهد « ليننجراد » للآثار قسم آكاديمية العلوم ، بالحفر فى منطقة بين « كوبان » ووادى « علاقى » فى النوبة المصرية .

يوغوسلافيا : بعثت الحكومة اليوغوسلافية بعثة هندسية لتساعد فى المسح عند معبد « جرف حسين » .

والى جانب العمل المتقدم فى المناطق المهددة فى النوبة المصرية والسودانية ، تقوم بعثتان أخريان بالتنقيب الواسع فى السودان : وهما بعثة ألمانيا الشرقية التابعة لمعهد المصريات فى جامعة همبولدت فى برلين وهذا فى منطقة « مصورة الصفراء » . أما البعثة الثانية فهى بعثة « شيف » الايطالية التابعة لجامعة « بيزا » فى « سولب » .

ولم يحدث من قبل أن تركزت أبحاث أثرية متعددة فى منطقة محدودة نسبيا ، وقد كانت النتائج ، فى نظرى ، حتى الآن ، أحسن مما كنا نتصورها . وما زال الوقت مبكرا جدا لتقدير قيمة العمل النهائى لأن نتائجه لن تنشر الآن .

ويمكنني أن أكتب عن عملي الخاص بصفتي مديرا للحقل لبعثة جمعية التنقيب المصرية بتفصيل واسهاب وثقة أكثر مما يمكن أن أكتبه عن أي بعثة أخرى • وعلى أية حال فيجب أن تقدر ان البيان المقدم عن المساهمة البريطانية في عملية الانقاذ في النوبة ليس الا مجملا بسيطا لتقاريري التمهيدية التي نشرت في « كوش » وهي مجلة مصلحة الآثار السودانية وفي مجلة مصلحة الآثار المصرية .

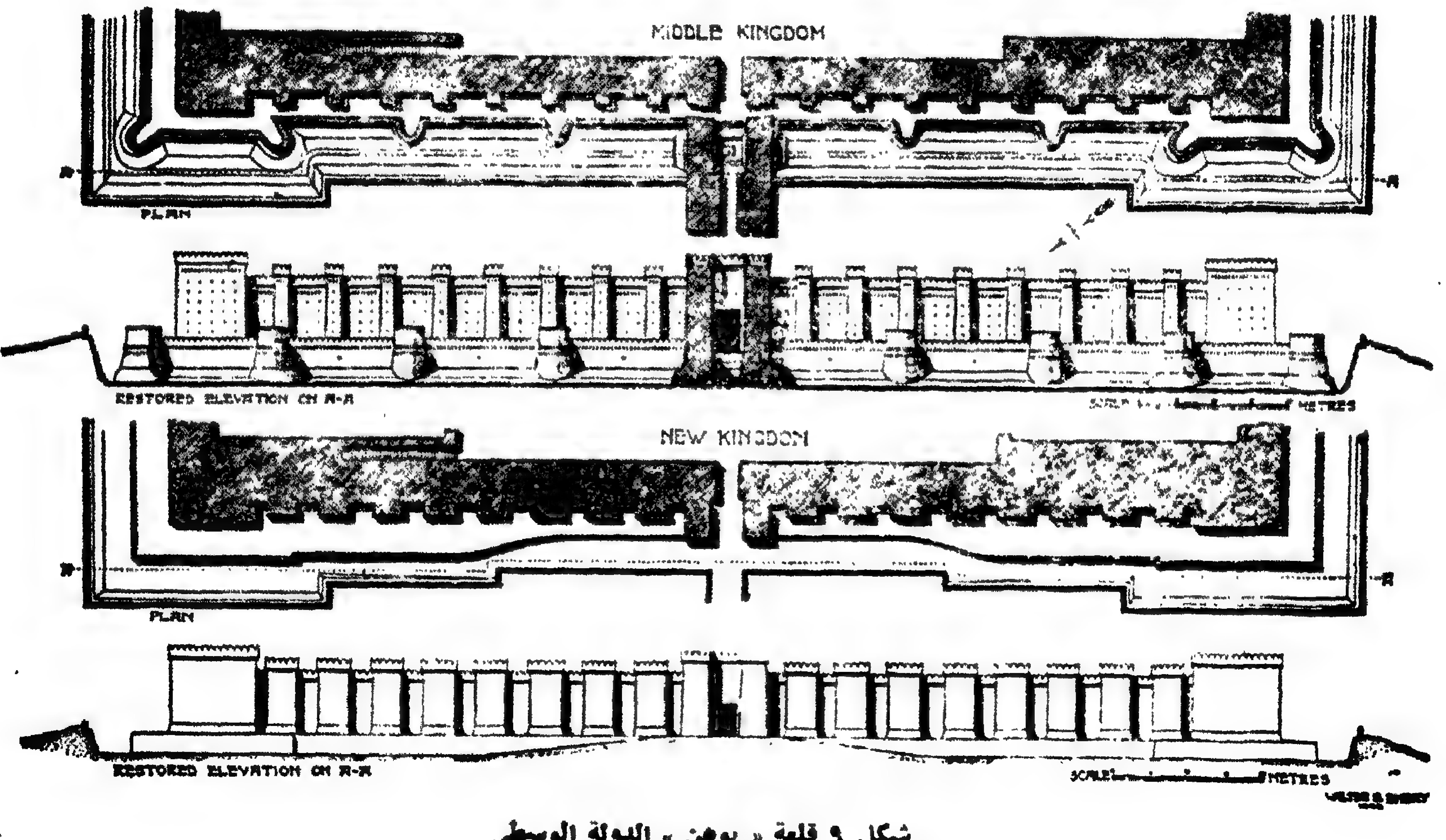
ان البعثة المصرية للتنقيب سبقت نداء اليونسكو فكانت حفائرنا في بوهن قد بدأت قبل أن تبدأ الحملة العالمية لانقاذ آثار النوبة بثلاثة أعوام • وأحب أن أتصور ـ ربما مخطئا ـ أن نجاح الاستجابة الى نداء اليونسكو كان يرجع جزئيا الى الدعاية التي أعقبت كشوفاتنا المثيرة في الموسم الأول لحفائرنا في النوبة .

ففي أوائل عام ١٩٥٧ تنفيذا لأوامر جمعيتنا ، زرت « وادي حلفا » وأثناء عودتي أشرت بأنه يجب أن نحصل من مصلحة الآثار السودانية على امتياز للتنقيب في « بوهن » والمناطق المجاورة حتى « كور » جنوبا ، عند رأس الشلال الثاني . وقبلت اللجنة الاقتراح وبعد الحصول على الامتياز بدأت في التنقيب في الثاني عشر من نوفمبر عام ١٩٥٨ .

ولم تكن بعثتنا أول بعثة تحفر في بوهن • فلقد كشف عن المعبد التابع للمعسكر في أوائل هذا القرن وبحثه عدد من علماء الآثار منهم « شمبوليون » ـ بحثا علميا (انظر ٩١) . ولقد قام « رندال ماكيفر » « وليونارد وولي » في عام ١٩١٠ ـ ١٩١١ بالحفر الواسع المدى هناك بالنيابة عن جامعة « بنسلفانيا » • ومع ذلك فقد كنت واثقا من أن الكثير لا يزال مختبئا • ونظرا لدمار كل الآثار النوبية مستقبلا شعرنا أن فحصا آخر دقيقا يجب أن يتم • وعلاوة على ذلك فان علم الآثار المصرية فقير في دراسة العمائر العسكرية المصرية القديمة لأنه لم يتم حفر حصن أو قلعة بالكامل وكان احساسنا أنه لا بد من ملء هذا الفراغ قبل أن يفوت الأوان ولوحظ في الوقت نفسه أن مثل هذا المشروع سيتطلب الكثير من الناحيتين المالية والزمنية • ويمكن أن يكون العمل الذي قامت به بعثة جمعية التنقيب المصرية وحدها أعظم تنقيب ، وقد تبين أن ذلك صحيح • وفي عام ١٩٦٣ أكملنا الموسم السادس واحتجنا الى ثلاثة أشهر أخرى في عام ١٩٦٤ لننهي عملنا • ولكن هذا المجهود أتى بثماره عندما عثر على الحصن العظيم المدفون في الرمال المتراكمة وكان الحصن في حالة حفظ

بديعة . وظهرت تقريبا كل تفاصيل العمارة العسكرية المصرية فيه الى درجة انه أعيد تشييدها كما ترى فى الشكلين ٩و١٠ مما يعد مادة قيمة لا لدارس الآثار المصرية فحسب ولكن للمؤرخ العسكرى أيضا • كما ظهر أن أوصافا ومعالم دفاعية كانت تعد من ابتكار أوروبا فى القرون الوسطى ، عرفها المصريون فى الدولة الوسطى منذ أربعة آلاف سنة • وألقت أيضا ضوءا جديدا على الاهداف الحربية المصرية في النوبة • وتبين ان الوقت المحدود الباقي لنا لن يكفي للكشف والتنقيب عن كل الحصون التى تكون مجموعة الاستحكامات الممتدة على طول منطقة الجندل الثانى• لذلك يعتبر تسجيل أحد هذه الحصون مادة قيمة ، اذ يمكن اعتباره مرشدا نفسر على هديه أوصافا عديدة كان يمكن أن تبقى لغزا غامضا فى عمارة مشابهة فحصت جزئيا •

وقبل أن أصف الحوادث التى أدت الى الكشوف المختلفة فى « بوهن » يجب أولا أن ألخص تاريخ الحصن كما كشفت عنه التنقيبات حتى الآن . لقد شيد هذا الحصن فراعنة الأسرة الثانية عشر (١٧٨٦ ـ ١٩٩١ ق • م • لحراسة حدود الامبراطورية الجنوبية التى كانوا قد وصلوا اليها . ويبدو أن « بوهن » كانت المركز الادارى لكل منطقة الحصون في عصر السلطة العسكرية المصرية لأكثر من مائتى عام • ولكن فى الأيام العصيبة التى تلت غزو الهكسوس للوطن ، احتلت جيوش الكوشيين الحصن كما أن أجزاء منه دمرتها النيران • ويبدو أن الغازين سكنوا فيه لفترة ولكنهم لم يحاولوا اعادة بناء الأجزاء المهدمة. وبقيت « بوهن » اطلالا عظيمة حتى غزا ملوك الأسرة ١٨ النوبة مرة أخرى (١٥٧٠ ـ ٣٤٩ ق•م•) وقد سكنت القلعة مرة أخرى وأعيد بناء جدرانها وقويت ، كما رقمت المدينة من الداخل دون ما تغير فى الأساس الا أن منازل القواد الكبيرة قسمت الى مساكن صغيرة والتغيير الأساسى كان هو بناء معبد الملكة « حتشبسوت » فوق أساسات بناء يرجع الى الدولة الوسطى ويبدو أنه كان معبدا • وأضيف الى الأبنية القديمة مرسى جديد مبنى من الحجر على حافة النهر وأمامه . ولذلك بقيت القلعة تخدم غرضها حتى سقوط قوة مصر فى النوبة فى آخر الأسرة العشرين ، ومن ثم أخليت في هدوء ، الا انه تم الاستيلاء عليها مرة أخرى فى احدى المعارك • وقد احتفظت أبنيه الدولة الحديثة بآثار حرائق وجدت بقاياها على الأطلال التي غطتها رمال الصحراء حديثا • ولم يظهر منها الا برج واحد من اللبن كان جزءا من الجدار الواقى الشرقى أصلا ولم

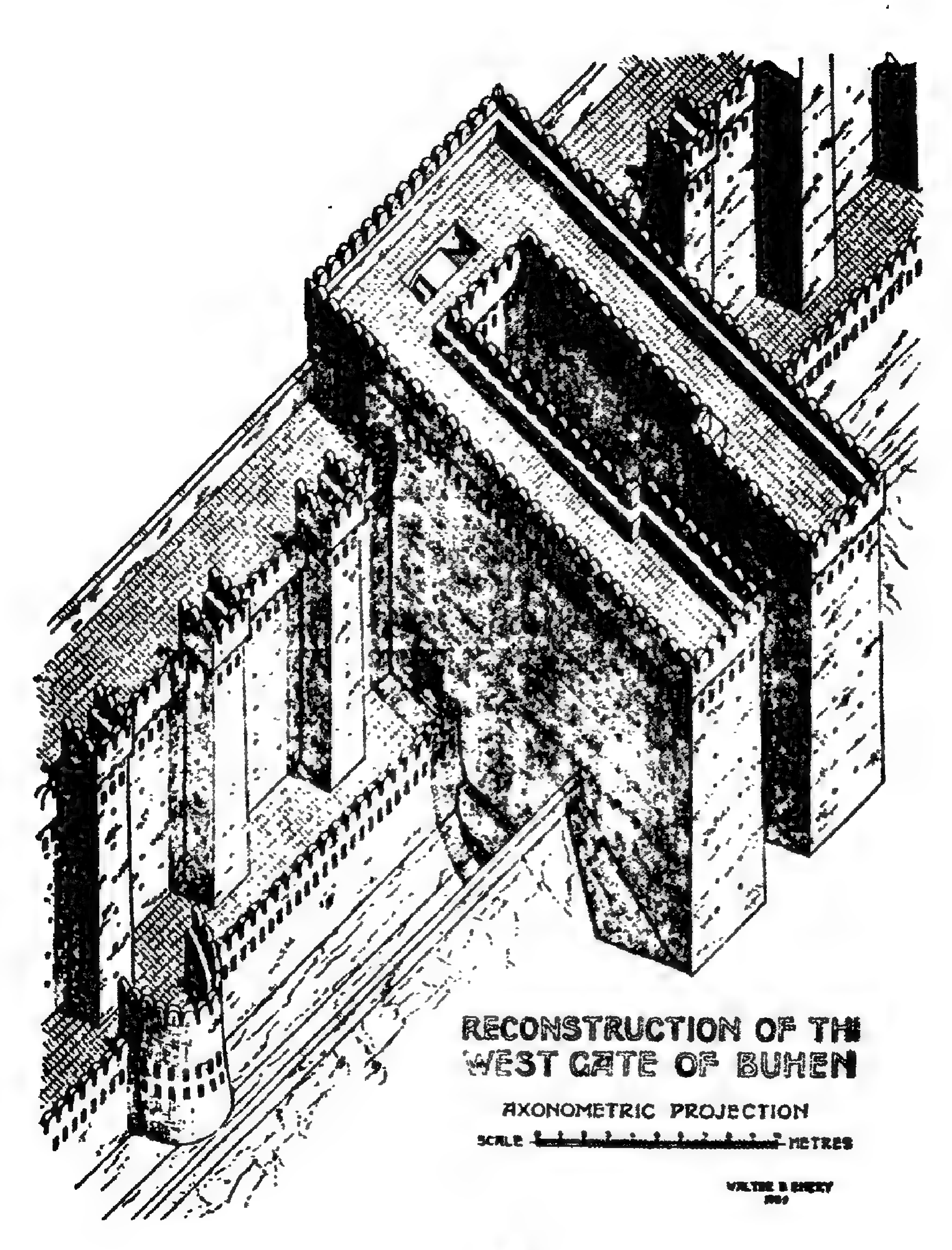


شكل ٩ قلعة « بوهن » الدولة الوسطى

تمسه الرياح ، وكانت هناك أيضا أجزاء من معبد « حتشبسوت » عارية فوق طبقات الرمال المتراكمة كما ظهرت أيضا بقايا مستعمرة صغيرة من العصر الروى والمسيحى فوق الجزء الجنوبى لمدينـــة من الدولة الحديثـــــة .

وبعد المجسات الأولية اتفقنا على أن نركز عملنـــــا فى الحصن الداخلى أو القلعة وتطلب ذلك أن نقـــوم بفحص دقيـــق لمبنى شيد فى عصرين: الأصلى يرجع الىالدولة الوسطى، وقد حدثت الاضافاتوالتغييرات، عندما أعيد بناؤها فى أوائل الأسرة الثامنة عشرة . هذا البناء المستطيل الشكل يمتد على مساحة طولها ١٧٠م x ٧٥٠م وكان يحـــدها من الجوانب الجدران الأساسية لاستحكامات الحصن السفلى والخنـدق الجاف . ويحوى السور بوابتين في جهة النهر وبوابة أساسية مواجهة للصحراء . وكان تنقيب الجدران والخندق الجاف عملية شاقة للغاية تطلبت عددا كبيرا من الرجال فى مدة طويلة من الزمن . لكن تبين أنها كانت مريحة للغاية لأن البقايا الكافية قد أعطتنا تفاصيل كاملة لشكل نظام الدفاع فى العصرين . ومما تبقى ، نستطيع بدقة كبيرة أن نعيـد بناء هذا الحصن الذى يعتبر النموذج الجميل للعمــــــارة العسكرية المصرية التى تشبه الى حد كبير ما كان موجودا فى أوروبا فى القـرون الوسطى (شكل ٩) .

وهــــذا النظام الدفاعى المحكم يتكون من جدار مصمت من الطوب سمكه ٤ متر ، ٨٥ سم ويرتفع على الأقل الى ١٠ م يتخلله على مســـافات منتظمة فى واجهته الخارجية أبراج بارزة . ولم يبق شيء من الجـزء العلوى للجدار ولكن حسب ما جاءنا من مناظر مصرية قديمة من الدولة الوسطى والحديثة ومن الحصون فى مدينة هابو بطيبة يمكن أن نتصور أن الظلة كانت لهـــا شرفات مستديرة وأن الأبراج البـارزة كانت أعلى من الجـــدار أما أسفل الجدار فقد عثرنا على ممر من الآجر يحميه ظلة به مزاغل (فتحات لرمى السهام) يطل على الجزء الداخلى المنحـدر للخندق الجاف . وهذا الخندق يصل الى ٨ م و ٤٠ ســـم فى العـــرض و ½ ٦ م فى العمق وكان يعــلو فى الأصـــل المنحـــدر العـــاكس على الناحية الاخرى للخندق ، طريق ضيق مرصـــوف باللبن ومن ورائه مرتفع مستدير الجانب ، الشديد الانحدار يبرز من مستوى الارضالطبيعى . ويبرز فى الخندق من الجزء الداخلى على مسافات شرفات مستديرة بعضها لا يزال في حالة حفظ جيدة . والحاجز والشرفات المستديرة التى بها صفوف من فتحات رمى السهام الطولية مرتبة فى مجموعات



شكل ١٠

تصميم للبوابة الغربية

فى « بوهن »

ثلاثية تتركز على نافذة واحدة يطلق منها الرامى السـهام من ثلاث زوايا مختلفة نحو المهاجمين للخندق أو الذين يأتون من عاكس المنحدر فى الجزء الخـارجى للخندق • وتظهر قـوة هذه الحصون اذا وقفنا داخل الخندق ونلاحظ أن القوة المهاجمة يجب عليها أن تضرب أولا المرتفع المستدير وتحطم أى مركز طليعة مختف فى الطريق المغطى بينما هى تحت وابل السهام وضربات القلاع الآتية من الجدار العلوى الأساسى • ثم يجب عليهم أن ينزلوا على عاكس المنحدر الى داخل الخندق تحت وابل شديد من فتحـات السـهام فى الممر ومن الشرفات التى يختفى ويحتمى وراءها المدافعون • واذا نجحوا فى هذه الخطـوة الأولى فعليهم بعد ذلك مهاجمة الجزء الداخلى للخندق والممر الذى يعلوه ليجدوا أنفسهم فى ممر صغير فى أسفل الجدران الرئيسية التى يقذف منها أمطار من الحصى وما يشابهها . وكان الجزء الأكثر قوة وتحصينا هو البوابة المبنية فى وسط الجدار الغربى • ومع أن الجزء العلوى لهـا قـد هدم بعد تعديلات الدولة الحديثة الا أن الأساسات كانت محفوظة ، وقـد حصلنا على معـلومات عن طريقة الدفاع • وعثرنا على أدلة تشى بوجود أبواب مزدوجة فى البوابة التى فى الجدار الرئيسى وجسر خشبى يفتح ويغلق على إسطوانات . وشيد أمام البوابة والجسر جـداران مستطيلان يمتدان فوق الخندق الجاف ويكونان دهليزا طويلا • فاذا ما دخلت قوة مهاجمة فى هذا الدهليز فلابد أن تحارب في مرورها تحت أمطار من القذائف الآتية من الجوانب الثلاثة للشرفة (شكل ١٠) •

وعلى أية حال فنحن نعرف أن هذا الحصن المنيع قد هوجم وأن قوات كوش قد استولت عليه فى آخر الدولة الوسطى •• ولكن اذا ما القينا نظرة الى ما تبقى من أطلال فلا يمكننا الا أن نتساءل هـل سبب الاستيلاء عليه لم يكن عن طريق خيانة . فلا شك أن معسكر « بوهن » لم يكن يخشى الهجوم الا من الشـمال والجنوب والغرب وهـذه الجوانب كانت محمية بالطرق الدفاعية التى شرحتهـا • أمـا الجـانب الشرقى المواجه للنيل ، فتخترقه بوابتان توصلان الى المدينة مباشرة وبدلا من الممر نجد سلسلة من الشرفات والأرصفة لرسو الأسـطول الحربى والسفن التجارية التابعة للفراعنة •

وعنـدما احتـل المصريون ، مرة أخرى الحصن المخـرب فى الدولة الحديثة ، أعيد بناء البـوابة الغربيـة ولكن قطعت الجوران الواقيـة لتفسح المكان لطريق بنى فوق الخندق الذى ردم وفوق المنـاطق الدفاعية السفلى فاعتبرت هذه غير ذات قيمة بعد أن بنيت فوقها مواقع

دفاع أكثر جدوى . وتغير شكل جدران وأبراج الدولة الوسطى عند اعادة بنائهـــا فى الدولة الحديثة ولنصل الى الشـــكل الأصـــلى وجدنا من الضرورى أن نرفع كل زيادات العصـــور التاليـــة • وهـــذه الازالة اظهرت أن الجدران والأبراج كانت قد قويت بزيادة جدار ملاصق وهذه غيرت منظر الواجهة كله (شكل ٩) ولم يكن العمل متقنا فبناءوا الدولة الحديثة لم يزيلوا رواسب الطين الثقيلة التى كانت قد تراكمت فى أســفل جدران الدولة الوسطى المخربة • وبنوا جدرانهم المتـلاصقة فوق هذه الرواسب مما يجعلنا نتعجب كيف عاشت هذه الابنية •

ولقد قمنا بأهم كشف لنا أثناء ازالة هـــذا الكســـاء الخـــارجى للجدران الذى يرجع الى الدولة الحديثة • فلقـــد عثرنا فى التجويف بين البرج الثـــالث والرابع فى الجدار الغربى على مقبرة حصان وكان هيكله العظمى يرقد على الأرضية المبنية من الآجر للحاجز الذى يرجع الى الدولة الوسطى . ولا مجال للتردد فى تاريخه لأنه كان مغطى برواسب طبقية سمكها ١٥ر١ م وضعت فوقها قوالب الطوب التى ترجـــع الى الدولة الحديثة وعلاوة على ذلك ، كانت العظام موضوعة على عمـــق نصف متر تحت طبقات الرماد والخشب المتفحم وهى بقـــايا حـــريق الحصن عندما هوجم فى عام ١٦٧٥ ق.م. تقريبا . وتجارب الزاديو ـ كاربون الأولية على الفحم المرســـب فوق الدفنـــة أعطتنا الرقم ٣٦٣٠ ١٥٠ سنة . ومع أن الحصان كان معروفا فى بلاد ما بين النهرين مبكرا فى عام ٢٠٠٠ ق.م. تقريبا فليس لدينا أى دليل على وجوده فى وادى النيل حتى الأسرة الثامنة عشرة وكان الاعتقاد ســـائدا بأنه أدخل الى مصر فى عهد الهكسوس . لذلك فانه من المهم جدا أن نعثر فى بقايا هذا الحيوان على أدلة أثرية مادية حقيقية تسبق ما نعرفه بمائتى عام عما كنا نعرفه . ولقد فحص الهيكل العظمى فى المتحف البريطانى (التاريخ الطبيعى) حيث أثبتوا أنه ذكر وعمره تسعة عشر عاما • ولـكن ليس من الممكن أن نتعرف على فصيلته .

ولم يتبـق ، داخل الحصن ، من مدينة الدولة الحديثة الا القليل اذ أنها كانت فى مستوى أعلى ثم هدمت . أما بقايا المستعمرة الأصلية من الدولة الوسطى فقد عثر عليها فى حالة حفظ جيـــدة : فتحققنا من التصميم الكامل للشوارع والمنازل ما عدا الجزء الجنوبى الشرقى .

وأبرز بناء فى المدينة كان ، طبعا ، هو مســـكن الحاكم الذى كان فى الركن الشمالى الغربى للمنطقة المسورة . وكان المنزل يتكون من طابقين ويستند الى الجدران الداخلية للحصن على نفس زاوية السلم الموصل

الى الممرات العليـــا له . ولم يتغير البناء فى شكله العـام طوال عصور الاحتلال للحصن وعندما كشفناه أى بعد أربعة آلاف سنة من بنائه ، ومـــع أنه لم يتبـق منه الا الأرضية ، فلقد عثر على بقايا كافية توضح ما كان عليه فى الأصل . ومـــع انه خرب بسـبب النيران التى احرقت الحصن فى آخـر الدولة الوسطى ، الا أن البناء قد رمم كله فيما يبـــدو عندما احتل المصريون الحصن بعد رجوعهم الى النوبة فى الدولة الحديثة أى بعد مائتى عام . ويتكون من صالة استقبال ذات دعائم تحيط بهـــا مراكز الادارة والحجرات السكنية للحاكم وعائلته . وهذا المنزل ، فى شكله العام ، يعكس المستوى العالى للمعيشة فى هذه المحطة الفرعونية قبل العصر المسيحى بألفى عام . وكان سقف هذا البناء الفخم يرتكز أصلا على دعائم خشبية مثمنة وملونة باللون الأحمر . وهناك قدر كاف من البقايا يثبت أن فتحات أماكن الغرف الأساسية كانت جوانبها خشبية وعليها كتابات منقوشة ، كما بقيت أجزاء من الخيزران ذات الزخارف المرسومة . اما أرضية الغرف جميعها فكانت من الآجـر المصـفوف على هيئة البلاطات الخزفية ويحيط بها جبس أبيض (مكحل) . ونظفت هذه الأرضية ورممت عند اعادة بناء المدينة فى عصر الدولة الحديثة . بينما أرضية الحجرات الصغيرة والممرات المؤدية الى الصـــالات الكبرى لم تزل منها رواسب الخشـــب كالفحم والرماد الذى يرجـــع الى الدولة الوسطى أثناء اعادة البناء فيما بعد . وقد سويت الأرضية فقط ووضع فوقها قوالب جديدة من الأجر المحوط بالجص الأبيض . ولقـــد عثر تحت هذه الرواسب على أشياء كثيرة مذهلة على قدر كبير من الأهمية منها الاختام الطمية المنقوشـــة التى اسـتعملت فوق الرباط الذى يربـــط وثائق البردى . وأكثرها يرجع الى الأسرة الثالثة عشرة . وهذه الوثائق شجعتنا على أن نستمر فى الحفر بأمل أن نعثر على معلومات عن الجهود الحربية فى هذه الفترة الحاسمة من التاريخ النوبى . ولقد بدت احدى الغرف الصغيرة الموجودة تحت السلم الحجرى المؤدى الى الطـــابق العلوى ، على جانب كبير من الأهمية ، لذلك كسرت الطبقة الأرضية المتأخرة وغربلت الأنقاض بعناية . وفعلا صدق ظنى اذ عثرنا على كميات من البردى ولكن للأسف كانت كلها ممزقة الى قطع صغيرة جـدا . وربما كان هذا من عمل موظف عسكرى من العصور القديمة حفظـــا للأمن والسلام . وبإذن من مصلحة الآثار السودانية ، فحصت هـــذه البقايا من البردى ، المكتوبة بالخط الهيراطيقى الذى يرجع الى الدولة الوسطى ، فى المتحف البريطانى . ومع أنه من الصـعب تقدير قيمتهـــا الا أن الأبحاث المبدئية تشير الى أنها بقايا رسائل من مصر .

ونقبت المبانى جزءا جزءا وكشفنا عن الأجزاء المتعادلة لهـــذا الحصن الذى يبدو أنه أكمل تخطيط رسم لمنطقة سكنية صغيرة من الدولة الوسطى عثر عليها فى وادى النيل حتى الآن . وقسمت المدينة بطريقين متجهين إلى الشرق والغـــرب ويظهر أن المنـــاطق كانت موزعة حسب الأنواع المختلفة من العـــمائر التى يحتـــاجها سكان الحصن فكانت هنـــاك منطقة « لفلات » عائلات القواد والموظفين ومنطقة لثكنات الجيش الكبيرة وأخرى للمصانع والمخازن . وربما كان يوجد حى للتجار أيضا ويعلو هذا كله ، موقع معبد حورس رب «بوهن» ومعبود الحصن . وكان الطريقان مرصوفين بالحجارة — وقوالب الطوب المحروقة ، ولكل منهما نظام تصريف فى الوسط مما يدل على أن النوبة كانت فيها أمطار غزيرة أكثر مما هى عليه الآن . اذ أنه لا داعى لهذه المجارى فى عصرنا هـــذا . وكانت تخترق هذين الطريقين شوارع ضيقة تقســـم المدينة الى مربعات منتظمـــة .

ولقد اختلفت درجة حفظ هذه البقايا ، وعلى أية حال فتخطيط عمائر الدولة الوسطى كلهـــا يمكن التأكد منه الا فى منـــاطق محددة . أما ما كان على مستوى أعلى من العمائر التى رممت أو أعيد بناؤهـــــا فى الدولة الحديثة فهذه تحطمت وعند فحص الجزء الخارجى للجـــدار الشرقى للحصن والذى تآكل من مياه النيل ، ظهرت بوابتان على هيئة برجين فى نهاية الطريقين الرئيسيين وكان خارج البوابتين أرصفة من الحجر بارزة داخل النهر . حيث كانت ترسو السفن الحربية بمـــا تحمله من عتاد والسفن التجارية المصرية فى عصر الدولة الوســـطى . وهذه الأرصفة استبدل بها فيما بعد فى الدولة الحديثة مرسى كبير يقع أمام معبد حتشبسوت . والى جانب البوابتين أظهرت الحفائر ، على شاطىء النهر ، أن الحصن كان يتكون من الشكل المعتاد الأبراج البارزة «والحنيات» ولـــكن من غير الخندق . وبدلا منهما كان يوجد عند أسفل الجدار ، بينه وبين النهر ، شرفتان ممهدتان بالحجر تحملهما سوائد من الحجر . وهنـــا أيضا ، تحت أحد الأرصفة ، عثرنا على بوابة سرية كانت توصل الى النهر . فاذا ما وقعت المدينة تحت حصار كانت تمكن أفراد الحامية من الوصول الى النهر ، عن طريق ممر تحت الأرض مدخله فى فناء للحصن .

وفى موسمنا الأخير فى ابريل عام ١٩٦٢ كانت المدينة المحصنة كلها قد نقبت وفحصت الحصون الخارجية . ولم يبق من غير تنقيب الا المنطقـــة التى أسفل معبد « حتشبسوت » من الدولة الحديثـــة مع أن آبار المجســـات

أكدت وجود عمائر كبيرة ، لابد أنها ترجع الى الدولة الوسطى وأنها كانت هيكل الحصن في ذلك العهد • وكانت هذه المنطقة أكثر قيمة من غيرها اذ أننا عثرنا فيها على بقايا بقيت مجهولة لم تر النور لفترة تزيد على ٣٤٠٠ عام •

وبمساعدة مالية أخرى من الحكومة البريطانية أمكننا أن نتحد مع مصلحة الآثار السودانية في نقل معبد « حتشبسوت » الى الخرطوم حيث سيعاد تشييده في أراضي المتحف . واضطررنا الى نقل هذا المعبد ، الذي يعتبر من أجمل معابد النوبة ، لأنه كان مهددا بمياه السد العالي. وكانت المساهمة البريطانية تنحصر في فك المعبد ونقل القطع الحجرية التي كان يزن بعضها أكثر من أربعة أطنان حتى شاطيء النيل حيث كانت توضع على مراكب تنقلها الى محطة وادى حلفا للسكة الحديد .

ولكن قبل البدء في عمل الانقاذ كان لابد من القيام بأعمال مبدئية أهمها نقل وتسجيل نقوش المعبد ونصوصه . ولقد انضم الدكتور ريكاردو كامينوس الى بعثتنا في موسم عام ١٩٦٠ ــ ١٩٦١ للقيام بهذا العمل وأتمه في أربعة أشهر ونصف . ثم جاءت بعد ذلك مسألة التحضيرات الكيماوية لتقوية الحجارة الهشة ولحفظ الفرسكو الملونة على جدران المقصورة • وبمساعدة ونصائح الدكتور « بلندر ليث » من مركز روما لحفظ الآثار القديمة ، انتهى هذا العمل الجوهري وبدأنا في فك البناء في ٢٠ يناير ١٩٦٣ وانتهى بنجاح بعد ثمانين يوما • أن القطع الحجرية الثقيلة للمعبد موجودة في المتحف الجديد بالخرطوم بعد نقلها من غير تلف على بعد سبعمائة ميل • ويرجع الفضل في هذه العملية الناجحة الى الدكتور «هنكل» التابع لجامعة «هومبولت» في برلين والذى قدم خدماته المخلصة لمصلحة الآثار السودانية • والذى سيقوم ، بالنيابة عنها ، باعادة تشييد المعبد في مكانه الجديد خارج المتحف .

وبعد ازالة معبد الدولة الحديثة بدأنا في تنقيب الجزء الباقي الأخير من الحصن في أكتوبر عام ١٩٦٣ • وتبينت أنها عملية أشق مما كنا نتصوره لأن أساسات المعبد المنقول كانت عميقة جدا وكانت القطع الحجرية المستعملة كأساسات تحت الجدران والأعمدة تزن حوالي طن ونصف وكانت تصل الى عمق كبير في البقايا اللبنية للمعبد الأصلي الذى يرجع الى الدولة الوسطى •

ومع أن هذه الأساسات جعلت مهمتنا شاقة الا أننا وجدنا

مايعوضنا عما تكبدناه من مشقة ، وأول هذه التعويضات كانت جمع الحقائق الكاملة لطريقة بناء معبد مصرى خطوة بخطوة . وغير هذا ، فالابنية القديمة اللبنية كانت فى حالة حفظ جيدة الى درجة أن طبيعتها ظهرت فى الحـــال . وكانت المنطقة مقسمة الى جزءين ، أحدهما لمنطقة السكن والمخازن التى يستعملها الكهنة في معبد مجاور لا بد وأنه كان المكان الأصلى للعبادة لمعسكر الحصن عندما بنى من حوالى أربعة آلاف سنة مضت .

لم تقتصر حفائرنا فى بوهن على الحصن الكبير . فلقد فحصت مناطق متاخمة وأدت احدى هــذه المناطق الى نتائج مذهلة . وهــو موقع يبعد حوالى نصف ميل شمال الحصن على الضفة الرملية للنهر . وكان هذا الموقع موضع شك حيث أنه فى عام ١٩٦٠ عندما كانت زوجتى تنزه كلابها عثرت على قطع نحاس خام أحضرتها الى المعسكر للفحص . وهذه القطع قد أثارت اهتمامنا . وفيما بعـــد لاحظنـــا أيضـــا قطعـــا فخارية ذات لون أحمر غريب تغطى المنطقة كلها . وأظهرت المجسات جدرانا لبنية وجدرانا من الحجر غير المهذب السطوح . وهذه الجدران كانت عارية الى درجة أنها لم تصل فى ارتفاعها الى أكثر من أربعين سنتيمترا . ولم يكن هــذا مشجعا ولكن مما أثار فضـــولنا كمية النحاس الخام وقطع الفخار الأحمر الذى لم نعرفه ولا نعرف عنه شيئا حينئذ . ولقد أظهرت البحوث المبدئية أن المنطقة كانت تمتد على ضفة النهر على مسافة أكثر من ثلاثمائة متر . وبدأ الحفر فيها فى ٣ يناير ١٩٦٢ .

وقد عثر على كمية أكبر وأكبر من هذا الفخار الأحمر الجوجنى الشكل حتى توصلنا الى العثور على أجزاء كبيرة أظهرت أن هذا النوع من الفخار ينتمى الى النوع المعروف لرجال الآثار (بسلطانية ميدوم) والتى ترجع الى الأسرتين الرابعة والخامسة (٢٦٨٠ ــ ٢٤٢٠ق.م.) وتأكيدا لذلك كان وجود النـــوع النوبى للفخار من حضارة المجموعة الثانية والتى عاصرت الدولة القديمة فى مصر وقد عثرنا أيضا على أنواع أخرى من فخار الأسرتين الرابعة والخـــامسة واكتشفنا فى مســـتوى أعلا قطعة فخـــار مسجل عليها خرطوش كاكاى (نفر ايد كارع) ثالث ملوك الأسرة الخامسة . وأعقب هذا الكشف العثور على أختام طمبية للأوانى تحـــوى أسماء عدد كبير من ملوك الأسرة الخامسة . ومنذ ذلك الحين تم العثور على كميات ضخمة من الأختام المنقوشة والاوستراكا فى عدة أماكن من المنطقة لم يكن الريح أو الفيضان قد جرفها .

ومع أن عوامل التعرية كانت شديدة الا أن بقايا المدينة تؤكد سكناها بصورة مستمرة لمدة طويلة • ولكن لم يعثر على فخار يرجع الى عصر متأخر عن الدولة القــديمة • ان مناطق الطبقات الارضية المنخفضة تظهر عصورا مختلفة من اعادة التشييد والتنمية من غير فاصل بين هذه التغيرات وقد أظهر التنقيب جدرانا دفاعية كبيرة من الحجارة يصل عرضها إلى مترين تحف شاطىء النهر على بعد مائة وخمسين مترا شمال حدود حصن الدولة الحديثة كما عثر على خندق حجرى يحف النهر •

ولسوء الحظ لم يكن من السهل تحديد حجم المدينة اذ أزيل الطرف الشمالي والطرف الجنوبي تماما • ولكنها كانت مدينة كبيرة جدا من غير شك ، يمتد طرفها الشمالى حتى قرية كافوس •

وظننا فى البداية أن المساحة الجنوبية داخل السور الواقى لم تتأثر بالتعرية ولذلك أقيمت مجسات عميقة فيها أثناء الموسم الأخير لعملنا • ولكن النتيجة كانت مخيبة للأمل ولم نعثر الا على بعض أجـزاء من الفخـــار وبقايا من اللبن هــذا الى جانب الجدران الحجرية الخشنة الصنع •

ولكن كنا ســـعداء الحظ فى تنقيبنا للجانب الشرقى للموقع وفى يوم ٢٦ فبراير عثرنا على جدار لبنى ، جزء منه تحت الخندق المكسو بالحجارة الخشنة عند حافة النهر • فهنا ، على عمق متر من الرمال المتراكمة كشفنا عن بناء له جدران تصل الى متر ونصف فى الارتفاع (لوحة ٢٦) • وعلى جانبى الجدار على مستوى أعمق كشفنا عن ثلاثة أفران محفوظة جيدا حيث كان يصهر فيها النحاس الخام •

أما قوالب اللبن التى بنى بها البناء فذات أحجام غير عادية تشبه النوع الشـــائع فى الأسرة الثانية واحدى الظواهر التى تثبت تاريخهــــا المبكر هى أنه بنى فوقها جدران من قوالب اللبن أصغر حجما يمكن ارجاعها الى الأسرة الخامسة حسب الاختام الطمبية والأوستراكا التى عثر عليها • ونتساءل هل أنشئت المدينة فى عصر مبكر يرجع الى ما قبل عصر الأسرات؟ مع أننا لم نعثر على أى شىء يجزم بوجودها ولكن هناك أشياء أخرى تستند عليها الفكرة وهى : أختام الأوانى والفخار •

وعندما تعمقنا فى طبقات المنزل المبنى من الحجر الذى كشفنا عنه عثرنا على ثلاثة أختام على شكل مخروطى حوت تأثيرات من خـــتم اسطوانى كبير • ولم يمكن التعرف على العلامات بحالتها الرديئة ولكن

ما تبقى يكفى ليظهر أنها تختلف تماما شكلا وحجما عن التى عثر عليها من قبل والتى كانت ترجع الى الأسرتين الرابعة والخامسة . حقا أنها تشبه تماما ومن غير شك النوع المستعمل فى العصر العتيق وكانت لا تثير أى جدل اذا كنا عثرنا عليها فى مقبرة من الأسرة الثانية فى سقاره .

أما بالنسبة للفخار ، فقد استعملت أنواع متعددة منه فى الأسرة الثانية ولا بد أن بعضها بقى استعماله فى عصر الاهرام . وهناك نقطة أخرى وهى أن من بين العدد المحدود للفخار النوبى الذى عثر عليه فى الموقع ، لا شك أنه من أصل حضارة المجموعة الأولى مع أن أنواع المجموعة الثانية هى الغالبة .

والى جانب الكشف عن الجدران الواقية ، كنا قد فحصنا مساحة ستين مترا مربعا بالتفصيل حتى اليوم الثالث من شهر مارس . وفى اليوم الخامس من شهر مارس ، بفضل مصلحة الآثار السودانية التقطت صور فوتوغرافية بالطائرة تغطى كل الحقل الذى نقب عنه .

وبعد تخطيط وتصوير المبانى التى ظهرت فى المنطقة ، حفرنا خندقا عرضه ثلاثة أمتار يصل الى الصخر الطبيعى عبر المنطقة من جدار الحصن غربا الى شاطىء النهر شرقا . وكانت نتيجة هذا العمل مثيرة جدا وكما اقترحنا من قبل فهناك دلائل قوية بأن المدينة كان لها أساس أقدم من الأسرة الرابعة فمثلا ظهر كساء حجرى على عمق متر وأربعين سنتيمترا تحت مستوى الأرض العام فى المدينة التى ترجع الى الدولة القديمة قريبا من حافة النهر . وفى هذه الطبقة عثر على كمية كبيرة من أوان مهشمة لونها بنى وخشنة الصنع وأوانى المعدن وبقايا فحم وبقايا قليلة جدا من معدن خام وهذا كله يدل على ان صناعة النحاس كانت متقدمة فى هذا العصر المبكر .

والظاهرة الثانية الغريبة التى ظهرت بعد حفر الخندق هو أنه الى الشرق من الجدار الحجرى الخشن الصنع وعلى عمق متر وثلاثين سنتيمترا تحت الأساسات وجدنا حفرة طبيعية فى الصخر ملئت بقطع كبيرة من الصخر تصل الى ارتفاع سطح الأرض . وفوق هذه الظاهرة الغريبة نجد طبقة من الرمل المتراكم النظيف سمكه حوالى تسعين سنتيمترا ليس فيه أى أثر لوجود انسان أو حيوان داخل المنطقة المحدودة بالخندق ، يوحى الجزء المغطى بطبقة من القطع الحجرية الكبيرة بوجود أساس لمبنى كبير جدا مع أنه لا أثر له قط . وفى كل هذه العمليات وفى الطبقات العليا

عثر على أختام أخرى متعددة كلها منقوشة ، ومن بينها نماذج دقيقة تمثل السرخ (واجهة القصر) وبجانبها خرطوش الملك « من كاورع » ٠

وكانت خيبة أملنـــا شديدة لأن المتبقى من هـــذا الموقـــع المهم بالنسبة لقدمه كان قليلا جدا . فالموقع أقدم من حصن الدولة الوسطى بحوالى ألف سنة تقريبا . لذلك نعتبر أنفسنا محظوظين لأننا عثرنا على بعض منه ، اذ أن المدينة بنيت ملاصقة للنهر ، من غير أرض مرتفعة من ورائها لتحميها من عوامل الرياح . ومن الدلائل التى اكتسبناها يمكننا أن نستخلص أن العمران المصرى الحقيقى للنوبة بدأ فى عصر مبكر عن الذى كنا نعتقده ، وربما كان ذلك بعد حملة سنفرو مباشرة ، أو حتى قبل ذلك . ويمكننا أن نتصور مدى أهمية المدينة لتاريخ النوبة اذا تأملنا الحقائق الآتية التى أظهرتها لنا هذه الحفائر :

١ ـ كانت المدينة مستعمرة مصرية بحتة ، فمع وجود علامات لحضارة المجموعة الثانية النوبية ، الا أن ٩٥ ٪ من بقايا الفخار مصرية ٠

٢ ـ كان النحاس أحد صناعات هذه المـــدينة ، لذلك يمكننـــا أن نستخلص أن رواسب هذا المعدن توجد فى مكان ما فى شمال السودان ٠

٣ ـ يبدو أنه كانت هناك طريقة مراسلة منظمة مع مصر خلال الأسرتين الرابعة والخامســة ، وهذا من كمية البردى وأختام الأوانى التى عثر عليها .

٤ ـ تعرفنا على أسماء الملوك الآتية على أختام وقطع الفخـــار « خع اف رع » ، « من كاورع » ، « أوسركاف » ، « سحورع » ، « نفراير كارع » ، « نى أوسر رع » ٠

لم تنحصر معاونة البريطانيين فى حملة اليونسكو لانقاذ آثار النوبة بالعمـــل فى الســـــودان فحسب بل تكفلت الجمعية المصرية للتنقيب بمشروعين فى مصر ٠ الأول ، تحت قيـــــادة السيد ســـميث اذ نظمت مســـحا أثريا هـــاما لاستقصـــاء كل المنـــاطق بين الحدود السودانية والشـــلال التى لم تكن خصصت للبعثـــات المتعددة التى لبت نداء اليونسكو ٠ واستلزم ذلك بعثة صغيرة متـــحركة اضطرت الى أن تعبر شاطىء النيل على مسافة أكثر من ثلاثمائة كيـــلو متر وكشـــفت عن حوالى مائتى موقع قديم ، ومع أن معظمها كان غير جدير بحفائر واسعـــة الا أنه تقرر حصرها وسجلت على خرائط زودتنا بها مصلحـــــة الآثار المصرية ٠

وكانت نتيجة هذه الاكتشافات التجريبية أن عددا كبيرا من المواقع التى بدت ذات قيمة أعطيت كامتياز لبعثات أجنبية مختلفة ، وبدأ هذا المشروع الشاق فى الموسم الأول من عام ١٩٦١ وبالتحديد ٢٨ يناير وبقى حتى آخر شهر مارس ، وفى أكتوبر ونوفمبر من السنة نفسها - أى حوالى خمسة أشهر من السير فى ظروف عصيبة جداً .

أما عملنا الثانى والأهم فى النوبة المصرية فكان التنقيب الكامل للمدينة المحصنة وجبانة « قصر أبريم » (لوحة ٢٧) . أن القلعة المشيدة على الجبل العالى المشرف على الشاطىء الشرقى للنيل ، لن تتأثر من المياه الصاعدة لفترة من الوقت . ولكن الجبانة التى تحيط بها والتى كانت على مستوى منخفض كانت ولا شك ستغرق ، لذلك بدأنا عملنا فى يوم ١٥ أكتوبر عام ١٩٦١ وركزنا كل جهودنا فى الجبانة على اعتبار أن ننتهى من تنقيتها فى موسم واحد .

وكشفنا عن مقابر من العصر المروى ومن عصر المجموعة (س) وكان معظمها قد نهب فى العصور القديمة ماعدا عددا قليلا منها . أما فى حالة بعض المقابر من عصر المجموعة (س) فأعيد استعمالها فى العصر المسيحى . ومع ذلك فقد عثرنا على مجموعة جميلة جدا من الأوانى الفخارية المتنوعة مثل أوانى النبيذ الكبيرة والأوانى الصغيرة الملونة من النوع المروى . ولسوء الحظ أن المقابر الكبيرة كانت قد نهبت فى عصرنا هذا - وبعد فحصها ثبت أنها غير ذات قيمة - اذ أنها فى كل الحالات كانت خاوية . وبعد ذلك وجهنا نظرنا للدفنات التى بدت أنها لم تمس منذ العصر المسيحى المبكر . فعثرنا فى مقبرتين كبيرتين فى شمال الجبانة على أشياء ذات قيمة لم يلاحظها السارق الذى كان لا يعرف أن الجزء المنقور فى باطن الأرض يحوى حجرتين : احداهما للدفن والثانية للأثاث الجنائزى . ونبشت حجرات الدفن كالعادة ولكن لم يعبث بالمخازن . وكانت هذه المخازن تحوى أوانى برونزية متنوعة ومصابيح برونزية وأوانى زجاجية وبقايا صناديق خشبية مرصعة بالعاج وأدوات للزينة وفخار ملون .. وعثرنا أيضا فى مقابر أخرى على أدوات وأسلحة - بحيث أن كشوفنا تعطى فكرة مصغرة للمجموعات العظيمة لما عثر عليه من حضارة مجموعة من المقابر الملكية فى بلانة وقسطل فى عام ١٩٣١ (انظر ص ٥٧) أما المقابر كلها فهى من نوع مصغر فى التصميم لما نجده فى « بلانة » و « قسطل » : وهى عبارة عن كومة من التراب أو الطين مشيدة فوق بئر منقور فى باطن الأرض . وهذا البئر له سقف مقبى من اللبن أو من لوحات حجرية ترتكز على بروز مقطوع فى الجدران .

وفحصت ثلاثة مواقع مروية ولـكنها كلها كانت قد عبث بها اللصوص وسرقوها في العصور القديمة والحديثة • وعلى أية حال فما تبقى يشير الى أن الدفنة كانت لمجموعة من الناس لها ثراؤها وأهميتها • وقد عثرنا على بقايا ثلاثة تماثيل من التى تعرف بتمـاثيل البـا ba-statue ولـكن أهم ما عثرنا عليه من هذا العصر كانت لوحتين لنصوص مروية طويلة : احداهما أربعة عشر سطرا والثانية تسعة عشر سطرا من الـكتابة الضيقة •

وبينما كان التنقيب يتقـدم ، ركز الدكتـور « ركاردو كامينوس » اهتمامه على الأربع مقـاصير المنحـوتة في الصخر والتى نقرهـا « تحتمس الثالث » و « امنحوتت الثانى » و « رمسيس الثانى » عند أسفل الربوة الصخرية عند « أبريم » • وسجلت كل نقوش هذه المقاصير في رسوم بالحجم الطبيعي بطريقة الشف كما سجل أيضا ، بالطريقة نفسها اللوحة الكبيرة لسيتى الأول الموجودة في الناحية الجنوبية للمنطقة •

وعندما انتهينا من التنقيب في جبانة « أبريم » كنا قد فحصنا أكثر من ثلاثمائة مقبرة أعطتنا مجموعة جميلة من الآثار • وأكثر من نصف هذه المجموعة أعطيت للندن ، وبعد عرضها في معرض عام قسمت بين متاحف بريطانيا والـكومنولث •

وبعد المسح العام ، في سنة ١٩٦٣ ، الذى أظهر أن موقع مدينة ابريم المحصنة تستحق تنقيبا على مستوى واسع ، تكفل بها الاستاذ « مارتن بلاملى » بالنيـابة عن جمعيـــة التنقيب المصرية في عام ١٩٦٤ • وتركز العمل ، بالأخص ، بالكشف عن الكنيسة المسيحية القديمة الرائعة التى تشرف على قلعة المدينة • وهنـا في السرداب عثر على مدفن الأسقف الذى لم يعبث به أحد وعثر مـــع الجثـــة على قرطاسين في حالة حفظ جيدة جدا ترجع الى عام ١٣٧٢ ميلادية ، إحداهما باللغة القبطيـــة والأخرى باللغة العربية • وهاتان الوثيقتان الفريدتان يصل طولهما الى أكثر من خمسة عشر قدما • وتتضمن حججـــا عن سلطـــة البطريك في تكريس الأسقف • وأدى التنقيب في الكنيسة الى العثور على وثائق أخرى من العصر نفسه مكتوبة باللغة اليونانية والقبطية والنوبيـــة القديمـــة ، ومدونة على ورق وبردى وجلد ، وتعتبر كنزا بالنسبة لرجل اللغة •

ويجب أن ينتهى الحفر في مدينة أبريم في عام ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦ ، وبانتهائه يعنى اتمام التزام المملكة المتحدة ردا على نداء اليونسكو لانقاذ

آثار النوبة ولقد مضى أكثر من ثلاثة أعوام منذ نداء المدير العام لليونسكو لدراسة الآثار العالمية بقصد انقـــاذ آثار النوبة القـــديمة ، والاجابة ، خاصة بالنسبة للحفائر ، كانت مرضية الى درجة أن أهم النـــواحي في هذا الصدد قد انتهت • ولكن تبقى مسألة حفظ العمـــائر ، وفي هذا الموضوع لم تكن النتيجة مرضية حتى الآن وخاصـــة بالنسبة الى معابد « أبو سمبل » (١) •

ان معابد النوبة السودانية والمصرية كلها تقريبا سجلت بالتفصيل ونقلت النصوص والمناظر التى على جدرانها سواء بالصور الفوتوغرافية أو بالرســم • وجزء كبير من هذا العمل قام به مركز التســجيل لتاريخ الفن والحضارة لمصر القديمة الذى أسسته فى القاهـرة حـكومة الجمهورية العربية المتحدة بمساعدة اليونسكو فى عام ١٩٥٥ • والى جانب عمـــل المركز ، فقد زود البريطانيين والفرنسيين والألمـان والبولنديين والبلجيكيين والأمريكان ، بالمستندات • ولقد تفككت معابد متعددة ونقلت الى مناطق غير معرضة للخطر تمهيدا لتشييدها مرة أخرى فى مواقع جديدة ، وتقام الترتيبات اللازمة الآن لنقل معابد أخرى قبل أن تصل مياه الخزان الى حدها الأقصى فى عام ١٩٦٨ •

وكل شيء على ما يرام حتى الآن . ولكن تبقى المعضلة الكبرى : كيف نحفظ التحف المعمارية الثلاثة لمصر القديمة ــ معـــابد « فيلة » « وأبو سمبل » ــ أما بالنســبة لفيلة فلقد هدأت حكومة الولايات المتحدة المخاوف عن مستقبله ، اذ أخذت المشروع على عاتقها ووعدت بجمع اعتمادات أكثر من كافية لتغطية مصاريف حفظه ــ أى حوالى مليونين من الجنيهات . ولكن الآن فلنترك الناحية المـادية ولنتحـدث عن المشروعات التى وضعها المهندسون لانقاذ معابد فيلة وأبو سمبل .

ولنبدأ « بفيلة » ، تلك الجزيرة التى بنى عليهـا معبد أزيس الكبير تقع على بعد ثمانى كيلو مترات جنوبى أسوان ، أى أنها تقع وراء خزان أسوان القديم . وقبل بناء الخزان ، فى بداية هذا القرن ، كانت الجزيرة وما عليها من أبنية تحيط بها أشـجار النخيل والنباتات الخصبة ، بحيث كانت من غير شك من أجل المناظر فى العالم كله •

---

(١) لقد تم انقاذ معبدى « ابو سمبل » وبذلك انتهت جميع مراحل الانقاذ بنجاح كامل . (المترجم)

أما الآن فلا نرى المعبد الا فى اشهر الصيف عندما يخلو الخزان من مائه ، وحتى فى الصيف ، لقد هدم جماله وأصبح واقعا على شاطىء من الطمى فى وسط النهر . وعلى اية حال ، فان هبوط مياه النيل البطىء وارتفاعها لم تصب المعبد نفسه بسوء ، بحيث آنه يمكن للفنان وعالم الآثار والمهندس فحص ودراسة البناء فى أوقات معينة من السنة .

ولكن الآن سيتغير كل شيء وبتشييد السد العالى سيهدم فى فترة قصيرة من غير شك ، اذ أن جزيرة فيلة ستقع فى منطقة خزن المياه ما بين السد العالى وخزان أسوان القديم . أن مستوى المياه فى هذا الخزان سينخفض عما هو عليه الآن من المستوى الأعلى ، ولذلك سيكون الجزء العلوى للمعبد مكشوفا دائما فى النهار ، أما الجزء السفلى للمعبد فسيكون دائما تحت الماء ليلا وسيرتفع منسوب المياه وينخفض حوالى ثلاثة عشر قدما وذلك حسب كمية المياه اللازمة لادارة التوربينات فى الخزان القديم لتوليد الكهربا . ونتيجة هذا التقلب الدائم ستتآكل الحجارة بسرعة وسوف تتهدم كلية فى مدة قصيرة .

ومع أنها تقع عند قمة الشلال الأول ، الا أن جزيرة « فيلة » تقع شرقى المجرى الأساسى ويحدها على جانبها الغربى جزيرتا « بيجه » « وأجلكيه » ولقد تصور مهندسو مصلحة الآثار المصرية فكرة توحيد هذه الجزر بوساطة حواجز صخرية لتكون مانعا متصلا بالضفة الشرقية للنهر ومكونة بحيرة منفصلة عن الخزان الذى سينتج من مياه خزان أسوان والسد العالى . وردا على نداء اليونسكو عرضت الحكومة الهولندية أن تبعث مختصين من هولندا لدراسة الناحية العملية للعرض وقد قبلت حكومة الجمهورية العربية المتحدة العرض معترفة بالجميل (شكل ٣) .

وبعد فحص كامل ، اعتبر المختصون العرض عمليا وأقيمت مساقط أفقية مفصلة واذا انجز المشروع ، فستخلق جزيرة منفصلة حول « فيلة » بمنسوب مياه مراقب وستكون النتيجة ابقاء المعبد فى موقعة وبشكله القديم قبل بناء خزان أسوان . وسيسهل وصول الزائرين مرة أخرى الى « لؤلؤة مصر » على مدار العام ، وفى فترة قصيرة سيكتسى المكان بالنباتات الخضراء التى جعلته فى يوم ما من أجمل بقاع

العالم . وفوق هذا كله ، ستحفظ نهائيا هذه التحفة المعمارية القديمة لتثير دهشة أجيال المستقبل (١) .

أما حفظ معبدى « أبو سمبل » فهى مسألة أصعب بكثير . ان معبد « رمسيس الثانى الكبير » من غير شك ، أضخم نموذج للتصميم المعمارى والمهارة الهندسية ، ولا يزال فى عصرنا هذا ، أكبر نموذج لنحت منقور فى الصخر . ولتكوين فكرة عن حجمه العظيم يجب أن نقدر أن التماثيل الجالسة أمام الواجهة يصل ارتفاعها الى ٦٥ قدما . أما المعبد الصغير ، معبد الملكة « نفرتارى » ، فلقد نحت كله فى الصخر ويعتبر أيضا آية فى الجمال المعمارى ، مما يوجب انقاذه .

وقد اتفق رجال الآثار والمهندسون ، فى البداية ، على أن الطريقة الوحيدة لحفظ هذين الأثرين البديعين هو تشييد سد حولهما فكلفوا شركة فرنسية مكونة من مهندسين استشاريين بفحص امكانات تنفيذ المشروع وما اذا كان من الممكن أن يصمموا شكل السد الذى يجب بناؤه . وبعد دراسة استغرقت بضعة أشهر ، أقر المهندسون تصميما لسد يتكون من الطين والصخر ذى شكل نصف دائرى ، له جوانب داخلية ذات ميل تدريجى ، تستمر حتى تلاصق واجهة التل الصخرى فى نقطتين متباعدتين الواحدة عن الأخرى بحوالى ٧٥٨ ياردة . وسيحمى هذا السد المعبدين ، وسيبقى الشجر وامتداد بقعة المياه التى أمامه كما هى . وبدا المشروع مرضيا جدا من كل النواحى ولكن الى جانب التكاليف الباهظة لبناء هذا السد فقد كان من الواضح أنه بقيت عدة صعوبات فنية ، أهمها مسألة نشع المياه وتغلغل الرطوبة داخل المبنى ، التى لا يمكن ايجاد علاج لها .

أما بالنسبة للنشع ، فقد أوصى المهندسون بوضع محطة ضخ للمياه تعمل باستمرار لتبقى المياه أمام المعبدين ومن وراء الخزان على مستوى ثابت . وكانت تكاليف اقامة مثل هذه المحطة باهظة جدا بصرف النظر عن التهديد الدائم لغرق المعبدين اذا حدث عطل للمحطة . ولذلك وبعد النظرة الجادة للمختصين ، ترك هذا المشروع وأقر مشروع آخر وضعه المهندسون الايطاليون . ونظر فى هذا المشروع الجديد بامعان .

---

(١) لقد استقر الرأى فى شهر سبتمبر عام ١٩٦٨ على الاخذ بمشروع نقل معابد فيلة . الى جزيرة اجيلكه بعد تسطيحها وزيادة مساحتها ، ووافق اليونسكو على هذا المشروع الذى يتميز بقلة تكاليفه اذا ما قورنت بتكاليف مشروع بناء سدود وكذلك بالتأكد من ترميم جميع احجار المعابد قبل اعادة بنائها فوق الجزيرة الاخرى .

والحل الثانى يبدو لأول نظرة ، وخاصة لغير المختصين أنه غير معقول . ولكن لجنة عالمية مكونة من مهندسين معروفين فحصت وبحثت امكانياته وأعلنوا أنه يمكن تنفيذه • ويتضمن هذا المشروع بايجاز : نحت المعبدين من الصخر الحى ورفعهما عموديا الى ارتفاع فوق مستوى مياه الخزان الجديد . وعندما نتصور أنه فى حالة المعبد الكبير يجب رفع حمولة تقرب من ثلاثمائة ألف طن لا يمكننا الا أن نجلس مذهولين لبدائع الهندسة الحديثة . والطريقة المقترحة كانت هى أن يقطع المعبد بواجهته المنحوته وصالاته وممراته المنقورة . وتوضع هذه الكتلة الصخرية فى صندوق خرسانى ثم يرفع بوساطة حاملات الكترونية تديرها رافعة أثقال هيدروليكية تحته فى ممرات أسفل البناء ويصل ارتفاع كل رافعة ثلاثين سنتيمترا كما أنه ستبنى جدران خرسانية تحت البناء كلما يزيد الارتفاع وبهذه الطريقة سيرتفع المعبدان الى حوالى ١٩٠ قدما فوق المستوى الحالى وسيخلق من جديد منظرها الطبيعى الصخرى • ولكن ترك هذا المشروع أيضا لأن تكاليفه كانت ستصل الى ثلاثين مليونا من الدولارات تقريبا •

واخيرا ، وبعد النظر فى الاقتراحات المختلفة والمتعددة ، مثل رفع المعبدين على أساسات عائمة ترتفع مع مياه النيل كلما امتلأ الخزان ، تقرر اختيار مشروع المهندسين السويديين ويتضمن قطع واعادة بناء المعبدين على أرض مرتفعة بجوار مكانها الأصلى ، وتصل مجموعة التكاليف الى أقل من نصف التى قدرت للمشروعات الأولى وهى بناء سد حول منطقة المعبد أو رفع الأثر فى كتلة واحدة • ويبدو أن البلاد الاعضاء فى اليونسكو ستسهم بالمال الكافى لهذا المشروع الأقل تكلفة ولذلك بدأ العمل من الآن فى « أبو سمبل » •

البابُ الثّالثَ

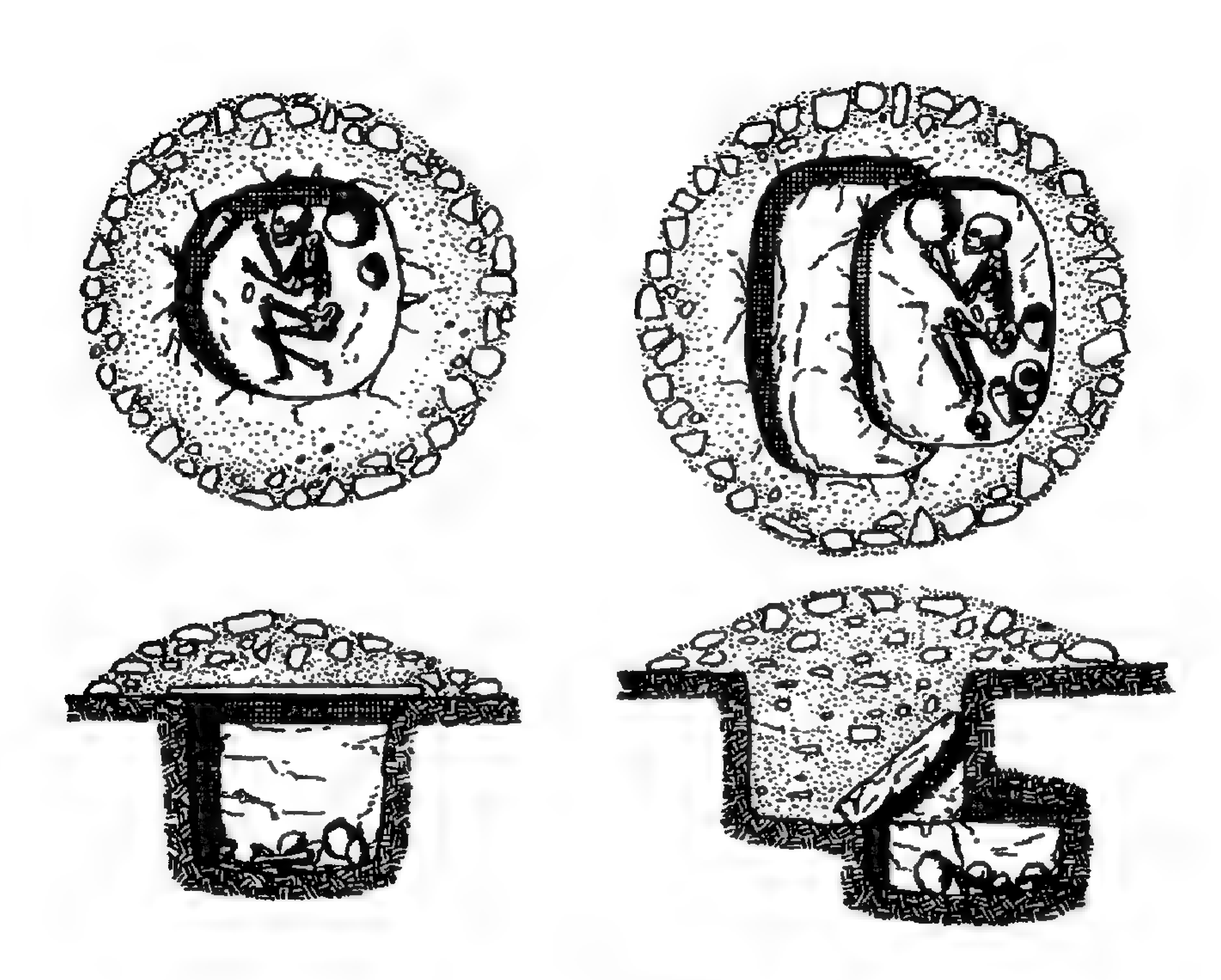
موجز تاريخ النوبة

الفصل الأول

عصر ما قبل الأسرات والدولة القديمة

اننـا لا نعرف الكثير عن تاريخ النوبة قبل التاريخ المعاصر لبداية الأسرة الأولى فى مصر • ويرجع سبب ذلك الى أن البلاد لم تلق اهتماما واسعا من علماء الآثار المتخصصين فى عصر ما قبل التـاريخ • وكانت الحفائر والتنقيبات مقتصرة على وادى النيل وحافة الصحراء بينما لم يكشف عن مدرجات الجبل العالية بطريقة منظمة • ونحن نأمل فى تعويض هذا الاغفال أثناء المجهود الاثرى الحالى قبل أن تواجه المنطقة تهديدها بالزوال•

وكل ما لدينا من آثار عمل الانسان النوبى فى فجر التـاريخ هى بضعة آلات ظرانية من العصر البليوليثى • ولا نعرف كيف كانت النوبة فى هذا العصر المبكر ولا بد أنها ، مثل مصر ، كانت تختلف كثيرا عما هى عليه اليوم أو حتى عما كانت عليه فى بداية العصر التاريخى • فربما كانت مناطق شاسعة من البلاد تتمتع بأمطار كثيرة ، وبها غابات على عكس ما هى عليه الآن ، صحراء جدباء غير مسكونة • وحتى فى العصر النيوليتى عندما



شكل ١١

نماذج لمقابر حضارة المجموعة الاولى

كانت حضارات ما قبل التاريخ تزدهر في مصر لا يبدو أن النوبة كانت مسكونة الا في فترات متباعدة • والجبانة الوحيدة من هذا العصر التي عثر عليها أثناء التنقيب الجذري للمسح الاثري كانت في «بهان» رقم ١٧ جنوبي الشلال الاول • ونحو الجنوب لم يعثر على بقايا انسان متحضر من عصر سابق الا عددا محدودا من الجبانات بين الشلال « والدكة » ويمكن اعتبارها معاصرة لحضارات ما قبل الاسرات الوسطى في مصر •

ومع وجود جنس الاسرات في مصر ، وتوحيد البلاد بوساطة ملوك الاسرة الاولى ازداد سكان النوبة كثيرا ، ولقد عثر على جبانات متعددة في المنطقة الشمالية من النوبة السفلى ومن غير شك يمكن اعتبارها معاصرة لهذه الفترة مع ان الحضارة الظاهرة مماثلة الى حد بعيد لعصر ما قبل الاسرات الأعلى في مصر • هذه الحضارة التي بقيت في النوبة حتى أواخر الأسرة الثانية (٢٧٨٠ ق • م •) تعرف بين علماء الآثار « بالمجموعة الاولى » وسكانها لا يختلفون في مميزاتهم الجسدية عن المصريين فيما قبل الاسرات وفي الحقيقة لا شك في انهم هم السكان أنفسهم الموجودون في بيئة لا اختلاف بينها •

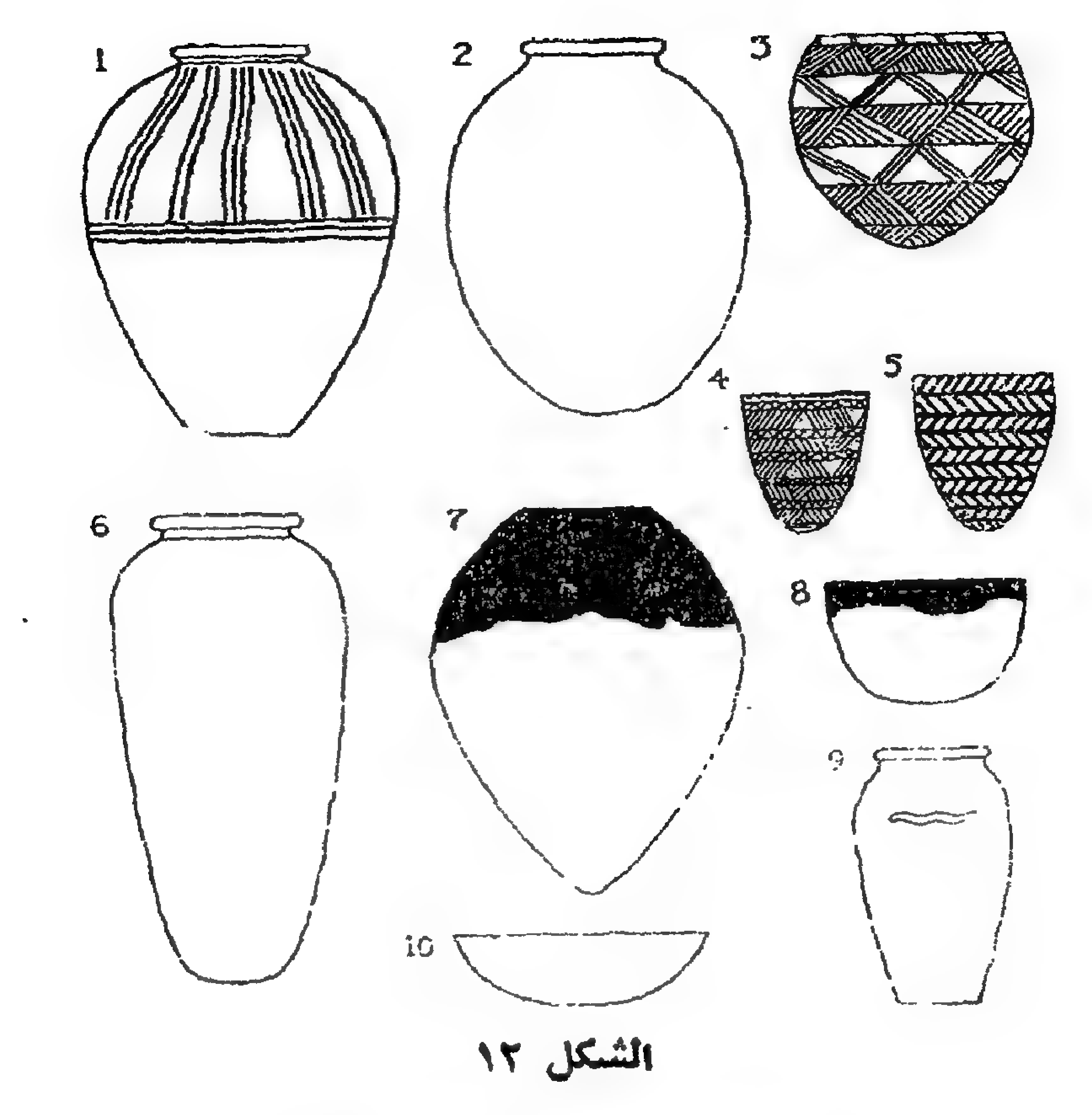
ومن المهم أن نعرف أنه قبل أن يغزو جنس الاسرات مصر(٣٤٠٠ق•م) كانت النوبة قليلة السكان ولم يظهر الاتصال بشمال وادى النيل الا عن طريق بعض الجبانات الموجودة في المنطقة جنوبي الشلال • ثم نجد ازديادا في عدد السكان ودخول حضارة جديدة في النوبة فجأة • والاحتمال الوحيد لذلك هو تسرب عدد كبير من سكان ما قبل الاسرات منسحبين تحت ضغط الشمال نتيجة غزو المتقدمين من الفراعنة المصريين • ومهما كان السبب فالبقايا الأثرية لقوم المجموعة الاولى تظهر أنه في هذا الوقت كانت النوبة السفلى تتمتع بعصر انتعاش نسبي • أما عن الحالة بعد الجندل الثاني فليس عندنا الا أدلة قليلة عليها •

واستعمل شعب المجموعة الاولى نوعين من المقابر لدفن موتاه : النوع الاول عبارة عن حفرة بسيطة مستطيلة أقرب الى الاستدارة وتصل الى عمق ٨٠ سم • أما الاخرى ، وهي غير منتشرة ، فهي عبارة عن حفرة بيضاوية لها حجرة جانبية في مستوى منخفض في أحد جوانبها يصل عمقها الى ١٫٣٠ م (شكل ١١) • وكانت الجثة توضع على شكل القرفصاء على جانبها الايمن والرأس عادة الى الغرب • وكان يحيط بالجسد أشياء للاستعمال اليومي مثل الاواني الفخارية وحجارة لصحن الغلال من الالبستر وألواح الكحل من الالبستر والحجر الرملي « وبومرنج » من الخشب ومثقاب

من النحاس • وكان الجسد يزين بحلي بسيطة مثل الأساور المصنوعة من القواقع والعقود المكونة من خرز العقيق وستيتيت مطلي بالخزف الأزرق والقواقع • وكان الفخار عامة من النوع الجيد سواء في صنعه أو زخرفته وله أشكال وأنواع متعددة • (شكل ١٢) والنوع المنتشر هو الاحمر الكبير الذى كان يحتوى على سوائل ، ونوع أحمر متبعج الشكل ذو قاع مدبب لتخزين الطعام ، ثم سلاطين عميقة وكاسات من الفخار الاحمر الخفيف ومن النوع الاسود المصقول من الداخل بينما كانت السطوح الخارجية من اللون الاحمر ذات الرسوم التى تقلد السلال وربما كانت مثل هذه الاوانى تستعمل للأكل فيها •

ولكن السلام والرخاء في النوبة في عصر المجموعة الاولى لم يستمر طويلا ففي عصر «حورعحا» أول ملوك الاسرة الاولى نجد حوليات لانتصار المصريين في الجنوب وهناك دليل يظهر الجيوش المصرية وهي تدخل على الاقل حتى الجندل الثانى • فهناك لوحة صخرية فى جبل الشيخ سليمان جنوبى بوهن تسجل غزو الفرعون « جر » الذى أعقب حور عحا • وتظهر اللوحة أسيرا جالسا ومربوطا في مقدمة سفينة من طراز عصر الاسرات في مصر ، تختلف فى شكلها عن مراكب ماقبل الاسرات (الشكل ١٣) • أسفل السفينة نجد أجسادا غرقى للعدو المهزوم ودائرتين فيهما خطان متقاطعان يعلوهما نسر وهلال يرمزان الى مدن تم الاستيلاء عليها • ثم نجد شكل أسير واقف ويداه مربوطتان من الخلف ، وأخيرا نجد اسم الملك « جر » • ويصعب القول ان كان التسجيل لغزو كامل للمنطقة أو كان لوحة فخرية لانتصار مجموعة من المغيرين ، وعلى أية حال فهى دليل على اعتداء مصرى فى النوبة في عصر مبكر جدا • ومن الأدلة الأخرى على توغل المصريين في النوبة فى عصر الأسرة الأولى ما يظهر في بعض قطع صغيرة من الأوانى الحجرية الموغلة في القدم ، ترجع الى هذا العصر وقد عثرنا عليها أثناء التنقيبات الحديثة في قلعة « بوهن » على بضعة أميال شمال نص « جر » •

ولقد اعتبر البعض ان حضارة المجموعة الاولى في النوبة نمت وترعرعت تحت سيطرة المصريين • ولكن هذا يبدو غير صحيح لان اختفاءها يعاصر بالتقريب غزو المصريين الاول للمنطقة واستعمارها • ومن الواضح أن الانتهاء المفاجىء لحضارة المجموعة الأولى قد حدث عند غزو النوبة فى عصر الملك «خع — سخم — وى» في أواخر عصر الاسرة الثانية ومهما كانت الأسباب فقد عانى الشعب النوبى فى ذلك الوقت الفقر • ومع أن الحضارة



الشكل ١٢

نماذج لفخار حضارة المجموعة الاولى

١ ـ آنية وردية ذات خطوط حمراء

٢ ـ آنية حمراء

٣ و ٤ ـ آنية حمراء ذات خطوط محفورة

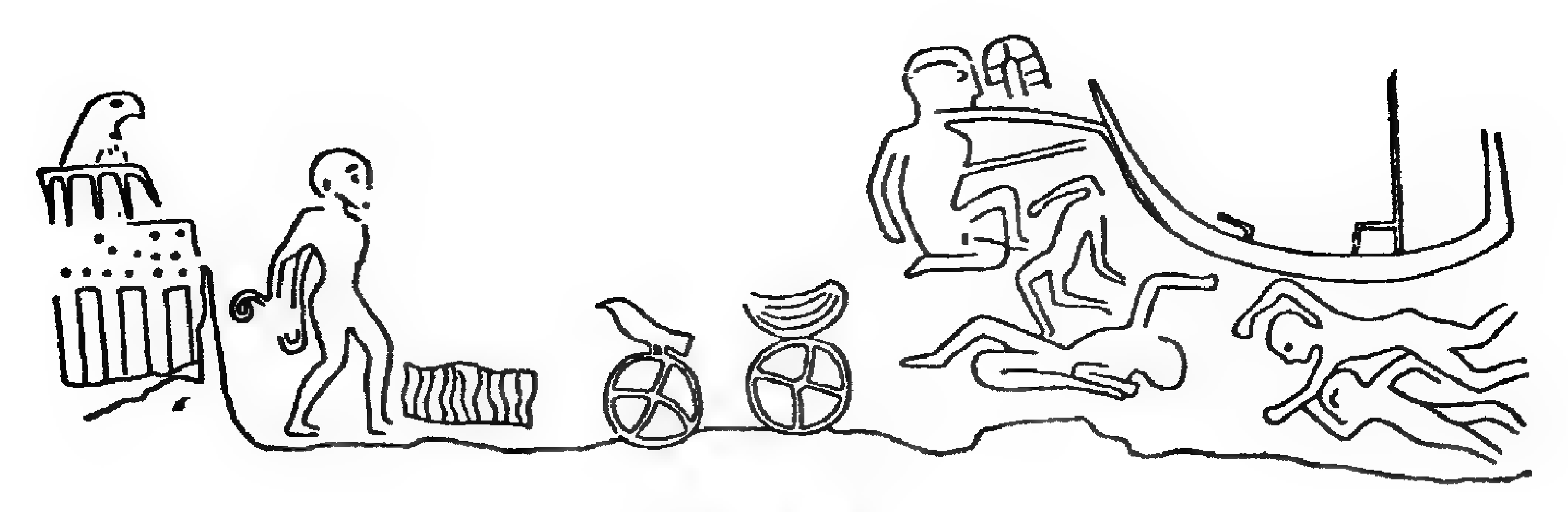
٥ ـ آنية رقيقة حمراء ذات رسوم حمراء

٦ ـ آنية حمراء

٧ و ٨ ـ آنية حمراء ذات فوهة سوداء

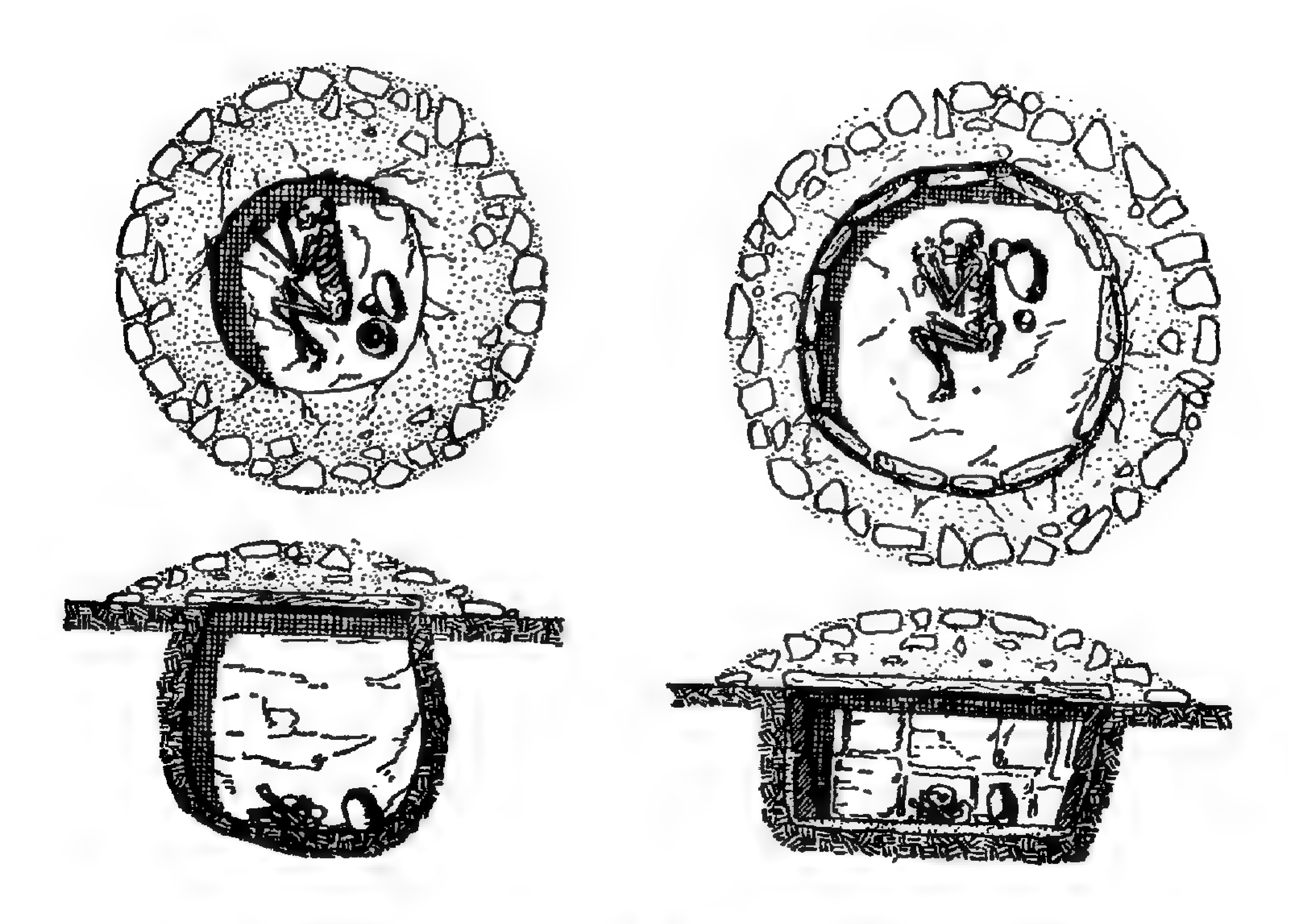
٩ ـ آنية حمراء ذات يد متموجة

١٠ ـ آنية حمراء



الشكل ١٣

نقش الملك جر عند شيخ سليمان



الشكل ١٤

نماذج من مقابر حضارة المجموعة الثانية

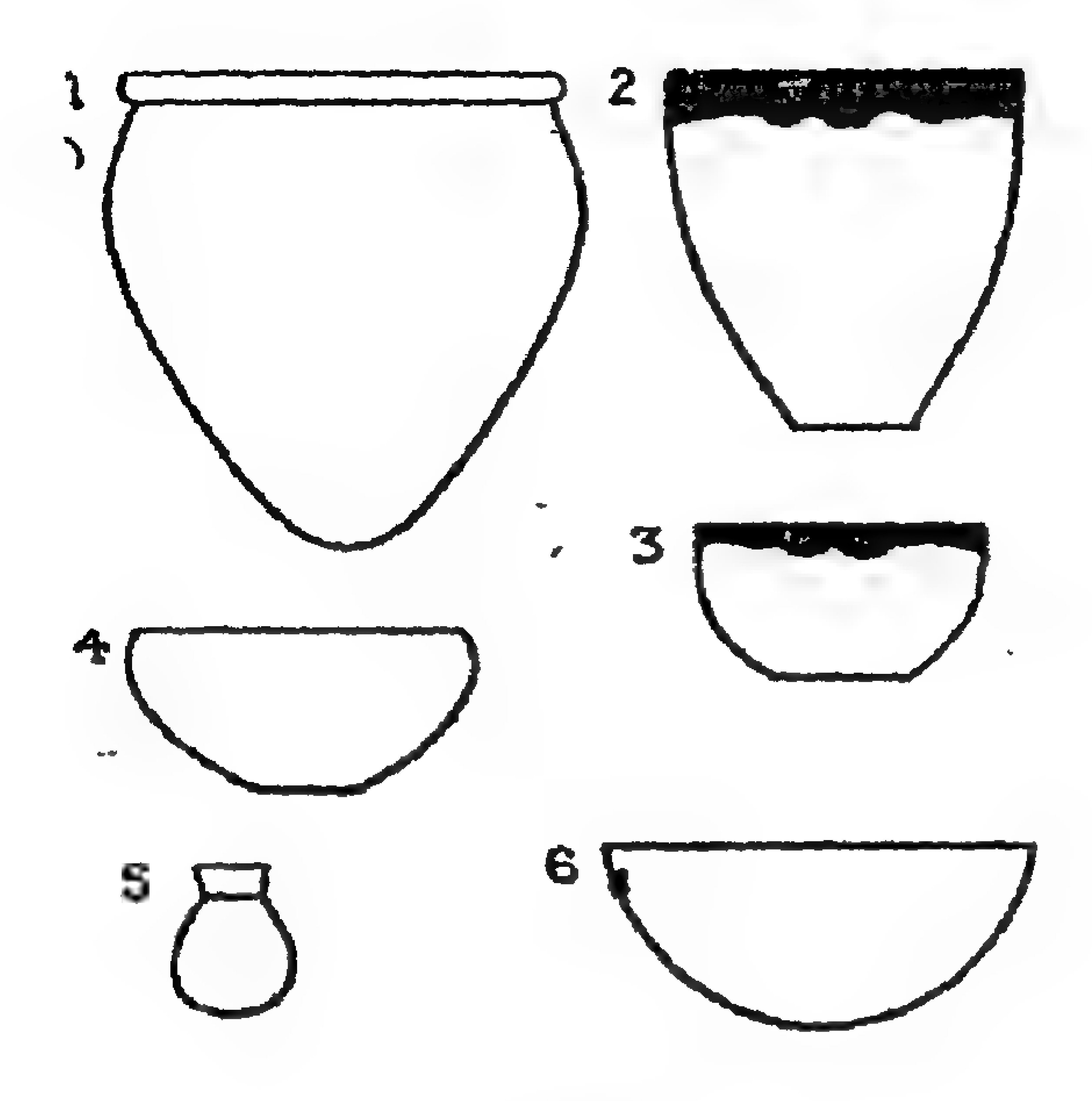
المعروفة بالمجموعة الثانية كانت تنحدر الى حد ما من المجموعة الاولى فهى تظهر نواحى مختلفة كثيرة وربما يرجع السبب الى تدهور عام أو الى ظهور عناصر سلالية جديدة من الجنوب. وهذه الحضارة الفقيرة تعاصر بالتقريب الدولة القديمة فى مصر (٢٧٨٠ ــ ٢٢٥٨ق٠م٠) والتى لم يكن للنوبة أى نصيب فى انتعاشها لأنه يبدو ان الغازى الشمالى جعلهم نصف رقيق ٠

ولا نعرف بعد اذا كان غزو «خع سخموى» تلاه استعمار أم لا ولكنى أعتقد أنه من الجائز جدا أن تكون محاولات قد قامت بهذا الصدد ٠ ومهما كان الأمر فان الاخضاع الحقيقى للنوبة كان عندما بعث « سنفرو » ، آخر ملوك الأسرة الثالثة ، جيشا فى حملة كلفت البلاد سبعة آلاف من الأسرى ومائتى ألف رأس من البقر ولقد كان لهذه الضربة مفعولا مخربا ومدمرا ولذلك لم يكن هناك مظهر لأى عمليات عسكرية أخرى لسنين طويلة فيمابعد٠

واستعمرت النوبة السفلى ووجد المصريون سهولة فى استغلال ثروة البلاد المعدنية العظيمة ومن بينها النحاس ٠ ولقد أظهرت الاكتشافات الحديثة فى بوهن وجود مستعمرة كبيرة مصرية كانت موجودة لاكثر من مائتين وخمسين سنة أثناء عصر الاسرات الرابعة والخامسة من غير انقطاع (انظر ص ١١١) ٠ ومع ان جزءا كبيرا من هذا الموقع الهام قد تآكل عن طريق عوامل التعرية الا أن التنقيب فى المنطقة المحفوظة أظهر ان المستعمرين لمدة لا تقل عن مائتى عام كانوا يصهرون النحاس فى أفران منظمة وما زالت بقاياها محفوظة حتى الآن ٠ كما أن عددا كبيرا من أسماء الفراعنة من بناة الاهرامات مثل خفرع ، من كاورع ، أوسركاف ، ساحورع ، كاكاى٠٠٠٠ عثر عليها فى أختام بردية ربما جاءت عن طريق مرسلات من مصر ٠ كما عثر أيضا على كيمة كبيرة من الأوانى الفخارية المصرية الصنع تؤكد ان المدينة كانت مركزا تجاريا هاما جدا ٠

ولقد عثر على فخار معاصر من المجموعة الثانية فى هذه المستعمرة المصرية ولكن بكمية محدودة لا تجعلنا تعتقد أن النوبيين كونوا جزءا من سكان المدينة ٠ وربما أصبح نوبيو المجموعة الثانية فقراء بعد احتلال المصريين لوطنهم ويبدو أنه حتى التجارة مع المصريين لم يكن لها وجود لأننا لم نعثر على صناعات مصرية فى مقابر النوبيين ٠ وحتى صناعاتهم المحلية مثل الفخار تظهر لنا انحطاطا شديدا فى الصناعة ٠

ان مقابر المجموعة الثانية عبارة عن حفر غير عميقة بيضاوية الشكل أو مستديرة جوانبها مبطنة بقطع غير مهذبة من الحجارة أو من الطين (الشكل ١٤) ٠ وفى حالات نادرة كانت مقابر القادرين لها أرضية من



الشكل ١٥

نماذج لفخار حضارة المجموعة الثانية

١ ـ فخار بنى

٢ و ٣ ـ فخار أحمر ذو فوهة سوداء

٤ و ٥ ـ فخار أحمر

٦ ـ فخار بنى خشن الصنع ٠

الحجارة فوق قاعدة رملية • وكانت الجثة توضع على شكل القرفصاء راقدة أما على جانبها الأيمن أو على جانبها الأيسر فلم يهتموا بتوجيه معين مع ان الرأس كان فى العادة ينظر الى الغرب • وأحيانا نجد الجثة راقدة على حصيرة ومغطاة بجلد ماعز أو غطاء من الكتان • وفى الدفنات الغنية وجدنا أوانى فخارية ثقيلة حمراء ذات فوهة سوداء (شكل ١٥) كما اننا نجد أيضا صلايات الكحل وقطع الحجارة التى يصحن بها الكحل ودبابيس قتال حجرية وبلط • ونادرا ما نعثر على آلات من النحاس مثل الابر والمخاريز • أما الآلات المصنوعة من العظام فهى أكثر شيوعا (أو انتشارا) كهذا النوع الرخيص من خرز العقيق والخزف الأزرق والقواقع •

وفى عهد الاسرة الرابعة (٢٥٦٥ ــ ٢٦٨٠ق٠م) اكتشف عمال المناجم المصريون منابع الديوريت الخفيفة الجميلة التى اســتعملت لتماثيل ملوك الدولة القديمة والوسطى • وكان العثور على هذه الحجارة الجميلة فى منطقة تبعــد حوالى ٨٠ كم غربى «توشكا» • وقد عرفنــا من نصوص عثر عليها هناك ان هذه المحاجر استعملت فى عصر الملوك «خوفو» و « جدفرع » فى الاسرة الرابعة «سحورع» و «جدحوراسيسى» فى الاسرة الخامسة •

وتسجل نصوص من الاسرة السادسة للملوك «تيتى» و «ببيى الاول» على صخور «توماس» على الشاطىء الغربى للنهر ، وجود بعثات مصرية فى المنطقة ولكن ليس هناك أى دليل على وجود مستعمرة منظمة فى النوبة •هذا مع احتمال وجود معسكرات صغيرة تركزت فى نقط استراتيجية لحماية الطرق التجارية المصرية • وسجل الفرعون «مرن رع» من الأسرة السادسة (٢٢٥٨ ــ ٢٤٢٠ق٠م) فى نص عند الجنــدل الاول حضـــوره الى المنطقة ليتقبل ولاء وطاعة رؤساء قبائل «المدجاو» «وارثت» «وواوات» التى كانت حينئذ تقطن المناطق الشمالية من النوبة السفلى •

وكان للمصريين طوال عصر «مرن رع» نشاط واسع فى النوبة تحت اشراف موظفين بارعين هما « أونى » و « حار خوف » • وكان « أونى » نبيلا عظيما له خبرة فى الشــئون النوبية تحت حكم «ببيى الاول» الملك الذى سبق «مرن رع» عندما بعثه فى مهمة ليجمع الجند لجيوش الفرعون الذين قاموا بحروب ضد قبائل الصحراء الشرقية • وبما ان مثل هذا الحشد كان ممكنا فانه يظهر لنا مدى سيطرة المصريين على النوبة الشمالية وليس غريبا أنه فى العهود التالية أصبح من الضرورى تحسين طرق المواصلات مع البلاد التى تقع جنوبى الجندل الأول ولقد نظم « أونى » ، الذى أصبح حاكم الجنوب ، شق خمس قنوات فى منطقة الشلال الصعبة للملاحة • وكان

الهدف الأول لشق هذه الطرق المائية هو نقل الجرانيت للهرم الملكي في منف • من أجل هذا العمل احتاج أونى الى أخشاب لبناء السفن ومن ثم لم يتردد في أن يطلب من رؤساء القبائل أن يمدوه بها ، فاستجابوا له في سرعة وبما أنهم استجابوا لطلبه بسرعة فهذا دليل على ازدياد قوة المصريين ونفوذهم في المناطق الشمالية من النوبة •

ان اقامة المصريين في النوبة طويلا فتح الطريق للكشوفات في أقاصي الجنوب ، وكان الرائد فيذلك هو النبيل حرخوف ويمكن اعتباره أول رحالة مسجل فيالتاريخ ، ويبدو أنه أصغر سنا من أونى ، كما أن «مرنرع» بعثه على رأس حملة لفتح طرق المواصلات مع « ايام » وهي بلاد لا نعرف مكانها بالضبط حتى الآن ولكنها كانت بالتأكيد جنوبي الجندل الثاني • وبعض المختصين يعتقدون أنها في الجنوب عند « دارفور » • وكانت الحملة التي استغرقت سبعة شهور موفقة غاية التوفيق الى درجة ان « حرخوف» بعث مرة أخرى في رحلة في النوبة آخذا ما سماه «طريق اليفنتين» والذى وصفه بالطريق الصحراوى الذى يبدأ من الشاطىء الغربي لأسوان ويمتد موازيا للنهر وهذا الطريق لا يزال يستعمل في عصرنا هذا(١) لسير قوافل كبيرة من الجمال من السودان الى أسواق اللحوم في مصر • وكان حرخوف فخورا بتوفيقه كرحالة لأنه سجل ذلك في حملته الثانية بقوله « لم يصنع هذا أي نبيل أو قائد قافلة قبل ذلك » •

وقام «حرخوف» بعد استراحة دامت بضع سنين برحلة ثالثة في مجاهل الجنوب ، وفي هذه المرة سلك طريقا مختلفا ، ويبدو أن هذا الطريق كان في الصحراء الغربية (١) وربما كان طريق « دراو — كركر » الذى يمر بواحة « كركر » ولا يزال يستعمل للقوافل حتى يومنا هذا ، وهنا علم «حرخوف» أن رئيس قبيلة «ايام» مر قبله وفي نيته القيام بحرب ضد «التمحو» أو السكان الليبيين في الواحة الخارجة • ولسبب ما لا نفهمه أحس «حرخوف» انه من واجبه أن يلحق به وأن يقوم بدور حمامة السلام • ولقد نجح في مهمته لأنه كان يتمتع بنفوذ كبير لدى شعب «ايام» الذين خصصوا مرافقين عسكريين له في عودته الى مصر • ويبدو أن هذه المرافقة كانت ضرورية لأن «حرخوف» رجع مصطحبا ثلاثمائة حمار محملين بمحصولات قيمة من الجنوب مثل البخور والابنوس وسن الفيل وهي كلها أشياء كان سكان النوبة السفلى يفرحون بنهبها عندما كان المرور عبر أراضيهم •

---

(١) وهو الطريق المعروف باسم « درب الاربعين » •

أما الرحلة الرابعة والاخيرة «لحرخوف» فقد قام بها بعد موت سيده الملكى «مرن رع» وتلاه على العرش الملــكى الطفل «بيبى الثانى» • وأثناء رجوعه من الرحلة كتب للملك يبلغه بأنه أحضر معه قزما راقصا من بلاد «ايام» • ففرح الفرعون الشاب بالخبر وبعث للرحالة بخطاب قائلا فيه : «تعال شمالا الى القصر حالا واحضر معك القزم الذى جلبته حيا فى حالة طيبة وصحة طيبة من بلاد الاشباح لتسلمه للملك وليفرح قلبه ويسعده ، وعندما يكون القزم فى السفينة عين أشخاصا موثوقا بهم للعناية به واهتم به ولا تتركه يقع فى الماء • وعندما ينام فى المساء عين من يوثق بهم ليناموا بجانبه فى الحجرة نفسها ويقوم بالتفتيش عليه عشر مرات فى الليل فان مولانا يود أن يرى هذا القزم أكثر من هدايا «سيناء» «وبونت» • وهناك جدل عن هدية حرخوف للملك : هل كان قزما pygmy أم قزما عاديا لأن ترجمة الكلمة المصرية القديمة غير مؤكدة • وان كان قزمـا حقيقيا فيعنى ذلك أن الرحلة قد توغلت داخل جنوب الســـودان أو أن الأسير الصغير أعطى له عن طريق التبادل فى بلاد « ايام » •

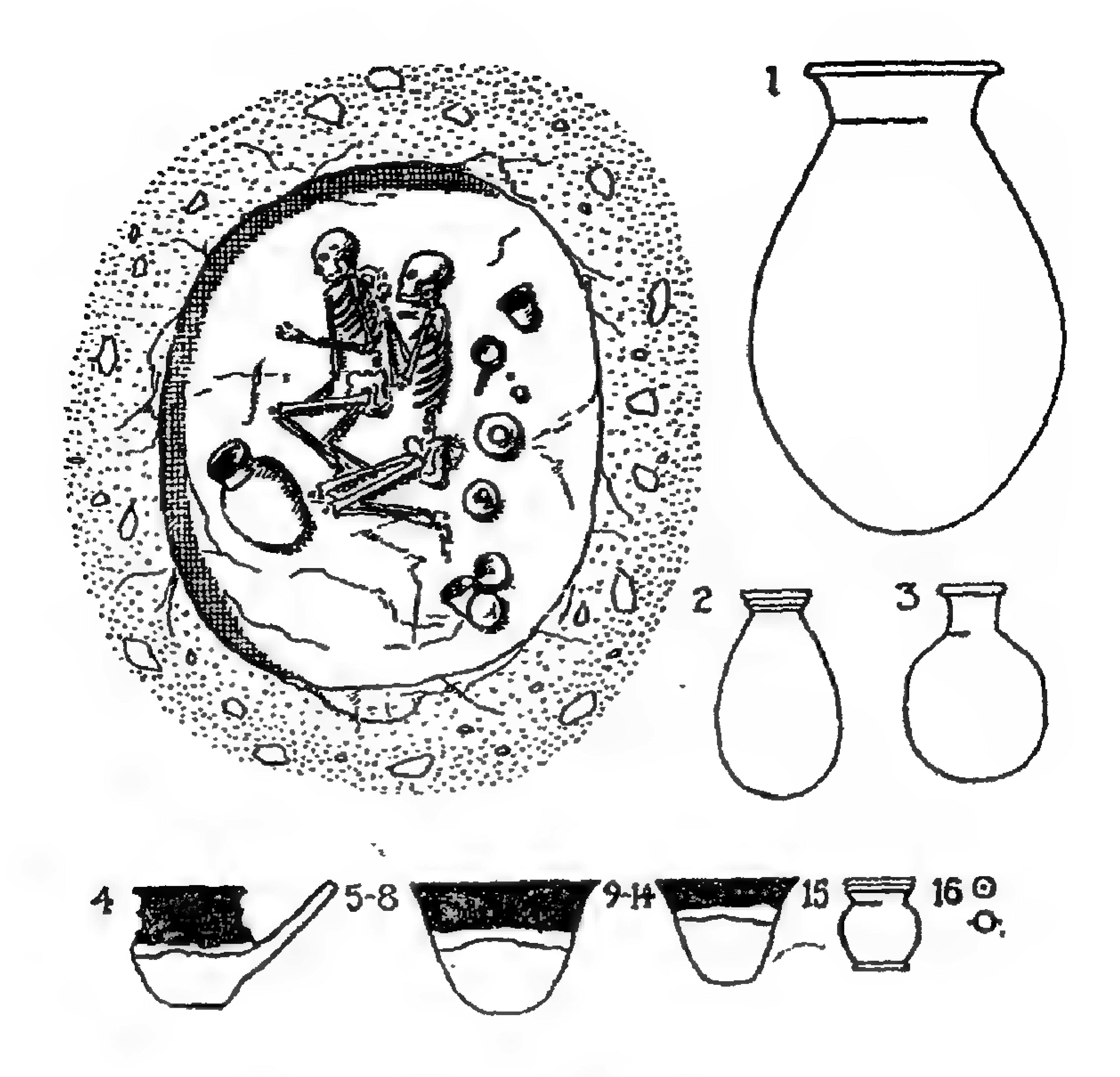
ولم يكن توغل المصريين فى النوبة دائما مصبوغا بصفة السلام مثل رحلات «أونى» و «حرخوف» • فلقد كانت هناك عصور ثورات عندما كان حكم المصريين يدعم بقوة السلاح • ومثل هذه الحملات التأديبية كان يقودها القائد « بيبى نخت » الذى سـجل انه قتل عددا كبيرا من الأعداء وأطفال رئيس قبيلة نوبية ونبلاء عديدين • وبعد تهدئة البلاد نظم « بيبى نخت » حكومته واحضر حاكمى واوات وارثت الى البلاط ليقـــدموا فروض الطاعة لسيده الملكى الفرعون «بيبى الثانى» •

الفصل الثانى

عصر الانتقال الأول والأسرة الحادية عشرة

لم تدم سيادة مصر فى النوبة السفلى بعد موت « بيبى الثانى » فبموته ضاعت قوة الحكم المركزى وأعقب ذلك عصر فوضى فى الوطن مما أدى الى نتيجة حتمية وهى أن مصر ضيعت كل ممتلكاتها فى الجنوب • وهذا العهد فى تاريخ مصر يقع فيما بين نهاية الاسرة السادسة وبداية الأسرة الحادية عشرة ويعرف عند علماء الآثار بعصر « الانتقال الأول» ولقد دام هذا العصر حوالى مائتى عام تقريبا (٢٢٥٨ ــ ٢٠٥٢ق٠م) ٠

اننا لا نعرف الكثير عن الأحداث فى مصر وعن ممتلكاتها الضائعة فى النوبة السفلى سوى بعض الادلة عن الانشقاق الداخلى • والفراغ الناتج من انسحاب القوة المصرية أعطى الفرصة للنوبيين لكى ينشئوا حضارة مستقلة عرفت « بالمجموعة الثالثة » • وقد ظهرت هذه الحضارة عن طريق تزايد السكان المهاجرين القادمين فى الغالب من الجنوب الغربى • ولا يزال اسم وأصل هؤلاء المهاجرين غير معروف ولكن يبدو أن لهم علاقة ــ من ناحية الشكل والحضارة ــ بسكان النوبة السفلى الأول • فالمهاجرون والسكان القدامى ينتمون أساسا الى الجنس البنى أو جنس



الشكل ١٦

مقبرة نوبية من الطراز المعروف على هيئة الناقوس

من الدولة الوسطى فى أبيدوس

أنثى وذكر بالغان يرقدان فى هيئة نصف القرفصاء • الأشياء (مقياس ١/٨) •

١ ــ آنية وردية كبيرة •

٢ ــ آنية من الأليستر •

٣ ــ آنية من الصلصال الأشهب •

٤ ــ آنية حمراء ذات فوهة سوداء لها صنبور •

٥ الى ١٤ ــ آنية حمراء مصقولة وآنية ذات فوهة سوداء

١٥ ــ مكحلة من الألبستر

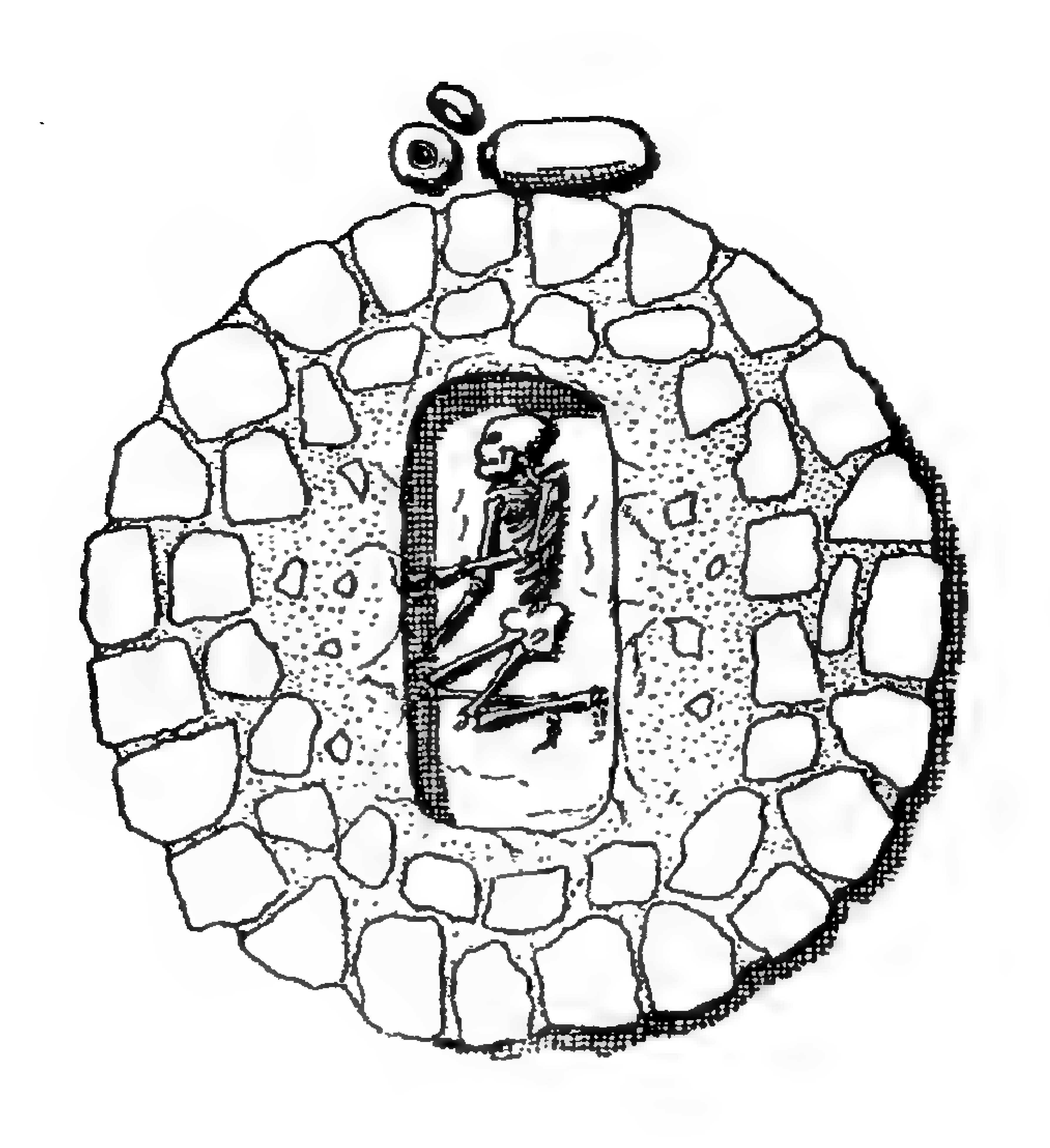
١٦ ــ تسع عشرة خرزة مستديرة من القاشانى الأزرق •

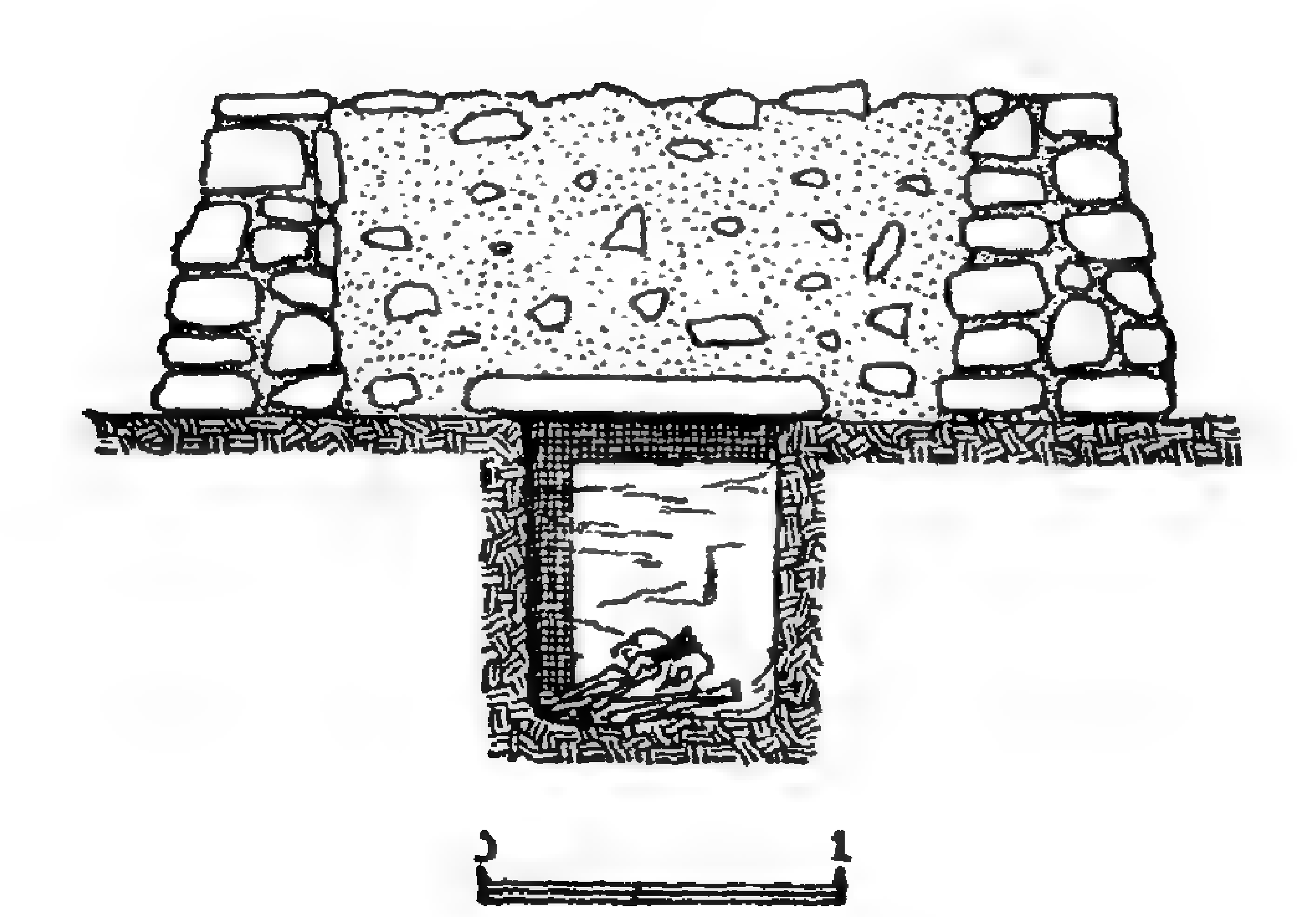
البحر المتوسط ، مع انه قد عثر على بعض المميزات الزنجية فى المادة التشريحية المكتشفة فى مقابرهم ٠

اذن فهذا العنصر الزنجي القليل جعل السكان الجدد يختلفون تشريحيا عن سكان المجموعتين الاولى والثانية الا أنهم ورثوا حضارة أجدادهم وعملوا على تنميتها ٠ حقا ، ان فخار المجموعة الثالثة يشبه الى حد كبير فخار مصر فى عصر ما قبل الاسرات ولعل هذا يمكننا أن نرى فى حضارتهم الرعوية ما يمكن أن يكون تطورا للحضارة « النيوليتية » المتأخرة التى وجدت فى كل وادى النيل الشمالى ، الا أن هذه الحضارة سرعان ما انتهت بغزو المصريين فى آخر الألف الرابعة ق٠م٠ ومع ان مئات من مقابر المجموعة الثالثة قد فحصت بعناية من علماء الآثار أثناء المسح الأثرى ومن البعثات الاخرى فما زالت معرفتنا بهؤلاء الناس قليلة ومع اننا نستطيع أن نتقصى آثار تطور حضارتهم منذ أقدم عصورها فى عصر الانتقال الاول (٢٢٥٨ق٠م٠) حتى انتهائها فى أوائل الدولة الحديثة (١٥٧٠ق٠م٠) فهناك سؤال حيوى عنهم لم يجد له بعد جوابا ، وهو حدود حضارتهم الجنوبية : هل انتهت عند الجندل الثانى أم امتدت فى النوبة العليا ، وان كانت قد امتدت جنوبا فالى أى مدى وصلت ؟ وترجع أهمية الاجابة على هذا السؤال الى أنها سوف تجلو لنا ستمائة عام من تاريخ النوبة الغامض٠

ان حفائر بعثة «هارفارد بوسطن» فى «كرما» ، فى النوبة العليا ، أظهرت حضارة نوبية أخرى تشبه حضارة المجموعة الثالثة وفى نفس الوقت تختلف عنها وتنتمى الى شعب آخر ٠ ولافتقارهم الى تسمية أفضل سمى علماء الآثار هذه الحضارة «حضارة كرما» ٠ ولم نعرف بعد حدودها الجغرافية ولا تتابعها التاريخى ، مثلها فى ذلك مثل حضارة المجموعة الثالثة ٠ وقبل أن تتم اكتشافات وتنقيبات جادة فى النوبة ، كان علماء الآثار متعجبين لكشفهم فى عدة مناطق من مصر عن مقابر تحوى جثه على هيئة القرفصاء تشبه المقابر النوبية نفسها (الشكل ١٦) ولأن المقابر كانت غير عميقة سميت مقابر «ناقوسيه» ، ولأنها قد عثر عليها فى معظم الاحيان فى مناطق بها ثكنات للجيش ، عرف شاغلوها كمرتزقة نوبيين ٠ والأدلة الكتابية الكثيرة تبرز وجود هذه الجيوش فى العصر الفرعونى ٠

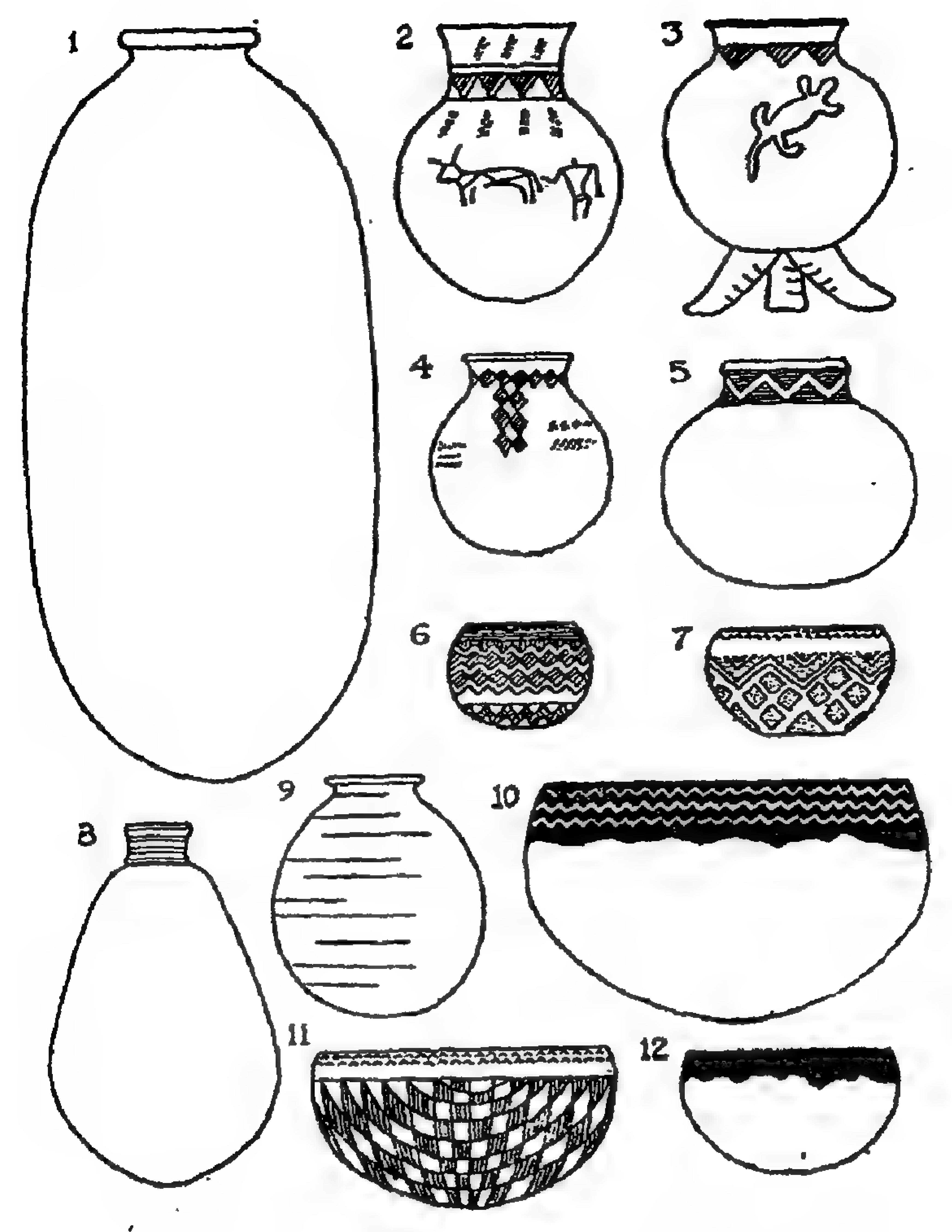
والآن يمكن تأكيد الصلة بين حضارة أصحاب المقابر « الناقوسيه » وأهل «كرما» واستبعاد صلتهم بحضارة المجموعة الثالثة ٠ وبذلك يظهر ان الفرق السمراء التابعة للجيش المصرى كانت تأتى من النوبة العليا ٠ وفى عام ١٩٣٤ ، بعد انتهاء المسح الاثرى الثانى قلت : « لم يأت أقوام المجموعة الثالثة من «كرما» كما كان قد أشار «ريزنر» ٠ ويبدو ان المجموعة





الشكل ١٧

نماذج لمقابر حضارة المجموعة الثالثة



الشكل ١٨

نماذج لفخار حضارة المجموعة الثالثة

١ ـ أوان صفراء

٢ ـ أوان بنية خشنة الصنع ذات رسوم محفورة

٣ ـ أوان بنية خشنة الصنع ذات رسوم محفورة وبارزة

٤ ـ أوان بنية خشنة الصنع ذات رسوم محفورة

٥ ـ أوان حمراء ذات فوهة سوداء ورسوم محفورة

٦ و ٧ ـ فخار أسود ذو رسوم محفورة أو ملونة

٨ ـ فخار أحمر

٩ ـ فخار أصفر

١٠ ـ فخار أحمر ذو فوهة سوداء ورسوم محفورة

١١ ـ فخار أسود ذو رسوم محفورة

١٢ ـ فخار أحمر ذو فوهة سوداء

الثالثة لم تكن قد انتشرت جنوبا حتى الجندل الثاني ولكنها اقتصرت في النوبة السفلى (واوات) تاركة النوبة العليا (كوش) لجيرانها المحبين للحروب • والتشابه الكبير بين الحضارة المعروفة بالمقابر «الناقوسية» في مصر العليا والمادة التي عثر عليها في كرما واختلافها الواضح عن المجموعة الثالثة تجبرنا على أن تصل الى نتيجة هي : أن المصريين لم يجمعوا المرتزقة من النوبة السفلى • وان « واوات » و « كوش » كانتا تختلفان جنسيا وحضاريا • وعلاوة على ذلك ، فان المادة التشريحية في المقابر الناقوسية المصرية زنجية العنصر ، أكثر بلا شك ، من المجموعة الثالثة النوبية •

ومنذ ذلك الحين لم أجد سببا لتغيير هذه النظرية • فهي يجب أن تبقى كنظرية حتى تنقب منطقة النوبة العليا تنقيبا كاملا كما نقبت النوبة السفلى ، وهو العمل الذي يجرى الآن بعد تهديد المياه وبعد بناء السد العالي •

ان أقدم حضارة من المجموعة الثالثة تعاصر عصر الانتقال الاول تشبه في نواح عدة حضارة المجموعة الثانية التي يبدو أنهم ارتقوا منها (شكل ١٧) وكان الجسد ، في هيئة النصف قرفصاء ، يوضع على جانبه الايمن ورأسه في الشرق ، في حفرة بيضاوية الشكل • كان الجسد أحيانا يلف في بقايا لباس جلدى • وفي حالات أخرى كان الجزء الأسفل من الجسم يغطى ببقايا نقبة جلدية مطرزة بالخرز ومن الواضح أنه في هذا العصر وعندما كانت التجارة مع مصر غير موجودة تقريبا كان سكان النوبة يعتمدون على جلود الحيوانات في لباسهم أما للزينة الشخصية فقد استعملوا الأساور المصنوعة من العاج والقواقع والخرز وأقراطا من القواقع وأحزمة وعقودا من الخرز • واستعملوا الدهنج وحفظوه وخلطوه بالأصباغ في قواقع وصلايات فخارية • وجرت العادة في هذه المقابر من المجموعة الثالثة أن توضع أواني التقدمة في المقبرة نفسها • ولكن هذا التقليد قد أهمل فيما بعد ووضعت الأواني الفخارية خارج المقبرة • وبعد الدفن ، كانت المقبرة تغطى بجزء علوى مستدير مكون من قطع حجرية غير مهذبة الشكل • وأعهر فخار المجموعة الثالثة في البداية تطورا من المجموعة الاولى والثانية ولكن أشكالا عديدة وطرقا جديدة أبدعت مثل الأواني الحمراء ذات الرسوم البيضاء والاواني الصغيرة السوداء ذات الرسوم المحفورة التي تملأ باللون الابيض أو الاحمر أو الازرق (الشكل١٨) وللأسف لم يبق الا القليل من مخلفات أهل المجموعة الثالثة وما وصلنا يعتبر مما كان يستعمله فقراء القرية •

ويبدو أن مساكن عظماء القوم كانت موجودة في الاراضي الخصبة

الى جانب شواطىء النيل ونتيجة لذلك اختفت من غير أن يبقى لها أثر تحت الزراعة • ولم يبق لنا الا مساكن الفقراء الموجودة على حافة الصحراء وهى تعطينا فكرة عن قوم عاشوا فى حالة بدائية • أما المقابر فهى تدل على أن الحال لم يكن كذلك • وعلى أية حال فمع ان البقايا اليومية قليلة فهى تزودنا بمعلومات قيمة عن الحالة العامة لأهل المجموعة الثالثة •

ان مساكن أهل القرية المتواضعين التى كشف عنها على حافة الصحراء مكونة من مجموعة من الحجرات تتصل ببعضها البعض جدرانها غير مستقيمة وهى مبنية من قطع حجرية مسطحة وضعت واقفة على الارض وألصقت الواحدة بالاخرى بالطين المجفف • ولم يبق أى دليل على طريقة التسقيف ولكن وجود حفر لأعمدة فى أرضية الحجرات توحى بسقف من الحصير المجدول أو خيمة من الجلود • ومن البديهى أن الجدران المصنوعة من القطع الحجرية غير المهذبة لا يمكن أن تتحمل سقفا مصنوعا من ألواح حجرية • أما أرضية هذه الاكواخ فكانت مبطنة بالطين وكانت مخازن الحبوب مبنية أيضاً من قطع حجرية غير مهذبة ملاصقة للجدران ؟ •

أما الى أى مدى كان أهل المجموعة الثالثة مزارعين فهذا ما لا نعرفه لأننا لم نعثر فى مقابرهم على أدوات زراعية • ولكنهم كانوا بالتأكيد يمتلكون عددا كبيرا من الاغنام والابقار • فلقد أظهر الكشف عديدا من تماثيل فخارية لابقار وخراف وماعز فى قراهم وفى مقابرهم • كما ان هذه الحيوانات كانت تمثل على الفخار كزينة وكانت موجودة أيضا على المناظر الصخرية التى ترجع اليهم • ان النوبة اليوم لا تملك مراعى للاغنام وكل ما يمكن أن نستنتجه هو أن الاحوال المناخية كانت مختلفة عندما كان أهل المجموعة الثالثة يربون قطعان الماشية على شواطىء النيل منذ أربعة آلاف من السنين • حقا فهناك أدلة أخرى على أن سقوط الامطار الغزيرة لم تكن غير مألوفة حينئذ : نلاحظ نظام المصارف الذى اضطر المصريون أن يقيموه عندما شيدوا المدن المحصنة فى النوبة •

ويختلف علماء الآثار فى نظرتهم للصفات العسكرية التى اتصف بها أهل المجموعة الثالثة فبعضهم يذهب الى أنهم كانوا من جنس يحب الحرب اعتبرهم المصريون خطرا مستمرا بينما يرى البعض الآخر أنهم لم يكونوا عدوانيين وكان من السهل غزوهم وابقاؤهم خاضعين • وأعترف أنى شخصيا أميل الى الرأى الثانى • فمن الملاحظ أن الاسلحة نادرة جدا بين الاشياء المتنوعة التى عثر عليها فى مقابرهم للاستعمال الشخصى فى الدنيا الثانية ، بل تكاد تكون غير موجودة • وهذا أمر لا يفهم اذا كانوا قوم حرب • وعلاوة على ذلك ، كما بينت من قبل ، كانت الفرق الزنجية فى

الجيوش المصرية متصلة بأهل كرمة الذين أتوا من الاراضى جنوبى الشلال الثانى • وفى الحصون المصرية مثل «كوبان» و «ايكور» الموجودة فى قلب وطن المجموعة الثالثة نجد آثارا لأهل كرمة الذين خدموا كعساكر بينما لا نجد آثرا لأهل المجموعة الثالثة • ومن ناحية أخرى وجدنا دلائل كثيرة لمساكن من المجموعة الثالثة على مقربة منها ولكن ليس فى الحصون نفسها• وفى نظرى تكون النتيجة الحتمية ان أهل المجموعة الثالثة كانوا محبين للسلام ولم يعتبرهم المصريون لاتقين كرجال للجيش فاعتمدوا على المحاربين الجنوبيين كاحتياطى فى معسكراتهم •

ولذلك أعتقد أن سكان النوبة السفلى كانوا من جنس غير عدوانى ، يحب الاستقرار ويربى الماشية عندما استقر الحكم المركزى فى مصر وبدأ فراعنة طيبة ، فى الأسرة الحادية عشرة غزو الجنوب مرة أخرى • حقا هناك دليل بالرغم من ذلك على أنه فى العهد الذى يسبق اتحاد مصر تحت لواء ملوك طيبة ، طالب أسلافهم ، وهم الأمراء الذين لم يتعد حكمهم شمال أسيوط ، « مراقبة بوابة الجنوب » •

ولقد سجل نقش آخر فى طيبة كيف أن جنديا اسمه «جمى» جعل «واوات» تدفع الجزية لأمير طيبة • ويبـــدو أن هذه الجزية لم تتعد غنائم حملة واحدة ومـــع ذلك فهى تثبت أن المصريين حتى بعـد ضعفهم نتيجة للنزاع الداخلى ، كان أمراؤهم الجنـــوبيون لا يزالون يهتمـون بالنوبة ويستخدمون نفوذهم هناك • ولم يصبح الدخول الى الجنوب بطريقة واسعة ومنظمة ممكنا الا بعد أن اعتلى أمراء طيبة عرش مصر الموحدة •

وأصبح هذا الاتحاد نهائيا تحت حكم «منتوحتب الثانى» فى الاسرة الحادية عشرة وبانتهاء حروبها الاهلية تمكنت مصر من أن توجه اهتمامها نحو جيرانها الجنوبيين • والدلائل على النشاط العسكرى المصرى فى النوبة السفلى أثناء الجزء الثانى من الاسرة الحـــادية عشرة ثابتة على عدة نقوش صخرية خاصة فى بوهن مما يثبت بمدى توغلهم نحـــو الجنوب • ولكن بصفة عامة فهذه الحملات تبدو أنها كانت حملات تأديبية للرد على اعتداءات النوبيين على القوافل التجارية المصرية والعمل فى المحاجر • فمثلا يسجل نقش صـــخرى فى « ابيسكو » كيـــف أن المدعو توحمـــانو ، الذى يبدو أنه كان نوبيا ، أصبح جنديا «لنب حبت رع» (منتوحتب الثانى) عندما سافر الملك المصرى جنوبا الى «بوهن» أثناء «رحلته بحرا عبر البلاد كلها ليقتل بدو «جاتى» الذين كانوا يمنعون قطع الحجارة» •

ولكن ، عندما وقعت مصر نفسها فريسة للحروب الاهلية أصبحت

سيطرتها على النوبة السفلى غير ثابتة وفي أواخر الاسرة الحادية عشرة يبدو أنها لم يكن لها وجود تقريبا • وعلى أية حال فبالنسبة للسكان يبدو أن الحالة كانت هادئة • ومن الادلة الاثرية تقرر ان حضارة المجموعة الثالثة استمرت فى تقدمها البطىء دون ازعاج • ولكن فيما بعد الشلال الثانى ، فى النوبة العليا ، اختلف الحال ، ومع أننا لا نعرف الا القليل عن ظروف هذه الفترة الا ان الحوادث المتأخرة توحى بانه أثناء الفترة الذى ساد فيها الضعف فى مصر تكونت قوة عسكرية هائلة فى الجنوب سماها المصريون « كوش » ومنذ ذلك الحين أصبحت كوش قوة دائمة التهديد للحدود الجنوبية ولمصر نفسها ـ الى درجة أنه عندما اتحدت مصر مرة أخرى تحت حكم فراعنة الأسرة الثانية عشرة العظام ، وجد حكامها أنه من المحتم انفاق جزء كبير من الثروة القومية فى بناء مواقع حماية كبيرة سأصفها فى الفصل المقبل •

الفصل الثالث

الأسرة الثانية عشرة

يبدو ان مؤسس الأسرة الثانية عشرة وأول ملوكها لم يكن من دم ملكي كما يبـــدو أنه كان يمت الى أصـــل نوبى . وجاء فى نبوءة لكاهن من مدينة « بوبستس » فى عصر الملك (سنفرو) (٢٦٨٠ ـ ٢٦٥٦ ق.م) ان مصيبة ستلحق بمصر لن تنتهى الا عندما يأتى من الجنوب ـ من « نخن نخن » (مصر العليا) ـ طفل يدعى « امنى » وهو ابن سيدة من «تاستى» (النوبة) ليصبح ملكا . واسم « أمنى » تصغير معروف لاسم «امنمحات». وبما أن النبوءة وردت فى بردية من الأسرة الثانية عشرة فهذا يدل على ان كتابتها في هذا العصر كان نوعا من الدعاية الملكية . ومع ان تاريخ هذه القصة غير صـــحيح الا ان مولد ونسب البطل « أمنى » يكاد يكون صحيحا . ولقـــد أعاد « أمنمحات » الرخاء والقـــانون والنظام لمصر بعد طرد الاسيويين الذين كانوا يتوغلون فى الدلتا ولكنه اضطر فى أواخر حياته الى أن يواجه مسألة حدوده الجنوبية . والسنة التاسعة والعشرين من حكمه أشرك ابنه « سنوسرت » معه كولى عهد لمدة تسع سنين ويبدو أنه هو الذى كان يقود الحملة النوبية وليس امنمحات نفسه الذى كان قد بلغ سن الثمانين تقريبا . ولم نعثر بعد على سجل لهذه الموقعة وهى

الأولى في مجمـــوعة طويلة من معارك الأسرة الثـــانية عشرة ، الا في نقش قصير على صخرة قريبة من كروسكو نقرأ فيه أنه في (السنة التاسعة والعشرين للملك « سحتب اب رع » (امنمحات الأول) ليعش للأبد ، حضرنا لنطرد « واوات ») • ولم تذكر الا النـوبة الســـفلى (واوات) ويبدو أنه قاد الحرب لاعادة سلطة المصريين في المنطقة الواقعة بين الجندل الأول والثاني • وهذا كتمهيد لمواقع أكثر خطورة مع كوش في الجنوب • واني أعتقـــد أنه كان للحملة المصرية هدفان • الأول توسع استعماري لاستغلال ثروة المناجم وبعض المحاصيل الجنـوبية الاخرى • أما الهدف الثاني فهو ضرورة ابقاء النوبة السفلى كحاجز بين مصر وكوش •

بدأت العمليات الحربية المهمة بعد تسع سنين من تهدئة واوات • وبعد عمليـــات أخرى ناجحة والاســـتيلاء على الجندل الثـــاني أصبح «سنوسرت» ، في وضع يمـكنه من تشييد سلسلة من الحصون أصبحت فيـــما بعد أعظم الموانـــع الحربية التي صنعتها أيد بشرية في العـالم القديم • ونقش على لوحة من الحجر الرملي ، عثر عليهـــا في « بوهن » عند رأس الجندل الثـــاني ، منظر للملك وهو يقــف أمام اله الحرب « منتو » قائلا له « لقـــد أحضرت لك كل بلاد النوبة تحت قدميك أيها الاله الطيب» ثم نجد المنظر المعروف لرأس واكتاف أسير فوق سياج بيضاوي الشكل يتوسطه اسم مدينة أو مركز مغلوب • ولقـد عثر على عشرة من هذه الاسماء التي تدل على المنـــاطق التي وضعت تحت الخضوع نتيجة الغزو • ومع انه من الصعب التعرف عليها الا انها كانت واقعة طبعا في منطقة الجندل ولم تكن جزءا من «واوات» • والنقش الثاني في حالة مهشمة الى درجة أنها أصبحت خليطا من الجمل ، مثل « حياتهم انتهت » ، « النار في خيامهم » ، « حبوبها رميت في النيـــل » ، ولقـد أقام لوحـة النصر هذه قائد سنوسرت الذي ينهي النص كالآتي : (أنا نفسي أقسم ان هذا حدث حقيقة ، أنا قائد الجيش « منتوحتب ») • واذا صدقنا القائد فقد كانت هزيمة الكوشيين مصيبة كبيرة ، ولكن محو صـورة الشخص الذي يقف وراء الملك يوحي بأنه قد طرد فيما بعـد • وعلى أية حال فهناك أدلة أكثر تفصيلا عن انتصارات « سنوسرت » في النوبة في السنة الثامنة عشرة • وقد جاءنا الخبر من نقش في مقبرة رجل يدعى « أمني » الذي كان من أقوى الرجال في مصر الوسطى أثناء حكم « سنوسرت الاول » وواحدا من حكام اقليم الوعل (بني حسن) ويقول :

« لقد تبعت سيدي عندما أبحر جنوبا لطرد أعدائه من بين البرابرة الاربعة • وأبحرت جنوبا باعتباري ابن حاكم اقليم ، وباعتباري واحدا من

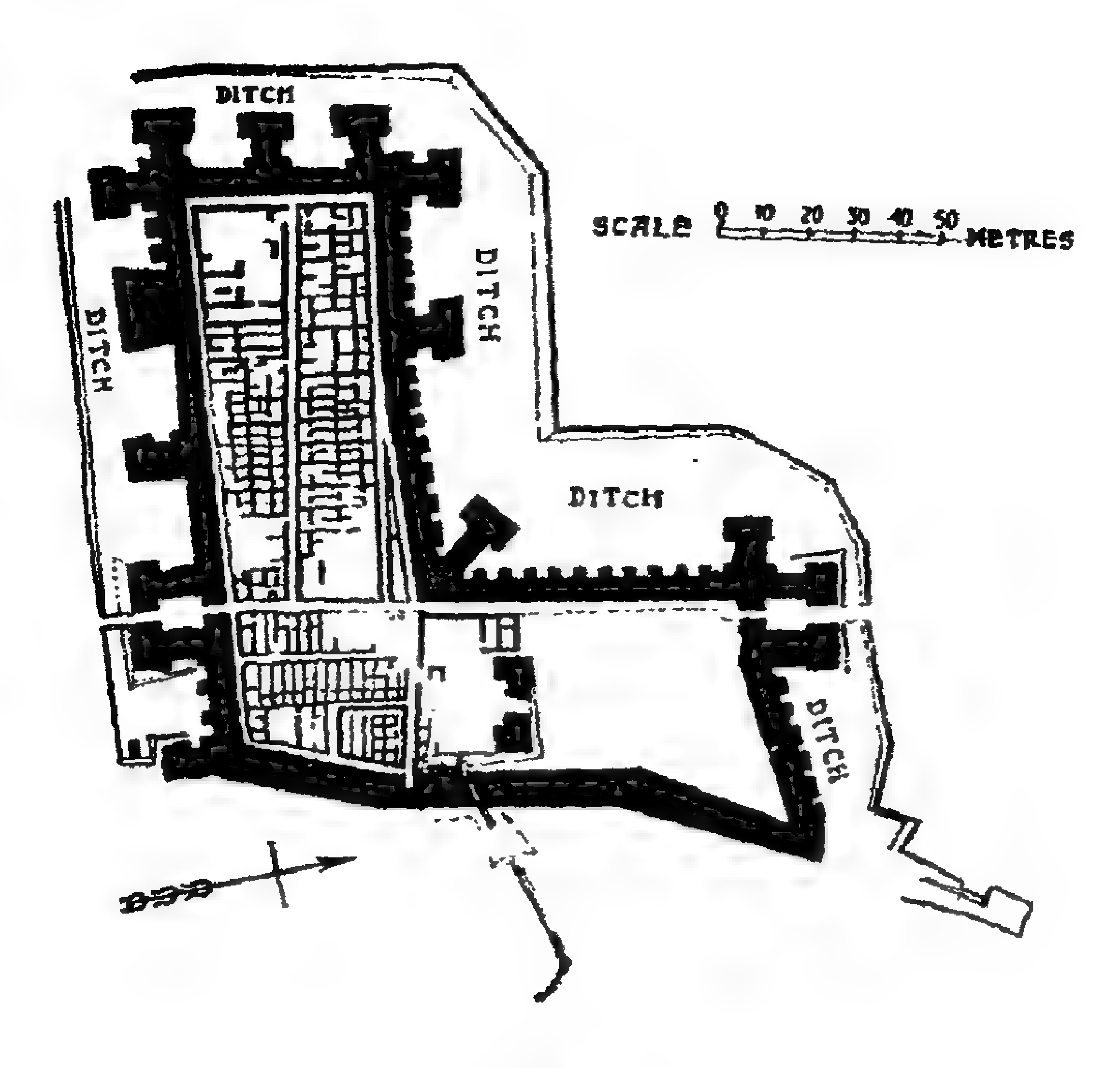
الاشراف ، وكقائد للجيش ، ثم باعتباري عظيما من مقاطعة الوعل ، وكابن يمثل والده العجوز الذى يتمتع بالحظوة عند الملك ، وحب البلاط له . ومررت فى كوش أثناء ابحارى جنوبا ووصلت الى حدود الدنيا ، وأحضرت معى جزية . ووصل الشكر لى الى السماء . حينئذ رجع مولاى فى أمان بعد أن طرد أعداءه في كوش الخاسئة . ورجعت متتبعا اياه كرجل قدير، ولم يكن هناك خسارة بين جنودى » .

ومع ان النص يرجع الى السنة الثـالثة والاربعين من حكمه ، فهو يسجل بلا شك حوادث أيام شباب «أمنى» عندما كان والده لا يزال على قيد الحياة . أما عن قوله انه لم يتكبد خسارة بين جنوده فيبدو أن هذا يرجع الى أنه قد صاحب الملك بعد النصر الذى انجزه القائد «منتوحتب» .

أصبحت منطقة الجندل الثالث بعد هـذا الانتصـار تحت رقابة المصريين ، وبدأ «سنوسرت» فى تشييد حصون وقلاع بقيت لسنين عديدة السد المانع الذى حد من قوة كوش . وبعد أن اختار مهندسو «سنوسرت» العسكريين السد الطبيعى فى منطقة الجندل الثـانى والمعروفة « ببطن الحجر » ، أقاموا مجموعة من الحصون على شاطىء النهر ، كلا منها على بعد اشارة من الاخرى وقد عثر على معظم معالم هذه الحصون ، ومع أن بعضها قـد فحص الا أنه لم يتم الكشف تماما الا عن واحد منهـا وهو حصن «بوهن» . ومع ذلك فلقد دل الفحص على أنها شيدت كلها فى الوقت نفسه تقريبا وأنها بنيت على طراز واحد كجزء من فكرة حربية واحدة . ولايمكن أن يكون مثل هذا العمل الجبار قد تم فى عهد واحد ، ولـكنى أعتقد ان العمل ، فى الغالب ، بدأ فى معظم الحصون فى عصر «سنوسرت الاول» .

ولقد عثر «جيمس كويبل» سنة ١٨٩٦ على مجمـوعة من البرديات ترجع الى آخر الدولة الوسطى فى مقبرة أسفل معبد « الرامسيوم » فى طيبة ، ومن بين هـذه البرديات واحدة دونت عليهـا قائمة لأسـماء جغرافية من بينها أسماء الحصون النوبية . وذكرت سبعة عشر حصنا من بينها ثمانية لا بد انها تنتمى لمجموعة الجندل الثانى ، والقائمة الكاملة لهذه المراكز العسكرية مبتدئين بالتى فى أقصى الجنوب كما يلى :

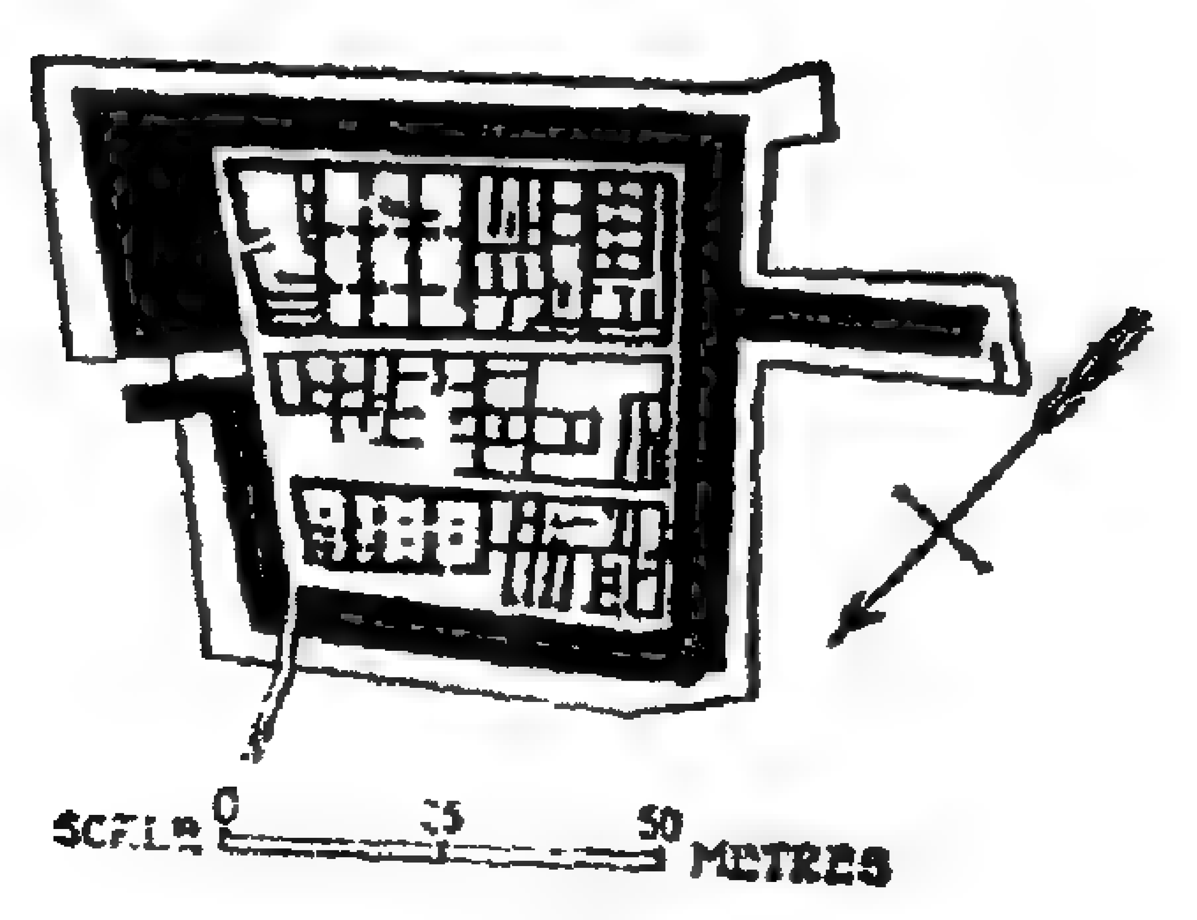
١ ـ الحصن المعروف بـ «القامع ...» (وبقية الاسم ضائع) . وهذا ما يمكن أن يعرف ببقايا بنـاء مستطيل كبير ، موجود على بعد كيلومتر جنوبى سمنة على الضفة الغربية للنيل . ولم ينقب بعد ولكن من حجم قطع الطوب اللبن وسمك جدرانه يبدو أنه من عصر الدولة الوسطى ومعاصر للحصون الاخرى فى المنطقة .



الشكل ١٩

رسم تخطيطي لمسقط

قلعة « سمنة »



الشكل ٢٠

رسم تخطيطي لمسقط

قلعة « قمة »

٢ ــ الحصن المعروف بـ « خاع كاورع ــ المبجل ــ قوى » • وهذا الحصن فسر على أنه قلعة « سمنة » على الضفة الغربية والتى تقف آمرة على النيل مع الحصن التوأم على الشاطىء الشرقى ، فالنيل فى هذه المنطقة يشق طريقه فى جبل من الصخر القوى فى أضيق منطقة للجندل الثانى• ومن الاسم يمكننا أن نستخلص ان بناءه تم فى عصر « خع كاورع » (سنوسرت الثالث) ولكن التنقيبات دلت على ان النصف الشرقى للبناء شيد فى وقت متقدم عن ذلك ، ربما فى عصر «سنوسرت الاول» • وقد بنى الحصن على قمة صخرية على شكل حرف ــ L ــ الافرنجية على حافة النهر ولذلك نجد تخطيطه غير مستقيم ؛ ان السور الخارجى الكبير المصنوع من اللبن يقوم على أساس من الحجر ويحيط به من الجوانب الشمالية والغربية والجنوبية الخندق العادى الواسع الجاف • أما الجدران فسمكها يصل من ٦ الى ٨ م ويتخللها بين مسافة وأخرى أبراج عالية ضخمة وتصل الى المدينة المزدحمة داخل الاسوار عن طريق بوابتين محصنتين فى الجانبين الشمالى والجنوبى ، وتتصل هاتان البوابتان بوساطة طريق يشق المدينة• ومع ان تصميم المدينة غير مستقيم الا انه يظهر فيها التخطيط الدقيق الموجود فى بوهن • (الشكل ١٩)

٣ ــ الحصن المعروف بـ «باعد الاقواس» • وهو الحصن المواجه لسمنه على الشاطىء الغربى للنهر والمعروف «بقمة» • وتصميمه العام مربع ، كما أنه أصغر بكثير من الحصن الذى يواجهه عند الجندل ومع أن تصميمه أبسط الا أنه يبدو أنه من العصر نفسه وأنه يكون وحدة دفاعية واحدة مع «سمنه» • وهنا مرة أخرى بسبب الأسطح غير المستوية للصخر العالى التى شيد عليها الحصن نجد ان الجدران اللبنية التى يصل سمكها الى ٦ أمتار تقف على قاعدة من الحجارة • ومن سوء الحظ ان الجزء الخارجى للجدران قد خرب ومن ثم لا يمكننا أن نتأكد من أنها كانت تحتوى أبراجا فى الأصل ، اذ أن هذه الظاهرة غير موجودة • ويبدو انه كان للحصن مدخل واحد فى الجانب الشمالى الشرقى ولكن شكله غير معروف لأن معظم الجزء الشرقى للحصن قد اختفى • أما فى الركن الشمالى الغربى فنجد بوابة نهرية تصل عن طريق ممر مغطى الى النهر (الشكل ٢٠) •

٤ ــ «التى تصد «الاينو» • الحصن المعروف «بأوورونارتى» ، وهو حصن صغير موجود على جزيرة فى الشلال شمالا • وعلى مسافة قريبة ــ تمكن من الاتصال بالاشارة ــ نجد الحصنين التوأمين «سمنه وقمه» • وتسجل لوحة جرانيتية عثر عليها سنة ١٨٩٩ فى المنطقة ان « سنوسرت الثالث» هو الذى أقام الحصن ولكن بعض الظواهر فى بنائه ــ اذا قورنت

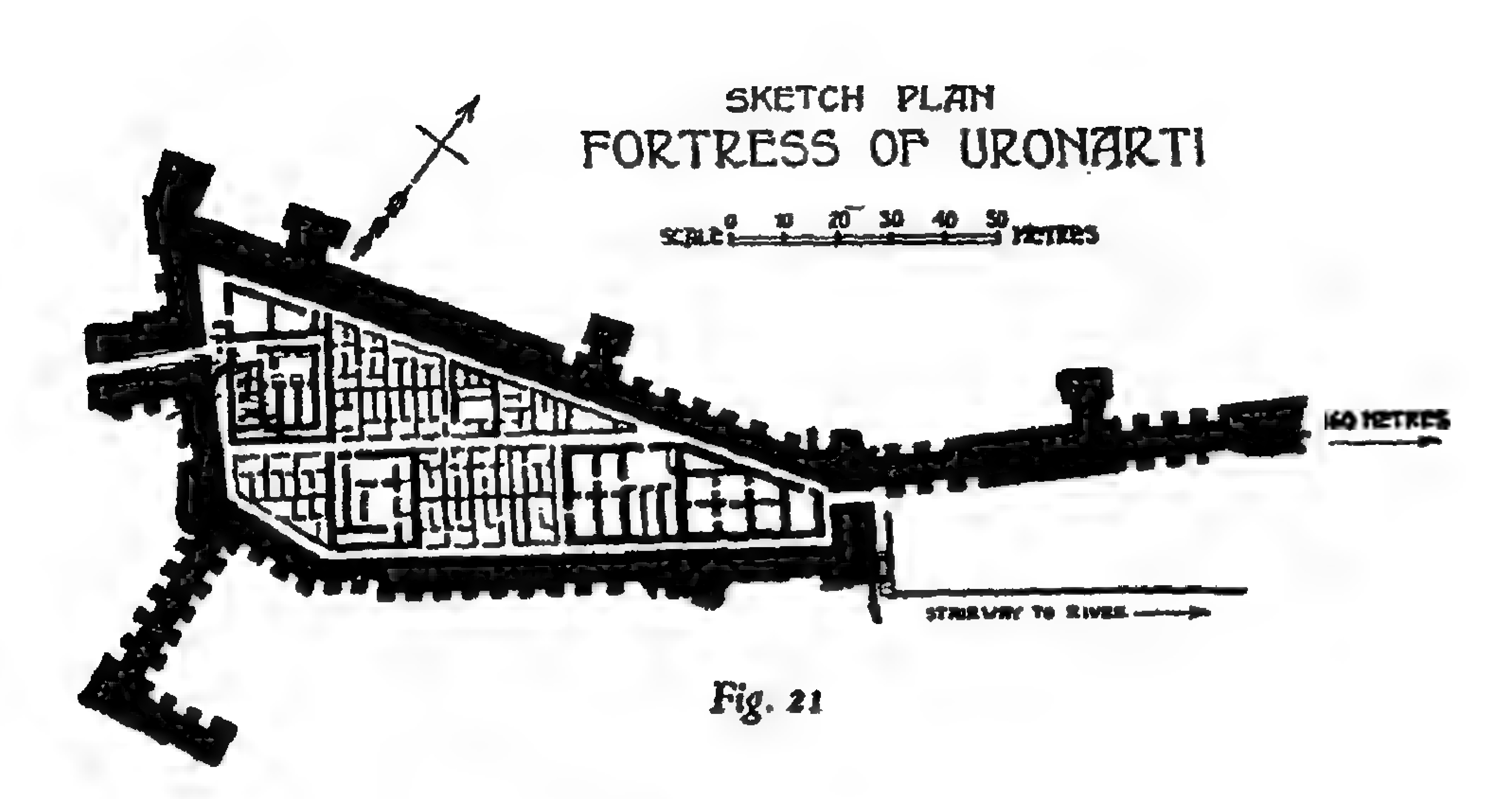
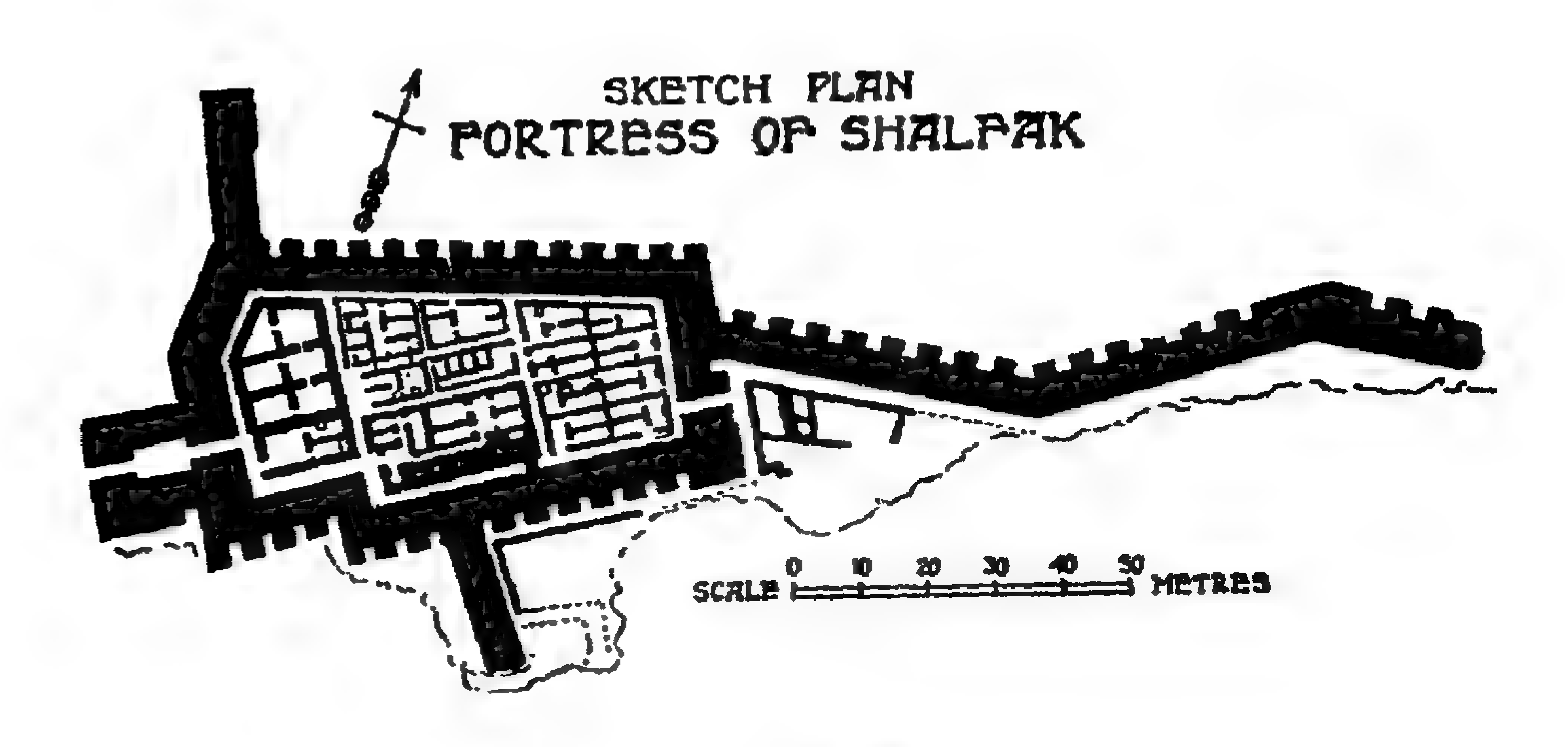


Fig. 21

الشكل ٢١

رسم تخطيطي لمسقط

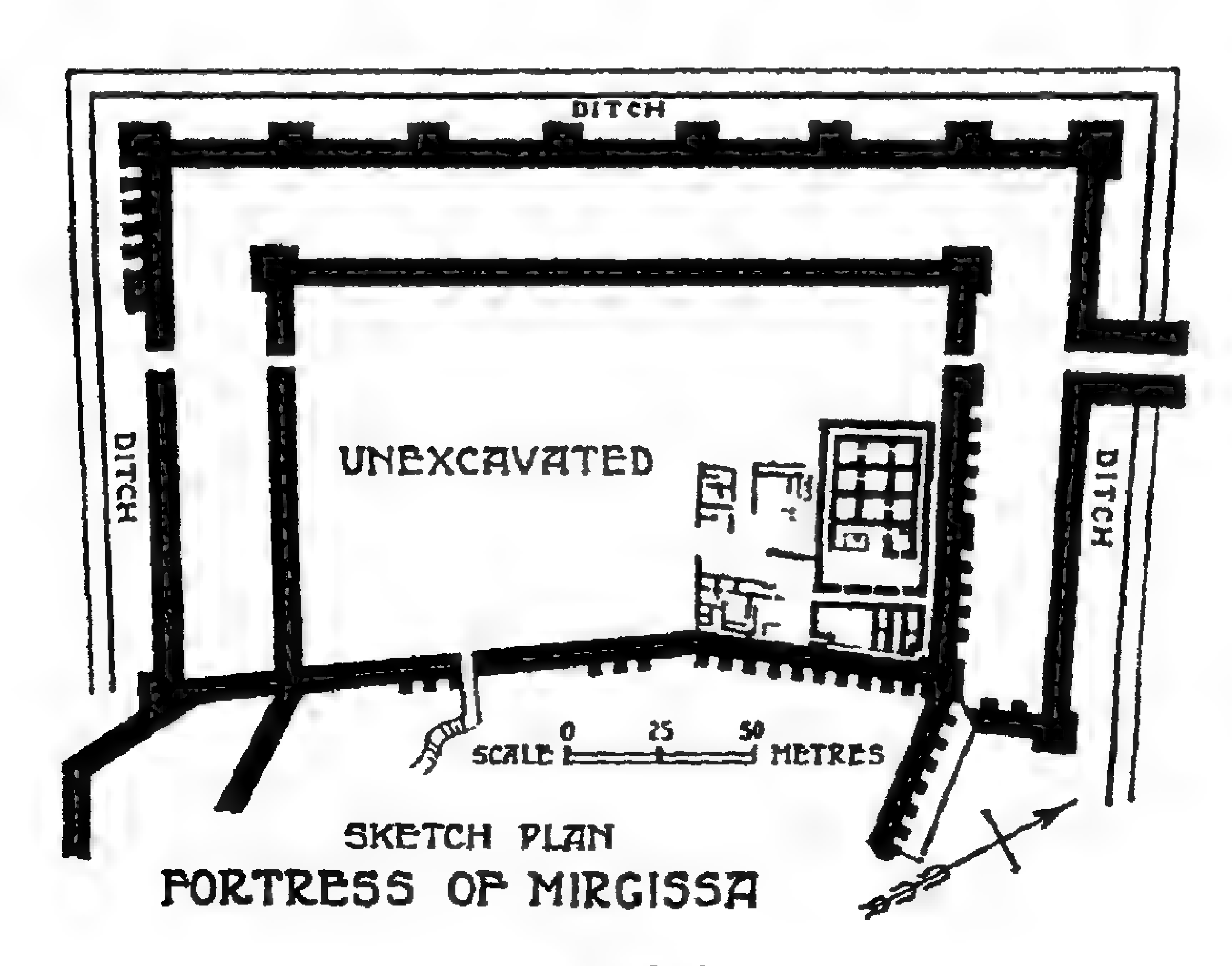
قلعة « اورنارتي »



الشكل ٢٢

وسم تخطيطى لمسقط

قلعة « شالفاك »



الشكل ٢٣

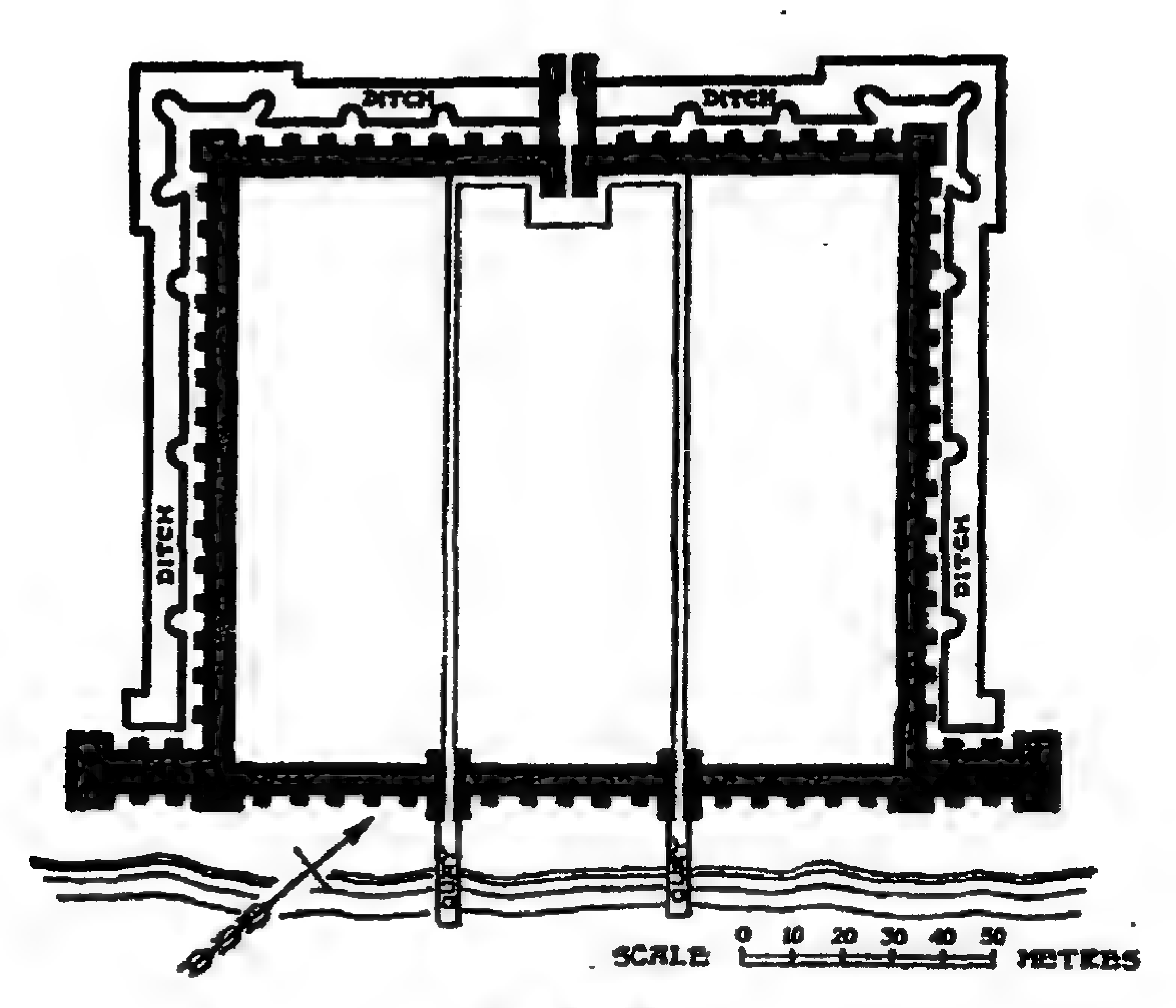
وسم تخطيطى لمسقط

قلعة « ميرجاسا »

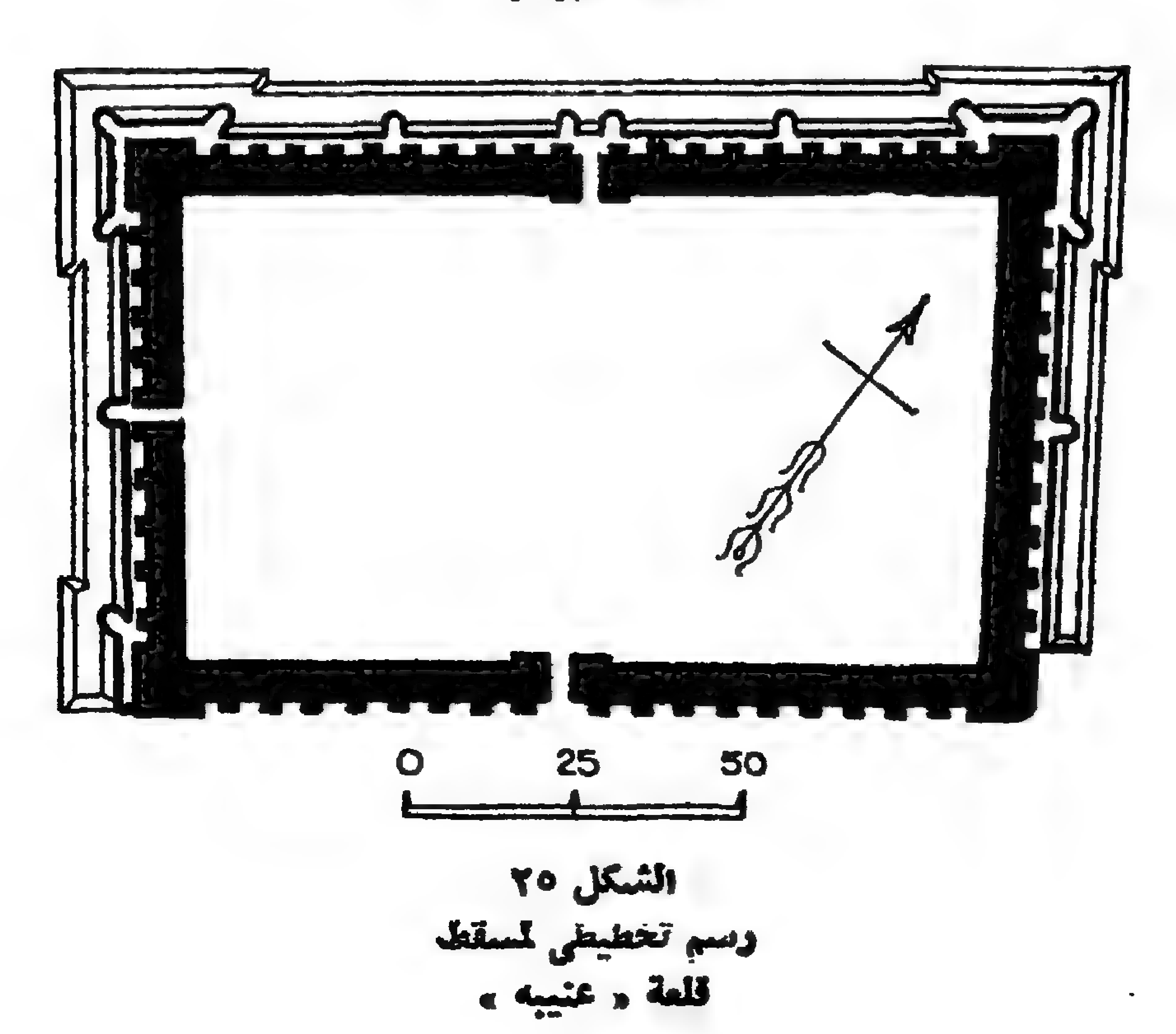
ببوهن ـ تدل بقوة على أنه صمم وبدىء فى بنـــائه فى عصر «سنوسرت الاول» • وتصميم الحصن يشبه عامة مثلثا يميل الى الطول ذا ذيل طويل، مكونا من جدار ضخم يصل الى الجزء الشمالى من الجزيرة • ويوحي وضع الابراج الكبيرة فى الناحية الغربية للذيل الطويل والسور الخارجي للمدينة، بأن خطر الهجوم كان من هذه الجهة كما كان الحـال فى معظم الحصون الاخرى • أما السور الخارجي الذى يحيط بالسور المثلث الصغير فيه الابراج المربعة العادية وفى الركن الجنوبي حائط مستطيل تبرز من جوانبه أبراج مربعة • والمدخل الاساسى على شكل بوابة منزل ضخمة توجد فى وسط الجدار الجنوبى ، والمدينة الصغيرة مقسمة الى جزءين بوساطة الطريق الذى يؤدى بطريقة غير مباشرة الى سلم طويل ينزل الى بوابة مائية خارج الحصن على الضفة الشرقية للجزيرة (الشكل ٢١) •

٥ ـ الحصن المعروف ب «قامع البلاد» وهو بالتأكيد الحصن الموجود على الضفة الغربية أمام «ساراس» والمعروف الآن «بشالفاك» وهذا الحصن يشبه حصن «أورونارتي» تماما فى الشكل الا أنه أصغر حجما • ويحيط بالمدينة ســـور يتكون من جدارين تعلوهما أبراج وجدار طويل يمتد الى مسافة طويلة نحو الشمال الشرقى • وقد كانت واجهة هذا الجدار الطويل المواجهة للصحراء هي الأكثر تحصينا كما هو الحال فى حصن «أورونارتي» • ويمتد نحو الشمال والجنوب جداران آخران صغيران ، أما البوابة العظمى فتقع فى الواجهة الغربية ، مثل حصن «أورنارتى» (الشكل ٢٢) •

٦ ـ الحصن المعروف ب «مخضع سكان الواحات» • ويبدو أنه الاسم الذى أطلق على حصنى «ميرجيسا ، ودبنرتى» اللذين يظهران الى جانبهما كما لو كانا وحدة واحدة • والحصن الاكبر « ميرجيسا » وهو الذى يقع على الضفة الغربية ، أما « دبنرتى » فهو بناء أصغر بكثير ، بنى على جزيرة أمام «ميرجيسا» تقريبا وعلى مسافة قريبة منه • وحصن «ميرجيسا» يشبه حصن «بوهن» فى الشكل والحجم ، وأعتقد انهما كانا من نفس عمل المهندس العســـكرى • والحصن مستطيل الشـــكل وله جدار واحد من ناحية النهر أما الناحيتان الشمالية الغربية والجنوبية فيحميهما جداران يليهما خندق جاف • ولم ينقب المكان الا جزئيا ولم تفحص الجدران بالتفصيل حتى الآن • واذا قارناه ببوهن فاننى أميل الى الاعتقاد بأن السور الخارجي فى الجهات الشـمالية الغربية والجنوبية ليس الا اضـافة متأخرة ربما من عصر الدولة الحـديثة ويجب أن نبحث بعـد تنظيف المنطقـة جيـدا اذا كان هناك خندق بين الجدارين • وعلى عكس بوهن فالبوابتان موجودتان فى الناحيتين الشمالية والجنوبية من الحصن وتتصـــلان بعضهما ببعض



الشكل ٢٤
رسم تخطيطي لمسقط
قلعة « بوهن »



الشكل ٢٥
رسم تخطيطي لمسقط
قلعة « عنيبه »

بوساطة طريق يخترق المدينة • ويوصل الى النهر ومن تحت الجدار الشرقى طريق مغطى ذو باب مائى • وقد كان البناء المهم محميا بجدران واقية فى طرفى الحصن • (الشكل ٢٣) •

أما الحصن الصغير الموجود فى « دبنرتى » فلم يكتشف عنه بعد ولكن شكله العام معروف فهو مستطيل الشكل له أبراج خارجية أو جدران طويلة واقية متناثرة على مسافات منتظمة • أما المدخل فمكانه غير معروف ولكنه طريق منحدر على الارض البارزة ، من الشمال والجنوب تبدو وكأنها تتقابل عند فتحه فى الجدار الغربى الذى يمكن أن يكون بقايا المدخل الرئيسى •

٧ ــ الحصن المعروف بـ « ايكن » • ويمكن تشبيهه بحصن كبير طوله ٩٠٠ متر تقريبا ويحيط بمدينة على الضفة الغربية للنيــل أمام الجزيرة المعروفة « بمايانرتى » عند قمة الجندل الثانى • هــذه المنطقة لم تنقب الا جزئيا ولكن يظهر بعد التنظيف المبــدئى خط طويل لحصون خشنة البناء ومكون من جدران سميكة ذات أبراج نصف دائرية تبرز من مسافات من واجهته الغربية أو الخارجية • وقامت جمعية التنقيب المصرية بكشـــوف أخرى فى المنطقة فى عام ١٩٦٥ باشراف «سميث» •

٨ ــ حصن « بوهن » ، وهو على الضفة الغربية المواجهة لوادى حلفا وكان أكبر الحصون فى بلاد النوبة العليا • (الشــكل ٢٤) وكان المركز الرئيسى للقيادة لتنظيم حاميات الحصون الأخرى وكان أيضــا فى الغالب مقــر نائب الملــك الذى كان يحــكم النوبة فى الـــدولة الوســـطى وهو يتكون من مجمـــوعة من المستحكمات الحربية المبنية على سطح مربع ١٧٢ × ١٦٢م يحيط بالمدينة المكونة من مساكن وثكنات الجيش ومصانع ومعبد وقصر الحاكم • واكتملت التنقيبات والحفائر فى هذا البناء الضخم وأظهرت لنا مثلا متكاملا لتخطيط مدينة مستطيلة الشكل ذات طرق معبدة كل طريق له نظامه فى التصريف والمجارى • ومن الناحية المواجهة للنهر نجد بوابتين كبيرتين فى الجدران ، توصلان الى رصيف من الحجارة كانت ترسو عليه السفن المحملة بالجزية والمحاصيل التجارية من النوبة • ويوحى ما عثر عليه داخل المقابر الموجودة خارج المدينة وكذلك حالة المنـــازل داخل المدينة بالرخاء والغنى العريض ومستوى المعيشة المرتفع فى هذه النقطة الأمامية لمصر •

أما نظام الحماية المحكم الذى أحاط هذه المدينة الصغيرة فقــد كان يتكون من جدار سميك من اللبن سمكه ٤ر٨م ويرتفع ١١ م يتخلله على مسافات ، من الخارج ، الابراج البارزة المستطيلة • أما عند قاعدة الجدار فكان

هناك رصيف معبد له عتبة يحميها حاجز ذو فتحات للأسلحة النارية ٠ ويتدلى من حافة خندق عرضه ٩ متر وعمقه ٧ متر ٠ وكان يعلو الخندق من الجهة الاخرى طريق ضيق مسقوف من الطوب اللبن ومنوراته اجانب الشديد الانحدار مرتفع عن مستوى الارض الطبيعيه ٠ وكان يبرز من حافة الخندق الداخليه أبراج ذات نظام مكون من ثلاث فتحات لرمى السهام داخل فتحة واحدة ، ومن هذه الفتحات كان رماة السهام يوجهون هجومهم مغطين الخندق ٠ وأكثر الأجزاء المحصنة من البناء كانت هى البوابة الكبرى المبنية فى وسط الجدار الغربى الذى يواجه الصحراء التى كانت تخترقها الطرق التجارية المؤدية الى المحاجر والمناجم ٠ وكانت البوابة تغلق بوساطة بابين من ورائهما جسر خشبى يمكن رفعه الى الوراء على اسطوانات ٠ وكانت البوابة والجسر محصنتين بوساطة جدارين واقيين يمتدان من فوق الخندق الجاف ثم يكونان ممرا ضيقا لابد للقوة المهاجمة من أن تصارع للدخول اليه تحت وابل من القاذفات التى تقذف من الشرفات على الجوانب الثلاثة ٠ وحتى اذا كانت القوة المهاجمة قد دخلت من البوابة فلن تنتهى صعوباتها لأنها كانت ستجد نفسها فى مربع محاصر ذى مخارج تؤدى الى المدينة عن طريق شوارع ضيقة تحت الجوانب الداخلية لجدران الحصن ٠ وبهذا الشكل يكون العدو تحت نيران المدافعين ٠

والكشف عن هذه الأبنية المعقدة والمحكمة التحصين فى بوهن يظهر ان الغزاة المصريين فى الأسرة الثانيـــة عشرة كانوا يدافعون عن الأراضى التى كسبوها حديثا ضد عدو منظم له قوة عسكرية يجب ألا يغفلوها ٠

٩ ــ ١٠ هذان الحصنان الموجودان فى جدول معبد « الرمسيوم » لم يتعرف عليهما بعد ٠ وكانا يعرفان باسم « حاضنة الأرضين » و « دافعة « المجاو » ويجب أن يكونا موجودين فى منطقة النوبة بين « بوهن » (وادى حلفا) « وميعام » (عنيبة) ٠ وفى « فرس » ابنية كبيرة من الدولة الوسطى عند الحدود بين مصر والسودان لاحظها « جريفيث » سنة ١٩٢١ وأعتقد ان احدى هذه الوحدات ــ على الأقل ــ شيدت هناك وقد قامت البعثة البولندية سنة ١٩٦٣ ــ ١٩٦٥ بالكشف عن هذا الموقع ونحن ننتظر حلا للسؤال قريبا ٠

(١١) الحصن المعروف باسم « ميعام » وهى « عنيبة » الحديثة التى كانت عاصمة مصر فى النوبة منذ سنة ١٩٣٤ ٠ هنا نجد البقايا العارية التى لاتتعدى أساسات الحصون الكبيرة ونواة القوة المحصنة التى بناها «سنوسرت الأول » ٠ وتشبه فى شكلها وحجمها حصن « بوهن » : فهو مستطيل الشكل

وله جدران ذات أبراج وحاجز قصير له شرفات نصف دائرية وخندق جاف كما هو الحال فى قلعة بوهن ونستخلص بعد المقارنة المؤكدة ان هذا العمل لنفس المهندس (شكل ٢٥) .

(١٢) الحصن المعروف بـ « باكى » • وهو بالتأكيد حصن « كوبان » على الضفة الشرقية للنيل الذى قمت بالكشف عنه سنة ١٩٣٠ أثناء المسح الأثرى الثانى • هذا البناء الذى يشبه حصن بوهن الى حد بعيد قد غرق تحت مياه الخزان الحالى ، ولـكنه كان فى وقت الحفائر فى حالة سـليمة جدا • ولا يزال جزء كبير من الحصن قائما الى ارتفاع يزيد على ثمانية أمتار• أما من الداخل فكانت أبنية المدينة أيضا فى حالة سليمة وبعضها لا تزال أسقفها المقيمة فى حالة جيدة • وقد عثر على حصن آخر من الطراز نفسه تقريبا فى الناحية الأخرى من النهر عند « اكور » ، لبضعـة أميال شـمال «كوبان» ، وبما أن هذا الحصن يذكر فى جدول الرامسيوم فلابد أنه اعتبر وحدة واحدة مع قلعة كوبان ولذا حمل الاسم نفسه (باكى) • والحصنان لم يبنيا لكى يكونا محطة أو معسكرا ولكن ليكونا محطة تجارية ومقـرا للبعثات التى ترسل الى مناجم الذهب فى (وادى علاقى) • وكان توفير حراسة الطريق فى الشمال ضروريا ما أمكن ذلك لصد أى هجوم لقـوة مغيرة تأخذ طريق (وادى علاقى) عبر الصحراء من (أبو حمـد) لكى تتحاشى حصون الحدود الجنوبية التى على النهر ، (الشكل ٢٦) •

أما الحصون الباقية على جدول (الرامسيوم) فرقم ١٣ كان غالبا على جزيرة (بيجه) ورقم ١٤ على جزيرة (اليفنتين) عند الجندل الأول ولـكن مكانهما بالتحديد لم يكشف بعد •

وهذا يكفى عن نظام الحصون النوبية التى ، أعتقد ، أن « سنوسرت الأول » قد شيدها وربما لم ينته بناء عدد كبير منها فى عصره ولكنهـا أكملت فيما بعد بوساطة خلفائه ، الا أن البدء فى المشروع يرجع اليه • لماذا أقيم هذا النظام الواسع لحصون عسكرية ؟ فمع أن عددا من هـذه الحصون مثل « بوهن » و « كوبان » استعمل كنقطة للبعثات ومحطـة للتجارة فلم يكن هذا هو الغرض الأول من اقامتها • وعندما نقدر الطبيعة المحكمة والقوة العظيمة لهذه الحصون فيظهر لنا بوضوح أن « سنوسرت » لم يبنها كمعسكرات فقط يبعد بها سكان النوبة المتفرقين خاصة ، كما أنى قد بينت من قبل ، أنه لا يوجد دليل على أن أهل المجموعة الثالثة فى « واوات » كانوا محبين للحرب أو يمكنهم أن يكونوا اية قوة عسكرية ذات خطر تهدد أمان مصر • ومع ذلك فقد بنيت الحصون وشيدت لتتحمل

هجوم قوة عسكرية من الدرجة الأولى ومع ان هذه القوة لم تشخص بعد ولم يعرف مقرها وأظن أنه يمكننا أن نعتبرها موجودة فى الجنوب وأنها فى الحقيقة هى البلاد التى أطلق المصريون عليها اسم « كوش » • وعلينا أن نتصور أنه كما كان للمصريين أسباب وجيهة للتوغل فى الجنوب باحثين عن الذهب والعاج والرقيق وأن أهل كوش كان لهم حافز يجبرهم على الذهاب شمالا نحو مناطق أكثر خصوبة من وادى النيل • ان بناء الحصون النوبية استلزم مجهودا قوميا ضخما وتضحيات شاسعة من الأمة المصرية ولذلك يمكننا أن نستشف من خلال هذا المجهود أن تهديدات الغزو من الجنوب كانت حقيقة واقعة • ويؤيد هذا أن سجلات تاريخ مصر المتأخر تظهر حقيقة هذا الخطر •

والآن فلنفحص ما عثر عليه بالنسبة للجنود الذين عسكروا فى القلاع والحصون النوبية فى عصر « سنوسرت الأول » وفى عصر أسلافه • فقد كان الجيش ، المكون من مواطنين ولدوا أحرارا ، يبدو أنه قد قسم الى أربعة فوق تقوم بواجبات مختلفة تشبه بوجه عام ما كان متبعا فى أوروبا فى العصور الوسطى • فكان على حكام الأقاليم ، مثل بارونات أوروبا فى القرون الوسطى أن يزودوا الملك بالجيش المرابط أو المجندين الملزمين عندما تدعو الحاجة اليهم • والى جانب هؤلاء كانت هناك قوة عسكرية تحت السيطرة الملكية • وهذا الجيش العامل كان يتكون من « فرق صدام » ، « مجندين » والمرابطين الآتين من ليبيا والنوبة • وكما يحدث فى أى جيش حديث كانت « فرق الصدام » بالطبع من صفوة الناس • وكانوا جنودا محترفين • بينما كان « المجندون » من العامة وغالبا ما كانوا مقترعين • وفى هذا العصر المبكر من تاريخ مصر الاستعمارى كانت الفرق الآتية من المستعمرات قليلة العدد ولا تستخدم الا فى أعمال بوليسية فى المناطق التى تم غزوها حديثا • وعلاوة على ذلك كان (لسنوسرت) حرس ملكى يعرف بـ « الضباط الذين يتبعون جلالته » وكانوا منظمين فى فرق تتكون كل فرقة من مائة رجل •

وكانت معسكرات الحصون النوبية تتكون فى الغالب من «مجندين» تعززهم فرق صدام فى الأيام العادية لا فى الأوقات الاضطرارية • ولاشك ان الجزء الأكبر من الفرق فى العصور المتأخرة كان لمجندين نوبيين ولكن لا يوجد أى دليل على أن فرقا من هذا النوع فى عهد الأسرة الثانية عشرة كانت تعسكر فى الحصون ، فما تبقى من هذا العصر مثل الفخار يوحى بشدة بأن هذه الحصون كان يسكنها مصريون فقط •

وبينما كان الجندي العادى يعرف بـ « عضو من الجيش » كانت هناك ألقاب متعددة لضباط الفصيلة مثل : « قائد عام » « قائد فرقة الصدام » « قائد المجندين » « معلم الاتباع » • وكان هناك أيضا « كاتب للجيش » وكان يعمل فى قسم ضابط الامدادات والتموين • ثم كان هناك أيضـا « كاتم أسرار الملك فى الجيش » ويوحي بوجود قلم مخابرات متصل بقيادة وحدات أعظم •

وكان الجيش فى الدولة الوسطى يتكون كله من مشاة ما بين رامى السهام ، والمقاتل بالبلطة ، والرماح والرمى بالمقلاع وهؤلاء لم يلبسوا الا انواعا قليلة من الدروع لحماية أجسامهم وكان الجندى يرتدى نقبه (ستار العورة) وأحيانا ، شرائط من نسيج تغطى أكتافه وصدره وتعتبر نوعا من الحماية لضربات السيوف ولكن مع ذلك فكان الجندى يعتمد فى الدفاع عن جسده على دروع مصنوعة من جلود الثيران يختلف مقاسها حسب وجود حاملها فى المشاة الخفيفـة أو الثقيلة ، كما أنهم لم يكونوا يلبسون خوذات ، وكان المحارب يميز من المدنى بوساطة شعره الذى يبدو أنه اعتمد عليه كحماية لرأسه • وارتدت الفرق علامات مميزة ونراهم عادة وقد رسموا بريشة فى شعرهم • وليست لدينا معلومات معتمدة عن حجم المعسكر فى كل قلعة نوبية أو نسب الفرق المحاربة بالنسبة للموظفين الاداريين ذوى الحرف والتجارة الى آخره • ولكن اذا قارناها من حيث الكبر ببعض المحميات مثل « بوهن » أو « عنيبه » أو « كوبان » فانى أقدر أنه فى حالة الحرب كان عدد الجنود يصل الى ثلاثة آلاف جندى •

وبتشييد الحصون وتوطيد معسكراتها أصبحت سيطرة المصريين على النوبة قوية جنوبا حتى « سمنه » التى أصبحت الحدود المعترف بها لأملاك فرعون فى الجنوب ومع ذلك فان قوة مصر وتأثيرها امتدت من غير شك الى ما بعد هذه الحدود وأسست محطات تجارية محصنة جنوبا داخل كوش نفسها مثلما بقيت محطات شركة «هدسن باى» فى مناطق نصف عدائية فى كندا فى الأيام المبكرة لدخول البيض فى الغرب •

ان موضوع المحطات التجارية الموجودة بعيدة عن الحدود المعروفة فى « سمنه » تجعلنا نتعرض الى احدى معضلات النوبة ان لم تكن أهم المعضلات فى تاريخ النوبة فى الدولة الوسطى : انها مسألة تخص نوع بقايا هذا العصر التى عثر عليها فى « كرما » على بعد مسافة قصيرة جنوبى الجندل الثالث الى أكثر من مائة ميل بعد الحـدود الجنوبية للأمـلاك المصرية • أن الكشوف التى قام بها الدكتور «ريزنر» سنة ١٩١٧ فى « كرما » أقنعته بأنه

كان فى هذه المنطقة مستعمرة مصرية تعرف ب «انبو ـ أمنمحات» حيث أقام أمير يدعى « حاب جافى » الأسيوطى كحاكم من قبل «سنوسرت الأول» • ولقد كشفت الحفائر عن مقبرة على هيئة كومة فى حالة سيئة ذات طابع غريب عن العمارة المصرية • وفى القاعات المبنية من اللبن تحت الكومة عثر على بقايا دفن صاحب المقبرة الذى كان مستلقيا على سرير طبقا للتقاليد النوبية فى هذا العصر • ويحيط بالجثة أجساد الحريم والخدم وأعضاء آخرون من البيت الذين دفنوا أحياء حتى يستمروا فى خدمة سيدهم فى الدنيا الثانية • ومن بين الأشياء التى عثر عليها فى المقبرة تمثال رائع للأمير « حاب جافى » وتمثال آخر لزوجته « سننوى » • وقد وصل «ريزنر» الى حل منطقى وهو أن هذا الامير بينما كانت له مقبرة رائعة فى أسيوط بمصر ، فانه مات أثناء تأدية واجبه فى المحطة المصرية الخارجة عن الحدود فدفن هناك طبقا للتقاليد المحلية • واعترف بهذه النظرية بعض علماء الآثار بينما ناقشها البعض الآخر على أساس أن جثة رجل مهم مثل « حاب جافى » لا بد أنها نقلت لتدفن فى مصر • فالمصريون، من غير شك، كانوا ينفرون بتعصب من طريقة الدفن الأجنبية وخاصة اذا لم تقم حسب اعتقاداتهم وحسب طقوس التطهير الصحيحة • ومع أن عددا كبيرا من النبلاء المصريين قد ماتوا أثناء تأدية واجبهم فى النوبة خلال المئات من السنين التى حكمتها مصر فالأدلة الكثيرة تظهر انهم بلا شك كانوا يبعثون الى وطنهم ليدفنوا فيه • أما فيما يتعلق بالأمير «حاب جافى» الذى كانت له مقبرة رائعة فى أسيوط ، فليس هناك أى دليل يظهر انها استعملت للدفن لانها تلفت بفعل أجيال من اللصوص •

وفى اعتقادى أن نظرية وجود مستعمرة مصرية تعرف ب « انبو ـ أمنمحات » ، نظرية غير مرضية على هذه الأسس • فكيف يمكن لمثل هذه المستعمرة أن تحافظ على نفسها وهى تبعد عن حدود الأملاك المصرية بأكثر من مائة ميل ، وكيف يكون رجل مهم مثل هذا الأمير الأسيوطى حاكما عليها •

ان ضرورة التنقيب فى منطقة كرما أمر حيوى لأنى أعتقد انه يحتمل انها لم تكن مستعمرة مصرية ولكن ربما كانت عاصمة القوة الكوشية • حقا لقد عثر فيها على كميات عديدة من الأدوات المصرية فى أطلالها ومقابرها مثل التماثيل والأثاث والخرز والجعارين والأوانى الحجرية • ولكن أليس من الجائز أن يكون الكوشيون قد سلبوا هذه الأشياء من أعدائهم الشماليين؟

عين سنوسرت الأول وبعد انتصاره على الجنوب ، « سارنبوت » ،

أمير « اليفنتين » ، حاكما على أملاكه الجديدة هناك • ويصف «سارنبوت» نفسه في مقبرته في أسوان ، بأنه « الأمير الوراثي ، الحاكم ، نبيل الملك، وسامره الوحيد ، المشرف على كهنه «ساتت» سيدة «اليفنتين» ، المراقب الأكبر للنوبة ، المشرف على كل الاراضى الاجنبية ، الحاكم « سارنبوت » ويمكننا أن نرى فيه أول وال يحكم النوبة من قبل الفرعون وذلك قبل عصر الدولة الحديثة بمئات السنين • ومن الجائز أنه هو الذى أشرف على المراحل الأولى للأعمال الهائلة في تشييد الحصون النوبية ، ولسوء الحظ فان المقبرة لم تحفظ جيدا وان النصوص قد محيت ولكن هناك اشارات عابرة لما يمكن أن يكون للحملة الثانية لسنوسرت فى النوبة • وعلى أية حال فان هذا الذى حدث كان غالبا من طابع الحملات التأديبية لأن هناك دليلا على أنه فى الفترة الأخيرة للحكم بقيت الأحوال عادية في الجنوب وبقيت هكذا أثناء حكم « أمنمحات الثانى » (١٩٢٩ ــ ١٨٩٥ ق٠م٠) و «سنوسرت» الثانى (١٨٩٧ ــ ١٨٧٨ ق٠م٠) •

ولقد سجل موظف شغل منصب مساعد الخزانة فى عصر الملك « أمنمحات الثانى » ، ويدعى « سيحتحور » ، على لوحته الجنائزية فى « أبيدوس » : « لقد زرت أراضى المناجم فى صباى وأجبرت الحكام (النوبيين) أن يغسلوا الذهب • وأحضرت ملخيت ووصلت الى النوبة التى تتبع الزنوج • وذهبت محاربا (؟) خوفا من سيد الأرضين • وجئت الى « حيح » وذهبت حول جزرها وأحضرت منتجاتها » •

وتشير لوحة صخرية فى أسوان للمدعو « حابو » ان بعض الحصون كانت قد أكملت وسكنت • فلقد سجل « حابو » أنه فى السنة الثالثة من حكم « سنوسرت الثانى » زار النوبة « ليتفقد حصن «واوات» » • كل هذا يوحى بأن المنطقة التى غزيت حديثا قد خضعت لنظام جمع المحاصيل التى تنتجها النوبة وسارت فيها الحياة سيرا منتظما •

ولكن تهدئة أهالى النوبة وترويضهم لم يكتمل فى الحقيقة الا فى عصر « سنوسرت الثالث » (١٨٧٨ ــ ١٨٤٢ ق٠م٠) الذى قمع كل مقاومة باقية بعدة حملات ناجحة وأرسى بحزم حدود الأراضى المصرية المكتسبة حديثا ، مبدداً لسنين طويلة التهديدات المفزعة لغزو الكوشيين وأصبح « سنوسرت الثالث » فيما بعد الاله الحامى للنوبة لأعماله العسكرية والتنظيمية وعبدت فراعين الدولة الحديثة فى المعابد النوبية مئات السنين بعد موته •

وبنظرة ثاقبة الى احتمالات معارك حربية فى المستقبل ، شق سنوسرت الثالث ، أثناء حكمه ، قناة فى صخور الجندل الأول ، فكانت هذه القناة الى جانب قيمتها التجارية ، طريقا لسفنه الحربية • وعرفت هذه القناة باسم جميلة طرق « خع كاورع » (سنوسرت الثالث) واستعملته أساطيل الفراعنة لمئات من السنين أثناء حروبهم المتقطعة مع كوش ويمكن اعتباره أكبر الأعمال التى قام بها هذا الملك العظيم • وتعطينا لوحة على صخور جزيرة سهيل عند الجندل الأول مقاييس الطريق المائى وهى مائة وخمسون ذراعا طولا (أى ٢٥٠ قدم) وعشرون ذراعا عرضا (أى ٣٤ قدما) أما العمق فكان خمس عشرة ذراعا (أى ٢٥ قدما) وترجع اللوحة الى السنة الثامنة من حكم الملك « سنوسرت الثالث » •

ويبدو أن التهديدات الآتية من الجنوب على حدود مصر الطبيعية كانت ما تزال موضع اهتمام ومن ثم نلاحظ هذا فى أن الحصون عند الجندل الأول قويت • ويبدو أيضا أن بقايا السور اللبن الذى لا يزال قائما على الناحية الشرقية للجندل عند قرية « شلال » كانت من ضمن التحصينات العسكرية التى تمت حينئذ • ولابد أن شق القناة استغرق وقتا ولم يكن فى حالة مرضية فى بدايته لأنه فى السنة الثامنة من حكم « سنوسرت الثالث » نجد تسجيلا يقول : « أمر جلالته بتجديد القناة » • ولا ندرى ان كان هذا الكلام يعنى أية تصليحات أم يعنى تجديدا لمشروع كان قد ترك • وعلى أية حال فما يقوله التسجيل يعنى أنه فى تلك السنة قام الملك بحملته الأولى على النوبة • وضرورة هذه العمليات الحربية والعمليات التى تلت غير ظاهرة ، لأنه بقدر ما تستطيع الحقائق الأثرية أن تؤكد لنا ، لم يحدث ما يعكر صفو السلام والهدوء فى النوبة السفلى (واوات) لعدة سنين • ولكن يختلف الأمر فيما بعد الجندل الثانى اذ يبدو أن ضغط كوش أصبح تهديدا • ومهما يكن من أسباب ، فان الحملة كانت ناجحة وأقيمت حدود على بعد حوالى سبعة وثلاثين ميلا جنوبى « بوهن » • ومع ذلك فمن الواضح أن النضال قد استمر على فترات متباعدة مما جعله يضطر الى أن يعود الى الحرب فى السنة الثانية عشرة والسادسة عشرة فى حكمه • فكانت هاتان الحملتان تأسيسا للحكم المصرى جنوبا حتى سمنه • ونستشف من لوحة الحدود التى أقامها سنوسرت عند سمنه بعد حملته الأولى ، بعض مخاوف المصريين من الضغط الدائم عليهم من الجنوب • وهى كما يلى :

« الحدود الجنوبية ، حددت فى السنة الثامنة ، فى حكم ملك الشمال والجنوب ، « خع كاورع سنوسرت الثالث » الذى يعطى الحياة أبديا • لمنع

أى زنجى من أن يعبرها من الماء أو الأرض ، بوساطة سفينة أو أى نوع من ماشية الزنوج ماعدا الزنجى الذى سيأتى ليتاجر فى « اكن » أو لمأموريه • كل شىء طيب سيقدم لهم ولكن دون أن يسمح أبدا لأى سفينة زنجية أن تعبر « حح » ذاهبة نحو الشمال •

ويبدو أن « حح » هى « سمنه » عند الطرف الجنوبى للجندل بينما « اكن » هى المحطة التجارية جنوبى « بوهن » • فمن الواضح أنه مع أن للكوشيين أن يعبروا الجندل عن طريق البر للتجارة الا أنه لم يسمح لهم بالتوغل فى المنطقة المحصنة بحرا • وأعتقد ان الخوف من هؤلاء الناس يمكن استنتاجه من بين السطور التى كتبت على لوحة النصر النهائى التى أقامها الملك فى « سمنه » ومثيلتها التى أقيمت على جزيرة « أورنارتى » •

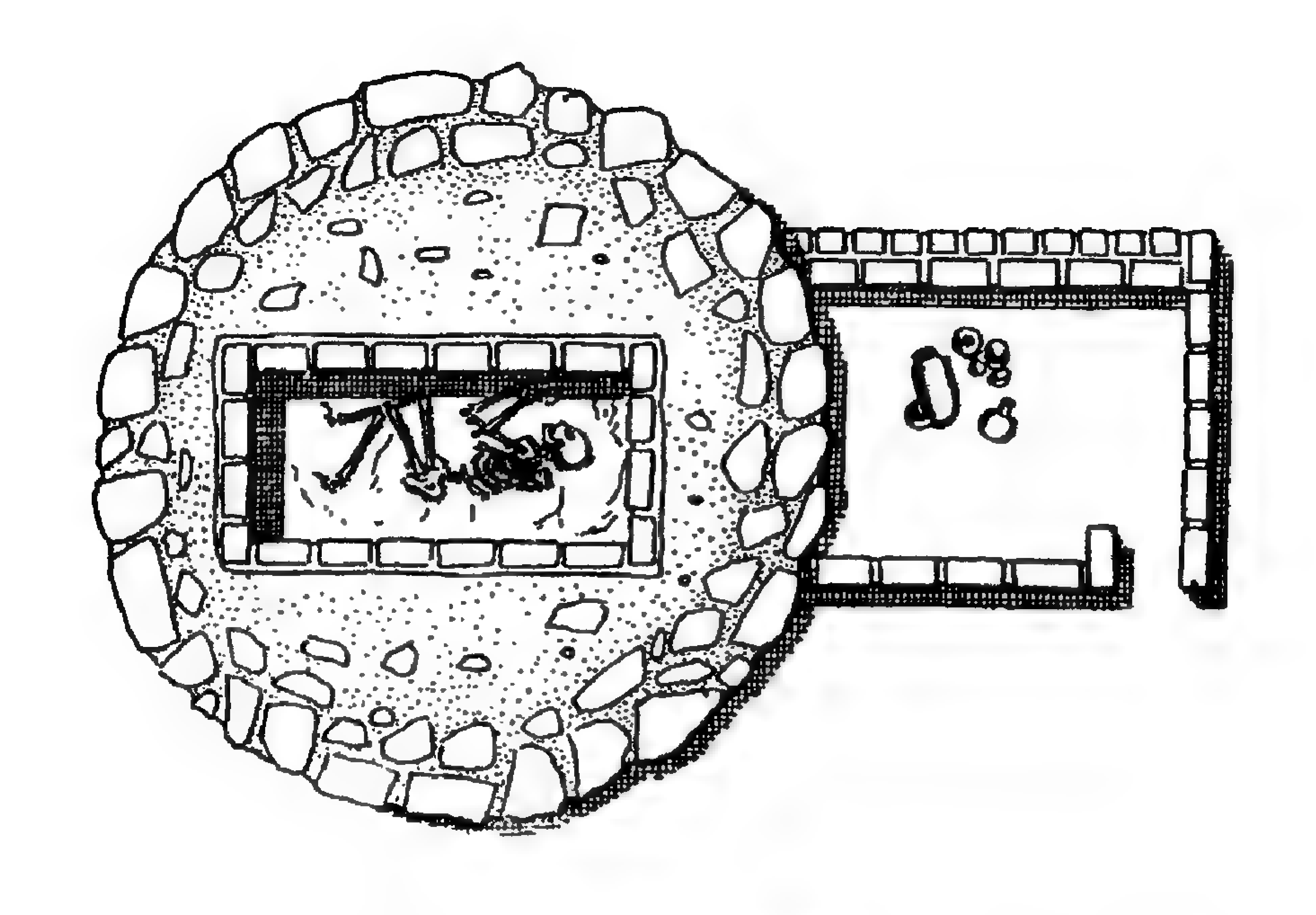
« فليعش ملك الجنوب والشمال سنوسرت الثالث الذى يعطى الحياة والاستقرار والرضا أبديا • فى السنة السادسة عشرة ، الشهر الثالث من الفصل الثانى أقام جلالته الحدود الجنوبية حتى « حح » • لقد أقمت حدودى أبعد من أجدادى • لقـــد زدت على ما ترك لى • انى ملك أتكلم وأنفذ • ما يدركه قلبى هو ما يمر بيدى • انى شخص قوى ومتلهف الى أن أملك (؟) لا يترك مهمة تنام فى قلبه ••••• يهاجم من يهاجمه ، صامت فى مسألة أو يرد على مسألة حسب ما يستدعيه الأمر ، اذ ان الهدوء بعد الهجوم يقوى قلب العدو • ان البطولة حماسة واقدام ولكن الجبن هو الانسحاب • انه لنذل وضعيف القلب حقا هذا الذى لا يحمى حدوده • وبما أن الزنجى يصغى الى (؟) النعم ، فالرد عليه هو الذى يرده • عندما يكون المرء متحمسا ضده ، فيعطيه ظهره • لكنهم ليســوا قوما ذوى قوة ، انهم مساكين لا حول لهم ولا قوة • لقد رآهم صــاحب الجلالة ، انها حقيقة • لقد أسرت نساءهم واستوليت على أتباعهم وذهبت الى آبارهم وقتلت ثيرانهم • وحصدت حبوبهم ثم أشعلت النيران فيها • (وأقسم) كما يعيش أبى لى أنى أتكلم الحقيقة دون أن ينطق فمى بكذبة واحـــدة • والآن ، ان كل ابن لى سيحافظ على هذه الحدود التى أقامها جلالتى فهو ابنى وولد لامه ، ابن يجب أن يكون بطلا كأبيه ، ويحـــافظ على الحدود لمن أنجبه • والآن ان كان ابنى هــو الذى سيتراخى ولن يقـاوم فهو ليس ابنى ولم ألده • والآن أنظر ان جلالتى أمر أن يقام تمثال لجلالته على هذه الحدود التى أقامها جلالته حتى تزدهر وحتى تحارب من أجلها » •

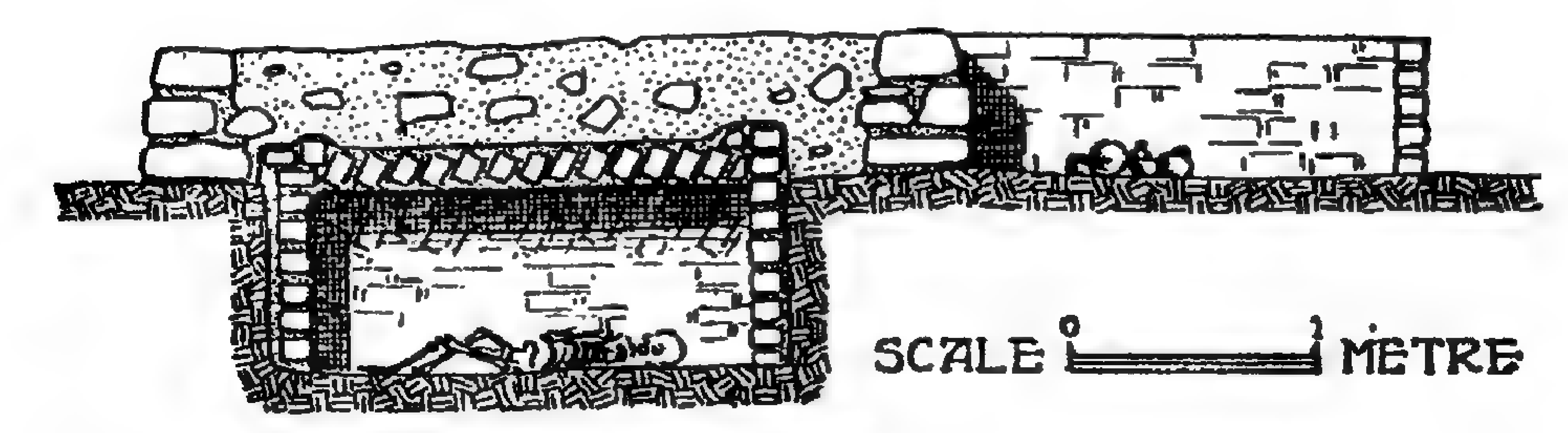
ان الاشارة الى عدو مصر بـ « الزنجى » مضلل لأن أهل كوش لم

يكونوا زنوجا بمعنى الكلمة التى نعنيها فى عصرنا • هذا بالنسبة للجنس المعروف بذلك • ان المصريين استعملوا كلمة « زنجى » « نحسى » للاشارة الى كل قاتمى اللون يأتون من الجنوب مهما كانت أجناسهم •

ويبدو أن الحكم المصرى بقى من غير تدخل بعد انتصار الملك العظيم فى النوبة — على الأقل — حتى حدود « سمنه » طوال حكم خلفائه « أمنمحات الثالث » (١٨٤٢ — ١٧٩٧ ق•م•) و « أمنمحات الرابع » (١٧٩٨ — ١٧٨٩ ق•م•) والملكة « سبك نفرو رع » (١٧٨٩ — ١٧٨٦ ق•م•) ولم نجد أية اشارة الى نشاط عسكرى فى تلك المنطقة • وبقيت النوبة السفلى (واوات) دون اضطراب وتمكن أهل المنطقة من أن يعشوا حياتهم الخاصة بعيدا عن تأثير الحضارة المصرية التى كانوا لا يزالون متحررين منهــا • فكانت النتيجة ان ما يعرف بحضارة المجموعة الثالثة وصلت الى ذروتها • ويبدو أن مرور الجيوش المصرية والمعسكرات التى أقيمت داخل الحصون بل المحطات التجارية التى أنشئت لم يكن لها تأثير على المواطنين الذين لم يكونوا محاربين اذ لم يجندوا فى الجيش وانه ليدل على مغزى معين من أن ماتبقى من الآثار النوبية فى المناطق المحصنة مثل مافى «كوبان» لايرجع الى آثار حضارة المجموعة الثالثة ولكنه من آثار أهل البلاد جنوبى الجندل الثانى • والتفسير الوحيد لهذه الظاهرة هو أن المصريين استعملوا المحاربين من « كوش » فى الفرقة المختصة بالمستعمرات واستثنوا أهل « واوات » المسالمين وأعفوهم من العسكرية • ويبدو أن عددا كبيرا من أهل النــوبة السفلى أرغموا على العمل فى المناجم والمحاجر • ولكن بصفة عامة ، نجد أن الاحتلال المصرى وإدارته المستقرة أعطت فترة سلام طويلة لهذه الأرض ومكنت أهل المنطقة من أن يرقوا بحضارتهم حتى وصلت الى النضوج •• ولذلك نلاحظ أن بقايا حضــارة المجموعة الثالثة فى هــذا العصر تتســم بالغنى الفاحش والفردية يصحبها أحيانا تأثير أجنبى لا يذكر • وكمــا أشرت من قبل ، اننا نعتمد الى حد كبير على الجبانات فيما نعرفه عن أهل المجموعة الثالثة لأن مدنهم ومستعمراتهم لابد أن تكون على مقربة من النهر أى فى المنطقة الزراعية ، لذا نجدها وقد اختفت من غير أثر • ولقد بقيت مستعمرات صغيرة على حافة الصحراء ولكن يبدو أنها لم تكن الا المساكن المؤقتة لرعاة فقراء • وطريقة معيشتهم الفقيرة لا تعطينا أى دليل على حياتهم اليومية ولو أن حضارتهم كانت قد وصلت الى حد لا يمكن لنا أن نغفلها •

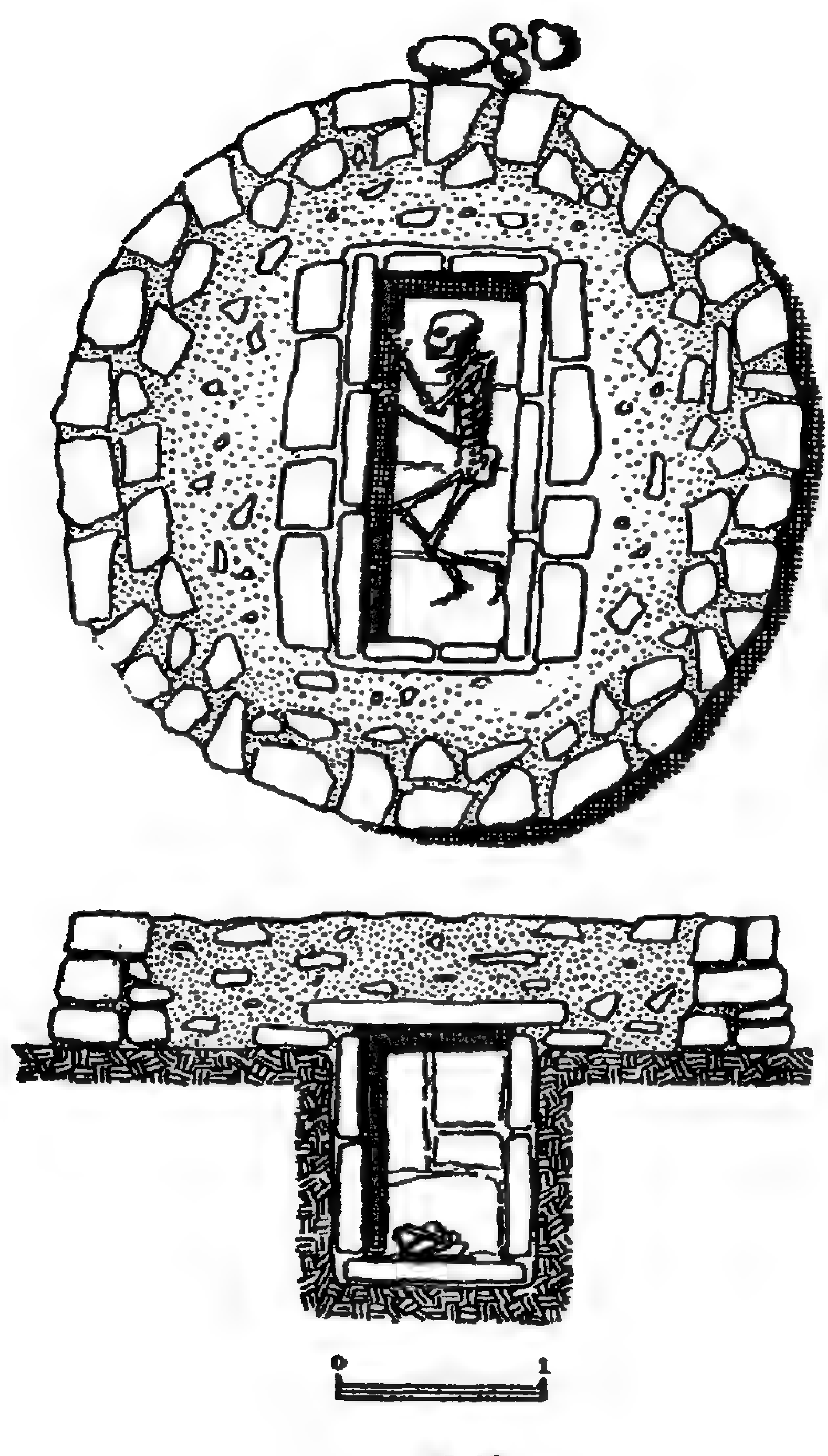
ويظهر حجم الجبانات وعددها ، ان أهل النوبة السفلى كانوا حينئذ أكبر عدداً منهم فى أى عصر اثناء الحكم المروى أى بعد حوالى الف سنه.





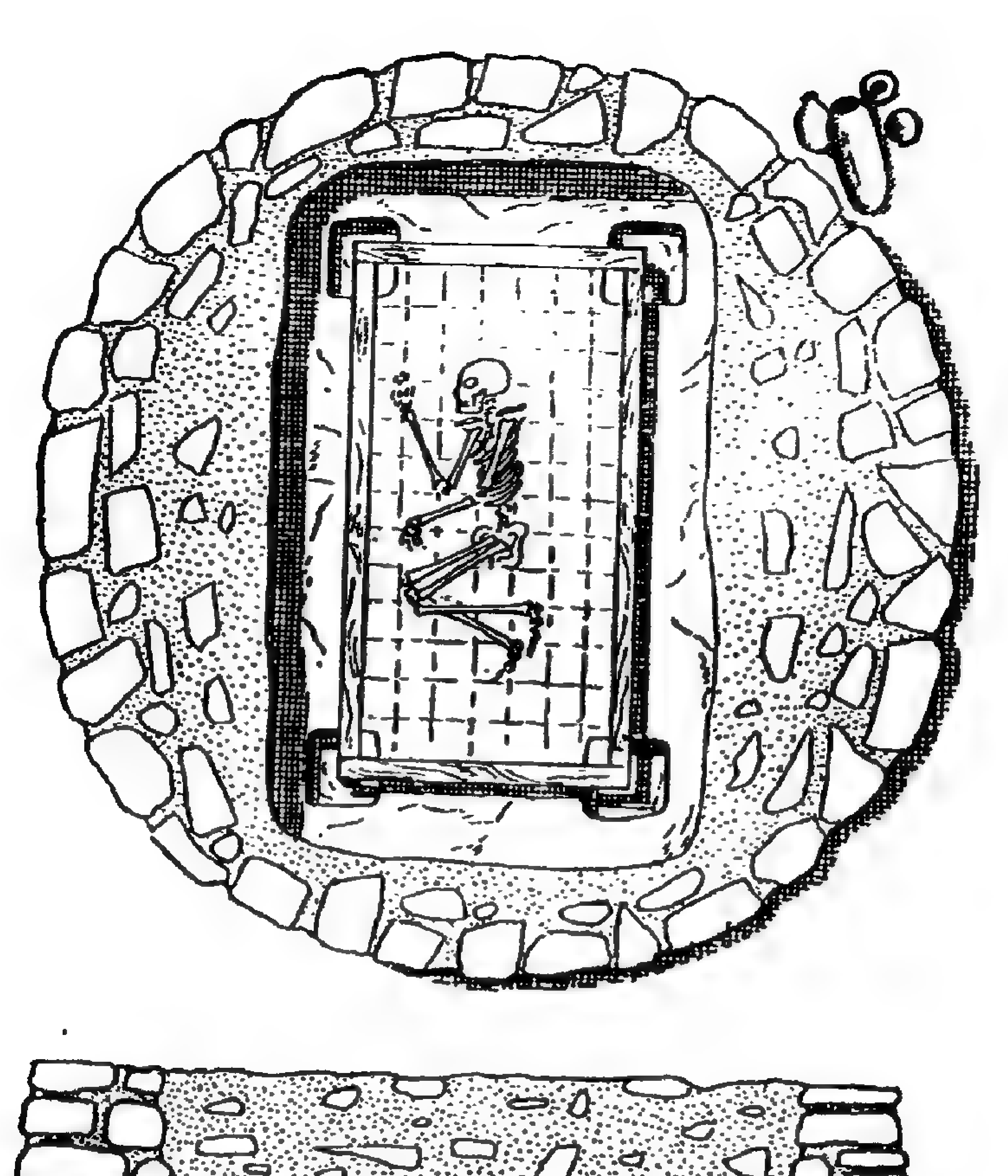
الشكل ٢٧

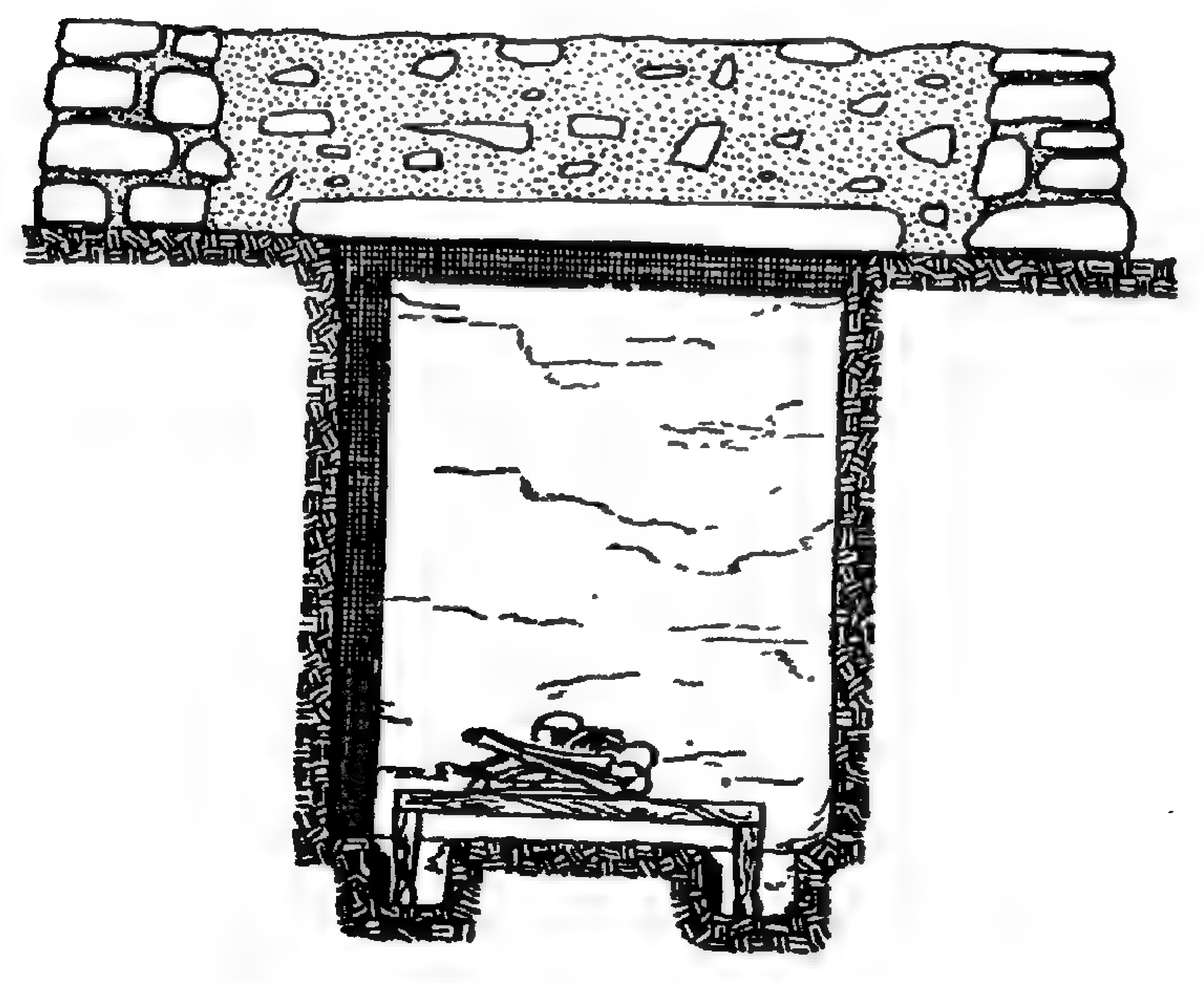
نموذج لمقبرة من حضارة المجموعة الثالثة



الشكل ٢٨

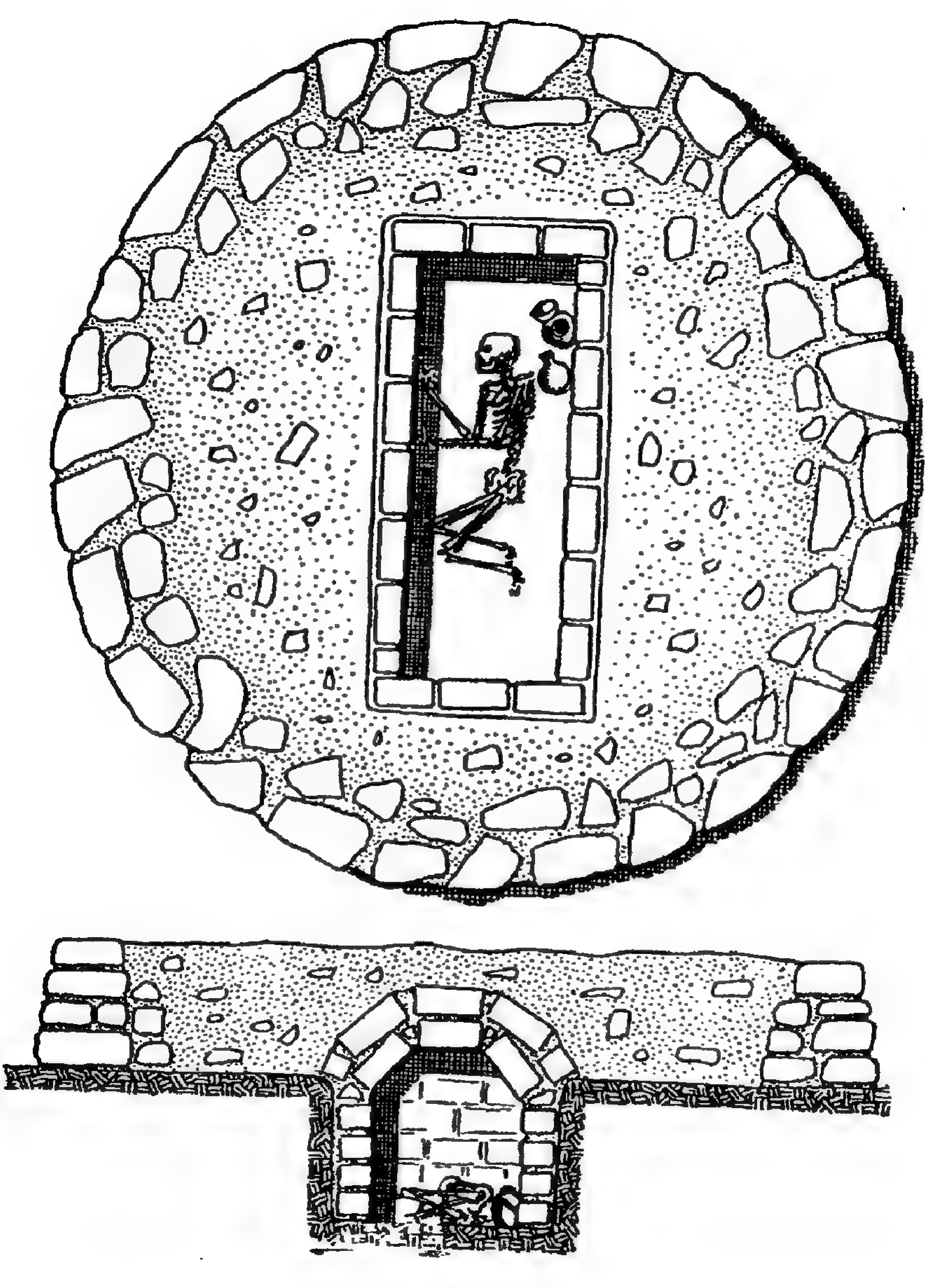
نموذج لمقبرة من حضارة المجموعة الثالثة





الشكل ٢٩ و ٣٠

نموذج لمقبرة من حضارة المجموعة الثالثة



الشكل (٣٠)

مقبرته فى « توسكا » وقامت بالتنقيب بعثة فسلفينياء ييل

(أنظر ص ٩٣) والمجموعة

وواضح من النقوش الصخرية والرسوم الزخرفية التى على الفخار ان أهل المجموعة الثالثة كانوا يربون الماشية على مساحات كبيرة • لذلك لابد أن تكون قد توفرت لقطعان الماشية أماكن متناسبة كافية لترعىَ فيها على ضفاف النيل فى النوبة وهذا مما يعد أمرا مستحيلا فى عصرنا الحديث ، فهـذا الظرف الى جانب أدلة أخرى مثل وجود نظام التصريف فى شوارع مدن الحصون المصرية والكشف عن مجارى ميـاه للزراعة مدفونة تحت رمال الصحراء تظهر لنا أن الظروف المناخية فى النوبة أثناء الدولة الوسطى لابد أنها كانت تختلف عنها فى يومنا هذا • وتحت هــذه الظروف ، وكنتيجة لحماية القوة العسكرية الفرعونية من القوافل الجنوبية ، انتعشت النوبة السفلى وانعكس هذا الانتعاشَ والرخاء فى مقابر النوبيين • ويعلو كل مقابر المجموعة الثالثة فى ذلك العصر جزء مستدير من الحجارة الخشنة الصنع • ومع أنه فى معظم الأحيان لم يبق منها الا الجزء السفلى الا أنه يمكن أن نحكم من الطبقة الخفيفة الموجودة على سطح الجدران أن سقفها كان فى الأصل مستديرا • وكان للمقابر الأكبر حجما أى مقابر الأثرياء أحيانا، حجرة صغيرة من اللبن تبنى فى الجانب الشرقى من الجزء الذى يعلو سطح الأرض ، فكانت تغطى بالرمل بسرعة • وليس غريبا أن يعثر على لوحات كتقدمة للميت (شكل ٢٧) • أما فى المقابر الأكثر تواضعا حيث لم تبن حجرة للتقدمة كانت الأوانى الفخارية توضع أمام الجزء الذى يعلو سـطح الأرض ، فكانت تغطى بالرمل بسرعة • وليس غريبا أن يعثر على لوحات حجرية طويلة أو أحجار للحدود توضع على مسافات متباينة فى الجبانات• ولكن حتى الآن لم نصل الى معنى لهذه اللوحات ، فهى تأخذ شكل لوحـة مسطحة ذات طرف علوى مستدير واما الجزء السفلى فمسلوب الى الداخل• ويبلغ ارتفاع كل منها من قدمين حتى ستة أقدام ، وفى معظم الأحيـان تجدها مزخرفة بكتابة ورسوم أشخاص أو بقر أو ثيران • ومع أنه قد عثر على آثار تقدمة محروقة على أرض الجبانة الا انها ليس لها صلة باللوحات •

وقد اختلفت الأجزاء المنحوتة فى الأرض من المقبرة حسب أهمية وغنى صاحبها • وكانت المقبرة المتوسطة تتكون من حفرة بيضاوية الشكل يصنع سقفها من الحصير المجدول أحيانا أو من قطع حجرية غير مشطوفة الجوانب أحيانا أخرى • أما مقابر أغنياء القوم فكانت لها جدران مبطنـة بقطع حجرية أحيانا وسقف من الحجر أيضا أو من اللبن ذو شكل مقبى • (شكل ٢٨ و ٢٩) •

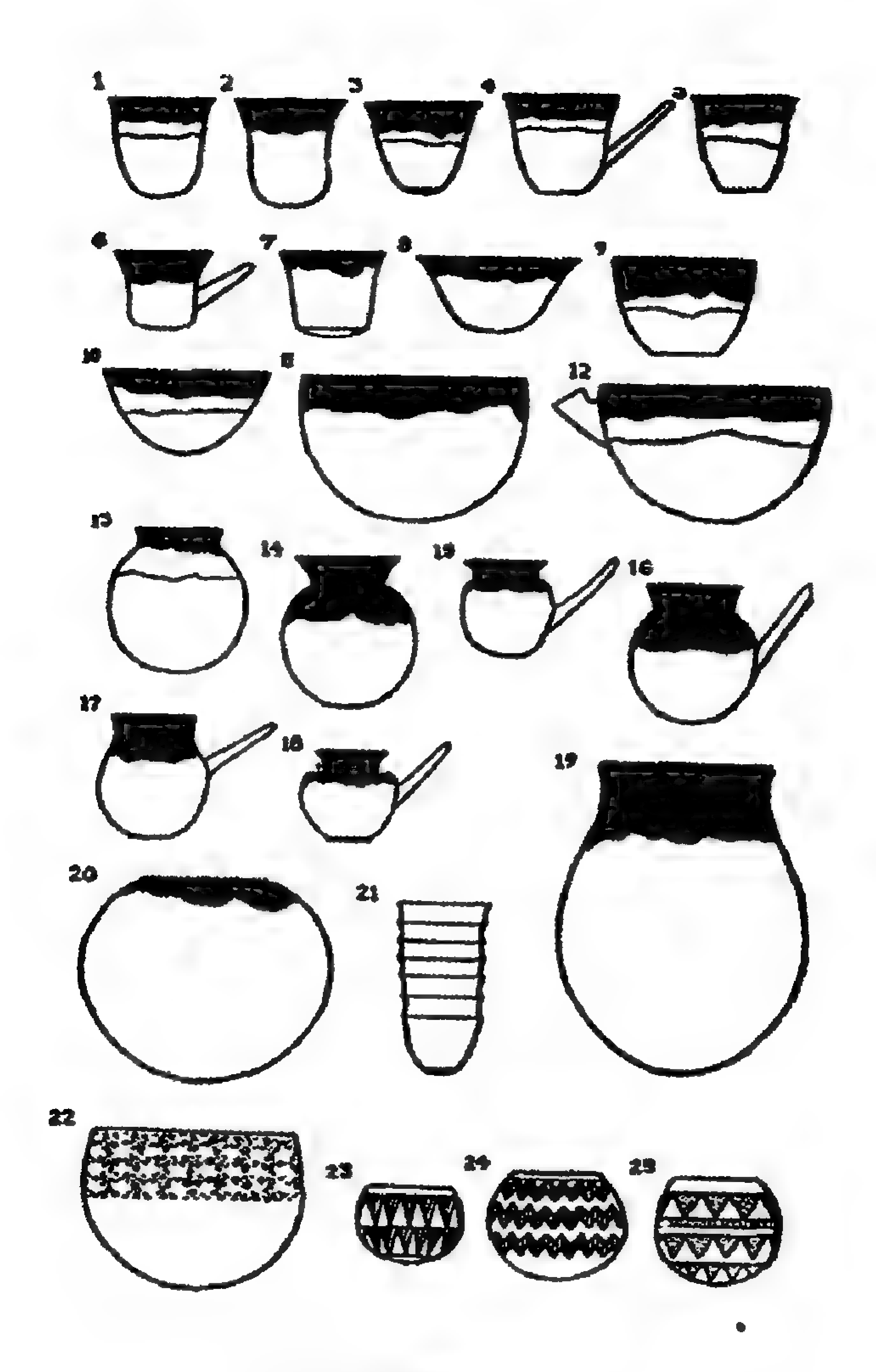
وكان الميت يوضع فى وضع نصف القرفصاء على جانبه الأيمن

ورأسه عادة الى الشرق • وكان الجسم يلف فى الجلد وعثر على أمثلة متعددة حيث كانت القطعة الجلدية مطرزة بالخرز • ولقد عثر أيضا على أحذية وقبعات جلدية ولكنها غير عامة • وكان يوضع تحت رأس الميت وسادة من الجلد محشوة بالقش • أما فى المقابر الهامة فقد كان فيها الميت يرقد على سرير من الخشب توضع أرجله فى ثقوب مخصوصة فى الأرضية بحيث يكون الاطار على أرضية المقبرة •

ولقد عثر أيضا على أساور من الذهب والفضة وسن الفيل والصدف والرخام والخرز وكذلك على عقود وأحزمة مطرزة او محلاة بالخرز بها تمائم من الذهب والفضة والصدف • والى جانب هذا كله نجد أيضا أقراطا من الصدف وخواتم وأحيانا جعارين مصرية من حجر الستيتين والقاشاني ولقد كان يوضع الى جانب الميت أدوات الزينة مثل المرآه من البرنز ذى المقابض الخشبية وسن الفيل وقواقع يوضع فيها مساحيق للوجه وملاقط ودبابيس من البرونز •

ومن بين كل ما عثر عليه فى جبانات المجموعة الثالثة الفخار الذى يتسم بجمال الشكل ويعد هو أكثر الأشياء أهمية لدقة صنعه وللمعلومات التى نتقصاها منه وخاصة أوانى التقدمة التى عثر عليها خارج المقابر • ويمكن تقسيمها تقريبا الى أربع فصائل : أولا النوع الكبير ذو اللون الأصفر المائل الى البرتقالى المستعمل للماء • ثانيا الأوانى الحمراء المصقولة ذات الفوهة السوداء • وثالثا الكئوس الصغيرة السوداء ذات الزخرفة المحفورة والمملوءة باللون الأبيض أو بمادة ملونة • ورابعا أوان من الحصاة وأوان مصقولة بنية بعضها له زخرفة هندسية بينما البعض الآخر أقل زخرفة وعليها مناظر آدمية وحيوانية • وهذه الرسوم الى جانب الرسوم الصخرية تعطينا فكرة قيمة لمظهر وعادات أهل المجموعة الثالثة فى عصر انتصارات المصريين • والمثل لهذه المناظر هى الصورة المأخوذة من على احدى الأوانى فى المنظر ١٨ •

ولن نعرف الا القليل عن طريقة الحياة فى هذا العصر فى تلك المنطقة جنوبى الجندل الثانى ، ذلك حتى تصل الينا نتائج الحفائر المتقدمة فى النوبة العليا • ومن المشوق أن نعرف اذا كانت بقايا المجموعة الثالثة قد امتدت فى الأراضى والى أى حد وصلت • وكما أشرت من قبل فمع انها تشبه ما عثر عليه فى كرما الا انها تختلف تماما عنها وتنسب الى قوم آخرين •



الشكل ٣١

نماذج لفخار كرما

١ ـ ٢٠ أوانى حمراء مصقولة ذات فوهة سوداء ـ ٢١ آنية حمراء مصقولة
٢٢ ـ ٢٥ آنية سوداء ذات نقوش غائرة بيضاء

واننى أود أن أقرب حضارة كرما التى تبرز بفخارها من حضارة كوش ، بينما أعتقـــد أن ما عثر عليه من حضارة المجموعة الثالثة يرجع الى قوم واوات • وهناك نقطة أصبحت مؤكدة وهى أن آثار كرما هى بعينهـا ما عثر عليه فيما يعرف بالمقابر الناقوسية التى عثر عليها فى أنحاء متفرقة من مصر نفسها خاصة فى مناطق نعتقد انه كان بهـا معســكرات للجيش (شكل ٣١) وان المقـــابر الناقوسية كانت تحتـــوى قطعـا على أجساد الجنـــود الذين التحقوا بالجيش المصرى والذين أصبحوا فى تاريخ متأخر العمود الفقرى فى قوة الجيش المصرى هؤلاء يرجعون الى الأسرة الثانية عشرة ويمتدون خلال عصر الانتقال الثانى حتى أيام الامبراطورية فى الأسرة الثامنة عشرة • ومما يجب أن نشير اليه هو أن ما عثر عليه فى هذه المقابر يرجع قطعا الى أهل كرما ولا صلة له بحضارة المجموعة الثالثة فى النوبة السفلى • لذلك يمكننا أن نستخلص أخيرا أنه منذ الأسرة الثانية عشرة كان الفراعنة يجندون فرقا من بين أهل كوش المحاربين • وهذا يفسر لنا عدد الأشـــياء المصرية التى عثر عليها فى كرما بينما لم نجد شيئا يعاصر جبانات المجموعة الثالثة فى الشمال •

الفصل الرابع

عصر الاضمحلال الثاني

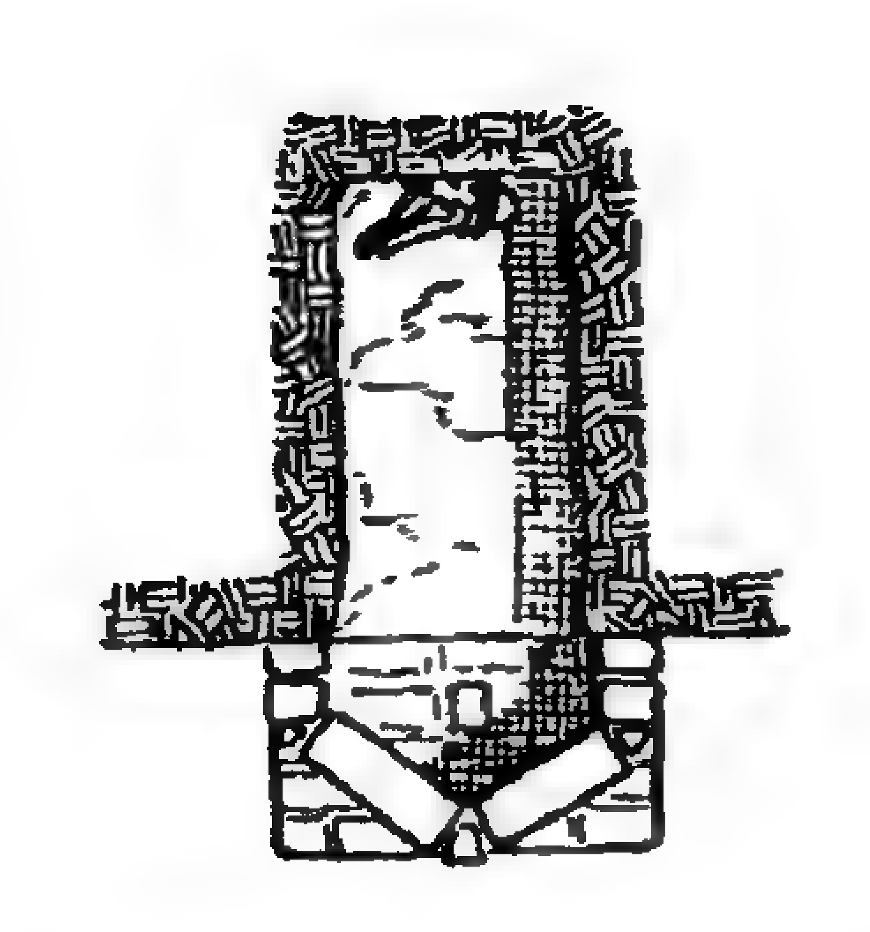
يبدو أن نهاية الدولة الوسطى التي حلت بعد عزل الملكة «سبك - نفرو - رع» أو موتها في عام ١٧٨٦ ، لم تضعف حكم المصريين في النوبة. فلقد سجل اسما الملكين الأولين من الأسرة الثالثة عشرة « سخم رخو تاوى » و «سخم كارع» على مقياس النيل في سمنه وكان هذا دليلا كافيا على أن تلك الحصون لا تزال مسكونة . ونجد فيما بعد - في عهد نفس الأسرة - اسم الملك الواحد والعشرين المدعو « نفر حتب » منقوشـا عند الجندل الأول وعلى قطعة حجرية من النستياتيت عثر عليها في قلعة بوهن . ولقد عثر أيضا في جزيرة « ارجو » جنوبي كرما على تمثال ضخم لأحد أتباع هذا الملك واسمه «خع نفر رع سبك حتب» وكان وضعه في هذا المكان البعيد عن حدود سنوسرت يثير شكنا لأن هناك ما يدل على أن آثارا مصرية متعددة نقلها الكوشيون من مكانها الأصلي في العصور المتأخرة عندما وصلوا الى أوج سلطتهم . وعلى أية حال فقد أقيم هذا التمثال في النوبة ، ونستنتج من ذلك أنه في عصر « خع نفر رع سبك حتب » كان المصريون لا يزالون يسيطرون على الجنوب .

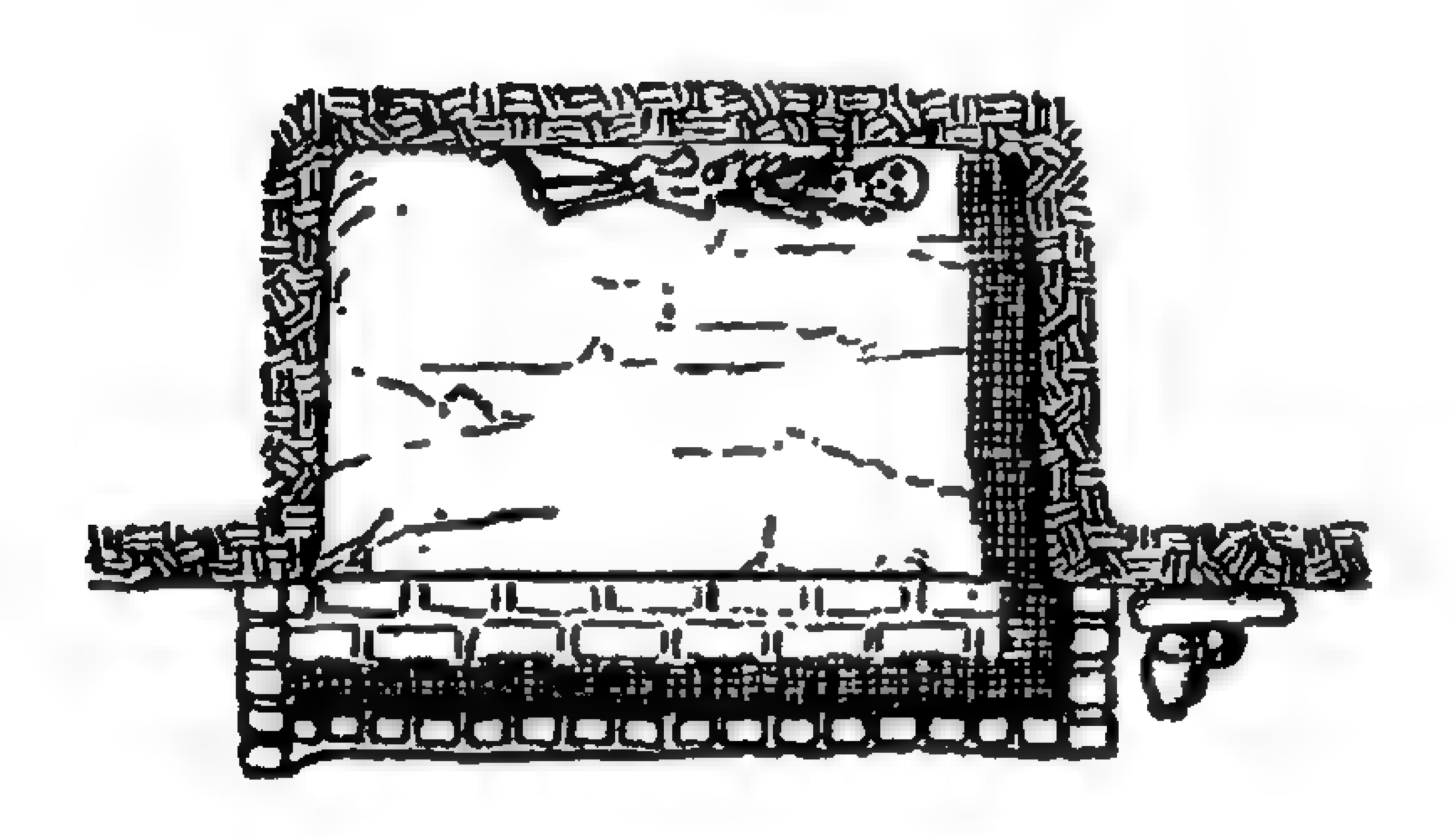
ولكن ظلال الحوادث المقبلة التى كانت لها أثر فعال فى تاريخ النوبة كانت قد أخذت تخيم على شمال مصر ، فمنذ أواخر الأسرة الثانية عشرة كان تسرب القبائل السامية الآتية من فلسطين يقلق المصريين ومع ضعف الحكم المركزى فى الأسرة الثالثة عشرة اتخذ هذا التسرب شكل الغزو ، وقد عرف قواد هؤلاء القبائل عند المصريين بـ « حكا خسوت » أى « حكام البلاد الأجنبية » والتى اشتقت منها كلمة « هكسوس التى أطلقت فيما بعد على هـــذا الجنس بأجمعه • وقـــد امتد نفوذ الهكسوس شيئا فشيئا حتى « قوص » جنوبا • ونستطيع أن نتصور مدى النـكبة التى حلت بمصر اذا رجعنا الى ما سجله « جوزيفوس » عن رواية « مانيتون » :

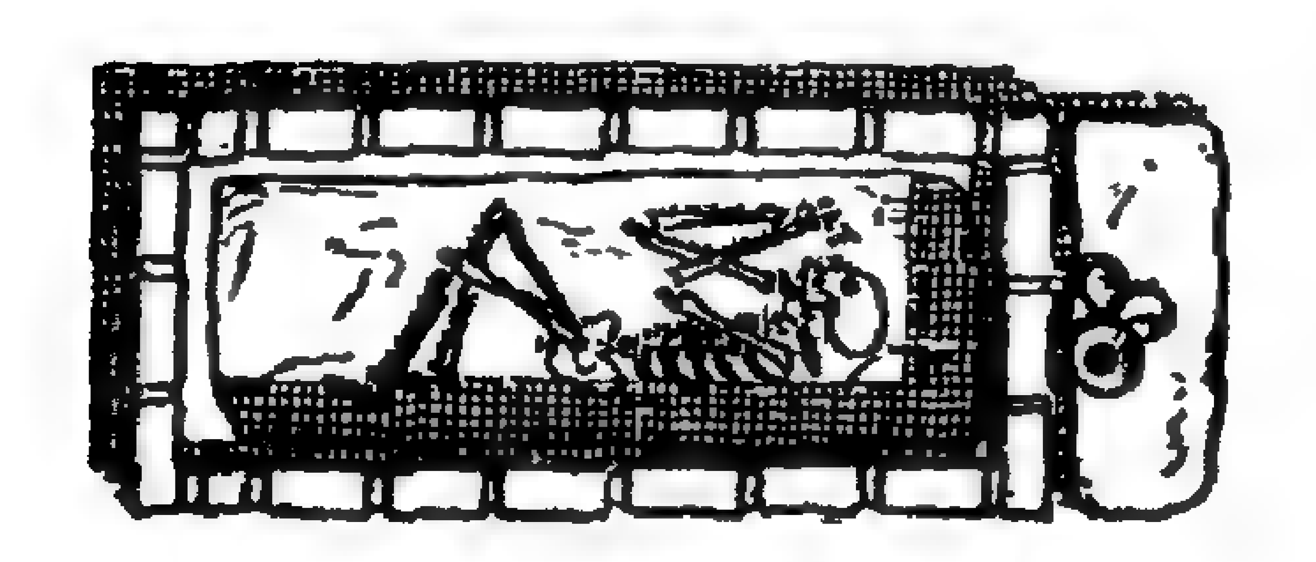
« توتيمايوس » ففى عصره لا أعرف لماذا ابتلانا الله بعاصفة من عنده ، اذ دخل علينا من الشرق ، على حين غرة ، غزاة من أصل غير معروف واثقين من الانتصار على بلادنا • فاستولوا بالقوة عليها دون أن يوجهوا ضربة واحدة ، وبعد انتصـــارهم على حكام البـلاد أحرقوا مدننا من غير رحمة وسووا معـابد آلهتنا بالأرض وعاملوا أهلها بعداء صارم فقتلوا البعض وسـبوا النساء والأطفال وأسروا البعض الآخر • وأخيرا وضعوا على العرش أحـدهم وكان اسـمه « ساليتيس » • وكان مقر العرش آنذاك فى منف ، وكانوا يجبون الضرائب من مصر العليـا ومصر السفلى تاركين دائما قوات عسكرية فى أكثر الأماكن ملاءمة » ••

ولم نتعرف بعد على توتيمايوس هذا ولكن ربما كان هو الفرعون « دودى ــ مس » أحد ملوك الأسرة الثالثة عشرة والذى حكم حوالى عام ١٦٧٥ ق•م • وهكذا أصبحت مصر كلها تقريبا تحت حكم ملوك الهكسوس بينما اعتكف الحكام الأصليون فى الجنوب حيث حكموا محليا متخذين طيبة عاصمة ، ويبدو أنهم فى السنين الاولى من حكم الهكسوس كانوا يدفعون الجزية للمنتصر الأجنبى فى الشمال •

لم يبق لمصر ــ فى ظل تلك الظروف ــ قوة فى النوبة العليا فلقد استولى الهكسوس على الحصون وفى بعض الأحيان هدمت هذه القلاع • فمثلا تركت بوهن ، مقر قائد جيش الجندل ، اطلالا يتصاعد منها الدخان وبقيت على هــذه الحال من الدمار أكثر من مائة سـنة على ان الكوشيين المنتصرين كانوا قد سكنوها والدليل على ذلك هو نص « سبد ــ حر » الذى يقول : « انى قائد شجاع فى بوهن ولم يفعل أى قائد ما فعلته ، فلقد شيدت معبدا لحورس سيد بوهن فسر لذلك الحاكم الكوشى • » ويبدو أن







الشكل ٣٢

نموذج لمقبرة من حضارة المجموعة الثالثة

« سبد ـ حر » هذا كان مصريا عمل موظفا مع بعض المصريين الآخرين عند الحكام الكوشيين الذين امتدت سلطتهم الى منطقة واسعة من النوبة • ولم نعثر على المعبد الذى بناه فى بوهن ولكن مع تطور العلم الحديث هناك أمل فى العثور عليه • والمهم أن نعلم من النص ان القائد الكوشى كان مهتما فى بناء معبد لحورس الاله المصرى فهذا يشير الى انه فى هـــذا الوقت كانت العادات والحضارة المصرية قد استقرت وقبلت من حكام كوش المستقلة •

ولكن الى أى مدى امتد سلطان كوش فى الشمال ؟ هذا ما لانعرفه ، ولكننى أميل الى الاعتقاد بأن جزءا كبيرا من النوبة السفلى (واوات) كانت لا تزال تحت السيطرة المصرية أو تحت تأثيرهم الى حد بعيد •

وسبب اعتقادى ذلك هو تبنى أهل المجموعة الثالثة لطقوس الدفن المصرية التى ترجع الى ذلك العصر التى عثر عليها فى هذا المكان ، ويلاحظ هذا بطريقة غريبة الى درجة انه يمكن أن يدل على وجود عدد كبـير من المهاجرين المصريين الذين هربوا من ضغط الهكسوس ، ففى أثناء الفترة الأولى من عصر الانتقال الثانى بقيت المقابر ذات الجزء المستدير الذى يعلو سطح الأرض وكان الجسد لا يزال يوضع على شكل نصف القرفصاء ولكن فى أواخر الأسرة الثالثة عشرة تغير شكل مقابر المجموعة الثالثة كلية ، فلم نعد نعثر على اللوحة الغربية ولكننا نجد بدلا منهـا حفرا مبعثرة فى الجبانة كلها خصصت لوضع القرابين ولا تنتمى الى مقبرة بعينها » • وكانت هذه الحفر تحوى عادة الأجزاء الأمامية من جماجم غزلان ملونة بالأسـود والأحمر هذا الى جانب تقدمة على شـــكل أوان فخارية • وكانت الحفر فى حالات عديدة تغطى بجزء مقبى من الطين ، أما عن الدفن فقد كان الجسد يرقد على جانبه الأيمن فى حالة القرفصاء ورأسه الى الغرب • وكانت الحفرة التى يوضع فيها الجسد عبارة عن حفرة مستطيلة حوافيها مستديرة • ولم تستعمل الحجارة لتغطية الحفرة بل كانت الحفرة تملأ بالرمل بعد مراسيم الدفن ثم يبنى فوق الحفرة جزء مستطيل مقبى من الطوب اللبن وتوضع لوحة حجرية للقرابين عند النهاية • وفى بعض الأحيان كانت تصـنع حفرة فى جـدار الجزء العلوى لتتصـــل المقبرة بالقرابين الموضوعة فوق اللوحة ، (منظر ٣٢) • وهناك أدلة على أن الجزء العلوى كان كثيرا مايشيد بعد الدفن بفترة وذلك لأنها فى حالات عدة بنيت بعيدا عن المقبرة التى أسفلها •

وكانت الأوانى توضع أيضا داخل المقبرة عند رأس أو أقدام الميت ، الى جانب الفخار الذى كان يوضع فوق اللوحة عند قمـــة الجـزء العـلوى

للمقبرة • وتظهر محتويات المقبرة مدى التأثير المصرى اذ نجد بها جعارين من الستياتيت والعقيق والجمشد وتمائم من القشانى مربوطة حول الأصابع أو العنق • وكانت أوانى الكحل المصرية المصنوعة من الرخام لها شعبيتها بالاضافة الى المرايا المصنوعة من البرونز وبعض السكاكين • ومع أن الأسلحة كانت نادرة الا أن الخناجر المصرية قد وجدت أحيانا • واذا استثنينا الفخار فاننا سنجد أن معظم محتويات المقبرة مثل الحلى وأدوات الزينة والآلات والأسلحة كلها ترجع الى أصل مصرى •

ومن المعروف أنه فى فترة ما أقيم حلف بين ملوك الهكسوس ورؤساء قبائل كوش واضعين أمراء طيبة وأتباعهم بين نارين • ومن ثم فقد اضطروهم الى أن يقفوا فى حالة دفاعية عدة سنين • وبقى الحال على هذا المنوال حتى جاءت الأسرة السابعة عشرة (١٥٧٠ – ١٦٠٠ ق•م) وبدأت الروح المصرية تقوى بالتدريج وقد قامت حروب التحرير تحت حكم آخر ملوك الأسرة ، كامس • ففى السنة الثالثة من حكمه نادى بلاطه الى اجتماع فى طيبة وقال لهم :

« انى أتساءل مافائدة قوتى عندما نجد قائد (هكسوس) فى افاريس (تانيس) وآخر فى كوش وأنا أجلس بين أسيوى ونوبى كل منهما فى حوزته قطعة من مصر هذه ، ولا يمكننى أن أصل الى أبعد من منف • أنظر انه يستولى على خمون (اشمونين) ولا يمهل أحد فى نهبه وسلبه حتى « الستيو » (اسم يعطى للهكسوس) • اننى سأصارعه وأبقر بطنه • ان أمنيتى هى أن أخلص مصر وأن أضرب الأسيويين » •

الا أن ناصحى الملك – حسب ما سجل – كانوا مترددين أو على الأقل حذرين ، ومن بين الأسباب التى كانت لا تدفعهم الى الهجوم هى ان « اليفنتين قوية » • ويدل ذلك على انهم اعتبروا حدودهم الجنوبية عند الجندل الأول بمعنى ان النوبة السفلى (واوات) لابد انها كانت مستقلة أو تحت سيطرة كوش • ولكن البقايا الأثرية تدل مع ذلك على أن التأثير المصرى كان قويا جدا فى هذه الفترة الى درجة أن المنطقة رغم عدم خضوعها لملوك طيبة كانت منطقة صديقة ، يقطنها مصريون ضمن سكانها •

ولم يهتم كامس بنصائح أتباعه فشن حروبا ناجحة ضد العدو الهكسوس • ويمكن أن نلاحظ مما سجل عن انتصاراته أن مناطق من النوبة كانت لا تزال تحت السيطرة المصرية لأنه يشير الى وجود قوات نوبية فى جيشه • ولقد كانت مقاومة الهكسوس لأعدائهم المحررين الطيبين

ضعيفة الى درجة أن ملكهم « ابيبى » بعث الى كوش يطلب النجدة ، ويقول كامس مسترسلا :

« قبضت على رسول له ، بعيدا عن الواحة ، مسافرا جنوبا نحو كوش ومعه رسالة مكتوبة من قائد أواريس : « أنا « عا أوسر رع » ابن رع « ابيبى » أحيى ابن حاكم كوش . لماذا أصبحت قائدا دون علمى : ألم تسمع بالذى فعلته مصر ضدى . ان القائد المصرى « كامس » العظيم طردنى من أرضى ولم أصل اليه بعد . وبعد كل ما فعله ضدك فقد اختار تدمير الأرضين ، أرضى وأرضك وخربهما . ابحر حالا الى الشمال ولا تكن هيابا . انظر انه هنا معى .... لن أدعه يرحل قبل أن تصل . حينئذ سنقسم مدن مصر هذه بيننا » .

وأعتقد ان هناك مجالا للظن بان « كامس » توجه نحو الجنوب فى النوبة قبل أن يهتم بعدوه الأول فى الشمال وذلك من ألفاظ استغاثة من الهكسوس وخاصة من تلك العبارة (بعد كل ما فعله ضدك) . ومع ان الأدلة غير ملموسة الا أن اسمه واسم خليفته أحمس يظهران على لوحة فى توشكا . ولكن اذا كان كامس قد قام بمجهود حربى فى النوبة فلابد أنه كان مجهودا ضئيلا جدا كاحتياط أولى لحماية حدوده الجنوبية قبل أن يتوجه الى الحرب الرئيسية ضد الهكسوس . ولكن خليفته « أحمس » هو الذى بدأ الحروب الجنوبية التى أسفرت عن استرجاع النوبة وتعمير المصريين لها مرة أخرى .

الفصل الخامس

الأسرة الثامنة عشرة

اعتلى أحمس الأول ، مؤسس الأسرة الثامنة عشرة ، العرش عام ١٥٧٠ ق٠م٠ وأمضى الجزء الأكبر من حكمه فى حروب لطرد الهكسوس من دلتا مصر حتى وصلوا الى الجنوب الغربى من فلسطين ، وعندما انتهى من ذلك فى العام الثانى والعشرين من حكمه وجه اهتمامه الى حدوده الجنوبية وبدأ فى غزو النوبة ثانية ٠

ان أهم مصدر لنا عن هذه الحملة والحملات التى أعقبتها قد عرفنـاه من سيرة القائد الذى يحمل اسم الملك ، أحمس ، والذى ترك لنا تاريخ حياته منقوشا على جدران مقبرته فى الكاب ٠ كان أحمس بن ابانا من أسرة نبيلة بقيت لعدة أجيال تحكم منطقة الكاب ٠ وطوال فترة النضـال ضـد الهكسوس أظهرت هذه الأسرة ولاء تاما لملوك طيبة لذلك تمتعوا بحظـوة ملوكها ٠ وأعطى أحمس ــ منذ صباه ــ مركز القائد فى حرس الملك الخاص لأنه يقول « تبعت الملك على قدمى عندما ركب عربته » ٠

وعندما بدأت الحملات النوبية كان أحمس قد أصبح متمرسا ، له سجل طويل من الأعمـال المجيـدة التى قام بها ٠ ويبدو أنه كان يقود ،

حينئذ ، أسطولا مصريا لابد انه قد مر من قناة سنوسرت الثالث عندما ساعد فى غزو النوبة مرة أخرى · ويروى أحمس كيف ان « جلالته (أحمس) قد قام بمجزرة بينهم (أى النوبيين) وكيف ان « جلالته أبحر شمالا مسرور القلب من نشوة الانتصار (لأنه) قبض على الجنوبيين والشماليين » · ولا نعرف الى أى مدى وصل المصريون جنوبا فى هذه الحملة ولكن لا شك ان النوبة كلها حتى الجندل الثانى ، كانت فى أيدى المصريين وانهم احتلوا أطلال قلعة بوهن الكبرى · ولقد عين رجل يدعى « ثورى » قائدا فى بوهن آنذاك ثم أصبح أول « حاكم لكوش » فى فترة الحكم التالية · ويبدو ان الحصن قد أعيد بناؤه وتوسيعه تحت اشراف « ثورى » لأننا نعرف ان الفرعون أحمس شيد معبدا الى الشمال من قلعة الدولة الوسطى خارج الأسوار وهذا يوحى بأنه كان يفكر فى توسيع الحصون التى كانت ستضم معبده والقلعة القديمة · وخلف «أمنحتب الأول» أباه «أحمس» فى عام ١٥٤٥ ق·م· ومع انه لم يسجل فى حكمه الا حملة واحدة الا أنه نجح فى تدعيم حدوده جنوبا حتى « سمنه » وندين أيضا لأحمس القائد بتفاصيل هذه المعركة اذ نجده يقول لنا : « أبحرت مع الملك « جسر كارع » (أمنحتب الأول) المبجل عندما توجه جنوبا الى كوش لتوسيع حدود مصر · وقبض جلالته على الحاكم النوبى وسط جيوشه » وبعد أن يصف امكانياته الحربية يواصل أحمس قائلا: « وجئت بجلالته الى مصر من البئر العلوى فى يومين · فكافأنى (الملك) بالذهب » · فاذا كانت البئر العلوية وصفا للجندل الثانى ، كما يبدو ، أو مكانا فى هذه المنطقة فان معنى ذلك ان المنطقة الشمالية لحدود « سمنه » كانت تعد مصرية لأنه من الصعب قطع مسافة كبيرة بالمركب فى يومين » ·

ولا نعرف تاريخ وقوع هذه الموقعة ضد كوش ولكن لابد أنها وقعت فى النصف الأول من حكم أمنحتب لأن هناك نصا يرجع الى السنة الثامنة من حكم هذا الملك نقش على صخور ايكونارتى ، وبعد هذه الحملة اتفق على تعمير النوبة وظهرت وظيفة « الوالى » تحت لقب « ابن الملك حاكم كوش » · وكان أول اسم فى سلسلة طويلة لأسماء كثيرة تعرفنا عليها أخيرا هو ثورى الذى كان حاكما لبوهن ويشغل أهم وظيفة ادارية فى النوبة ، وخلف أمنحتب الأول على العرش تحوتمس الأول (١٥٠٨ — ١٥٢٥ ق·م·) الذى بعث أولا برسالة الى ثورى حاكم النوبة ، ليعلمه

بالنبأ . ونقش ثورى مرسوم التتويج على لوحة وضعت فى كوبان وبوهن . والنص كما يلى :

« أمر ملكى لابن الملك ، حاكم البلاد الجنوبية ، ثورى المبجل . أنظر ، بعث اليك هذا الأمر الملك لينبئك بأن جلالته أصبح ملك مصر العليـــا والسفلى ، على عرش حورس الحى الذى لا مثيل له الى الأبد . اجعل القابى كما يلى :

اللقب الحورى : « الثور القوى ، المحبوب من ماعت » .

السيدتان : « المشرق فى تاج الصل ، العظيم فى قوته .

حورس الذهبى : « خير السنين محيى القلوب »

ملك مصر العليا والسفلى : « عاخبران رع » .

ابن رع : « تحوتمس ، فليعش أبد الآبدين » .

فلنقدم قرابين لآلهة اليفنتين فى الجنوب كما يلى : « اقامة الاحتفالات السعيدة بالنيابة عن ملك الشـــمال والجنـــوب « عاخبران رع » المعطى الحيـــاة » .

واجعل القسم باسم جلالتى ، المولود من الأم الملكية سن سنب التى تتمتع بالصحة هـذا بلاغ لاخطارك وليعرفك ان البيت الملكى فى خـير ورخـــاء .

السنة الأولى ، الشهر الثالث ، الفصل الثـــانى ، اليـــوم الواحد والعشرون يوم عيد التتويج . »

اكتسب تحوتمس الأول بعد سنتين من تتويجه فعلا لقبه الحورى « الثور القوى » لأنه أتم غزو كوش . فيدعى على لوحة فى « تومبوس » جنوبى الجندل الثالث انه : « توغل فى وديان لم يعرفها أجداده الملكيون ولم يرها الذين يلبسون التيجان المزدوجة .» والحقيقة ان هناك أدلة قوية على وصول الجيوش المصرية الى منطقة دنقلة لأن تحوتمس أقام لوحة حدود فى « كورجوس » فى المنطقة الجنوبية لطريق « أبو حمد » وهو الطريق القديم الموصل لكوبان فى النوبة السفلى ، ويجوز أن تكون هذه اللوحة قد أقامها المغيرون القادمون من كوبان عبر الصحراء وهى لا تثبت ان كل النهر جنوبا كان فى أيدى المصريين . وعلى أية حال فلا شك ان قوة كوش دمرت

ونعرف ذلك من سيرة حياة « أحمس الكابى » ذلك القائد العجوز الذى كان على رأس الأسطول الملكى • فيقول :

« قدمت سفينة الملك « عاخبران رع » (تحوتمس الأول) المبجل عند ابحـــاره جنوبا الى « خنت ـ هن ـ توفر » لنخمد الثورة فى المرتفعات وليوقف الاغارات فى منطقة التلال. وأظهرت شجاعة أمامه فى المياه الصعبة وفى قيادة السفينة عند المنحنى (دنقلة) فكافأنى (الملك) وعيننى قائدا للأسطول • وكان جلالته ٠٠٠٠ فغضب جلالته وأصبح كالفهد وصـوب رمحـه الأول الذى استقر فى جسـد الصريع • كان هذا ٠٠٠٠ (حاكم كوش ؟) بدون قوة أمام الصل الملتهب فى لحظة الهلاك • وجىء بأهلهم كأسرى أحياء ٠٠٠ وأبحر جلالته جنوبا وكل البلاد فى قبضته وعلق هذا النوبى الحقير من رجليه على مقدم سفينة جلالته ورسونا عند الكرنك • »

ولقـد ترك لنا ثورى نصا آخر عند الجندل الأول مسجلا فيه ان الملك اضطر ، قبل الابحار منتصرا نحو عاصمته طيبة ، أن يطهر قناة سنوسرت التى كانت قد امتلأت بالحصى وكان قد قام بهذا العمل فى السنة الثالثة بعد انتهـــاء الحملة • وهـذا شىء غريب لأننا نتصور ان المفـروض أن تكون القناة صالحة لتسمح بمرور الأسطول بعد الحرب • والتعليل هو أن السفن بنيت فى النوبة جنوبى الجندل الأول فى بداية الحرب وبعد انتهاء الحرب اعتبرت ضرورية للاستعمال فى مصر نفسها •

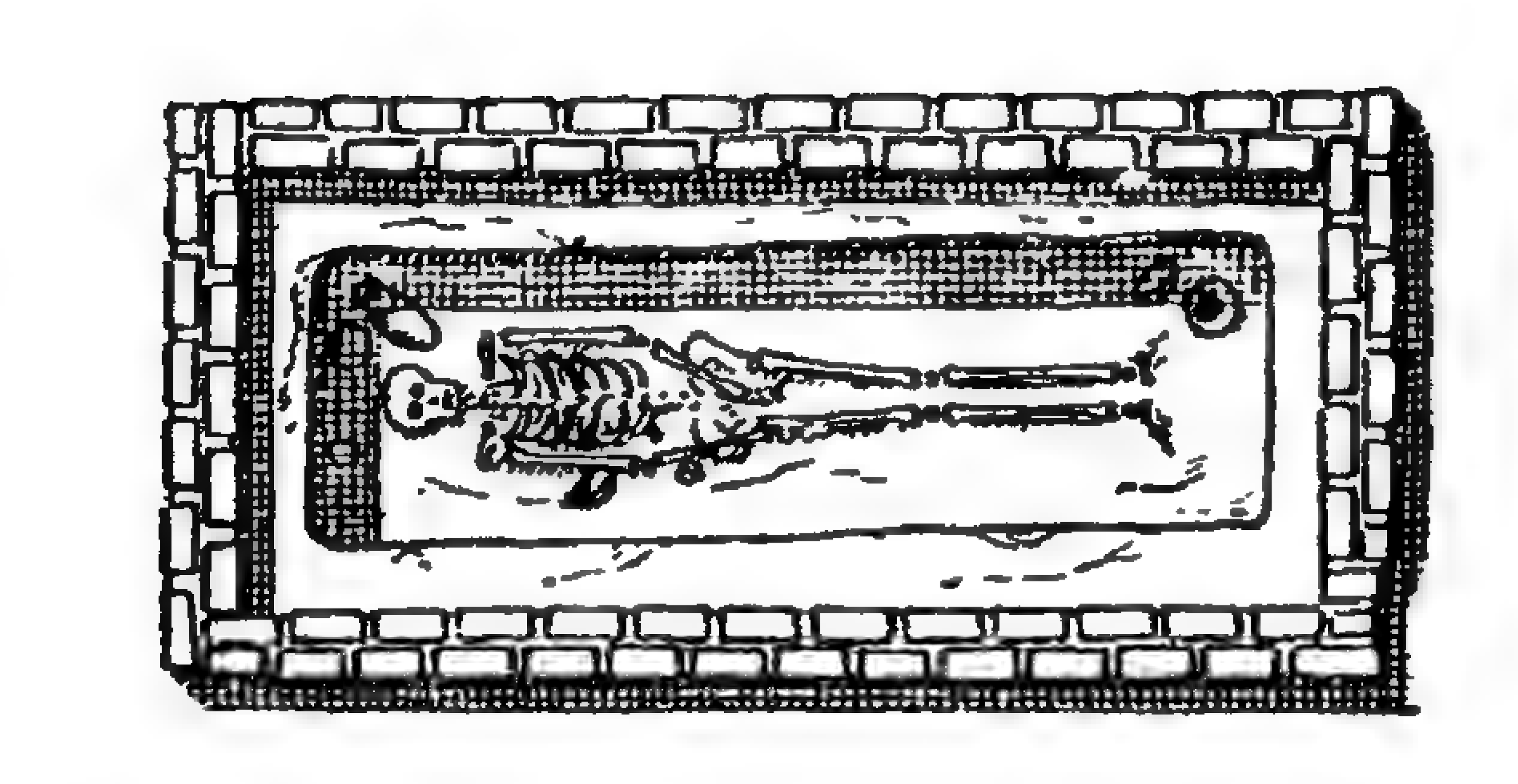
وهناك أدلة على أن « تحوتمس الأول » بنى سلسلة حصون فى تومبوس وعلى جزيرة « ساى » ولا شك أنه فى آخر حكمه كانت النوبة كلها ودنقلة أيضا فى يد قوية • ولقد أعاد بناء كثير من حصون الدولة الوسطى ووسع بعضها • ويبدو أن هذا العمل العظيم أنجز تحت اشراف ثورى • واختيرت بوهن مرة أخرى لتكون مركز الادارة وأعيد بناء جدران حصونها وقويت • أما السور السفلى والخندق فقد ردما وغطيا بطريق معبد من اللبن يلتف حول البناء كله حتى أصبحت على شكل قلعة فى وسط حصون جديدة • وهذه الحصون الجديدة بنيت على نطاق واسـع وبطريقة أكثر احكاما • وحفر خندقا عرضه ستة أمتار وعمقه مترين على شـكل محيط طوله ميل ومن ورائه شيدت الجدران التى حوت المدينة الجـديدة وكان ارتفاع هذه الجدران اثنى عشر مترا وسمكها خمسة أمتار ويتخللها أبراج مستطيلة فى الوجهة الخارجية • وكان المسقط الأفقى لهذه الحصون على عكس حصن الدولة الوسطى ، شكله غير مستقيم وله زوايا واسعة ، أكبرها فى الوسط تقريبا فى الناحية القريبة مواجها للصحراء • وداخل

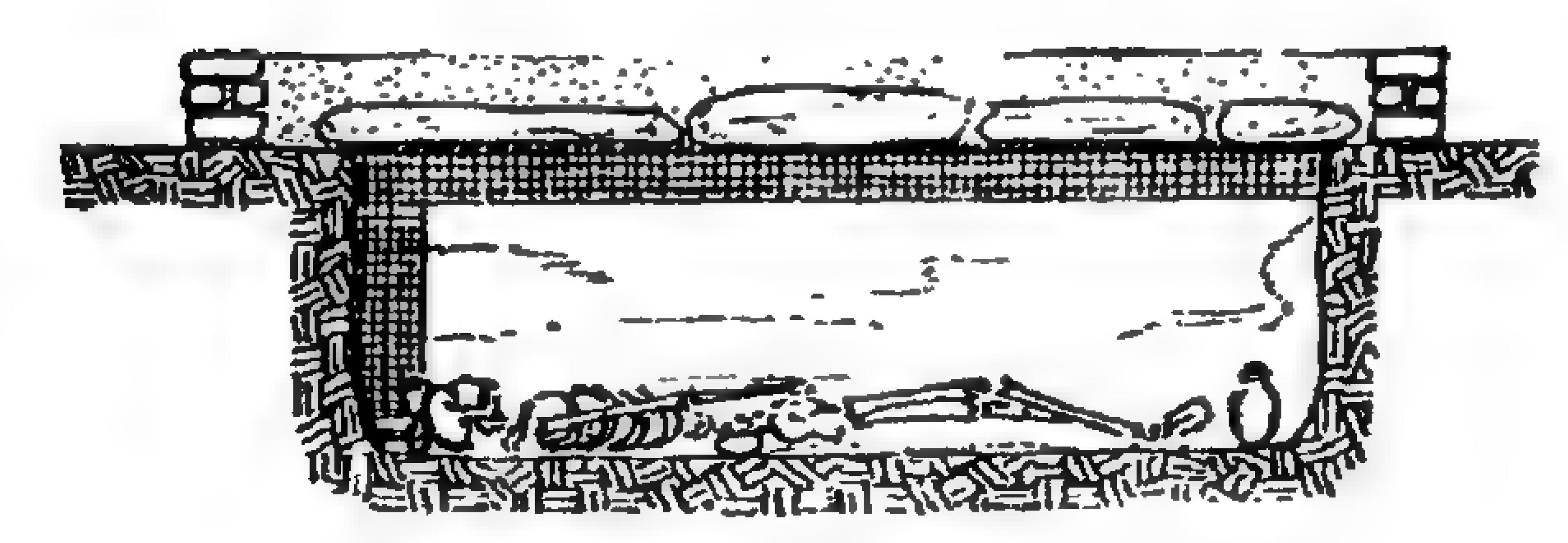
هذه الزوايا وجدت بوابة كبيرة ذات ممر منحوت فى الصخر يعبر الخندق ويعتبر المدخل الرئيسى للحصن ٠

أما الحصون الأخرى ، فى النوبة السفلى مثل كوبان وايكور وعنيبه فقويت بينما بقيت الحصون ، جنوبى الجندل الثانى ، فى منطقة بطن الحجر مهجورة ، كما لم يهتم ببعضها الآخر ، ويمكننا أن نستخلص انه بعد امتداد منطقة الغزو نحو الجنوب أصبحت هذه الحصون غير ذات قيمة وان المجهود فى تشييد أبنية حربية تركز فى المناطق المكتسبة حديثا بعد الشلال الثانى ٠ ولقد لوحظت مناطق عدة حول دنقلة بها بقايا لتلك الأبنية وحتى يهتم بها المنقب لا يمكن أن نتأكد من هذه النقطة ٠ ان ضرورة اعادة تشييد بوهن (حلفا) وميعام (عنيبه) وباكى (كوبان) فى النوبة السفلى واضح جدا ، فبوهن على رأس الجندل الثانى كانت مركز كل وحدات الجيش فى هذه المنطقة الحيوية كما كانت مقر تخليص البضائع الآتية من الجنوب والتى كانت تحمل على السفن الراسية على أرصفتها الحجرية ٠ أما ميعام مركز الادارة فيما بعد ومقر الحاكم فقد كانت أكثر أهمية وتدل على ذلك أطلال جدرانها الضخمة ، وأخيرا كوبان ــ على النهر عند آخر نقطة من الطريق الحيوى المؤدى لمناجم الذهب فى وادى علاقى ــ كانت مهمة لأنها كانت تراقب أى احتمال لغزو من الجنوب عن طريق البحر متخذين طريق أبو حمد الصحراوى ٠

والآن لنلق نظرة على الجيش المصرى الذى استرجع بسرعة للفراعنة قوتهم فى النوبة ٠ ان النظام العسكرى فى عصر تحوتمس الأول اختلف تماما عن النظام فى عصر سنوسرت الأول لأنه أصبح لا يعتمد على نظام الاقطاعيات ومن ثم أصبح لمصر الآن جيش وطنى حقيقى له قيادة محكمة البنيان لم نرها فى الدولة الوسطى ٠ ان حروب التحرير ضد الهكسوس الغاصبين علمت المصريين أنه من الضرورى ايجاد جيش محترف وأن مصر لا يمكن أن تعتمد بعد ذلك على فرق نصف مدربة يقودها أشراف محليون لقد أصبحت قوة عسكرية من الدرجة الأولى لها جيش كبير يقوده جنود محترفون ٠

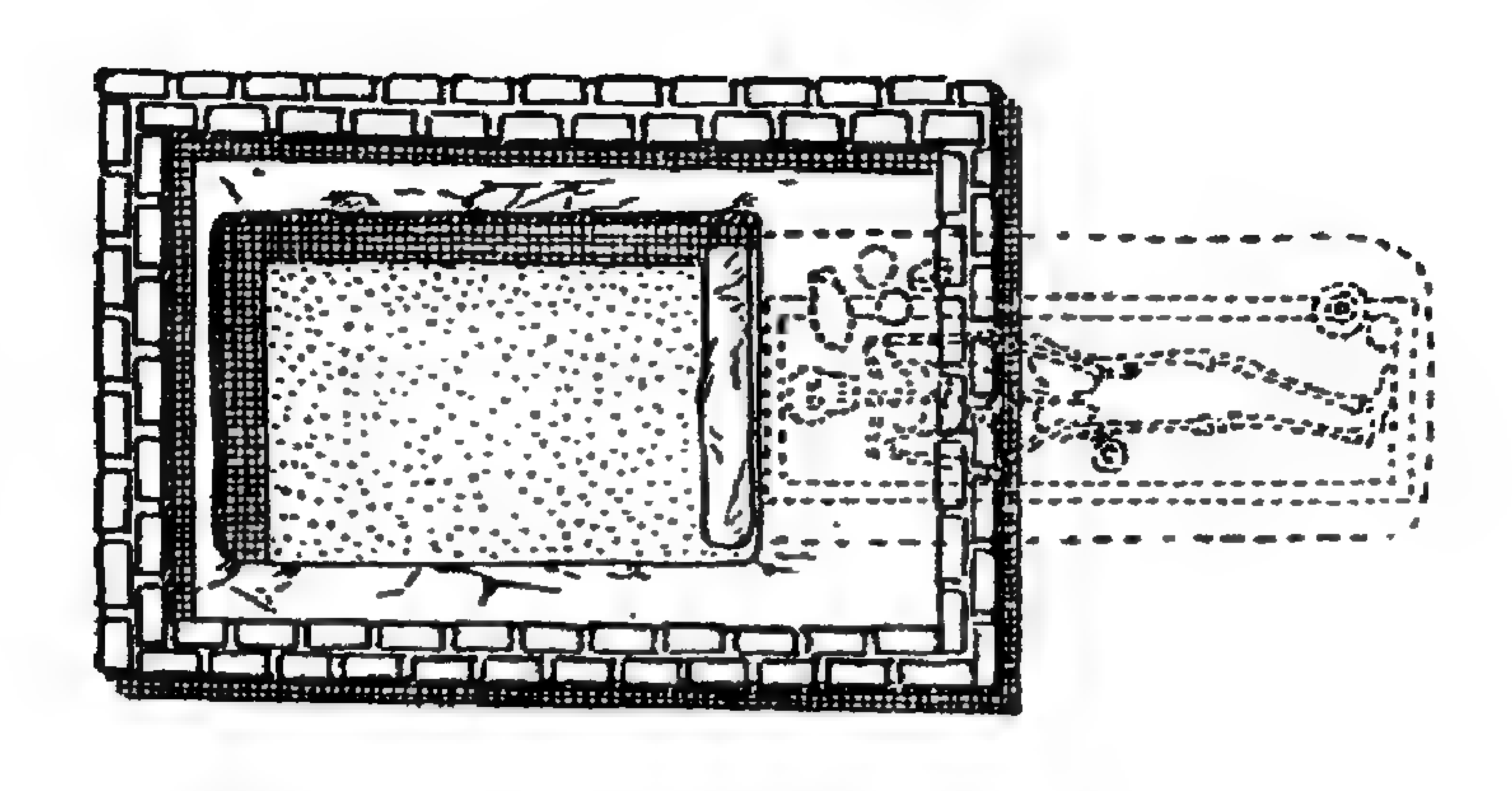
كان الفرعون كالعادة ، فى الحملات الكبيرة هو القائد الأعلى يعاونه أحد الوزراء باعتباره وزيرا للحربية ، ومجلس عسكرى ٠ وكان الجيش مقسما الى مجموعات تضم كل مجموعة خمسة آلاف رجل وكل مجموعة تكون فرقة كاملة من الجيش ٠ وتتكون الفرقة من المشاة وراكبى العربات الحربية وعلى رأسهم قائد ٠ وكان المشاة يتكونون من ثلاث طبقات :

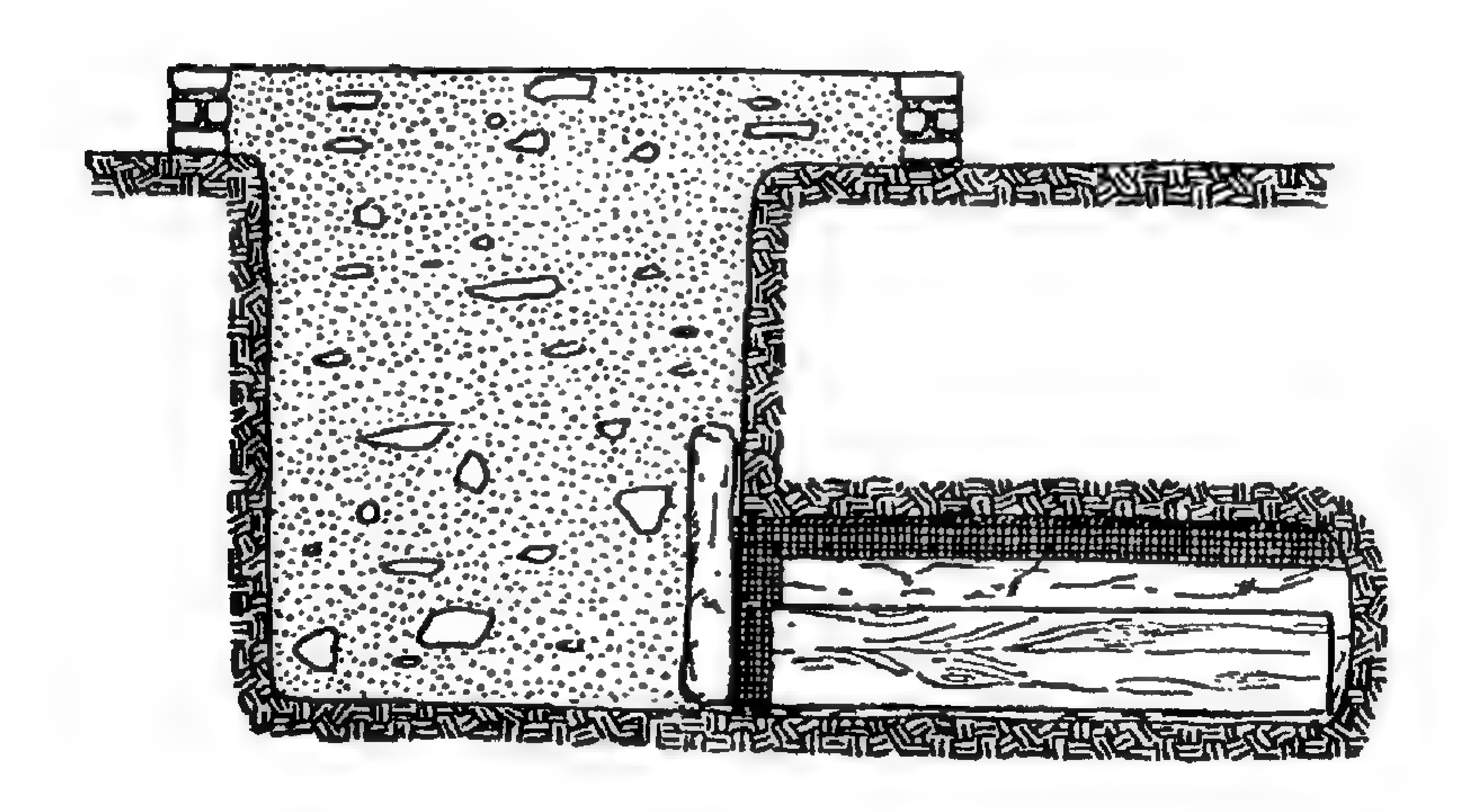




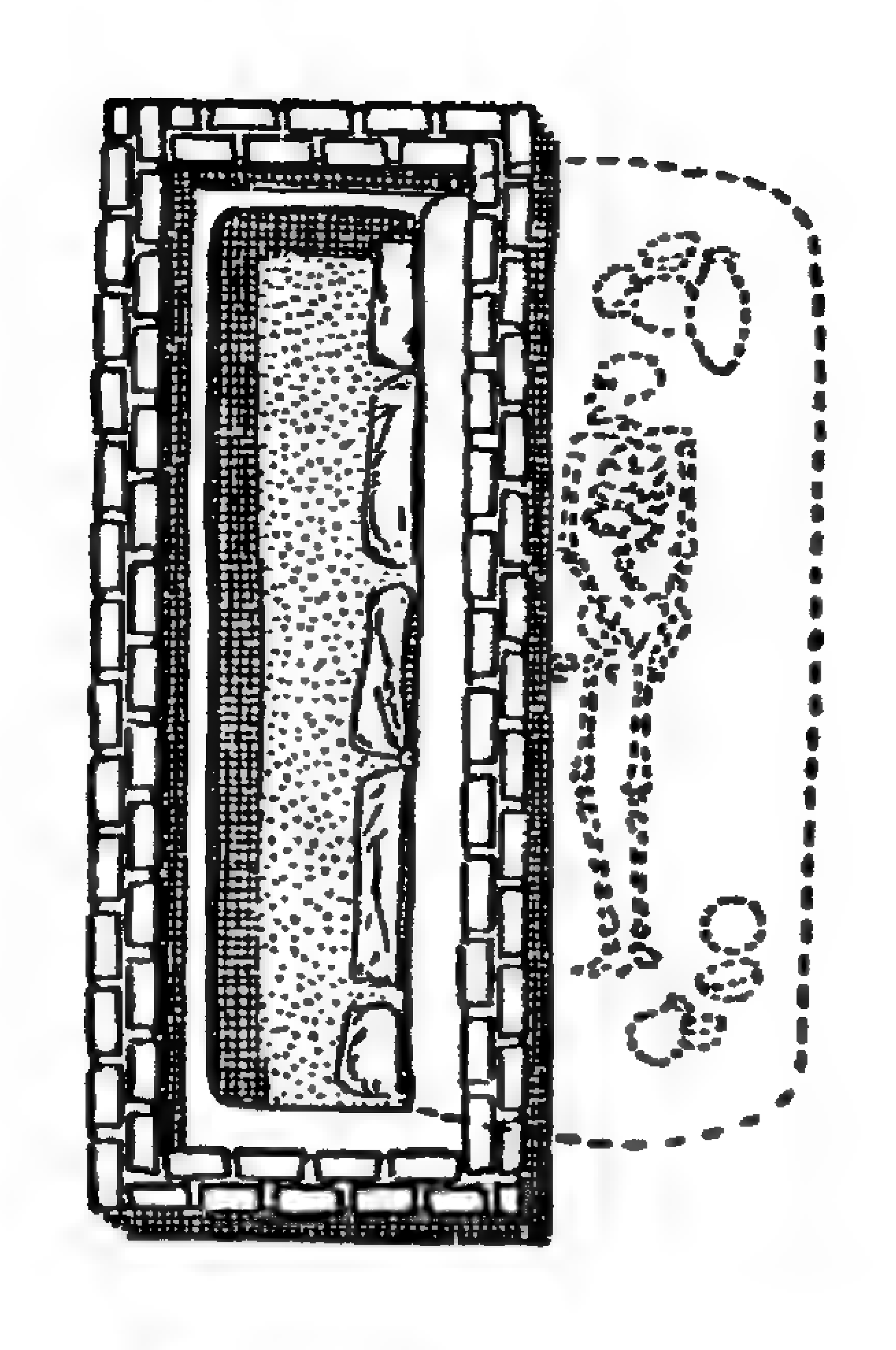
الشكل ٣٣

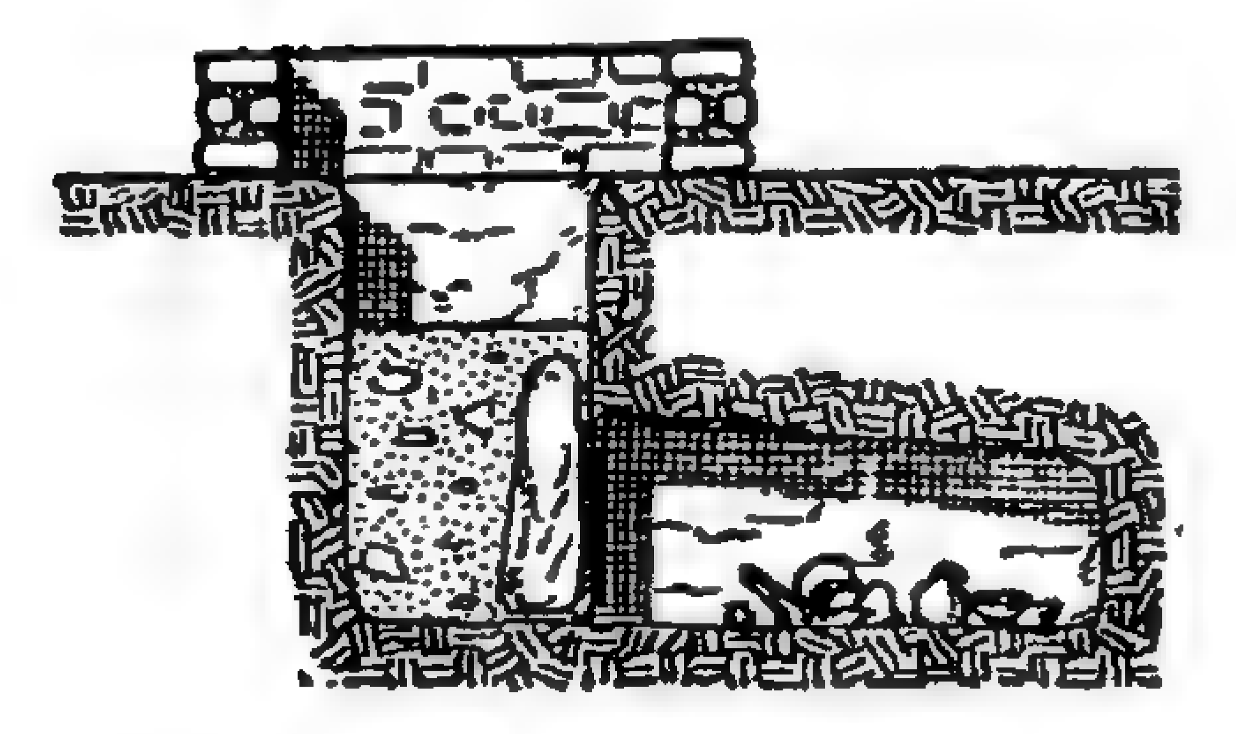
نموذج لمقبرة من الدولة الحديثة





الشكل ٣٤
نموذج لمقبرة من الدولة الحديثة





SCALE 1 METRE

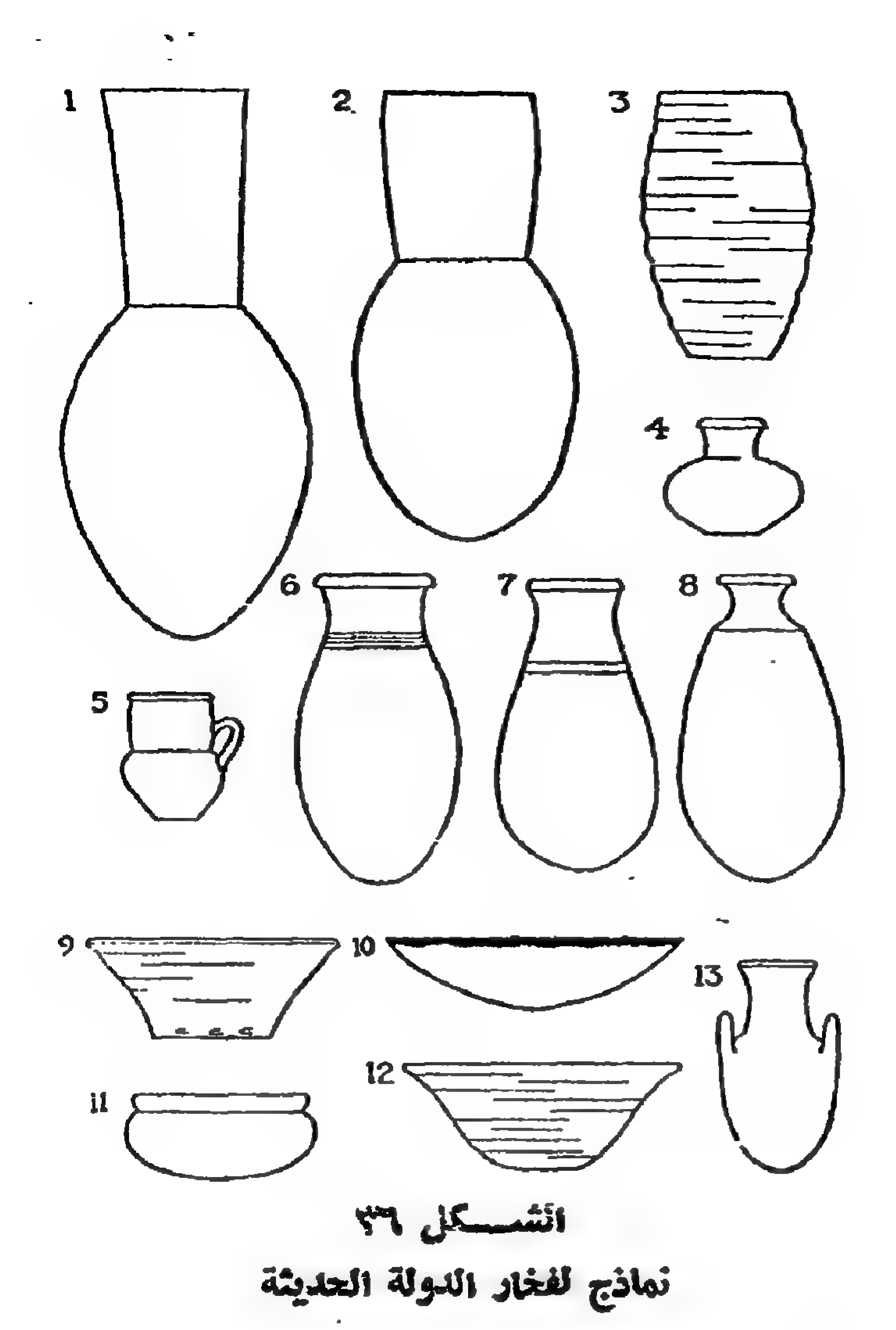
الشكل ٣٥

نموذج لمقبرة من الدولة الحديثة

« المجندون (متطوعون ومجندون أجباريا) والمدربون وهم دائمون والفدائيون ويقسم هؤلاء الى فرق كل فرقة فيها مائتان وخمسون رجلا تحت قيادة ضابط يحمل لواءهم فى الحرب وفى الاستعراضات • ويليه فى المرتبة ضابط أصغر يعرف بـ « أكبر الخمسين » ويبدو أنها كانت أصغر وحدة فى الجيش • أما عن التسليح فكانت الفرق تزود بأسلحة تبعا لفصائل الجنود كمشاة ثقيلة أو مشاة خفيفة أو حاملى أقواس وهؤلاء يسلحون بالأقواس والسهام والبلط ودبابيس القتال والحراب والسيوف• أما العربات ذات العجلتين والحصانين فكانت مقسمة الى فصائل ، كل فصيلة بها خمس وعشرون عربة لكل عربة سائق وجندى ولكل فصيلة قائد يعرف بـ « قائد عربة العاصمة » وكل الفصائل كانت تحت قيادة قائد عام العجلات الحربية أما الجندى الذى كان فى العربة فكان يسلح بقوس وعدة سهام عادة وكذلك بسيف ودرع ورمح • والى جانب الفرق المحلية المصرية، كان الجيش يضم فرقا من المرتزقة الأجانب منذ أقدم أيام الامبراطورية • ففى هذا العصر كانت هذه الفرق الأجنبية مجندة من القبائل النوبية وكانوا يستخدمون فى فرق المشاة فقط • ومن الطريف أن نلاحظ بهذه المناسبة أنه أثناء التنقيب فى مواقع الحصون لم يعثر الا على كمية قليلة جدا من الفخار النوبى داخل الحصون التى ترجع كلها تقريبا الى النوع المعروف بـ « كرما » والآتية من كوش • ولم يعثر الا على القليل جدا مما يرجع الى أواخر عصر المجموعة الثالثة من واوات • كل هذا يوحى بأن قواد الجيش فى الامبراطورية اعتبروا انه من الخطورة أن يستخدموا نوبيين فى المعسكرات الموجودة فى أراضيهم الأصلية وهذا شبيه بما كان فى عصر الدولة الوسطى •

ان ادارة جيش يغزو بلادا وعرة مثل بلاد النوبة لابد أنه كان صعبا جدا فالمواصلات بين المحطات العسكرية كانت وعرة ولابد أن المراسلين كانوا فرقا حيوية وقد كان يرافق الجيش الكتبة العسكريون الذين كانوا غالبا مدنيين ونقرأ عن ألقاب مثل « كاتب التجمع » و « كاتب التوزيع » ويبدو من هذه الألقاب أن عملهم كان متصلا بمكتب ضابط الامدادات والتموين •

ان مرور الجيوش فى النوبة السفلى فى طريقها الى ساحة القتال فى الجنوب الى جانب زيادة عدد المستعمرين المتصلين بالجيش والمحطات التجارية سرعان ما كان لها أثرها على اعتقادات وأسلوب عيش أهل المنطقة • لذلك فان كل ما تبقى من حضارة المجموعة الثالثة قد اختفى وهذا التغيير ملحوظ بالأخص فى دفن الموتى نجد الميت وقد وضع على



الشـكل ٣٦

نماذج لفخار الدولة الحديثة

١ و ٢ ــ فخار أحمر
٣ ــ آنية حمراء خشنة الصنع
٤ ــ آنية حمراء
٥ ــ آنية صفراء
٦ و ٧ و ٨ ــ آنية حمراء
٩ ــ آنية حمراء خشنة الصنع
١٠ ــ آنية حمراء ذات حافة حمراء
١١ ــ آنية حمراء
١٢ ــ آنية حمراء خشنة الصنع
١٣ ــ آنية صفراء

ظهره وأرجله ممتدة · وفى الدفنات الغنية كان يوضع فى تابوت خشبى· أما المقابر فكانت لها ثلاثة أشكال الاول حفرة عادية مستطيلة (شكل ٣٣) والثانية حفرة منحوتة فى الصخر تنتهى بحجرة الدفن (شكل ٣٤) وأخيرا حفرة مستطيلة لها كوة جانبية فى أحد الجوانب الطويلة للمقبرة (شكل ٣٥) · وفى معظم المقابر يبدو ان تجميع الأدوات الجنائزية اتبع طريقة معينة الى درجة اننا يمكن أن نعتبر انه فى عصر الدولة الحديثة نجد الى جانب الفخار أشياء أخرى موضوعة على الشكل التالى :

طبق من الفخار الأحمر عند الرأس

آنية واسعة حمراء

آنية صغيرة حمراء

أدوات زينة مثل المرايا البرونزية والامشاط الخشبية ·

الى جانب الذراع اليسرى ·

آنية للدهن من الفخار الملون

طبق من الفخار الأحمر ·

آنية كحل من الالبسترومرود

عند القدم ·

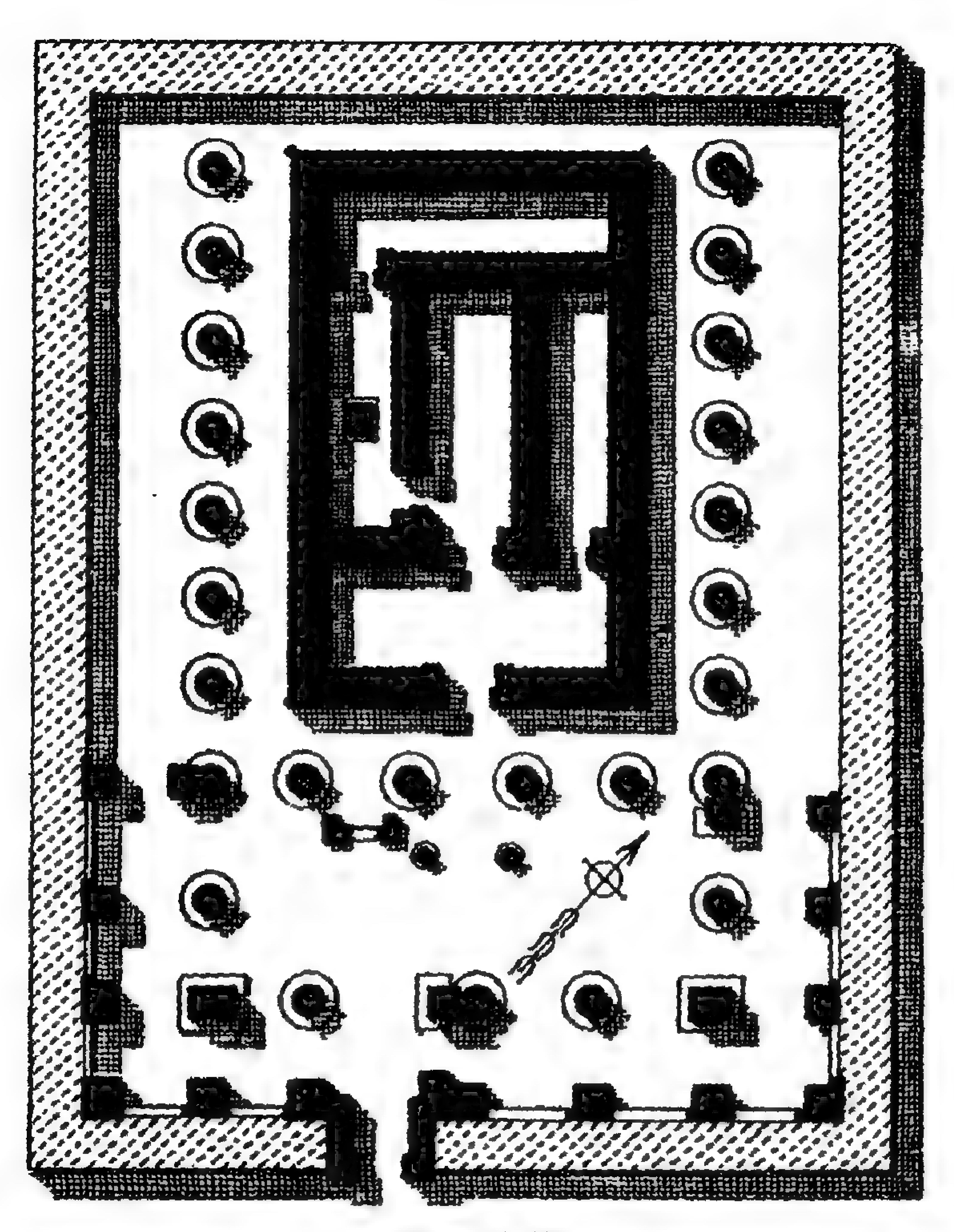
طبق من الفخار الأحمر ·

آنية واسعة حمراء

آنية صغيرة حمراء

أما بين الأرجل فكانت توضع تماثيل أوشابتى من النوع المصنوع من الفخار أو الطين او القاشانى (شكل ٣٦) ·

أما الحلى فتتكون من أقراط من البرونز والعقيق واليشب · خواتم من الذهب والبرونز ، جعارين وتمائم من العقيق والستيتيت والزجاج والصدف · أما الاسلحة فيعثر عليها مع الميت أحيانا ولكنها قليلة جدا خاصة فى النوبة السفلى (واوات) واذا وجد فتكون رءوس حراب برونزية ورءوس سهام ورءوس بلط وخناجر · وهذه الأشياء كلها من النوع الشعبى الا فى المقابر المنحوتة فى الصخر لأن اصحابها كانوا فى حالة أكثر رخاء والفكرة العامة التى تعطيها لنا هذه المقابر الموجودة بعيدا عن المحطات العسكرية هى ان النوبة ، بعد غزوها ، كان يسكنها جنس فقير يعتمد على الأشياء الرخيصة المستوردة من مصر وان ليس لديهم ثقافة شخصية ·



الشكل ٣٧

رسم تخطيطي لسقط

معبد «بوهن» في الدولة الحديثة

اما في ضواحي المستعمرات مثل ميعنم وبوهن فكان الحال يختلف وما عثر عليه في المقابر المنهوبه يشير الى أن أهل هذه المناطق اعتادوا مستوى عاليا في المعيشه ·

هكذا كان الحال في النوبة في أواخر حكم الفاتح العظيم تحوتمس الأول وليس غريبا أنه عند سماع نبأ موته في عام ١٥٠٥ ق·م اشتعلت الثورات في الجنوب وقام ابنه تحوتمس الثاني بحملة ضد كوش في السنة الاولى من حكمه وسجلت لوحه على الصخور بين اسوان وفيله ما يلي :

« جاء أحدهم ليبلغ جلالته بالاتي : ان كوش الحقيرة بدات تتـور هؤلاء الذين كانوا تحت امرة سيد الارضين يعتزمون العداء وبدءوا يضربونه ان سكان مصر (المستعمرين) يحضرون البقر وراء الحصن الذي بنـــاه والدك أثناء حملاته ، ملك مصر العليا والسفلى عاخبر كارع (تحوتمس الأول) الذى يعيش أبديا ، ليطرد البرابرة الثائرين النوبيين الذين في « خنت هن نوفر » لهؤلاء الذين هناك في كوش الحقيرة » ·

ان الاشارة الى شمال كوش يوحى بأن الثورة بدأت جنوبي الجندل الثاني وعلى ذلك اذن فمن الجائز أن تكون بوهن هي الحصن الذي استعمل كمأوى للمستوطنين المهددين لأن بوهن هي الحصن الكبير الوحيد في المنطقة والذي يمكن أن يؤوى عددا كبيرا من الناس ومعهم ماشيتهم · وعندما سمع تحوتمس الثاني الاخبار، بعث بقوة عسكرية كبيرة الى النوبة، ولكنه لم يذهب معها بنفسه ربما لصغر سنه فلوحة أسوان تواصل :

« ثم وصل جيش جلالته الى كوش الحقيرة ·· ان جيش جلالته قد قهر البرابرة ولم يترك أحدا من ذكورهم حيا وذلك حسب أوامر جلالته ماعدا أحد أبناء حاكم كوش الذى أسر حيا وأخذ مع قومه الى جلالته ووضعوا تحت أقدام الملك الطيب ، اذ أن جـلالته ظهر على عرشه عنـدما أحضروا الأسرى الأحياء الذين قبض عليهم جيش مصر · وأصبحت هذه الارض تابعة لجلالته كما كان الحال من قبل » ·

وهكذا انتهت هذه الحملة التأديبية وبعد أسر أمراء كوش ، أعيـد السـلام ودعم بقوة في الجنوب لعدة سنين مقبلة · ولقد عثر على اسم تحوتمس الثاني في برقل ودكة حيث يبدو انه شيد معبدا له كانت أساساته تحت معبد بني فيما بعد في عهد الملك المروى اركامن وبطليموس الثاني · ولقد ظهر اسمه أيضا مع اسم والده في سمنة حيث رسما وهما يقـدمان الهدايا للاله آمون · أما الملكة حاتشبسوت التى تلت تحوتمس

الثـــانى على العرش فى عام ١٥٠٤ ق٠م فلم تجد ضرورة لجهــود حربية فى النوبة لأن الاراضى الجنوبية بقيت في سلام خلال حكمها • ولقد بنت الملكة معبدا فى بوهن ومع أنه أصبح فى حالة يرثى لهـا الا انه لايزال يحتفظ بمعالمه المعمارية ومناظره الملونة التى يمكن اعتبارها من أجمـل ما عثر عليه فى النوبة • وأما شكله العام فهو يتبع النظام العادى للمعبد الصغير فى هذا العصر : ذى مقصورة مقفلة ومسقوفة تحوى قدس الأقداس وحجرات جانبية وافناء أمامية (شكل ٣٧) ذات الاعمدة • وهذا البناء له ممران على جانبيه ، ولكل جانب ممر ذو أعمدة مستديرة من الطراز المعروف باسم بروتودوريك وهذه الاعمدة احدى سمات معبد الديرالبحرى ومثلها أيضا كان موجودا فى الفناء المفتوح ويحيط المعبد كله جدار من اللبن له مدخل فى ناحيته الشرقية • وللأسف فان التناسق الذى كان يتصف به تصميم المعبد قد فقد بسبب الزيادات والاصلاحات التى قام بها زوج الملكة وخليفتها تحوتمس الثالث الذى عمل على ازالة خرطوشهـا من كل مكان وجد فيه • ان أسماء تحوتمس الأول والثـــانى تظهر على الرسوم ومن ثم فانه يبدو ان العمل قد بدأ فى المعبد قبل أن تعتـــلى حاتشبسوت العرش وعلى أية حال ــ فمما لا شك فيه ــ ان البناء الأساسى قد شيد فى عهدها •

ان الرسوم المهداة للاله المحلى « حورس » ، « سيد بوهن » كانت ذات طابع دينى تظهــر الملوك وهم يقدمون القرابين للاله وللمعبــودات الأخرى مثل آمون رع، ازيس، ساتيس، انوبيس ومنتو• ولقد شيدت حاتشبسوت أيضا معبدا للاله « حتحور » فى « فرس » • ولكن لم يبق منه الا أساسـاته وقطع مبعثرة من الحجارة •

بقيت الأمور هادئة طوال حــكم تحوتمس الثالث • ومع ان الملك توجه نحو الجنوب بحملة فى أواخر سنى حكمه فلا بد وانها لم تكن الا إستعراضا لقوته العسكرية اذ ان شهرة انتصاراته فى سوريا كانت كافية لردع أى فكرة ثورية فى كوش • أما واوات فقد أصبحت جزءا مكملا لمصر • ولقد حكم الحاكم نحى البلاد بحكمة وعقل واهتم بتوصيل الجزية النوبية الى مصر • وفى حوليات تحوتمس الثالث كانت جزية واوات وكوش كما يلى :

واوات :

السنة الحادية والثلاثون : اثنتان وتسعون بقرة وحصاد واحد ٠

السنة الثالثة والثلاثون : عشرون عبدا مائة وأربعة من البقر وحصاد واحد ٠

السنة الرابعة والثلاثون : مائتان وأربعة وخمسون دبنا من الذهب عشرة من العبيد وعدد غير معروف من الماشية ٠

السنة الخامسة والثلاثون : أربعة وثلاثون عبدا وأربعة وتسعون رأسا من الماشية وحصاد واحد ٠

السنة الثامنة والثـــلاثون : الفـــادبن وثمانية من الذهب وستة عشر عبدا وسبع وسبعون بقرة ٠

السنة التاسعة والثلاثون : تسع وثمانون بقرة وسن فيل وابنوس٠

السنة الحادية والأربعون : ثلاثة آلاف ومائة وأربعة وأربعون دبنا ثلاثة من الذهب ٠ مائة وأربع عشرة بقرة وكمية غير معروفة من سن الفيل ٠

السنة الثانية والأربعون : ألفان وثلاثمائة وأربعة وسبعون دبن ، واحد كدت من الذهب وحصاد واحد ٠

كوش ٠

السنة الرابعة والثلاثون : ثلاثمائة دبن من الذهب ، ستون عبدا زنجيا ، مائتان وخمس وسبعون بقرة ، عاج وابنوس ٠

السنة الخامسة والثلاثون : سـبعون دبنا وكدت واحد من الذهب عـدد غير معروف من العبيـد ، ماشية ، عاج ، ابنوس وحصاد واحد ٠

السنة الثامنة : مائة دبن ، وستة كدت من الذهب ، ستة وثلاثون عبدا زنجيا ثلاثمائة وستة من البقر ، عاج وابنوس ، وحصاد واحد ٠

السنة التاسعة والثلاثون : مائة وأربعة وأربعون دبنا وثلاثة كدت من الذهب مائة عبد زنجي واحد وعدد غير معروف من الماشية ٠

السنة الواحدة والاربعون : أربعة وتسعون دبنا واثنان كدت من الذهب ، واحد وعشرون عبدا زنجيا وعدد غير معروف من الماشية ٠

ومع ان الكمية كلها من الذهب وتبلغ أكثر من ثمانمائة واثنين وعشرين الف دبن - كانت ذات تأثير كبير لكثرتها فقد كانت الأشياء الأخرى ، قليلة جدا ، وربما كان هذا شاهدا على فقر البلاد بعد الحروب ومهما كان السبب فيد الفرعون لا تبدو ثقيلة • وأثناء حكم تحوتمس الثالث وصلت ادارة النوبة التى كانت فى يد الحاكم « نجى » الى أعلى المستويات ومن الواضح ان العمل فى مناجم الذهب وكذلك الطرق التجارية قد تمتعا بالأمان فلم تقلقها اغارات البدو • وكان من الطبيعى أن يتجه الملك فى سياسته البعيدة المدى الى تطهير قناة سنوسرت الثالث عند الجندل الأول وأن يأمر صيادى اليفنتين أن يطهروها كل سنة • ان آثار تحوتمس الثالث فى النوبة متعددة وربما يرجع ذلك الى احترامه لسلفه العظيم سنوسرت الثالث الذى أله كبطل غزا النوبة فقد أعاد بناء المعبد المتهدم فى حصن الدولة الوسطى الموجود فى « سمنه » بناه من الحجارة بعد أن كان مشيدا باللبن وكان المبنى الأصلى مخصصا للاله «خنوم» و«ددون» الاله الاعظم فى كوش • ولكن بعد اعادة بناء المعبد أضاف تحوتمس الى الالهين الموجودين فى قدس الاقداس سنوسرت الثالث ومن ثم أصبح المعبد مهدى للثالوث • وفى نقش على الجدار الغربى للمعبد من الخارج نرى تمثالا لسنوسرت الثالث فى مقصورة فوق مركب رملية وخلفها نرى تحوتمس الثالث يحتضنه الاله ددون • والنص الذى يتكلم فيه ددون يقول :

« ابنى المحبوب « من خبر رع » (تحوتمس الثالث) كم هو رائع هذا البناء الجميل الذى شيدته لابنى المحبوب ، ملك مصر العليا والسفلى « خع كاو رع » (سنوسرت الثالث) انك خلدت اسمه الى الأبد حتى يمكنك أن تعيش »

وتستكمل كلمات ددون على الجدار الآخر :

« انك جددت ولادته مرة ثانية على بناء للذكرى • انك قدمت له موائد قرابين متعددة من الفضة والذهب والبرونز والنحاس الاسيوى • ومكافأتك اذن هى حياة راضية مثل رع الى الأبد »

وخارج الجدار الغربى للمعبد نجد نص لوحة التقدمة :

« الاله الطيب « من خبر رع » (تحوتمس الثالث) لقد شيده كبنائه لوالده ددون المهيمن على النوبة والملك مصر العليا والسفلى « خع كاو رع » (سنوسرت الثالث) مشيدا لهما معبدا من الحجر النوبى الأبيض

الفخم مع ان جلالته وجده اطلالا من اللبن • وكابن يحقق ما يتمناه والده الذى ترك له التطرين ورباه ليكون حورس سيد هذه الارض • قررت فى قلبى المقدس انتى يجب أن أشيد هذا المبنى ، وان أجعله عظيما كما أعطى وان أديم بيته الى الأبد لأنه أصبح أعظم من أى اله • انه أعطانى الحياة وكل الاستقرار والرضا مثل رع ، الى الأبد » •

ومع ان تأليه سنوسرت حدث فى عصر يسبق عصر تحوتمس الثالث الا أنه يبدو ان تخصيص المعبد المجدد فى سمنه كان أول اعتراف بهذا التأليه • ولقد شيدت ابنية أخرى لتحوتمس الثالث فى النوبة العليا (كوش) اذ شيدت معابد وحصون فى « قمة » «وأوروناريتى » أيضا وبعض أجزاء أساسات معبد صولب العظيم الى جانب سمنه غالبا • ومن الجائز أيضا أنه بنى معبدا على جزيرة « ساى » التى اختفت منذ زمن بعيد ، كما أن هناك لوحة فى برقل تسجل ان حدوده الجنوبية وصلت حتى « قرون الأرض » وهى منطقة جنوبى الجندل الرابع لازلنا نجهل مكانها •

أما فى كلابشة فى النوبة السفلى (واوات) فلقد كان يشاهد تمثال «لتحوتمس الثالث» بالقرب من المرسى المؤدى الى معبد «أغسطس»موحيا بأن الفرعون له جزء من المعبد المشيد قديما . كما انه من الجائز انه شيد معبداً فى «قورطا» ، أو انه حتى منتصف القرن الماضى كانت هناك بوابة نقش عليها اسمه • أما فى « عمدا » فقد بدأ العمل فى معبد الاله « رع حر ماخيس » الذى انهاه ابنه امنحتب الثانى • كما انه نحت فى الصخر معبداً فى « الليسيه » خصصه لعبادة « حورس » و « ددو » و « سنوسرت الثالث » • ونقشت لوحة من السنة الخمسين تظهره أمام حورس « ميعام » والالهة « ساتيس » • وفى قصر ابريم أربع مقصورات منحوتة فى الصخر ترجع اثنتان منها الى عصر تحوتمس الا انهما كانتا أصلا من عهد آخر فالاولى كانت للحاكم نحى والثانية غالبا من أعمال حاتشبسوت • ولقد عثر فى « فرس » على قطع حجرية لمعبد بناه هناك • كما انه مسئول عن الترميمات التى حدثت فى معبد حصن بوهن من عصر الملكةحاتشبسوت ولقد سجل الحاكم نحى انتصار تحوتمس الثالث على لوحة كبيرة ما زالت واقفة فى فناء المعبد •

أما عصر « امنحتب الثانى » الذى خلف أباه فى عام ١٤٥٠ ق٠م فكان عصر سلام فى الجنوب ومن ثم اتجه الملك نحو آسيا وأولاها كل اهتمامه ، وأتم بناء معبد « عمدا » الذى بدأه والده وسجل عودته منتصرا من حملاته

فى آسيا وتضحية السلبيعة الأمراء الأسرى على لوحة • وأنه شنق ستـــة منهم على أسوار طيبة • أما الأمير السابع فتقرأ عنه فى اللوحة :

« ثم المقلوب الآخر أخذ الى نباتا وعلق على أسوارها لاعلان انتصارات جلالته الى أبد الآبدين فى كل الأراضى وكل بلاد الزنوج » •

لقد أكمل «أمنحتب الثانى» عملية البناء الضخمة التى بدأها أسلافه فى النوبة ويبدو انهأكمل بناء المعبد الاول فى كلابشة • أما المقصورة الرابعة فى قصر ابريم فان أمنحتب الثانى هو الذى نحتها الا أن البعض يرون أن بانيها هو الحاكم « أوسرساتت » الذى خلف نحى المشبهور • ولقد أكمل أمنحتب الثانى أيضا المعبد المشيد من اللبن الذى بناه أحمس الأول خارج الجدار الشمالى عند اطلال قلعة بوهن • وعثر على تمثالين راكعين لأمنحتب فى واد بالنجمه على بعد سبعين ميلا شمالى الخرطوم ويســتبعد أن يكون هذا هو مكانهما الأصلى •

ليس هناك أى دليل على نشوب حرب فى الجنوب حتى الســـــنة الثامنة من حكم «تحوتمس» الرابع الذى خلف «امنحتب الثانى» فى عام ١٤٢٣ ق٠م وحسب نص منقوش على صخور جزيرة كونسو عند الجندل الأول وصلت أنباء ثورة فى واوات حركتها اغارة من كوش • ولا يبـدو ان الخطر كان كبيرا لأن تنقل الجيش المصرى نحو الجنوب كان بطيئا متمهلا فقد كان الملك يقف فى كل معبد كبير يصادفه لتباركه الالهة وانتهى الأمر باخماد الثـورة ورجوع الملك الى عاصمته مصطحبا عـــددا من الأسرى وضعوا فى معتقل عند معبده الجنائزى فى طيبة ولقد عثر على لوحة فى سور المعبد تقول :

« فرقة كوش الحقيرة التى أحضرها جلالته بعد انتصاراته » •

وكل ما نعرفه حتى الآن عن نشاط تحوتمس الرابع المعمارى فى النوبة هو بناء صالة أعمدة أمام الأبنية الأساسية لمعبد عمدا • ومات الملك فى عام ١٤١٠ ق٠م• وخلفه ابنه امنحتب الثالث الذى قام بحملة ضـــد القبيلة الزنجية فى أقصى الجنوب وكان هذا فى السنة الخامسة من حكمه وتوضح غزواته مدى حدود السيطرة المصرية فى السودان • اذ أن حملته كانت تبدو كأنها حملة تأديبية أكثر منها حملة حربيةوكلف الحاكم «مرموزه» بتجنيد فرقة نوبية من مناطق بين باكى (كوبان) وميعام (عنيبه) ولم تتأثر واوات بهذه الظروف الا فى أنها كانت توفر الرجال للتجنيد • ولقد سجلت هذه الحملة على لوحة فى سمنه تتضمن قائمة للاسرى والذين



الشكل ٣٨

منظر من مقبرة الوزير « حوى » في طيبة

قتلوا ويدل العدد الضئيل المشار اليه على مدى الأهمية القليلة لهذه الحملة :

زنوج احياء	١٥٠	راس
حاملى أقواس	١١٠	راس
زنجيات	٢٥٠	راس
خدم الزنوج	٥٥	راس
أطفالهم	١٧٥	رأس
	الجملة ٧٤٠ راسا حية	
أيدى (قتلى)	٣١٢	
	١٫٠٥٢ مجموع القتلى والاسرى •	

وبينما كانت جهود امنحتب الثالث الحربية في النوبة موضع فخر الا ان البلاد كانت بائسة تحت رحمته وكان نشاطه المعمارى فى هذه المنطقة من امبراطوريته يد... التقدير • فلقد شيد فى صولب أجمل معبد فى الجنوب بناه من الحجر الرملى على أساسات غير متقنة ومع ذلك فما زالت بقايا هذا المعبد مثيرة للانتباه رغم حالته المتهدمة ولابد انه كان عند بنائه يضارع معابد الاقصر العظيمة ولا تعجب اذا كان التصميم يرجع الى المهندس نفسه • كان الطريق الموصل الى المعبد يحده من جانبيه تماثيل جرانيتيه لكباش وأسدين يعتبران من الكنوز الفنية فى المتحف البريطانى ولقد عثر على هذه التماثيل فى برقل حيث نقلت عندما حكم الملوك الكوشيون مصر والنوبة فى الأسرة (٦٥٦ ــ ٧٥١ ق•م) •

ولقد شيد أمنحتب الثالث معبدا لزوجته « تى » فى « سدنجا » شمالى صولب بنحو ثلاثة عشر ميلا ولم يبق منه الا عمود واحد •

لم تؤثر ثورة أمنحتب الرابع الدينية على النوبة كما لم تبدد الاضطرابات السياسية الهدوء الذى ساد مصر • ومن الأدلة على قوة قبضة المصريين فى الجنوب ان الحكام الكوشيين لم يحاولوا أن يستفيدوا من الظلام الدامس الذى خيم على حكومة الامبراطورية فى هذا العصر وقد شيد امنحتب الرابع فى « سسبى » خلال سنواته الأولى قبل أن يغير اسمه الى اخناتون ، مجموعة من ثلاثة معابد ذات أساس واحد كونت نواة مدينة صغيرة مسورة ومقصورة مخصصة للاله الجديد آتون • وربما كان اخناتون هو الذى أسس مدينة جماتون فى « كاوا » أمام دنقلة وليس غريبا أن يكون هذا

الفرعون قد أنشأ تلك المستعمرة في وقت متأخر من حكمه اذ لم يعثر على أي بناء قبل عصر « توت عنخ آمون » الذى بنى معبدا صغيرا هناك ٠

وأثناء فترة الحكم القصيرة لخليفة اختاتون « سمنخ كارع » بقى الحال هادئا في النوبة تحت اشراف الحاكم تحوتمس واستمر الحال على هذا المنوال تحت حكم توت عنخ آمون أيضا الذى أصبح ملكا سنة ١٣٦٢ق٠م وكان « حوى » حاكم النوبة حينئذ قد بنى مقبرة فى طيبة تعتبر نقوش جدرانها مهمة جدا لأنها تصور مراسيم تقليده حاكما كما تصور جزية الجنوب بالتفصيل ٠ ونعرف من هذه المناظر والنصوص التى تصاحبها حدود المنطقة التى كانت تحت اشراف الحاكم ٠ ويمكننا أن نقدر المسئوليات الواسعة لحامل هذه الوظيفة ونفوذه ، هذا النفوذ الذى سيكون له أثر فعال فيما بعد مع خلفاء حوى ٠ ان مراسيم تقليد المنصوب تظهر حوى فى مصاحبة رجال البلاط أمام توت عنخ آمون الجالس على العرش ويقف أمامه موظف يعرف برئيس البيت الابيض ٠ ويوجه الكلام لحوى قائلا : « هذا هو ختم فرعون ، (الحياة ، الرخاء ، الصحة) الذى أعطى لك المنطقة من نخن الى نباتا » ٠

ان المسافة بحرا من نخن ، الكاب الحالية ، شمال الجندل الأول ، الى نباتا فى منطقة دنقلة فى السودان أكثر من ثمانمائة ميل ٠ وأعطى حوى خاتم الوظيفة الذى يلقب « ابن الملك حاكم كوش » ٠ ثم هناك منظر آخر يصور حوى فى احتفال مع عائلته وموظفين ــ والنص الذى يعلو المنظر يقول : « الآتى ، مكرم ، من البلاد بعد أن نصب أمام الاله الطيب ليكون ابن ملك وحاكم البلاد الجنوبية ، حوى » ٠

اما فى مناظر الجزية فهناك لمحة غريبة وهى ظهور حاكمين احدهما حوى والآخر أخوه « أمنحتب » الذى يدعى أيضا ابن الملك حاكم كوش وليس غريبا أن يكون للحاكم نائب ولكن الغريب أن يلقب النائب « ابن الملك » أيضا ٠ ويمكننا أن نستخلص من هذا ان الاراضى الجنوبية كانت واسعة جدا لدرجة انها احتاجت لحاكمين أحدهما لواوات والآخر لكوش ٠

وفى المنظر الأول لتقدمة الجزية نرى الملك جالسا على العرش والجزية أمامه مكونة من سبائك ذهبية وفضية وأوان من الذهب والفضة ، وعربة ودروع وأثاث ٠ أما المنظر الثانى فيصور الحاكم وهو يستقبل ثلاثة

صفوف من النوبيين وصفا من المصريين (١) ومن الطريف ان نلاحظ ان الرؤساء النوبيين يرتدون الرداء المصرى مع اننا نراهم فى المناظر المماثلة فى مقبرة الوزير « رخميرع » من عصر تحوتمس الثالث ، يرتدون لباسهم الوطنى ٠ وفى هذا دليل على أن تمصير الجنوب تقدم كثيرا فى مدى مائة سنة ومن بين التقدمة التى أحضرها الرؤساء النوبيون ابقار متعـــددة الألوان ووراء كل هذه المناظر ست سفن كتب فوقها : « الوصول من كوش حاملين هذه الجزية الطيبة من أحسن وأنقى ما فى البلاد الجنوبية ٠ رسو ابن الملك حاكم كوش حوى عند مدينة الجنوب (طيبة) » والمنظر الأخير لمجموعة من مناظر الجزية يصور حوى ينتظر متكئا على عصاه تصاحبه عائلته ليستقل مركبا متبسطة الشراع مهيأة للرحيل الى النوبة ٠ وهناك سفينة أخرى ليست معدة للرحيل وضعت عربته وجياده فوقها ومن الواضح ان أعماله الرسمية فى العاصمة انتهت فقد كان الحاكم يتأهب للرحيـــل جنوبا ٠

ولقد استمرت عمليات البناء فى النوبة تحت اشراف حوى فشيد لسيده مدينة صغيرة مسورة ومعبدا فى فرس سماه « سحتب — انتر » « مصالحة الآلهة » وواضح انه كان يحيى ذكرى صلح توت عنخ آمون مع الديانة القديمة وانتهاء الآتونية ٠

والى الجنوب من أبو سمبل على بعد بضعة أميال فى « عـــدة » نجـــد مقصورة « باسر » الصخرية حاكم خليفة توت عنخ آمون ، آى ، الذى كان آخر ملك فى ١٥سرة ، وعلى جدرانها نرى منظرا للملك ربما يكون اى يتعبد أمام آمون ورع وبتاح ومنتو وساتيس ٠

---

(١) بالصف الاعلى يصور ثلاثة أمراء نوبيين ، اثنين راكبين وثالثا منبطحا ٠ ولم يكتب الا اسم واحد من هؤلاء الرجل وهو « حكانفر » امير « ميعام » الذى عثر على مقبرته فى « توشكا » وقامت بالتنقيب سلفينيار بيل ٠ (انظر ص ٩٣) والمجموعة تضم أميرتين نوبيتين احداهما تركب عربة يجرها ثور (شكل ٣٨) ٠

الفصل السادس

الأسرة التاسعة عشرة

ان كان قد حدث أى ضعف فى النوبة فلا شك انه كان نتيجة لسوء النظام الذى ساد فترة حكم الملوك الأربعة السابقين فلقد أعاد «حور محب» الامور الى مجاريها بسرعة وكان قد اعتلى العرش فى عام ١٣٤٩ ق.م. ومع ذلك فالتقهقر كان قد بدأ ولم تعد مصر تقبض على البلاد بسهولة كما كانت فى عصر امنحتب الثالث . ويبدو ان حور محب زار النوبة مرتين، مرة عندما كان قائدا للجيش قبل أن يغتصب العرش ومرة ثانية بعد ان أصبح فرعونا ومع ان هذه الحملة سجلت على جدران مقصورة فى «سلسلة» الا أن هذه الحملة لم تكن أكثر من تقدم ملكى لينال المغتصب رضاء شعبه فى الجنوب . ولم يعرف أحد أفضل منه القيمة السياسية للمحاربين الكوشيين فهم يجندون بأعداد ضخمة فى الجيش المصرى والاحتفاظ بولائهم غاية فى الاهمية له . وبقى باسر ، الذى كان يحكم منذ العصر السابق ، فى منصبه مع حور محب ولذلك فاننا نعتقد ان الفرعون الجديد قد تأكد من ولاء الادارة المصرية فى النوبة .

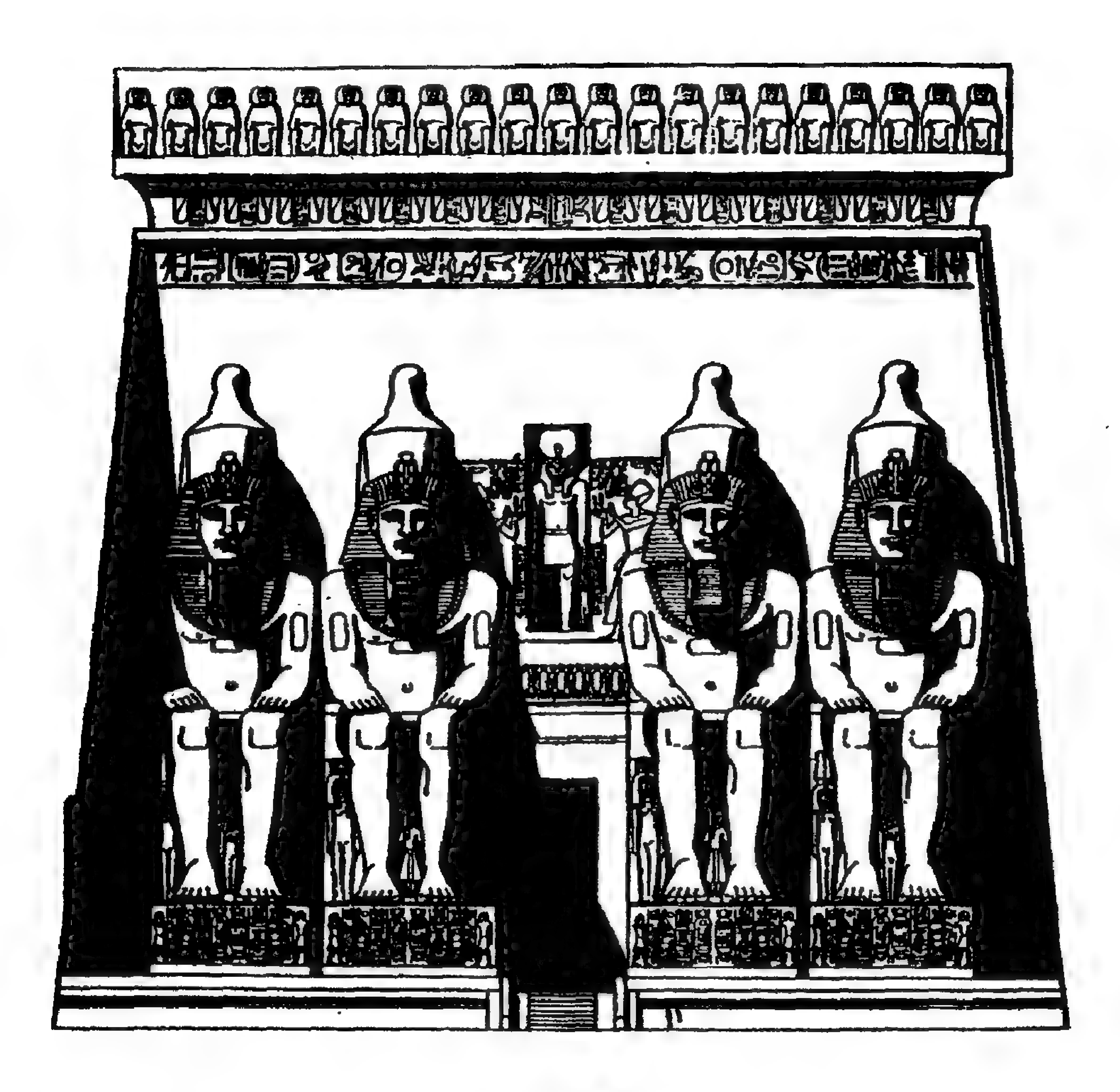
وأثناء الحكم القصير لرمسيس الاول الذى خلف حور محب ، لم تسجل أية حروب فى النوبة ، وقد سجل ماعرف من جهوده هناك على لوحة

عثر عليها شمبليون فى معبد حاتشبسوت فى بوهن • وتسجل اللوحة هباته للمعبد وتتكون من زيادات فى عدد الكهنة وعبيد المعبد اناثا وذكورا قد تأكد من ولاء الادارة المصرية فى النوبة •

أما الملك التالى سيتى الأول ، الذى اعتلى العرش فى عام ١٣١٣ق•م فلقد وجه عنايته الى العمل فى مناجم الذهب النوبية • وكان الانتاج فى وادى علاقى قليلا بسبب عدم وجود الماء • وليزيد هذا الانتاج حفر بئرا فى المنطقة لم تصل الى مستوى الماء • ولكن خليفته رمسيس الثانى هو الذى جنى ثمار تلك الجهود • ولقد وصفت هذه اللوحة المشهورة فى كوبان ، ولقد شيد سيتى الأول مدينة فى عمره وكبرت هذه المدينة حتى أصبحت مركز الحكومة فى كوش ومقر نائب الحاكم • ليس لدينا دليل مادى عن جهوده الحربية غير انه ربما قام بحملات تأديبية غير ذات قيمة لانها لم تسجل ضمن مناظر حروبه على الجدار الشمالى الخارجى لصالة أعمدة معبد الكرنك فى طيبة • ويرى البعض انه هو الذى بدأ فى نحت أعظم بناء فى مصرالفرعونية الا وهو معبد أبو سمبل والدليل على ذلك جزء داخلى لأحد الأبواب نقش عليه نص مؤرخ من السنة الأولى من حكم خليفته رمسيس الثانى ويظهر ان جزءا كبيرا من الداخل كان قد تم نحته عندما كتب النص • وهناك مناظر لجهود حربية كثيرة فى النوبة فى عصر رمسيس الثانى ولكن لم تسجل عليها التواريخ أو المناطق التى نشبت فيها هذه الحروب الى درجة ان الاحساس العام هو أن هذه الحملات خيالية • اذ يبدو انه كان من المهم لفرعون أن يكون له انتصارات فى النوبة لتوازن انتصاراته فى آسيا • ولا شك ان حملات تأديبية على الحدود الجنوبية للامبراطورية كانت مهمة من حين الى آخر ولكن السكون والسلام قد سادا الاراضى الجنوبية عامة والدليل على ذلك هو النشاط المعمارى الواسع الذى كان لا يمكن أن يوجد لو ان بلاد النوبة كانت فى حرب مستمرة •

واتجه اهتمام رمسيس فى السنة الثالثة من حكمه الى تنمية مناجم الذهب وخاصة مناجم « آكيتا » التى تشبه مناجم وادى علاقى • وحسب النص الذى عثر عليه فى كوبان التى تقع على الطريق المؤدى لهذه المناجم كان الملك فى منف عندما :

« جلس جلالته على عرش كبير من الالكتروم مرتديا التاج ذا الريشتين يعد البلاد التى تعطيه الذهب ويدبر الخطط لحفر الآبار فى الطرق الخالية من الماء بعد ان سمع أن الذهب كثير فى بلاد اكيتا بينما الطريق هناك وعر لا ماء فيه • واذا ذهبت بعض القوافل لغسل الذهب فان نصفهم هــو



الشكل ٣٩

محاولة تصميم فكرة المهندس المصرى القديم فى واجهة المعبد الكبير فى « أبى سمبل »

الذى يصل فحسب ، لأنهم يموتون من العطش فى الطريق هم ودوابهم التى توصلهم • والمياه التى يحملونها فى القرب لا تكفيهم للذهاب والاياب ، ومن ثم لم تكن هناك حصيلة ذهب من هذه البلاد ، بسبب عدم وجود الماء » •

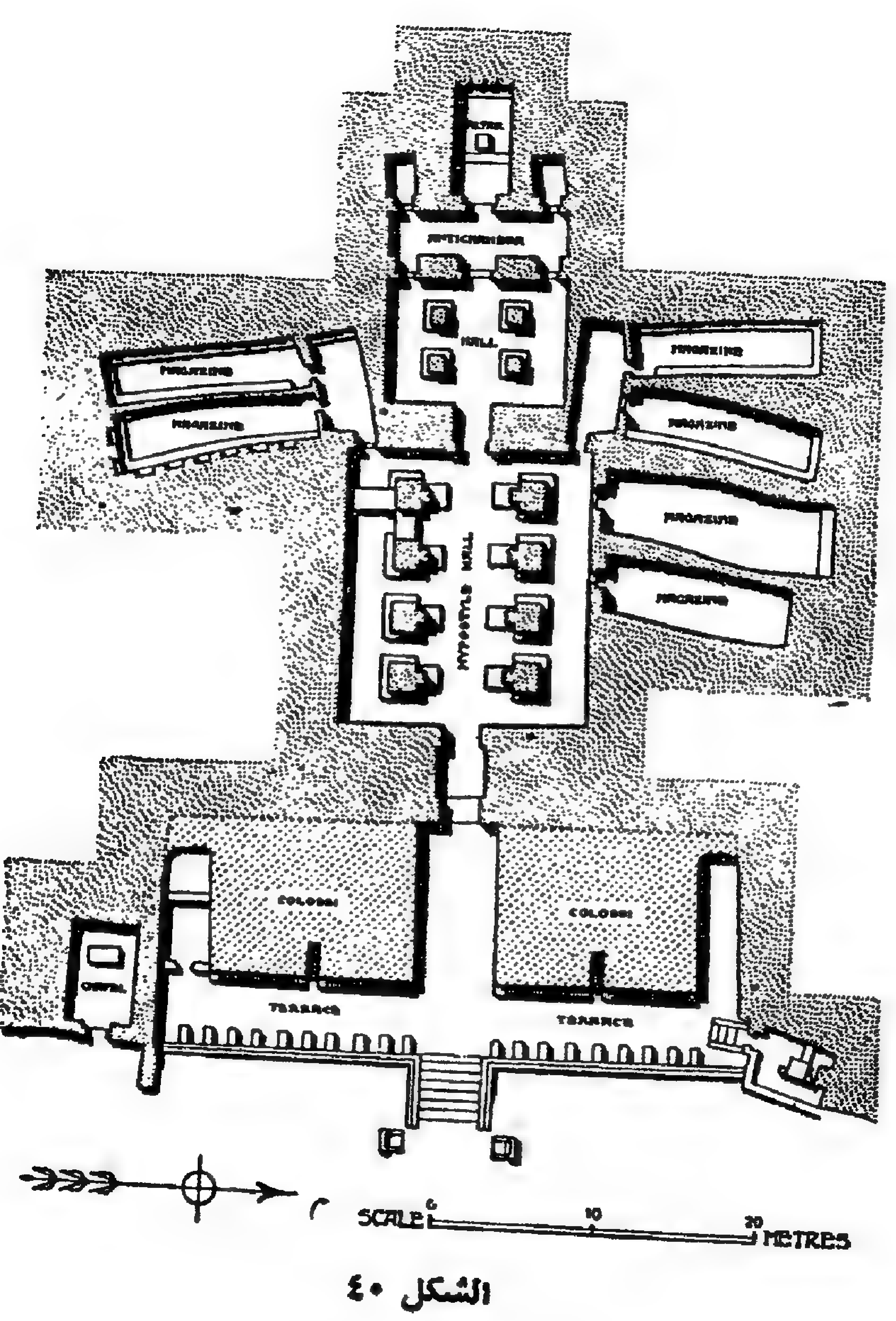
وعندما استدعى الملك بلاطه للتشاور قال له حاكم كوش :

« أما عن بلاد اكيتا فلقد كانت تنقصها المياه منذ أيام الاله ، انهم يموتون عطشا وكل ملك سابق أراد أن يحفر الآبار هناك ولكنه لم يفلح • ولقد عمل بالمثل الملك « من مارع » (سيتى الأول) وأمر بحفر بئر عمقها ١٢٠ كوبيت هذه المرة • انها مهجورة على الطريق لأنها لم تجلب ماء • »

أمر رمسيس بعد ذلك أن يعيدوا المحاولة فى بئر والده وبلغه ، فيما بعد ، عن طريق خطاب من الحاكم أن المحاولة كانت ناجحة • ولقد ضاعت معالم هذه البئر ومن الطريف أن نتصور ان اعادة كشفه يضمن اعادة فتح مناجم وادى علاقى • فمن المعروف انها كانت لا تزال منتجة ولكنها غير اقتصادية لعدم وجود الماء •

كانت جهود رمسيس الثانى المعمارية فى النوبة واسعة مثل ما كانت فى مصر فقد شيد الى جانب تحفته فى أبو سمبل معابد فى بيت الوالى وجرف حسين ووادى السبوع وعكشا والدر فى النوبة السفلى (واوات) وفى عمرة فى النوبة العليا (كوش) ومن الجائز أن تكون هناك عمائر أخرى فى النوبة العليا لم يكشف عنها بعد لأن هناك مناطق واسعة لم ينقب فيها رجال الآثار •

ان معبد أبو سمبل ، أكبر معبد منحوت فى الصخر فى العالم ، ويعتبر آية فى العمارة والهندسة القديمة • (شكل ٣٩) فقد نحت فى قطعة صخرية على الضفة الغربية للنيل أمام القرية الحديثة « فارك » فى موضع غاية فى الجمال ولكن لم يكن هذا هو السبب الوحيد فى اختيار المكان فهناك أدلة على أن التلال كانت لها أهميتها وقدسيتها قبل بناء المعبدين • ان فارك على الضفة الشرقية من النهر تقع فى منطقة واسعة من الاراضى المزروعة وليس هناك من سبب يجعلنا نعتقد ان الأرض كانت على حال آخر فى العصور القديمة عندما كان موقع المدينة (مواجها للمعبد) وبالقرب من المعبدين كانت هناك مدينة صغيرة تعرف « بابشك » ، لذلك يمكننا أن نستخلص ان المعبدين كانا يقعان فى منطقة سكنية فى عصر رمسيس الثانى • وعلى أية حال فمن الصعب ان نتصور لماذا توجد مثل



الشكل ٤٠

معبد « ابو سمبل » الكبير

هذه العمائر الضخمة فى منطقة بعيدة فى البلاد ، ولذلك تعليلان : إما ان يكون تل أبو سمبل له قدسية ما ، أو أن الفرعون أراد أن يبهـــر جيرانه فى منطقة قريبة من الجندل الثانى فيريهم قوته وثراءه • واذا كان هذا هو السبب فانا واثق انه نجح فى ذلك • ولقد اختلفت آراء الفنانين والمهندسين والأثريين فى قيمة المعبد ككنز فنى اذ وصفه أحد رجال الآثار المعروفين « بالمارد البغيض » ولكن ، آخرين ، خاصة الذين رأوه عدة مرات ، اعجبوا به واعتبر كثيرون واجهته الكبرى احدى مظاهر قـــوة وعظمة مصر القديمة (شكل ٣٩) •

وكما ذكرنا من قبل ، فهناك أدلة على أن أصل الفكرة فى تشييد معبد فى أبى سمبل كانت لسيتى الاول ولا شك ان جزءا كبيرا من الداخل كان قد نحت قبل أن يعتلى رمسيس العرش سنة ١٣٠١ ق٠م ولكن الى أى مدى كان سيتى مسئولا عن الشكل الاخير وخاصة الواجهة هذا مالا نعرفه • وكالعادة لا يرجع رمسيس أى فضل لمن سبقوه • وعلى أية حال فلابد انه عندما تكفل به ، كان العمل متقدما وجرت العادة فى العمـائر المنحوتة فى الصخر أن تنتهى من الواجهة قبل أن ينحت الداخل وعلى ذلك فمن الجائز ان التماثيل الضخمة الأربعة التى تعتبر أهم ميزة فى البنـاء كانت لسلف رمسيس • وعلى أية حال فان الفخر كله يرجع اليه لانشائه هذا البناء العظيم وخاصة أنه فى منتصف عملية البناء نراه يصدر أوامر لموظف يدعى « رمسيس اساهاب » لبناء المعبد • ونقرأ فى جزء من هــذه اللوحة ما يلى :

« أنظر ، اننا جلالته (له الحياة ، الرخاء ، الصحة) فهو متيقظ ليجد كل فرصة سانحة ليقوم بأعمال جليلة لوالده حورس سيد « هى » (إسم لمنطقة مجاورة لأبى سمبل) مشيدا له بيتا سيظل عشرة آلاف سنة بعد نحته فى جبل « هى » الذى لم يفعله أحد من قبل الا ابن رع آمون سيد •• ان قوته فى كل البلاد • تأتى له بعد عدد كبير من العمال بقوة السيف فى عديد من البلاد •

ان القول بأن أحدا لم ينحت الجبل الا ابن امون سيد •• ربما يرجع الى سيتى ولكن للأسف ان آخر الجملة ممحو فلا يمكننا أن نتأكد من هذه النقطة وعلى أية حال فان لها معنى مع انها تعد غريبة إذا كانت ترجع الى والده سيتى •

وحسب النص قام أسرى الحرب ببناء المعبد وأنهوا عملهم قبل سنة ١٢٥٩ ق٠م وكرس هذا المعبد لعبادة « رع حر ما خيس » مثل معابد عديدة

فى النـوبة • وهـذا الاله قد اندمج مع الشـمس ويصـور عـادة على هيئـة بشرية وراس صـقر مرتديا قـرص الشـمس • والغـرض من المعبد ومكانه هو عبادة الشمس فى الفجر وكانت تدخل الشمس قدس الأقداس فتضىء الداخل فى أوقات معينة من السنة فى الفجر • ولا يزال كمـا كان الحال قديما ، تجـربة لا ينساها الزائر حينمـا يقف فى البهـو الأمامى فى الفجر ويراقب أشعة الشمس وهى تكشف تدريجيا عن روعة هذه التحفة المعمارية ، وأخيرا تدخل الى قدس أقداس احدى العقائد القديمة ويقدر روعة هـذا المنظر اليـوم فلا بد وانه ليس الا ظلا لمـا كان قديما عنـدما كانت تلك النقـوش على جدران ملونة بالألوان البراقة التى كان الفنان المصرى القديم موفقا فى اختيارها •

أما أهم ملامح واجهة المعبد فهى التماثيل الأربعة الضـخمة للملك التى نحتت فى صخر التل • وهذه التماثيل الجالسة ، اثنان على كل جانب من جوانب المدخل ترتفع أكثر من ٦٥ قدما وتمثل الملك رمسيس مرتديا التاج المزدوج لمصر ، وعلى جانبى كل تمثال وبين الارجل نجد تماثيـل للملكة نفرتارى وبعض الأطفال الملكيين ومع أنهم مثلوا بحجم كبير الا ان شكلهم يبدو صغيرا بالنسبة للتماثيل الضخمة • وكل من المجموعات الاربعة تقف على قاعدة عالية نقش عليها خرطوش رمسيس ومجموعـة من الاسرى الاسيويين والزنوج • أما العروش التى على شـكل صندوق والتى تجلس عليها التماثيل فقد نقشت بالمجموعات التقليدية التى تمثل اتحـاد الأرضين والواجهـة التى تكون المنظر الخلفى للتماثيل الاربعة فقـد نحتت على شـكل صرح ذى كورنيش نقش عليه صف من القرود مرفوعة الأذرع الى أعلى على هيئة تعبد لشروق الشمس • وفوق المـدخل نجد تمثالا لاله الشمس «رع حور ماخيس» له راس الصقر الذى خصص له المعبد •

ويوصل المدخل الى بهو كبير به صفان من أربعة أعمدة مربعة تتكىء عليها تمـاثيل ضخمة للملك واقفا مرتديا التاج المزدوج وحاملا العصا والمذبة ولقد كسيت الأعمدة وجدران البهو الذى يصل ارتفاعه الى ٣٠ قدما بمناظر ونصوص دينية وأعمال الملك الحربية فى نضاله ضد الحيثيين فى سوريا والكوشيين فى السودان أما السقف فزين بمناظر تقليدية وهى الخرطوش والعقاب ذى الجناحين الممدودين •

ونجد فى الجدارين الشمالى والغربى مداخل تؤدى الى مجموعة من الحجرات كانت تستعمل غالبا كمخازن للكهنة فمناظر الجدران كلهـا دينية •

أما الباب الأوسط فى الجدار الغربى فيوصل الى بهو صغير تحمل سقفه أربعة أعمدة مربعة والمناظر كلها فى هذا البهو ذات طابع دينى • وتصل بعد ذلك الى غرفة صغيرة توصل الى قدس الاقداس الذى يحوى ثلاثة أبواب فى الجدار الغربى اثنان على جانبى الدار توصلان الى حجرات غير منقوشة واما الوسطى والتى تستند الى محور المعبد المستقيم فتوصل الى قدس الاقداس • وفى الجدار الغربى لقدس الاقداس نجد أربعة تماثيل جالسة نحتت فى الصخر ، وهى تماثيل معبودات المعبد : بتاح ، امون ، رمسيس نفسه ورع حارماخيس وفى وسط الحجرة نجد أمامهم مائدة قرابين غير منقوشة وكانت الضحايا والقرابين تقدم عليها عندما كان نور الشمس المشرقة يدخل فى الفجر ولقد هشم المسيحيون غالبا وجوه تماثيل الآلهة الاربعة • ومع ذلك ففى ضوء الفجر الخافت لا زالت هذه التماثيل تبدو رائعة لمن ينظر اليها ولقد كتب « ارثر ويجال » منذ أكثر من خمسين سنة : « لا يشعر الانسان فى أى وقت آخر وفى أى مكان آخر من مصر بقيمة روح المصرى القديم فى العبادة •

وعلى مسافة قريبة ، شمال المعبد الكبير ، نحت رمسيس معبدا صخريا صغيرا لملكته نفرتاى خصصته لعبادة الالهة حاتحور ومع أن عظمة المعبد الكبير قد حجبت هذا المعبد الا انه يجب وصف مبنى الملكة كأحد العمائر ذات الجمال الرائع فى هذا العصر فى النوبة • ويوجد فى هذا المعبد نصان أحدهما فى الصالة الأساسية والآخر على الواجهة • ونقرأ فى الأول :

« شيده رمسيس كأثر لزوجة الملك الكبرى نفرتارى ، محبوبة موت ـ منزلا منحوتا فى جبل النوبة النقى من الحجر الرملى الأبيض كعمل أبدى » •

أما النص الثانى فجاء فيه •

« رمسيس مرى آمون ، محبوب امون ، مثل رع الى الأبد ، شيد منزلا من أبنية ضخمة لزوجة الملك الكبرى نفرتارى ذات الوجه الجميل • ان جلالته أمر بأن يبنى بيت فى النوبة منحوت فى الجبل • ولم يصنع مثله أبدا من قبل » •

ان العبارة الأخيرة « لم يصنع مثله من قبل أبدا » يجب أن تؤخذ كتصريح تقليدى بأن المعبد الصغير لم يشيد بالطبع قبل معبد رع حر ماخيس الذى ، كما قلنا من قبل بدأ فى بنائه سيتى الأول غالبا •

كنا نود أن نعرف ان كان التصميم المعمارى للمعبدين من عمل

المهندس نفسه لأن النحت والمناظر تبدو كأنها من عمل الفنان نفسه . ان الواجهة على شكل بيلون طولها ٦٠ قدم وعرضها ٤٠ قدما وكانت تنتهى أصلا على شكل الكورنيش وعلى كل جانب من جانبى المدخل المؤدى الى الداخل تجد ثلاث مشكاوات تقف فيها تماثيل ضخمة يصل ارتفاعها الى ٣٣ قدما وهى للملك والملكة فى مجاميع كالآتى: على الجانب الشمالى للمدخل نجد رمسيس مرتديا التاج المزدوج ثم نفرتارى مرتدية قرص الشمس والقرون وريش ازيس ثم رمسيس مرتديا التاج «اتف» . أما فى الجانب الجنوبى فنجد رمسيس مرتديا التاج الابيض ثم نفرتارى مرة أخرى مرتدية تاج ازيس ثم رمسيس مرتديا التاج الأبيض . والى جانب كل تمثال نجد تمثالين صغيرين يمثلان طفلين ملكيين : أبناء أو أقرباء الملك من الأمراء وبنات أو قريبات الملكة من الاميرات . أما المدخل فيوصل الى صالة أعمدة حمل سقفها على ستة أعمدة مربعة زينت كل منها من الأمام بمنظر الشخشيخة يعلوها رأس الالهة حاتحور . أما رسوم الجدران فهى تمثل الملك مصاحبا الملكة يضحيان بزنجى أمام آمون ، وليبى أمام « رع حار خيس » هـذا بالاضافة الى المناظر الدينية الاخرى . أما جدران الصالة العرضية وقدس الأقداس فقد نقشت بمناظر دينية تملأ الجدار الغربى فنقش عليه منظر بارز للالهة حاتحور على هيئة البقرة ويقف رجل ربما يكون الملك تحت رأسها . أما على الجدار الشمالى للمقصورة فنرى الملكة فى حضرة الالهات «موت» و «حاتحور» تقدم لهم البخور وعلى الجدار الجنوبى نري الملك يصب مياه التطهير أمام تماثيل له ولنفرتارى .

ولقد شيد رمسيس الثانى معابد مهمة أخرى فى النوبة السفلى هى : معبد بيت الوالى ، ومعبد جرف حسين ومعبد السبوع والدر وكلها نحتت فى الصخر جزئيا ، ومع انها رديئة الصنع الا أن مناظرها ونصوصها مهمة بالنسبة لتاريخ النوبة .

ان معبد «بيت الوالى» مكون من فناء ثم صالة سقفها محمول على عمودين مربعين ثم قدس الاقداس ذى مشكاة فى الجدار الغربى تحوى بقايا ثلاثة تماثيل منحوتة فى الصخر . ومع أن هذه التماثيل صعب التعرف على شخصيتها الا أننا نجزم انها تمثل الملك مؤلها ومعه الهان آخران خصص المعبد لهما . وأهم ما يسترعى النظر فى هذا المعبد هو مجموعة المناظر المنقوشة على الجدران الجانبية للفناء الخارجى وهى تمثل الحروب ومع ان الحملات النوبية والأسيوية لم تكن أكثر من مظاهرة حربية الا ان هذه المناظر لها قيمتها ليس فقط من أجل مناظر القتال الواقعية ولكن

لتصوير الجزية النوبية أيضا • وهذه المناظر ذات الالوان الزاهية يمكن رؤيتها على جدران الصالة المصرية الرابعة فى المتحف البريطانى من عمل «جوزيف بونومى» منذ علة سنوات • وكان قد صنعها قبل أن يضع الجص • وعندما أزالها لم يترك أى أثر للألوان على الأصل •

والمنظر الأول يمثل هجوما على قرية نوبية فى أقصى الجنوب والنص الذى يعلو العدو يقول : « الذين يتعدون على حدوده » ويعنى ذلك انها حملة تأديبية عند الحدود • ونرى رمسيس فى عجلته الحربية يتبعه أميران هما «أمون حر أون امف» والأمير « خاع ام واست » يهجمون على مجموعة من الزنوج المسلحين بالاقواس والسهام وهم يفرون الى معسكرهم فى وسط النخيل • ويحمل محاربان زنجيان زميلهما الجريح ونرى النساء والاطفال يتدافعون فى ذعر ويلى ذلك منظر للملك جالسا فى خيمة على عرشه يتقبل هبات كوش يقدمها له نبلاء مصريون من بينهم حاكم كوش «امون أم اوبت» ابن الحاكم السابق « باسر » • ويكافىء «أمون أم اوبت» بسلاسل ذهبية جزاء لخدماته• ان الجزية المتنوعة مكونة من خواتم ذهبية واثاث من الابنوس والعاج وجلود فهود وأقواس وبخور ودروع وعاج وأبنوس وريش نعام وبيض نعام • علاوة على ذلك نجد حيوانات أخرى حية من بينها قرود وفهود وزراف ووعول وكلب وثيران ذات قرون منحوتة ونعامة • ولكن الهدية الثمينة كانت منضدة بديعة يتدلى منها جلود ومزينة بالزهور ويحملها الحاكم المصرى بنفسه • ولقد رافق الجزية أسرى زنوج من بينهم سيدتان احداهما تحمل طفلها فى سلة • وصور أيضا منها منظر لمجموعة من الجنود النوبيين المسلحين بالحراب كدليل على انهم استخدموا فى الحملات التأديبية ضد بلدهم • وكشاهد أيضا على اطمئنان الحكم المصرى فى الجنوب حينئذ •

ولقد بنى معبد جرف حسين فى أواخر حكم رمسيس تقريبا لأن الذى قام بالعمل فيه «ستاو» الذى كان آخر حكامه• ولقد خصص هذا المعبد للاله بتاح وصمم على نمط معبد أبو سمبل ولكنه بنى بطريقة خشنة وليس له أى أهمية معمارية • أما الجزء المنحوت فى الصخر فنجده عبارة عن فناء مفتوح يحيط به على جوانبه الثلاث ممر مسقوف ذو أعمدة على شكل زهرة اللوتس على الجانب الشرقى وأعمدة مربعة ترتكز عليها تماثيل ضخمة لرمسيس فى الجانبين الشمالى والجنوبى • ويحمل سقف الصالة أعمدة مربعة ترتكز عليها تماثيل ضخمة للملك على هيئة أوزيرية • أما قدس الأقداس فيحوى تماثيل منحوتة ، فى حالة يرثى لهـا للاله بتاح

ورمسيس مؤلها وبتاح تاتنن وحاتحور • أما نقوش المعبد ونصوصها فهى ذات طابع دينى وليس لها أى أهمية تاريخية •

وبنى معبد السبوع المخصص «لرع حار مخيس» و «آمون» على نمط معبد «جرف حسين» نفسه • ولكن بناءه ظل محفوظا فى حالة جيدة أكثر من معبد جرف حسين • غير أن صناعته لم تكن جيـدة ويمكننـا أن نرجـع بناءه الى الفترة الاخيرة من حكم الملك • ويبدأ المعبد بطريق على جانبيه تماثيل لأبى الهول وتمثالان ضخمان للملك وهذا الطريق يوصل الى مدخل على شكل بيلون ينتهى الى فناء مفتوح كبير على جوانبه ممرات ذات أعمـدة مربعة يرتكز عليهـا تمـاثيل للملك • ثم تصل الى الجزء المنقور فى الصخر والمكون كالعادة من صالة الأعمدة ذات السقف المحمول على اثنى عشر عمودا مربعا أمام ستة منهم نجد تماثيل ضخمة للملك • أما الحجرات الداخلية وقدس الاقداس فقد زينت بمناظر ذات طابع دينى وعلى الجدار الشرقى من قدس الاقداس نجد تماثيل منحوتة فى الصخر لآمون ورمسيس و«حار مخيس» • أما معبد «الدر» فقد نقشت جدرانه برسوم لحملات رمسيس الثانى المهمة فى النوبة وهى تشبه رسوم معبد « بيت الوالى» فتظهر الملك مهاجما الكوشيين المذعورين الذين يهرعون الى معسكراتهم فى التلال وبين الأشجار • والجرحى يحملهم زملاؤهم الى المعسكرات لينقلوا نبأ الهزيمة لنسائهم • كل شىء يجرى فى ذعر وفزع حتى القرود والثيران التابعة للزنوج نجدها تجرى بينما يحيط المصريون بالاسرى • وهـذه المناظر المصورة على الجدار الشرقى لصالة الاعمدة تصف الحوادث نفسهـا التى صورها فنان آخر فى معبد «بيت الوالى» •

ومن الملاحظ ان النوبة السفلى لم تذكر مطلقا فى جميع تسجيل تلك الحملات (واوات) كعدوة ومن الواضح ان هذه الارض كانت تعتبر جزءاً من مصر • وكان أهلها متمصرين الى حد كبير وكان لزعمائهم ونبلائهم أسماء مصرية • وغير ذلك فقد ازدادت النوبة فى أهميتها وبالنسـبة للسياسة الداخلية فى مصر • فلقد كانت تزود مصر بالجيوش المشهورة بالبسالة كما كانت تزودها خاصة بالذهب • وقد أصبحت وظيفة حاكم كوش أقوى وظيفة فى الدولة ، وكما سنرى فيما بعد ، أصبح الذين يتولون هذا المنصب من القوة بحيث أمكنهم هز العرش نفسه •

وعندما مات رمسيس الثانى فى عام ١٢٣٤ ق•م خلفه ابنه الثالث عشر «مرن بتاح» ولقـد وجه بغزوات الليبيين وسكان البحر الابيض فلم يبق عنده الوقت الكافى ليتجه نحو النوبة ولكن هناك لوحة فى معبـد

عمدا تسجل حديثا وجهه لرعاياه في الجنوب مطالبا بمزيد من جهـــود حربية بعد الانتهاء من الحروب الليبية • ولكن غالبا لم تكن الا حملة من الحملات التى تظهر القوة على الحدود الجنوبية • وبموت «مرن بتاح» سنة ١٢٢٢ ق٠م حدثت منازعات بين أفراد الأسرة المالكة تشـــبه منازعات التحامسة فى الاسرة السابقة ولا زال ترتيب التوالى موضع جدل • ويبدو ان « امون امسيس » اغتصب العرش وان الخلفـاء الشرعيين « سبتاح » وزوجته الملكة «تاوسرت» قد استرجعوه بمساعدة النوبيين، ولقد عين موظف اسمه «سيتى » كحاكم كوش وفى الوقت نفسه رشا موظفين فى الادارة النوبية ليساعدوا فى تعيينه حاكما •

هذه الحوادث كلها سجلت على لوحة أقامها « نفرحور » فى معبـــد حاتشبسوت فى بوهن :

« السنة الاولى للاله الطيب «رمسيس سبتاح» معطى الحياة ، المدح للـكا الخاصة بك يا حورس ، سيد « بوهن » • فليهب الحيـــاة والرخاء والصــحة ولياقة للخـدمة ، وفضـــل وحب لكا رسول الملك فى كل بلد ، كاهن اله القمر « جحوتى » الـكاتب « نفر حور » ابن « نفر حور » كاتب ارشيف فرعون (الحياة الرخاء الصحة) عندما جاء ومعه مكافآت لموظفى النوبة وليحضر ابن الملك فى كوش ، ستى ، فى بعثته الاولى •

ولقد بقى الحاكم الجديد مخلصا فى منصبه « رئيس بلاد ذهب آمون» كان عليه أن يشرف على أهم مصادر هؤلاء الكهنة الأقوياء وبالتالى مكتسبا مساندتهم للملك ولنفسه وعندما مات سبتاح خلفه سيتى الثانى الذى يمكن اعتباره هو الحاكم القوى • وعلى آية حال فلقد انهى حكم ســيتى الثانى عصر الاسرة التاسعة عشر • وبذلك اقترب اليوم الذى يتدخل فيــه الحاكم وجيوشه النوبية فى الشئون المصرية •

الفصل السابع

الأسرة العشرون

توافر « ست نخت » ، الذى أصبح ملـــكا فى عام ١١٩٧ ق٠م ، على ارجاع الأمور الى مجاريها داخل البلاد بعد فترة القلق التى كانت سببا فى انهاء الأسرة السابقة ٠ ولذلك لم يهتم بالنوبة ولم يعثر على أى أثر أو تسجيل من عصره فى الجنوب . أما خليفته رمسيس الثالث فلقد قام باظهار قوته فى الجنوب عن طريق حملات حربية بسيطة سجلت على جدران معبده فى مدينة هابو ، ولم يسجل نص مكتوب مع هـــذه المناظر الا اسماء المناطق الجغرافية التى استولى عليها ولقد كتبت داخل شكل بيضاوى يعلوه الجزء العلوى لأسير مربوط ٠

ولا نعرف بالتأكيد ما تبقى من كوش فى ايدى المصريين فى هذا العصر ولكن ما نعرفه هو أن قوة فرعون فى الجنوب بدأت تتقلص ٠ ونحن نشك فى أن الحدود كانت تمتد الى أبعد من حدود سنوسرت الثالث . وعلى أية حال فلقد عثر على اسم رمسيس الثالث فى معبد عند حصـــن سمنه لذلك يمكننا أن نستنتج ان منطقة الشلال الثانى كانت فى أمان تحت ادارة المصريين وكانت مصر تعتمد أكثر وأكثر على جنودهـــا

الكوشيين ومن بين موظفى الحاكم كان هناك « قائد حاملى أقواس كوش » الذى كان ولا شـــك رجـلا ذا قيمة وأهمية فى قصر فرعـــون • ولقد اضطربت الأحوال فى آخر أيام رمسيس وخاصـــــة بعد الكشف عن مؤامرة القتل التى قامت بها احدى ملكـــاته « تى » • ومن بين الموظفين الـكبار المشتركين فى المؤامرة كان قائد حاملى أقواس الـكوشـيين عـرف باســــم « بين أم واس » ويعنى « الشرير فى طيبـه » ولقـــد أغرتـه أخته على المؤامرة وكانت هى احــــدى ســــيدات الحريم • ومع انـه لم يذكر ذلك الا أنه ليس من الصعب ان نتصور قيمة مثل هذا الرجل الذى يقود الفرق الكوشية ولكنه لا يدين بالولاء لأحـد بالذات • وللأسف فالآثار المتصلة بمؤامرة الحريم قليلة قصيرة وتعطينا تفاصيل طفيفة حتى اننا لا نعرف لو الجيوش الكوشية كانت معســـكرة فى العاصمة أو فى الجنوب . وعلى اية حال فهى تشير الى ان القوة العسكرية النوبية أصبحت عاملا مهما فى المسائل السياسية فى مصر . وكان الحاكم حينئذ هو «حورى» • ويبدو أنه لم يشترك فى المؤامرة لأن ابنه واسمه «حورى» أيضا ، خلفه فى المنصب فى عصر خليفة رمسيس الثالث ، أى رمسيس الرابع الذى اعتلى العرش فى عام ١١٦٤ق٠م ولم تصل الينا أية معلومات عن جهـــود حربية لرمسيس الرابع ولخليفته رمسيس الخامس فى النوبة . ويبقى حورى ابن حورى فى منصبه وهذا كل ما نعرفه عن الحالة النوبية فى هذه الفترة • ما عدا ما جاءنا عن أحـــوال المنطقة فى عصر رمسيس الرابع . ففى التلال وراء عنيبه اى « ميعام » التى كانت عاصمة النوبة حينئذ شيد رجل يدعى «بننوت» مقبرته • وتعتبر هذه المقبرة البسيطة المنقورة فى الصخر فريدة لعدة أسباب • فلقد كان نادرا جدا لموظف كبير ان يدفن فى النوبة لذلك لم يبق من هذه العمائر الا القليل جدا • فالمقـــابر الصخرية البسيطة غـير المنقوشة مثل ما عثر عليه فى بوهن متعددة لأنها شيدت لموظفين مصريين صغارا أو لنوبيين أغنياء ، ولكن فكرة الدفن بعيدا عن الوطن كانت غير مقبولة للذين كان فى وسعهم أن يفعلوا ذلك • والسؤال هل كان «بننوت» نوبيا مثل «دجحوتى ــ حتب» الذى شيد مقبرة منقوشة فى «دبيرة» فى عصر الملكة حاتشبسوت ؟

لقد كانت وظيفة «بننوت» الاساسية « نائبا لواوات » وكان أيضا «رئيس المحاجر» و «رئيس خدم حورس سيد ميعام» • والدليل الآخر على ان النـــوبة كانت وطنه ان اثنين من أقاربه عمـــلا « أمين خزينة سيد الأرضين فى ميعام » « وكاتب البيت الأبيض ومحافظ ميعام » ولكننا لم نعثر على مقبرتى هذين الموظفين الهامين فى عنيبه . فربما كانت الأسرة

من مصر وان «بننوت» هو الذى أراد أن يدفن فى النوبة • ولقد سجل بفخر على جدران مقبرته أن الملك كافأه بآنيتين من الفضة لأنه نصب تمثالا لرمسيس السادس فى معبد رمسيس الثانى فى الدر . ولقد سلم الحاكم الهدية له فى حفل كبير اذ كان الملك قد سلمه الانيتين شخصيا آمرا ان يعطيهما لنائب «واوات» • ولقد سجل «بننوت» أيضا فى مقبرته باسهاب أملاكه فى النوبة التى تكون دخلا للصرف على القرابين المقدمة لتمثال الملك• ويعنى ذلك أن معظم الاراضى حول « ميعـام » كانت أملاكا خاصة للأسرة المالكة .

وازدادت قوة كهنة امون الذين يملكون مناطق الذهب فى النوبة على اعتبار أنها ملك للاله وحافظوا على هذه السيطرة احيانا بالنفوذ واحيانا أخرى بالتمرد . فهناك دليل على ثورة تزعمها الكاهن الأكبر لأمون فى عصر الملك رمسيس التاسع ومنذ ذلك الحين أصبح البيت المالك تتنازعه حروب أهلية صغيرة • وفى حكم آخر ملك فى الأسرة «رمسيس الحادى عشر» قامت ثورة اشترك فيها الليبيون ،ولقد أخمدها الحاكم « بانحسى » وفرقته النوبية ومنذ ذلك الحين يبدو أن من كان يحكم النوبة بذهبها وجنودها كان يحكم مصر نفسها • ولقد خلف « بانحسى » الكاهن الأكبر لآمون « حرى حور » الذى اتخـذ منصب وزير أيضـا • وأخيرا بوساطة الثروة والقوة العسكرية الجنوبية التى كانت فى يديه اغتصب العرش وأصبح ملكا فى عام ١٠٨٥ ق.م ولكنه لم يستطع ان يمد سلطانه على مصر كلها اذ أنه بعد الحروب الأهلية التى انهت الأسرة استولى « نس بانب جد » على العرش فى الدلتا وحكم فى تانيس بينما كان « حرى حور » ملكا فى مصر العليا فقط • وبعد موته اتحدت مصر تحت حكم الملوك التانيسيين الذين كونوا الأسرة ٢١ ومع ذلك فلقد بقى كهنة آمون أمراء أقوياء يتمتعون باستقلال ذاتى .

وفى هذا العصر الذى ساد فيه الضعف والاضطراب لابد ان تكون سلطة مصر فى النوبة قد تدهورت بسرعة . وكان « حرى حور » قد عين ، قبل موته ، ابنه «بعنخى» حاكما على كوش فليس غريبا أنه بعد ذلك بعدة سنين اتخذ الغازى الكوشى الاسم نفسه ومع أن هذا غير مؤكد الا أنه يحتمل أن يكون الحاكم « بعنخى » قد نقل اخلاصه نحو الجنوب وأصبح مؤسسا للبيت المالك فى نباتا وهم الذين أصبحوا فيما بعد فراعنة الأسرة فى مصر .

ويبدو ان النوبة السفلى (واوات) المتمصرة هى التى بقيت كشاهد لامبراطورية ضائعة ولكن كوش أصبحت بعد ذلك نصف مستقلة . فقبل ذلك بقليل كان كهنة آمون قد شيدوا نسخة مماثلة للكرنك فى جبل برقل قريبا من نباتا حيث قام معبدهم الضخم . ولقد استقر هناك مصريون كثيرون منهم كهنة وموظفون وتجار وتزاوجوا مع اهل المنطقة مكونين مايمكن أن نسميه « حكومة منفى » في عام ٩٥٠ ق.م عندما كان الوطن تحت سيطرة ملوك الأسرة ٢٢ الذين كانوا من أصل ليبى . وكانت نباتا قد أصبحت مدينة جميلة بها معابد وقصور حيث ترعرعت الحضارة المصرية الكوشية وأصبح لها طابع مميز لها . ومن المحتمل ان يكون انتاج مناجم الذهب قد بعث الى الجنوب بدلا من الشمال . وأكثر من ذلك فرؤساؤها اعتبروا أنفسهم الحكام الشرعيين على وادى النيل متخذين اللقب القديم « ملك مصر العليا والسفلى » وانقلبت الاوضاع على المسرح السياسى ، اذ أن كوش كانت هى التى ستغزو مصر .

الفصل الثامن

الأسرة الخامسة والعشرون

يبدو أن الاسرة المالكة التى انحدرت من «بعنخى» ابن « حريحور » كانت سلطاتها قد توطدت كحكام لكوش قبل أن يحاولوا تأكيد سيادتهم على مصر . ولقد كانت الجبانة الكبرى فى « كورو » تستقبل موتاهم منذ عام ٨٦٠ ق.م . أى أكثر من مائة سنة قبل أن يقوموا بغزو الشمال . ان أسـلاف الأسرة الخامسة والعشرين يمتون بالصلة الى جماعة أخذوا بالحضارة المصرية ولو أنهم ينحدرون من أصل كوشى ، لعله يرجع الى رؤساء مدينة كرما . ولقد دفن فى كورو ستة عشر سلفا لبعنخى ــ غازي مصر ــ وتطور مقابرهم يحكي قصة هذا التغيير من خلال أدلة أثرية مؤكدة .

ان أقدم المقابر تتكون من حفرة تعلوها كومة طينية مستديرة والجثة ترقد بانحناءة على جانبها الأيمن والرأس الى الشمال . وسوف نجد أن الكومة قد كسيت بالحجر ثم تطورت الى جزء يعلو سطح الأرض مبنى من الحجر ومستطيل الشكل وينتهى أخيرا الى الشكل الهرمى الـكوشى ، بينما أصبحت المقابر أكثر اتقانا ، وأخذت شكلا مصريا ، فان توجيه الدفنة قد تغير من شمال جنـوبى الى شرقى غربى . ولكن بعـد أن اتبعت الطرق

المصرية في الدفن ، تخلفت معها عادة نوبية واحدة : وهي وضع سرير في المقبرة يوضع فوقه الميت على هيئة النائم • هذه الطريقة كانت منتشرة في النوبة العليا والسفلى منذ أقدم العصور وبقيت منتشرة حتى العصر المسيحي الذى أزال كل بقايا الوثنية فى القرن السادس بعد الميلاد • ولكن الطبقة الحاكمة فى كوش قد أصبحت بصفة عامة منــذ عصر « كاشتا » ، والد « بعنخى » ، مصرية الفن والعمارة والديانة والثقافة والجنس ، اذ نتجت روابط وثيقة بزواج أجيال من المستوطنين المصريين بأهل المنطقة • ولقد مات « كاشتا » ملك كوش سنة ٧٥١ ق•م• ولكنه كان قد بدأ قبل موته فى غزو مصر وكان يتحكم فى جزء كبير من مصر العليا ، وسواء أكان هذا عن طريق السلم أم عن طريق الحرب ؟ فهذا ما لا نعرفه بعد • ولكننا لم نعثر على أى أثر من هذا العصر فى النوبة السفلى (واوات) وربما يرجع ذلك الى أن المنطقة أصبحت ساحة قتال خربتها الجيوش المتنازعة • وقد اختفت آثار القوة المصرية التى كانت قد بقيت منذ آخر الأسرة الواحــدة والعشرين تماما وأصبحت المقاومة أمام تقدم كوش غير ذات قيمة • وكانت الأسرة المتنافسة فى مصر السفلى تحارب لتكتسب السلطة المفردة ومن ثم فقد كان من المستحيل أن توحد الصفوف لمواجهة الكوشيين حتى أنه عندما اعتلى « بعنخى » العرش كان الجزء الجنوبى للبلاد حتى « هراقليوبوليس » فى الشمال تحت اشراف « نباتا » الى حد كبير • ثم جاء محرر مصرى هو « تفنخت » وكان أميرا من أمراء الدلتا ، استطاع توحيد مصر السفلى تحت حكمه واتخذ لنفســه لقب الفرعون ثم توجه نحو الجنــوب وواصــل حتى « هراقليوبوليس » وحاصرها وكان هذا الحصار هو بداية النضال الذى انتهى بانتصار كوش وتأسيس الأسرة الخامسة والعشرين • ولقد سجلت هذه الحوادث على لوحة جرانيتية وضعها «بعنخى» فى معبد « جبل برقل » حيث عثر عليها سنة ١٨٦٣ وهى الآن فى متحف القاهرة • ويعتبر هذا الأثر من أهم الوثائق الأثرية التى تكشف لنا لأول مرة عن النوبة القديمة كقوة من الدرجة الأولى ستتحدى جبروت أشور ولكن من غير أن تنجح فى ذلك • ان القصة التى تحكى انتصار النوبة محركة للعواطف ومسرودة بطريقة بديعة الى درجة أننى لا أتردد فى تقديم أجزاء منها ترجمها «برستد» باسهاب •

وتسجل اللوحة التاريخ : « السنة الواحدة والعشرين لملك مصر العليا والسفلى « مرى ـ أمون » « بعنخى » وهو تاريخ اقامته اللوحة فى

« نباتا » بعد وقوع الحوادث التى خلدت عليها • ثم بعد ذلك نجد مقدمته تتكون من الفخر التقليدى لبسالة الملك ، وأخيرا تبدأ الملحمة :

« جاء أحدهم ليقول لجلالته : هذا حاكم الغرب ، الأمير العظيم فى « نتر » (منطقة وسط الدلتا) تفنخت ••• انه استولى على الغرب كله من الأراضى الخلفية حتى « اثت ـ تاوى » قادما نحو الجنوب على رأس جيش كبير بينما اتحدت الأرضين وراءه وجثا أمراء المدن المسورة وحكامها كالكلاب عند قدميه • لم تغلق الحصون أبوابها فى أقاليم الجنوب •« مراتوم » (ميدوم) « برسخم ـ خبر رع » (ربمـــا اللاهون عند مدخل الفيوم) معبد سبك (كروكوديلوبوليس عاصمة الفيوم) « برمجل » (البهنسة) « ثكنش » • وكل مدن الغرب لقد فتحوا الأبواب خوفا منه • ثم اتجـه شرقا ففتحوا له أيضا : « حات بنو » (الحيبة) « توجى » « حا تستنى » • « برنب تبح » (اطفيح) • أنظر انه يحاصر « هراقليوبوليس » وقد استولى عليها ومنع الدخول اليها أو الخروج منها محاربا كل يوم • لقد عاين المنطقة كلها وعرف كل أمير مكانه وحدد لكل رجل تابع لأمير وحاكم مدينة محصنة مكانه » •

لقد تقبل « بعنخى » هذه الأخبار بعدم اهتمام وعلمنا أنه قد ضحك، وكما ظهر فيما بعد ، فقد كان على حق فى أن يضحك • لأنه كان يعرف قوته اذ أن كوش كانت فى أوج قوتها بينما كانت مصر تتدهور وتمزقها الخلافات الداخلية • وعلى أية حال فان أتباعه المصريين لم يفكروا مثله • أما الذين كانوا فى الشمال فقد طلبوا النجدة •

« هؤلاء الأمراء وقواد الجيش الذين كانوا فى مدنهم كانوا يبعثون كل يوم لجـلالته قائلين : « هل ستبقى صامتا ناسيا أقاليم الجنـــوب ؟ بينما « تفنخت » يتقدم فى غزوه دون أن يجد من يوقفه • ان « نملوت » ، أمير « حت ـ وعرت » خرب حائط « نفروس » وحطم مدينته خوفا من ان يستولى عليها (تفنخت) ليحاصر مدينة أخرى • أنظر انه يذهب ليلحق « بتفنخت » بعـد أن خرج عن طاعة جلالته (بعنخى) وانه ينتظـر مع « ببعنخى » كأحد أتباعه فى اقليم « أوكسرنخوس » ويقدم له بقدر مايرغب كل ما يعثر عليه • (من هدايا) » •

ان خبر تقهقر تابعه «نمولت» ، الذى كان ملكا محليا «لهرموبوليس» (الاشمونين) قد حرك « بعنخى » اذ ظهر أن قوة « تفنخت » كانت تتحرك بشكل خطير نحو الجنوب الى طيبة وتستكمل الملحمة :

« ثم بعث جلالته الى الأمراء وقواد الجيش الذين كانوا فى مصر ... أسرعوا الى ميدان المعركة ، وحاربوا ، حاصروا هرموبوليس وأهلها ، واستولوا على ماشيتها وسفنها التى على النهر . لا تسمحوا لفلاحيها أن يذهبوا الى الحقول ، لا تسمحوا للفلاح أن يحرث الأرض ، أغلقوا حدود اقليم الأرنب (الاقليم الذى كانت هرموبوليس عاصمته) قاتلوا ضدها يوميا » . ففعلوا هذا .

وبعد أن اتخذ هذه الاجراءات السريعة مع جنوده فى مصر ، أعطى الملك أوامره لجيشه فى النوبة ان يتقدم الى مصر ، آمرا :

« لا يعوقنكم شيء ، نهارا أو ليلا ، كما لو كنتم فى لعبة الشطرنج ، واثبت فى مكانك فى المعركة واضغط عليه (العدو) من بعيد . ان قال للمشاة وراكبى العجلات الحربية الذين ينتمون الى مدينة أخرى «انجدونى» فامكث حتى تأتى فرقته لتقاتل كما يقول . ولكن اذا كان حلفاؤه مدينة أخرى فاجعل أحدهم يهرع اليهم ، لتقاتل أولا هؤلاء الأمراء الذين انضموا اليه من الليبيين والجنود المفضلين . وقل : « اننا لا نعرف بماذا كان يصرخ ليجعلهم يخضعون . جهز أحسن ما فى اسطبلك من جياد الحرب وارسم خط القتال . انك تعرف ان آمور هو الاله الذى بعثنا » .

ويحذر « بعنخى » جنوده بعد أن أعطاهم نصائح القتال ، من أنه حتى الأقوياء ليس لهم أى قدرة دون مساعدة آمون ويأمرهم اذا وصلوا الى طيبة أن يصلوا اليها من أجل الاله » « أنر لنا الطريق حتى نقاتل فى ظل سيفك » . ونحن نعرف أن جنود « بعنخى » بعد أن مدحوا ملكهم أبحروا شمالا ، ووصلوا الى طيبة وعملوا بنصائح جلالته . فتوجهوا شمالا هناك وخاض الجيش النوبى معركته الأولى لتأكيد سيادة وادى النيل ، وعند مرورهم بالمدينة المناوئة « هرموبوليس » التى كانوا قد استولوا عليها ، كان الجيش النوبى الرئيسى قد وصل الى مقربة من « هرقليوبوليس » . ويقول النص :

لقد أبحروا شمالا فى النهر .. ووجدوا سفنا عديدة قادمة نحو الجنوب محملة بالقادة والجنود والبحارة والرجال البواسل من الأراضى الشمالية قد جهزوا بأسلحة حربية ليحاربوا ضد جيش جلالته . ثم حدثت بينهم مجزرة كبرى لانعرف عدد قتلاها. وأسرت جنودهم وسفنهم وأحضروا أحياء حيث كان الملك (نباتا) » .

وتقدمت القوات النوبية بعد هذا الانتصار البحرى نحو « هرقليوبوليس » التى كانت لا تزال محاصرة من « نفنخف » وحلفائه وسجلت قائمتهم التى ذيلت بهذه الملاحظة أن « كل أمير من حكام المدن المحصنة فى الغرب وفى الشرق والجزر التى فى المنتصف كان يجمعهم عقل واحد كتابعين للقائد الأكبر فى الغرب ، وحاكم المدن المحصنة فى الشمال ، كاهن « نيت » سيدة « سايس » ، وكاهن سم للاله « بتاح » ، « تفنحت » ولم تكن سياسة بعنخى فى لوحته أن يستهين بقوة المعارضة فيقلل من شأن عمله العظيم فى غزو مصر .

وكان الجزء الأول من المعركة التى استغرقت يومين لغزو « هرقليوبوليس » على شاطىء البحر وانتهت بانتصار النوبيين وانسحاب جيش « تفنحت » الى الضفة الغربية . وقد استمرت المعركة الى اليوم التالى :

« عندما أضيئت الأرض فى الصباح الباكر ، عبر جيش جلالته ليحاربهم . والتحم الجيشان وقتل عدد كبير من الناس وجياد لا حصر لها . وكانت الهزيمة أكيدة لمن نجا من القتل فاتجهوا نحو الشمال هربا من عنف القتال وضراوته » .

ان الملك « نملوت » (النمرود) الخائن ، عندما علم أن عاصمته « هرموبوليس » مهددة وبعد أن علم بالمصيبة التى حلت « بهرقليوبوليس » قد لجأ الى جيوش « تفنحت » المنسحبة واتجه نحو الجنوب ونجح فى أن يتفادى العدو ويدخل « هرقليوبوليس » . وعندما سمع القائد النوبى بوجوده حاصر المنطقة بأحكام وبدأ الحصار الطويل ، لكن بعنخى غضب عندما وصلت اليه أخبار تقدم الحرب ، فقد اعتبر أن العمل لم ينته بعد :

« هل سمحوا لجزء من الجيش الشمالى أن يبقى ؟ أو سمحوا لمن هرب منهم أن يذهب ليقص معاركه ؟ دون أن يتسببوا فى موتهم أو فى ابادتهم عن آخرهم ؟ اننى أقسم : كما يحبنى رع ! وكما يفضلنى آمون ! اننى سأذهب بنفسى شمالا حتى أدمر ما صنعه (تفنحت) وحتى أجعله يتراجع عن القتال الى الأبد » .

ولقد قرر « بعنخى » أن يتولى القيادة ، ولكن انباء فوزه العسكرى المتتالى لم تجعله يهدأ وخاصة بعد أن استولوا على « اكسرويخوس » (البهنسة) « وتنثهن » (طنه) « وحات ـ بنو »

(الحيبه) . ووصل الملك الى « طيبه » . وبعد احتفاله بعيد رأس سنة آمون أبحر شمالا الى المدينة المحاصرة « هرموبوليس » (الأشمونين) . ويقال لنا :

« ان جلالته خرج من قمرة السفينة ليجد عربته مجهزة والجياد معدة ثم ذهب جلالته غاضبا كالفهد ليؤنب جنوده قائلا : « هل يعنى ثباتكم فى القتال أن تبطئوا فى انجاز أعمالى ؟ هل السنة أقبلت على آخرها عندما خاف منى الشماليون ؟ أن ضربة قوية عنيفة ستقرعهم » وأقام لنفسه معسكرا على الجانب الجنوبى الغربى « لهرموبوليس » وحاصرها تماما وشيد جسرا يحيط بالجدار وبنوا برجا ليرفع حاملى الأقواس عندما يصوبون سهامهم ، وقاذفى الأحجار عندما يقذفون الأحجار ، وكان يقتل أناس منهم كل يوم » .

ان أحكام الحصار وعنف الهجوم المستمر قد أتى بنتيجة سريعة ويقال لنا أن : « هرموبوليس » فقدت رائحتها الذكية المعتادة وأصبحت قذارتها تزكم الأنوف » وفى بداية الاستسلام ، جاء رسل للملك ومعهم هدايا من بينها تاج الملك المهزوم « نملوت » وجاءت زوجته وبناته الى نساء « بعنخى » يتوسلن اليهن أن يتوسطن له ولقد نجحن فى ذلك اذ أن « نملوت » لم يقتل عندما استسلم . ودخل الغازى النوبى الى « هرموبوليس » منتصرا واتجه نحو قصر « نملوت » وهناك قبل ولاء حريم عدوه ولم يعجبه جمالهن اذ يقال لنا : «لم ينظر اليهن جلالته». ثم زار اسطبلات القصر وحزن عندما وجد الجياد وقد تعذبت من الجوع أثناء الحصار . « فبعنخى » كان يحب الجياد حبا شديدا ويرى البعض أن « بعنخى » هو الذى بدأ عادة دفن الجياد حول المقابر الملكية فى « كورو » .

وضمت كل ممتلكات « نملوت » الى الخزينة الملكية ووهبت صومعته إلى معبد آمون فى طيبة . وعومل « بفنف — دى — باست » حاكم « هراقليوبوليس » الذى بقى تابعا مخلصا ودافع عن مدينته بنجاح ضد أعداء « بعنخى » معاملة مختلفة وعندما وصل الى الملك حاملا الجزية أشار الى نجدة مدينته كالآتى : « لقد قبض على العالم السفلى وأغرقنى في الظلام الذى يضىء عليه النور الآن . لم أجد صديقا ثابتا فى يوم القتال العصيب . ولكنك أيها الملك يا قدير قد طردت الظلام من حولى » ولا نعرف كيف كوفىء «بفنف-دى-باست» ولكنه غالبا لم ينس ولاءه . وبينما كانت الجيوش النوبية تتقدم فى

اتجاه رأس الدلتا استسلمت المدن واحدة بعد أخرى دون قتال . اذ أن نداء الفرعون كان كافيا : « انظر ، هنـــاك طريقان أمامك اختر ما تشاء . افتح وستعيش ، أغلق وستموت . انني لن أمر من مدينة مغلقة » وكانت المقاومة قليلة حتى وصل الى « منف » ، تلك المدينـــة المتكبرة التى كانت عاصمة مصر تحت حـكم الفراعنة الأول . وكانت قد تجاهلت نداء الاستسلام « ان أهل « منف » سيكونون فى أمان تام « ولن يبكى طفل » ، وأغلقت المدينة أبوابها . وفى المدينة العتيقة التى كانت رمزا لمصر الموحدة ، وقعت المعركة الأخيرة حيث شعر « تفنخت » أنه قوى ويمكنه أن يقاتل . ولقد سجل النص ما يلى :

« انظر أن ر سايس » هذا (تفنحت) قد وصل الى « ممفيس » فى المساء وهاجم بالمشاة والبحرية وبكل ما هو جيد فى جيشه وعددهم ثمانية آلاف من الرجال مهاجما بهمة : « أنظر أن منف مملوءة بجيوش من أحسن جنود الشمال ، وتفيض الصوامع بكل أصناف الشعير والقمح والحبوب ؛ وكل أسلحة الحرب . انها (منف) محصنة بجدار . ولقد شيدت شرفة عظمى بمهارة . ان النهر يتدفق فى الجانب الشرقى ، ومن ثم ليست هناك فرصة للهجوم من تلك الناحية . وهناك مراع تملؤها الماشية ، والمخازن مزودة بكل شىء ، فضة وذهب ونحاس وملابس وبخور وعسل وزيت » .

وهكذا اطمأن الملك الى قوة المدينة ومحمياتها وقدرتها على تحمل الحصار ومن ثم يستطرد فيقول :

« انني سأذهب وسأعطى شيئا لرؤساء الشـــمال وسأفتح لهـم أقاليمهم (أى أعطى لهم استقلالهم) ولن تمر الا بضعة أيام حتي أعود . « وامتطى حصانا ولم يطلب عجلته الحربية وذهب شمالا خاشيا جلالته » .

ويستمر النص :

« وعندما طلع النهار فى الصباح الباكر ، وصل جلالتـــه الى « منف » وعندما حط شمال المدينة وجد ان الماء قد وصل الى السور والسفن راسية عند سور « منف » . ورأى جلالته انها كانت قـــوية وأن الجدار كان مقوى بحاجز وأن الشرفات بها رجال أشداء . ولم يجد طريقة للهجوم . وقال كل رجل فى جيش جلالته رأيه بنـاء على قانون الحرب . ولقد قال كل رجل « فلنحاصرها ان فرقها متعددة » وقال آخرون « فلنشق طريقا اليها . فلنرفع الأرض على جدرانها . ولنربط برجا ونرفع الصوارى ونجعل العارضـــة جسرا اليهـــا .

سنقسمها على هذه الطريقة من كل جهة من الأرض العالية ومن الشمال حتى ترفع الأرض على جدرانها وحتى نجد طريقا لأقدامنا » .

وقرر « بعنخى » أن يقتحم المدينة وبدأ بالاستيلاء على الميناء وكل سفنه كاملة ، بحيث نفذت فكرة استعمال الصوارى والعوارض كجسور توصل الى أعلى الجدران . وهى طريقة هجوم استعملها الفينيقيون عندما استولوا على قسطنطينية سنة ١٢٠٣ م وبهذا الهجوم كان يجب تنظيم السفن أولا ، ويقال أن : « أن جلالته صعد بنفسه السفن ثم أمر جلالته جيشه قائلا « الى الأمام ضدها ! اصعدوا الجدران ! .. ادخلوا المنازل التى على النهر . اذا وصل أحدكم على الجدار فلا يتردد أمامه حتى لا تصده الفرق المعادية » .

ويشير الى أنهم بعد ان استولوا على الجنوب ووصلوا حتى الشمال فانه سيكون مثلا لهم أن يطردوا من على أبواب « منف » وأجبروا على أن يواجهوا الحصار .

وعلى أية حال فالهجوم كان ظافرا :

« ثم أخذت منف كما لو كان فيضان قد أغرقها وقتل عدد كبير من الناس هناك وأسر عدد آخر وأخذوا الى حيث كان جلالته » .

ومن الواضح أن المدينة تركت للنهب والسلب ولكن فى اليوم التالى أعاد الملك النظام فيها فبعث القواد داخل المدينة ليحموا المعابد وثبت الكهنة فى مناصبهم المختلفة . ونظفت المدينة بالنطرون والبخور . ثم ذهب « بعنخى » الى معبد « بتاح » حيث اعترف به الاله .

وعندما وصلت أخبار سقوط المدينة الى أقاليم هذه المنطقة فتحت أبواب مدنهم وهرب حكامها وخضع أمراء كثيرون من الأراضى الشمالية للنوبيين وقدموا الجزية لهم وأخيرا توجه « بعنخى » الى « هليوبوليس » والى معبد « رع » حيث اعترف به كملك . ولكن « تفنخت » ما زال يقاوم . فعسكر مع بقية قواده فى مدينة تعرف ب « مسد » ، حيث قضى على سفنه وزاده بالنار عندما أدرك أن الحالة ميئوس منها وبعث فرق ضد هذا الحصن الأخير وأخيرا سمع « بعنخى » بانشراح أن « قتلنا كل رجل وجدناه هناك » . وعلى أية حال لم يكن « تفنخت » من بين الأموات لأنه التجأ الى احدى جزر أحراش الدلتا . ومن هناك بعث برسالة استسلام طالبا أن يبعث اليه نائبا عن الملك ليشهد يمين الطاعة والولاء للظافر . وقبل « بعنخى »

التماس الرحمة وبعث رئيس الكهنة « بدى ـ آمون ـ تستاوى » وقائد الجيش « بورمى » ليشهدا يمين الطاعة وقيل :

« أنه قدم (تفنخت) له (بعنخى) فضة وذهبا وملابس وأحجارا نفيسة ثم ذهب الى المعبد ، ليتعبد للاله ، ويطهر نفسه بيمين مقدسة، قائلا : لن أعصى أوامر الملك ولن أخالف ما يقوله ولن أقوم بعمل عدائى ضد أمير من غير معرفتك . اننى سأفعل كل ما يريده الملك ولن أخالف ما يأمر به « فرضى جلالته حينئذ » .

سنرى فيما بعد كيف حفظ هذه اليمين وعلى أية حال فالنص يوضح أن « بعنخى » كان راضيا وقد أصبح فعلا ـ باستسلام آخر الأمراء والملوك الصغار فى الدلتا ـ أصبح فرعونا على كل وادى النيل من الحدود الجنوبية لكوش حتى ساحل البحر الأبيض . وينتهى النص كالآتى :

« ثم حملت السفن بالفضة والذهب والنحاس والملابس وكل شىء صلب من البلاد الشمالية وكل محاصيل سوريا وكل الأخشاب الطيبة من أراضى الاله . وأبحر جلالته جنوبا مسرور القلب بينما عم الفرح الشرق والغرب وابتهج الشاطئان فغنوا طربا وهم يقولون : « أيها العظيم ، أيها الحاكم ، أيها العظيم « بعنخى » أيها الحاكم ، أيها القوى انك تأتى بعد أن ظفرت بالسيطرة على الشمال . انك تجعل من الثيران اناثا . ما أسعد قلب السيدة التى حملتك والرجل الذى أنجبك أن كل من فى الوادى يشكرون تلك البقرة التى ولدت ثورا . انك الى الأبد وبأسك يدوم يا حاكم طيبة المحبوب » .

لا شك أن « بعنخى » اعتبر نفسه الفرعون الشرعى الذى عاد ليطالب بحقه . ومن الملاحظ أن العدو لم يوصف طوال النص الذى سجل هذا الانتصار بأنه مصرى ولكنه وصف دائما أنه من الأرض الشمالية . انه كان ابن آمون الذى حضر ليعيد قوة وبأس الاله الكبير ومما لا شك فيه أن عددا كبيرا من المصريين وخاصة الكهنة الطيبيين كانوا يساندونه مع أن جيشه كان يغلب عليه العنصر النوبى الا أنه كان يحوى أيضا مصريين عديدين . لذلك يجب ألا يعتبر انتصار « بعنخى » غزوا نوبيا بل لقد كان نوعا من البعث ذلك لأن مصريين كثيرين نظروا اليه من خلال هذا الضوء .

أعاد بعنخى ـ عند رجوعه الى « نباتا » ـ بناء معبد آمون الكبير وزينه بكثير من الأسلاب التى لا شك كان قد أخذها أثناء غزوه

للشمال . وربما كان هو الذى نقل الأسود الجرانيتية والكباش من معبد « امنحتب الثالث » فى « صولب » الى « نباتا » ــ العاصمة التى كان ينوى أن يحكم منها النوبة ومصر . ومن الغريب أن رجلا له قدرة « بعنخى » ومهارته يتبع سياسة غير مألوفة ولا صالحة اذ أنه ترك مصر دون ادارة مركزية موجودة داخل حدودها فى طيبة مثلا أو فى منف . لقد كان هذا بمثابة قرار حدد مستقبل البلاد .

كان « تفنخت » ينتظر خروج النوبيين ليتراجع عن استسلامه ويحنث فى قسمه اذ أنه قد أصبح فعلا ذا قوة كافية ليسترجع لقب فرعون . وبعد ان حكم جزءا كبيرا من مصر السفلى خلفه ابنـــــه « باك ــ ان ــ رنف » سنة ٧٢٠ ق.م. بينما نجد فى الوقت نفسه ان الأمراء المطرودين الذين ينتمون الى العـائلة البوبسطية « أوسركون » الثالث « وتكلوت الثالث » قد استرجعوا طيبة وحكموها حتى عـاد النوبيون يقـــودهم « شباكو » شقيق « بعنخى » الذى خلفه سنة ٧٠٧ ق.م. ولسوء الحظ فليس لدينا وثائق معاصرة لغزو « شباكو » لمصر وليس لدينا الا تقرير « مانيتو » ــ المؤرخ المصرى ــ مما يبدو أنه كان نهاية الحملة . ويقول لنا « مانيتو » أنه قبض على « باك ــ أن ــ رنف » ابن « تفنخت » وأحرقه حيا . واستفاد « شباكو » من تجربة سلفه ، فنقل عاصمته من « نباتا » الى « طيبة » وهكذا استطاع بعد أن وحد وادى النيل تحت حكمه أن يشعر بقدرته على تحدى قوة آشور التى كانت حينئذ فى أوج مجدها وقوتها فى غرب آسيا . وتآمر مع « يوذاه » وشجع الولايات الصغيرة على مقـاومة تقدم الأشوريين . فحمـــل على أن يقول ذلك التعقيب المهين الذى سجل فى كتاب الملوك (التوراه) « والآن انظروا لقد اتكلت على عكاز هذه القصبة المرضوضة ، على مصر ، التى اذا توكأ أحد عليها دخلت فى كفه وثقبتها . وهكذا هو فرعون ، ملك مصر ، لجميع المتكلين عليه » . وعلى أية حال « فالقصـــــبة المرضوضة » لبت نداء أحد الحلفاء وعندما حاصر « سناخـــريب » « أورشليم » ، بعث « شباكو » جيشه الى « فلسطين » تحت قيـــادة ابن أخيه « طهارقا » . ولكن انتشار الطاعون أرغم الجيش الأشورى على الانســحاب ولم تتلاحم قوات « شباكو » و « سناخريب » ، ولكن لم يكن ذلك غير مهلة قصيرة فقد بقى التهديد باعتداء من الأشوريين قويا ، الى درجة أن السياسة الخارجية « لشباكو » وخلفائه كلهـــا أصبحت مركزة فى هذا الاتجاه . وربما يكون هو السبب فى أن العاصمة الادارية ومقر الملك فى الامبراطورية المصرية الكوشية أصبح فى «تانيس»

فى غرب الدلتا بينما استبقت « طيبـــة » و « نباتا » أهميتهمـــا كمقر دينى .

وخلف شباكو ابن أخيه « شباتكا » الذى بقى فى الملك لمـــدة سنتين أشرك أخاه الصغير « طهارقا » فى الملك وكان لا يزال فى العشرين من عمره ومات « شباتكا » بعد خمسة أعوام فأصبح « طهارقا » الحاكم الوحيد لكوش ومصر فى عام ٦٩٠ ق.م. وفى بداية حكمه ابتســم له الحظ ونجد اثاراً كثيرة ترجع لعصره فى مصر والنـــوبة وسأشرحها فيما بعـــد

وفي يوم تتويجه فى منف كانت والدته « آبار » موجودة لتشهد تتويج ابنها « كما رأت « ازيس » ابنها حورس على عرش أبيه . ففى شبابه المتكبر أرسل « طهارقا » يطلب الملكة الأم — التى لم يرها منذ مغادرته النوبة . وكانت النوبة قد أصبحت قوة عالية وكان « طهارقا » يحكم وادى النيل من أقصى الجنوب فى السودان حتى شواطىء البحـــر الأبيض . ولكن القوة الصاعدة لآشور كانت قد بدأت تمد ظلالها على حدود مصر الشمالية الشرقية . ونعتقد أن طهارقا كان قد حارب ضد عدوه الأعظم وقلبه « سناحريب » فى « التهه » فى عام ٧٠١ ق.م عنـــدما كان على رأس الجيش المصرى النوبى الذى بعثه عمـــه « شباكو » ليساعد «حزقيال» حاكم « يودية » . ولا نعرف مدى الاستعدادات التى قام بها « طهارقا » ليواجه تهديد آشور الا أنه سكن فى « تانيس » قريبا من حدوده المهددة وأنه طلب التحالف مع ولايات فلسطين .

وكان من حسن حظ الملك النوبى أن أمير طيبة كان يسانده فى الوقت الذى أشرفت فيه الحرب على الاندلاع « فمنتـــو — أم — حات » كان رجلا ذا قدرة عظيمة وقد ترك لنا سجلا للغزو الأشورى .

وقـــد خلف « سناخريب » ، الـــذى مات عام ٦٨٦ ق. م ، على عرش آشور ، « اسرهدون » الذى هجم على منف واستولى عليهـــا سنة ٦٧١ ق.م. بعد سلسلة من الانتصارات فى شرق الدلتا . وتقول تقارير الأشوريين ما يأتى :

« فى السنة العاشرة وفى شهر نيسان ذهب الجيش الأشورى الى مصر وفى الثالث والسادس عشر والثامن عشر من تموز ، اى ثلاث مرات، نشبت معارك فى مصر . وفى الثانى والعشرين استولى على « ممبى » (منف) مدينتها الملكية وأنقذ مليكها « طهارقا » نفسه بهروبه . ولكن قبض على أخيه حيا . ونقلت غنيمته ونهب أهلها وسرقت بضائعها ».

وادعى الأشوريون انهم غزوا مصر بأكملها وانهم أغاروا على النوبة نفسها لأن « أسرهدون » يقول لنا :

« ان « بعلو » ، ملك « تير » ، الذى اعتمد على « طاركو » (طهارقا) ملك « كسوس » (كوش) : لقد أخذت منه كل مدنه وأملاكه . لقد تغلبت على أرض « موسرى » (مصر السفلى) وارض « باتورسى » (مصر العليا) وأرض كوش ، لقد حاربت بالحربة خمس مرات والآن احكم كل بلاده » .

ونتساءل أن كان هذا التصريح حقيقيا . واذا كان الأشوريون قد دخلوا النوبة فلابد انهم لم يذهبوا بعيدا لأن يبدو ان « طهارقا » كان قد وجد الأمان في وطنه الجنوبى . وكان مستعدا لأن يعيد الكرة مرة أخرى فى كفاحه لسيادة وادى النيل . وعلى أية حال فلا شك أنهم سيطروا على طيبة لأن اسم الأمير « منتو ــ ام ــ حات » من بين أسماء النبلاء الذين رضخوا للقاهر ومن ثم بقى فى منصبه . ويبدو أن « أسرهدون » تصور أنه بعزل النوبيين يمكنه أن يعتمد على ولاء المصريين الذين كانت سياسته ازاءهم متوازنة . فيقول لنا : « لقد رحلت كل النوبيين من مصر ولم أترك واحدا يطيعنى . لقد عينت فى كل مكان من مصر ملوكا جددا ومحافظين قوادا ورؤساء للميناء وموظفين واداريين . ولكن سياسته كانت خاطئة لأن عددا كبيرا مثل « منتو ــ ام ــ حات » بقوا فى حقيقة الأمر أوفياء لطهارقا . وبعد أن رحل الغازى من مصر ، ظهرت بوادر ثورات . فأعد « أسرهدون » نفسه للرجوع الى النيل ليضمن فتحه ، ولكنه فى طريقه على رأس جيشه مات فى « حاران » . وفى هذه الأثناء كان « طهارقا » يتقدم شمالا ، حاشدا قوات من النوبة واستولى على منف وعلى مصر العليا . ولم يتحرك خليفة « اسرهدون » ، « أشوربانيبال » ، ومرت أكثر من سنة قبل أن تغزو الجيوش الأشورية مصر للمرة الثانية وانتصروا على « طهارقا » فى مدينة ما فى الدلتا ومرة أخرى هرب جنوبا الى النوبة تاركا مصر كلها فى أيدى الغزاة . وكانت هذه هى آخر مرة يرى فيها الشمال لأنه مات فى نباتا عام ٦٦٤ ق.م. ودفن فى هرمه في « نورى » .

ومن الغريب أنه فى عهد زلزلته الحروب ، قام « طهارقا » بتشييد عماراته فى مصر وفى وطنه . ولقد زين الصالة الكبرى فى معبد الكرنك بطريق ذى أعمدة عظيمة لا يزال أحدها موجودا . وربما كان هو صاحب البيلون الذى لم يكمل عند المدخل الرئيسى للمعبد . كما أنه شيد أيضا

عمائر أقل أهمية فى معبد الكرنك نفسه وفى مدينة هابو على الضفة الغربية للنيل • ومن وثائق مكتوبة يمكننا ان نستخلص أنه شيد عمائر أخرى فى «تانيس» و «ادفو» • أما فى النوبة فقد أقام عمائر أكثر ضخامة وفى «نباتا» رمم وزين معبد آمون الكبير كما نحت معبدا صخريا فى الجبل المقدس هناك . وعلى الناحية البحرية للنهر كونت الواجهة بحيث تظهر كواجهة صناعية مكونة من أربعة تماثيل ضخمة ، ويبدو ان ما تبقى من المعبد منحوت فى الصخر من طراز معبد « أبو سمبل » نفسه ولكنه أكبر منه . ولكن عددا كبيرا من الوثائق تشكك فى وجود هذه التماثيل المنحوته فى الصخر ويعتقد أنها ليست الا نتيجة عوامل طبيعية أثرت فى الصخر . ولقد قيل ان على احد هذه التماثيل يوجد خرطوش لطهارقا • لذلك نعتقد أن الملك شيد هنا فى جبل برقل بنساء نافس به فى وقت ما «أبو سمبل» ولكن لا بد أن تقام حفائر وتنقيبات واسعة عند أسفل الجبل لتثبت هذه النظرية .

ومع أن الحصون الموجودة فى منطقة الجندل الأول فى عصر « طهارقا » كانت قد ضربت وتركت الا أنه بنى فى «سمنه» معبدا صغيرا فى منطقة الحصن • كما عثر فى «بوهن» على أجزاء منقوشة يمكن ارجاعها اليه ، وهى فى الغالب اضافة لمعبد حصن حاتشبسوت أو لأى بناء آخر قد اختفى . ومقبرته الهرمية فى « نورى » على مقربة من «نباتا» ، كانت أول وأعظم بناء جنائزى فى الجبانة الملكية التى أقامها عندما ازدحمت الجبانة القديمة فى « كوزو » .

وخلف طهارقا ابن أخيه « تانوتامانى » الذى وطد العزم • بعد تتويجه ، على أن يضع مصر مرة أخرى تحت حكم النوبيين • ومن ثم توجه مع جيشه نحو طيبه حيث رحب به الأمير « منتو — ام حات » وأعطاه معونة اضافية . وسرعان ما استولى على منف ومصر السفلى ، قابلا خضوع حكام الدلتا الذين كانوا قد أصبحوا اتباعا «لا شور بانيبال» الاشورى • ولكن هذا الانتصار لم يدم طويلا لان الغازى الأشورى سجل بعد موت طهارقا أن « شاندامانى » (تانوتاموَن) ابن أخيه جلس على العرش ووضع قوته فى (طيبه) وأونو (هليوبوليس) وجمع قواده لتحارب الجيش الأشورى الذى كان متجمعا فى منف . فحاصرهم هناك وقطع عليهم طريق الهرب و «هل نجح « تانوتآمون » فى أن يستولى على منف قبل وصول العاهل الأشورى هذا ما لا نعرفه ، مع أن التقرير المصرى يدعى ذلك وعلى اية حال فان كل شىء يؤكد ذلك . وعندما

انتشر نبأ وصول « آشوربانيبال » ، هرب « تانوتآمون » دون قتال الى نباتا ومرة أخرى أغارت فرقة عسكرية أشورية على وادى النيل ٠

وتقرير « أشوربانيبال » لهذه الحوادث كما يلى :

« وفى حملتى الثانية ، توجهت الى « مصور » (مصر) «وكوش» (النوبة) وسمع « تانداماني » (تانوتامون) عن حمــلاتى وأننى وطئت أرض مصر فترك منــف وهرب الى (طيبة) لينقذ حيــاته ٠ ان الملوك والحكام والاداريين الذين وضعتهم فى منف جاءوا ليقبلوا قدمى ٠ وذهبت وراء «تانوتآمون» فى الطريق نحو طيبة مكان القوة ٠ فهرب الى كبكب(نباتا) وغزوت هذه المدينة (طيبة) كلها بمعاونة آشور واشتار ٠ ولقد أخذت معى الى آشور فضة وذهبا وأحجارا كريمة وكل ممتلكات القصر وأقمشة ملونة ، وكتانا وجيادا ورجالا ونساء ومسلتين كبيرتين من المعدن النفيس تزنان ألفين وخمســمائة تالنت وبوابات المعبد أخذتهــا من قاعدتها ٠ واستوليت على غنــائم كثــيرة من طيبة وتركت سلاحى يغضب على مصر والنوبة واظهرت قوتى ، ورجعت الى « نينوى » ، الى قصرى فى صحة جيدة ويدى ممتلئتان » ٠

ان هذا التقرير الواقعى لسلب ونهب طيبة ينبىء بانتهاء احدى مدن مصر العظمى لانها لم تسترد ابدا ما كانت عليه ٠ والتنقيبات الحديثة قد أظهرت بقايا المنازل المحروقة فى الكرنك والتى أحرقها الجنود الأشوريون عندما تركوا أحرارا فى المدينة الأسير ٠

وعندما ترك « آشوربانيبال » المدينة المخربة ، رجع « منتو ــ ام حات » المخلص الوفى وقال لنا فى احدى نقوشه كيف طهر المعابد المعتدى عليها بعد غزو الاجانب النجسين فى الجنوب ٠

وبعد هذه المصائب لم يحاول « نوتآمون » أن يرجع الى مصر وبقى فى النوبة حتى مات بعد ذلك بقليل ٠ ودفن فى جبانة « كورو » ٠ ومع أن خلفاؤه لقبوا بملوك مصر العليا والســفلى الا أن موت « نوتآمون » ينبىء بنهاية سلطان النوبة على شمال وادى النيل ٠ ان النوبة السفلى بين الجندل الأول والثانى كونت حاجزا بين القطرين ، والتنقيبات الواسعة فى هــذه المنطقة لم تعثر على أى أثر لمستعمرة من هذا العصر ٠ ويبدو أن الأرض كانت غير مسكونة ٠

الفصل التاسع

العصر البطلمي المروي

انتهت سيادة النوبة المتقطعة على مصر بعد موت تانوتآمون وكانت فترة سلطانهم قد امتدت حوالى سبعين عاما استمرت فيها الحروب بلا انقطاع ، ومع أن مصير مصر كان هو الانحلال التدريجي والتدمير النهائي كقوة عالمية الا ان أهلها فى هذا الوقت ، كانوا يعتبرون النوبة السفلى كأرض محايدة تفصل بينهم وبين أعدائهم المحاربين فى الجنوب • أما الى أى مدى رحب المصريون « بالتحرير » النوبى فان هذا موضع جدل • ومع أن النهضة الدينية لآمون ووعودها بتجديد مجد امبراطوريتها كانت تملأ قلوب أهل مصر العليا بالغبطة إلا أن هذا الشعور لم يكن موجودا فى الدلتا • وعلاوة على ذلك فالمحررون النوبيون لم يأتوا بالسلام ولكن بالحروب المستمرة والحكام الغرباء والجنود الأجانب•

وبعد طرد النوبيين بقليل ضغط البابليون والميديون في أوطانهم على الأشوريين المنتصرين فاضطروهم الى الرحيل عن مصر التى اتخذت مرة أخرى على يد بسامتيك وهو أمير من مصر السفلى اسس الأسرة السادسة والعشرين •

وقد حرصت بقية الأسرة الملكية فى النـــوبة بعد أن رجعوا الى عاصمتهم نباتا على استعمال ألقاب فراعنة مصر التقليدية . فلم ينسوا ادعاءهم بأنهم الحكام الشرعيون لمصر ، ومن ثم كان التصادم بين القوتين مسألة وقت فحسب . ولكن فى هذه المرة هجمت مصر أولا ، ففى عام ٥٩٠ ق.م. اجتاح « بسامتيك الثانى » النوبة على رأس جيش معزز بمرتزقة «يونانيين» و «كاريين» ويبدو أن الغرض من هذا الهجوم كان منع نشوب الحرب . فالنوبيين كانوا يتأهبون لمعركة أخرى مع أعدائهم الشماليين بعد انهزام المصريين فى آسيا . وعندما اعتلى ملكهم «اسبلتا» فى عام ٥٩٣ ق.م العرش كان جيشهم قد وصل الى الجندل الثـانى فى المنطقة المحايدة من النوبة السفلى مما شكل تهديدا لمصر . لكن المصريين انتصروا . والشـــاهد على ذلك نقوش عديدة لنصوص باليونانية على أحد التماثيل العظمى فى أبى سمبل . وأطول هذه النصوص يقول :

« عنـــدما أتى الملك « بسامتيك » الى اليفنتين كتب هذا : هؤلاء الذين أبحروا مع «بسامتيك» بن « ثيوكليس » ووصلوا بعد « كركيس » الى أبعد مما يسمح به النهر . وهؤلاء الذين يتكلمون بلسان أجنبى كان يقودهم « بوتاسيمتو » . أما المصريون فكان يقودهم « أمازيس» » .

ويشير نقش فى الكرنك الى هذه الحملة ويقول انها وصلت حتى « بنوبس » (تومبس) وأنه قد تم أخيرا ، بعد سحق النوبيين احتلال « أرض شاس » التى يعتقد أنها دنقله . ويعنى أنهم استولوا أيضا على نباتا . ويبدو أنهم لم يحاولوا الغزو الدائم ورجع الغزاة الى منطقـــة الجندل الثانى . ولقد عثر هناك على أسماء المرتزقة الكاريين فوق جدران معبد بوهن وعلى صخور تل الشيخ سليمان فى كور .

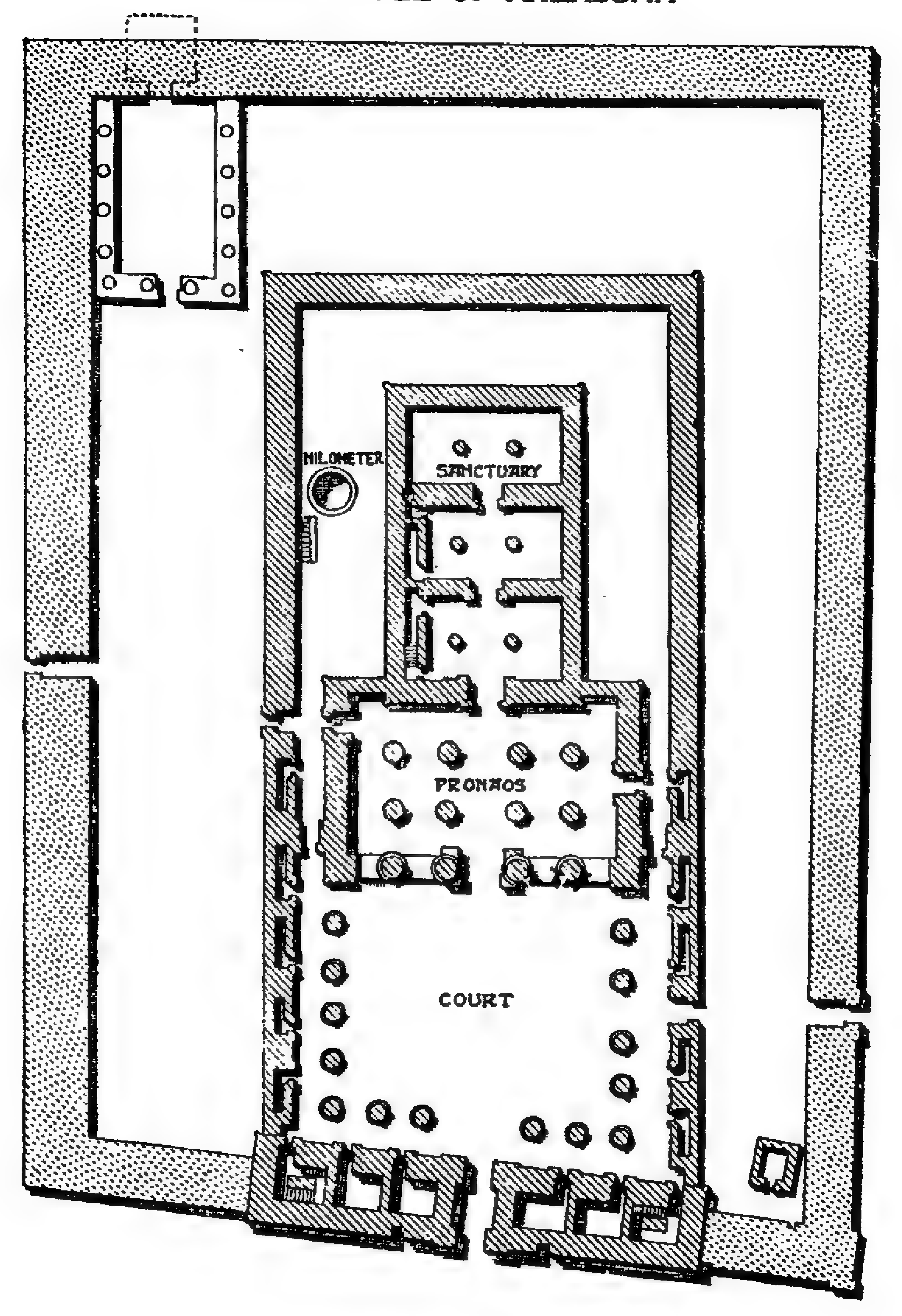
واذا كانت قوات « بسماتيك » قد احتلت « نباتا » فعلا فهذا موضع جدل ولا بد أنها كانت أكثر من غارة . وعلى أية حال ففى هذا الوقت نفسه انتقلت العاصمة السياسية من نباتا الى « مروى » فى الجنـوب على الضـفة الشرقية للنيـل ما بين الجنـدلين الخامس والسادس . وبقيت « نباتا » العاصمة الدينية . ومع أفول التـأثير القوى لكهنـة آمون ، ضعفت المـدينة ومع أفولها انتهى العصر الذى يتعارف مؤرخو السودان على تسميته بعصر نباتا .

وبعـــد أن هزم « قمبيز » الملك المصرى « بسـأمتيك الثالث » فى « بلوز يوم » ، أصبحت مصر اقليما فارسيا ، فى عام ٥٢٥ ق.م. وبعد تهدئة البلاد اتجه الغازى العظيم نحـو النوبة . ونحن ندين

« لهيرودوت » بتقريره عن الأحداث التى تلت . ومما ذكره المؤرخ اليونانى ، أن « قمبيز » بعث جواسيسه الى النوبة ، وأن هؤلاء الرجال ، ادعوا أنهم سفراء آتون بالهدايا ، فاستقبلهم الملك النوبى فى عاصمته « مروى » . ولكنه لم يخدع ، فرفض الهدايا وقال للرسل الفارسيين: « لم يبعثكم ملك الفرس بالهدايا لأنه يريد أن يصبح صديقا حميما ولا التقرير الذى تقولونه عن أنفسكم صحيح ، لأنكم أتيتم باحثين عن مملكة . وملككم أيضا ليس رجلا مستقيما . فلو كان مستقيما وعادلا لم يكن يطمع فى أرض ليست ملكه أو أن يستبعد أناسا لم يخطئوا فى حقه وأعطوه هذا القوس وقولوا له : « ان ملك أثيوبيا ينصح ملك الفرس بأنه عندما يستطيع الفرس أن يشدوا قوسا بهذه القوة بسهولة فليأت بجيش أقوى لمحاربة الأثيوبيين (الأصلاء) وحتى يحين الوقت فليشكر الآلهة على أنهم لم يضعوا فى قلوب الأثيوبيين الطمع فى بلاد لايملكونها » .

ولقد أدى هذا الرد الى نتائج محتومة : فسار جيش فارسى نحو الجنوب ليواجه بكارثة سببها عدم وجود الاستعدادات الكافية وخاصة بالنسبة لسوء ادارة الجيش من ناحية المؤن ورجع «قمبيز» الى مصر ومعه باقى جيشه الذى يتضور جوعا بينما الجزء الأكبر منه قد مات جوعا فى الصحراء النوبية . وكانت هذه المحاولة الفاشلة هى آخر محاولة من جانب الفرس لغزو النوبة من الشمال لعدة سنين . وبما أن الاتصال مع مصر كان قد أصبح صعبا لوجود الأرض المحايدة بين الجندل الأول والجندل الثانى فقد تقهقرت الحضارة المصرية فى الجنوب وحلت محلها حضارة غير أصيلة سماها الأثريون باسم عاصمتهم الجديدة « مروى » . ومع أن التأثير المصرى الدينى والفنى بقى هو الغالب على الحضارات المرويه الجديدة الا أن التأثير الافريقى والاغريقى كانا لهما مكانة أيضا . ان الكتابة الهيروغليفية المصرية أفسدت ولم تفهم الا من الكهنة وبصعوبة وتغيرت الأشكال وبالتدريج ظهر مكانها هيروغليفية المرويه مكتوبة بخط مختصر وأصبحت فيما بعد هى طريقة الكتابة فى لغة أهل المنطقة . وهذه الكتابة المروية « المختصرة » حللها بعد جهد كبير عدة علماء ولكنها لم تزل غير معروفة لنا لأنها كتبت فى لغة غير معروفة أيضا .

انتعشت الدولة المرويه وتحررت من التدخل الاجنبى ونمت الى امبراطورية قوية وسيطر حكامها على شمال السودان كله . وبالتدريج انتشرت قوة وتأثير مروى فى النوبة العليا كلها حتى انه فى

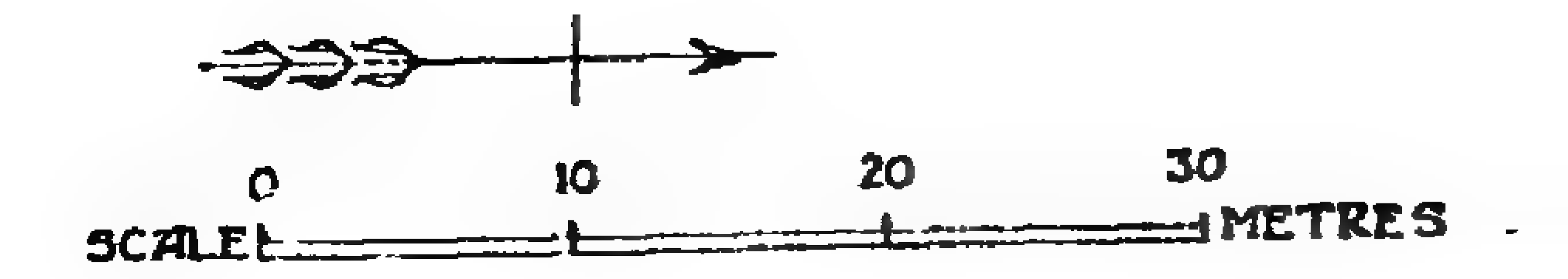


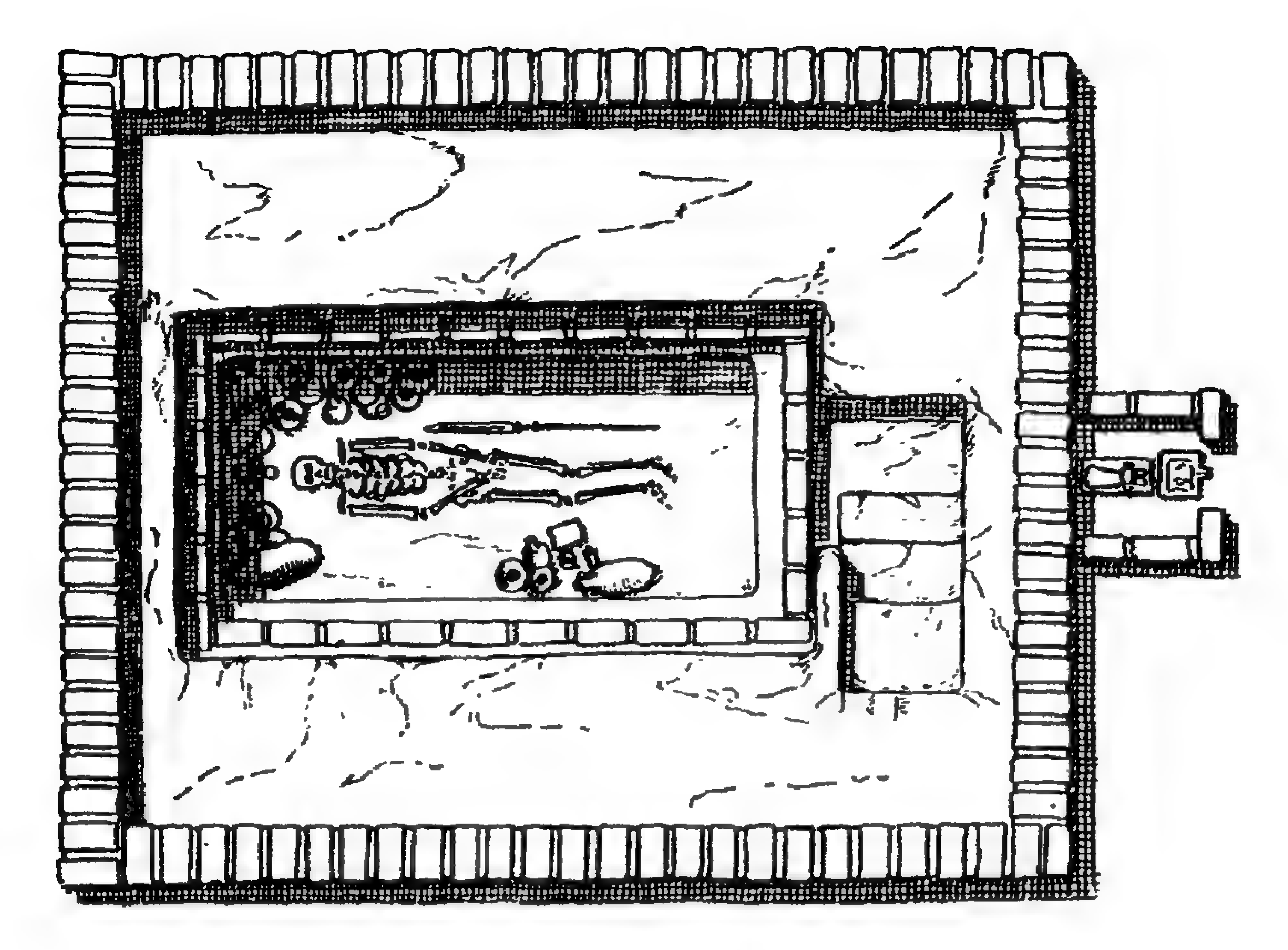
الشكل ٤١
معبد « كلابشة »

عصر الملك النوبى « أركامون » (ارجامنيس) كانت المنطقة كلها شمالا حتى « هيراسيكامنيوس » تابعة للامبراطورية المروية • ووصولها شمالا حتى فيـلة عرفت عنـد المصريين بـ « أرض الاثنى عشر فرسخـا » وترجمـه الاغريق بـ « دودكا سـخوينوس » • وهـذه المنطقة أى «دودوكاسخوينوس» كانت حينئذ مستعمرة كلها بالمصريين المحكومين من الفراعنة البطالمة •ومع أنها أصبحت لفترة ما تحت حكم مروى الا أنها كانت فترة قصيرة والبقايا الأثرية كلها تقريبا ذات طابع مصرى • وعلى أية حال، ففى عصر « بطليموس الرابع » ، يبدو أن سلطان الملك النوبى «أركامون» امتد على كل « الدودكاسخوينوس » شاملا فيله نفسها التى عثر فيها على آثار نقش عليها اسـمه • أما فى « الدكة » فشيد المقصـورة الداخلية للمعبد بينما أضاف بطليموس الرابع الفنـاء الخارجى أما الصالة التى تسبق قدس الأقداس فقد شيدها « بطليموس التاسع » عندما أعيد الحكم المصرى فى المنطقة ويبدو أن هذا المزيج الفريد من المجهود المعمارى الذى قام به الحكام النوبيون والمصريون كان تسوية ودية • على شكل تبادل مجاملات • ولكن أعتقد أن التحليل المقنع هو أنه فى وقت ما كان «أركامون» يقبض على « الدودكا سخونيوس » ولكن ما لبث أن ضاع منه فيما بعد • وعلى أية حال فالعلاقات بين البلدين تبدو ودية والى الجنوب من « الدودكا سخونيوس » المصرى نمت مستعمرة مروية فى النوبة السفلى فى سلام • وبقى هذا الحال الطيب حتى موت كليوباترا (عام ٣٠ق•م) فأصبحت مصر ولاية تابعة للامبراطورية الرومانية .

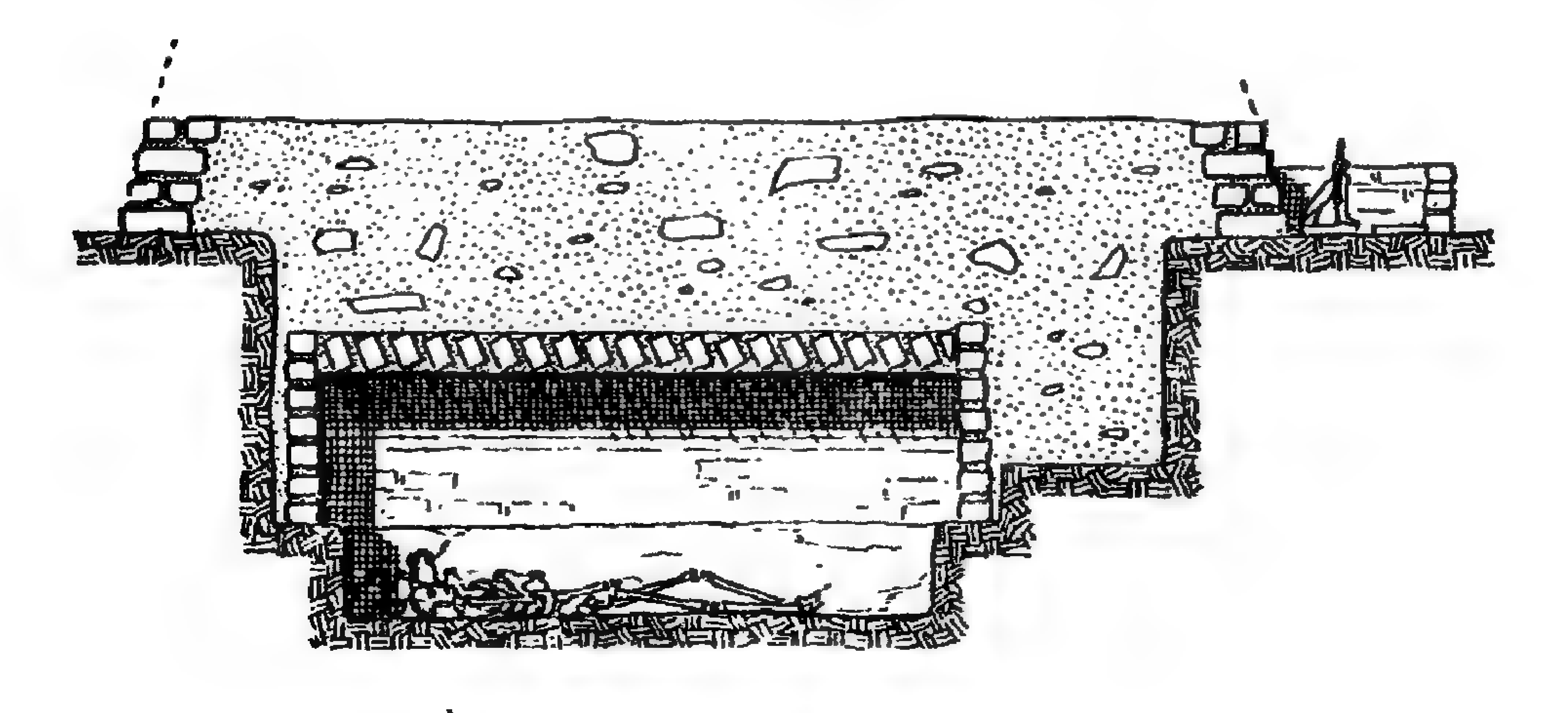
وسرعان ما أهتم الرومان بالنوبة السفلى وفى حكم الامبراطور « أوغسطس » بنى معبد « كلابشة » الكبير وزيدت أجزاء فى مقاصير « دابود » و « دندور » و « دكة » • ويعتبر معبد « كلابشة » من أحسـن معابد النوبة الباقية وكرس للاله النوبى « مندوليس » (شكل ٤١) وكانت المنطقة التى شيد فيهـا المعبد ذات أهمية دينية وهنـاك دلائل على وجود مقاصير سابقة شيدت فى عصر الأسرة الثامنة عشرة فى حكم « أمنحتب الثانى » ثم أعيد بناؤها فى حكم أحد الملوك البطالمة . مثل هذه الانشاءات التى شيدها الرومان بعد استيلائهم على مصر بمدة قصيرة تظهر الأهمية التى أعطوها للنوبة . ومن الواضح انهم فى هذا الوقت ، قصدوا مد الحدود جنوبا بعد المنطقة التى رضى عنها الملوك البطالمة .

وفى عام ٢٩ ق.م. وقع الوالى الرومانى « كورينليوس جالوس » معاهدة مع رسل الملوك المرويين تنص على أن تصبح كل النوبة السفلى تحت حماية الرومان وفى الوقت نفسه تبقى جزءا من الامبراطورية المروية . وقطعا قبلت مثل هذه الاتفاقية تحت ضغط سياسى قوى ولا شك أن حكام مروى كانوا ينتظرون الفرصة السانحة التى ستمكنهم من الثأر . ولم ينتظروا طويلا ، فعندما أصبح الحكم الرومانى فى الشرق الأدنى مرتبكا بعد فشل الوالى الثالث « ايليوس جالوس » فى حملته العربية ، هجم النوبيون بجيش مكون من ثلاثين الفا وهزموا ثلاثة فيالق رومانية وهم الذين كانوا يكونون معسكر الجندل الأول . وأخيرا احتلوا « سيين » (أسوان) وحسب التقرير الرومانى لهذه الاحداث كان يقود الجيش المروى ملكتهم « كانداكى » . و « كانداكى » هى الكلمة المروية للملكة وربما تكون هذه السيدة المحاربة هى الملكة « أمانيريناس » التى حكمت الامبراطورية النوبية فى هذا العصر . ولم يدم انتصارها لأن الوالى الجديد «جايوس بترونيوس» أسرع ومعه قوة بها عشرة آلاف من المشاة وثمانمائة خيال (فارس) فطردوا جنودها لقلة سلاحهم عند « بسلكيس » (دكه) حيث هزموهم شر هزيمة . وانسحب ما تبقى من الجيش النوبى الى « بريمس » (قصر ابريم) وهناك فى هذا الجبل المحصن حاولوا أن يتركزوا . ولكن « بترونيوس » هاجم هذا الحصن المنيع ولم ينتصر الا لأن الدفاع لم يكن مهيأ والقوة العسكرية كانت غير منظمة . ولم يقاوم النوبيون المنسحبون اذ أن حالتهم النفسية كانت متدهورة . وسرعان ما استسلمت « بريمس » أمام اكتساح الرومان . وبعد الهزيمة الثانية أصبح انسحابهم هزيمة انتهت بالاستيلاء على « نباتا » المركز الدينى والمدينة الثانية فى الامبراطورية المروية . وطلبت الملكة النوبية الصلح وسلم المعتقلون والسبايا المتخلفون عن الانتصار السابق الى «بترونيوس» الذى رجع الى مصر تاركا فرقة من أربعمائة رجل فى حصن «بريمس» الذى حدد الحدود الجنوبية للامبراطورية الرومانية . ولكن بعد سنتين اضطر « بترونيوس » أن يرجع ليفك الحصار عن الحصن الذى حاصرته قوة نوبية كانت تريد أن تغزو الشمال وبعد فك الحصار عن قصر ابريم اضطرت الملكة النوبية الى التفاوض وأمرت بأن تبعث رسلها الى « ساموس » ليقابلوا الامبراطور نفسه . ومن الغريب أن أغسطس قابلهم بلطف وعادت الحدود الرومانية الى الحدود القديمة للدودكا سخونيوس عندهيرانسيكامنيوس . ولكن لم يتفق المرويون من





SCALE 0 1 METRE



الشكل ٤٢

مثل لمقبرة « مروية »

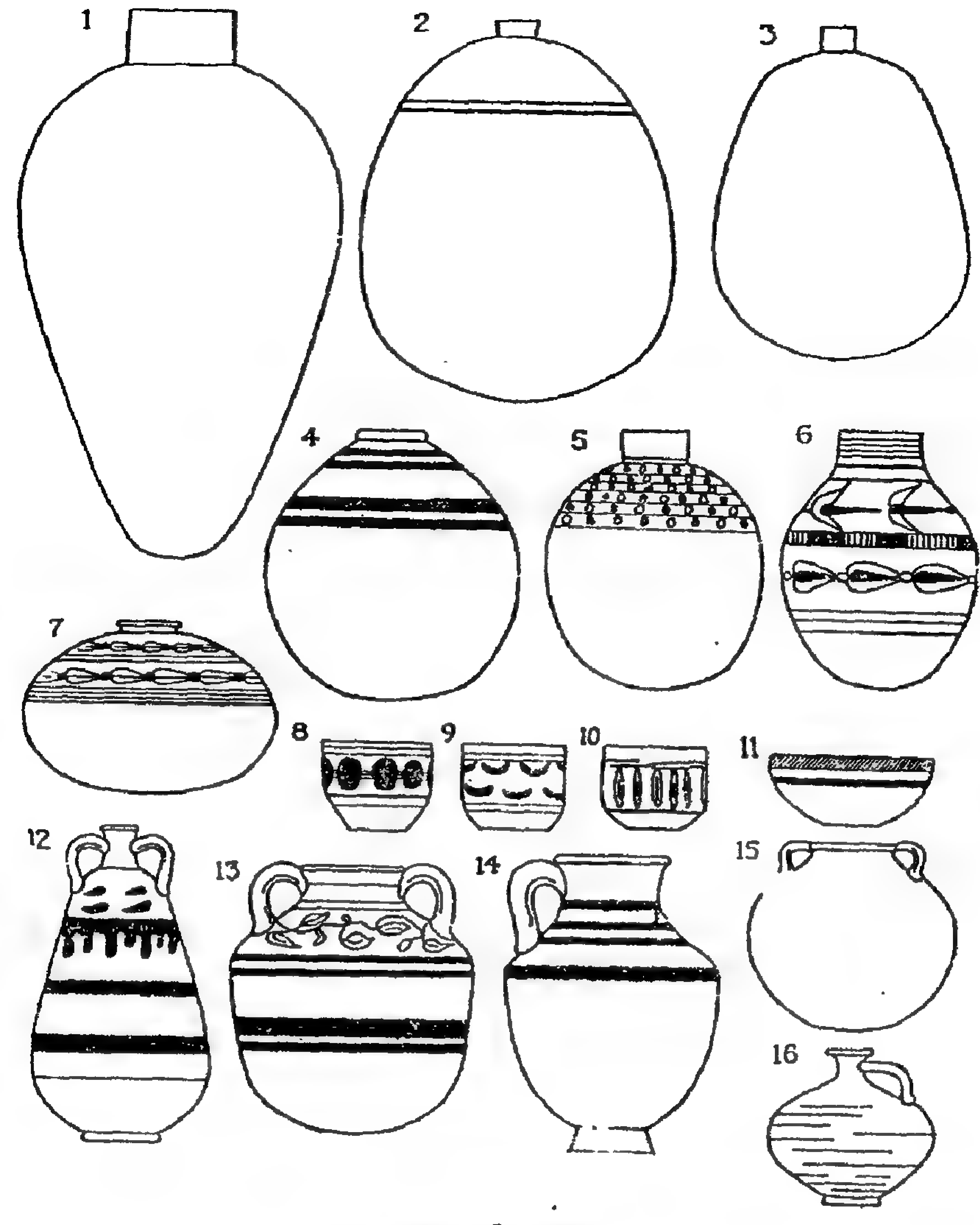
حروبهم مع روما ومع أن باقى النوبة كانت اسميا جزءا من أمبراطوريتهم الا أن سلطتهم تلاشت بالتدريج .

وأقفرت المدن والمستعمرات التى لم تخرب أثناء المعركة وأصبحت مناطق كثيرة من البلاد غير آهلة بالسكان . ففى مراكز مهمة للحضارة المروية مثل « كارانوج » لم يتبق الا ما يرجع الى الجزء الأول من القرن الأول . والشىء نفسه يبدو واضحا بالنسبة للجبانات المروية المتعددة اذ يمكن ارجاع تاريخ المقابر الفقيرة التى ترجع الى عصر متأخر فهى متعـــددة ولكنها تظهر كل علامات التدهور السريع بالنســـبة لسنوات الرخاء قبل تدخل روما .

ان المقابر المروية الغنية التى عثر عليها فى النوبة عادة عبارة عن نسخة مصغرة لمقابر الملوك والأمراء الموجودة فى جبانة مروى نفسها . وهـــذه المقـــابر تتكون من حفرة كبـيرة مستطيلة ذات افريز أو رف يرتكز عليه أطراف سقف مقوس شيد من قوالب اللبن ومغطى بملاط من الطين وأحيانا يســـتبدل الرف بجـدران عمودية من قوالب اللبن كساند للسقف المقبى الذى يغطى الحفرة . والمدخل المؤدى لهذا الجزء المقبى تحت الأرض يكون عادة عن طريق سلم صغير فى الجانب الشرقى . أما الجزء الذى يعلو سطح الأرض فكان يبنى اما من اللبن أو يبطن به وكان على شكل هرم جوانبه شديدة الانحدار . ويزود الهرم بمشكاة مبنية من قوالب اللبن أو مقصـــورة تحوى تمثال «البا» وبقية القرابين (شكل ٤٢) .

وكانت المقابر المتواضعة من نوعين : أما النوع الأول فيتكون من ممر يوصل الى حجرة دفن منحوته فى الصخر . وكان بابها مسدودا بقوالب لبنية وقطع حجرية غير مشطوفة ويعلو حجرة الدفن هرم من اللبن . أما النوع الثانى فيشمل حفرة بيضـــاوية لها كوة جانبية فى الجانب الغربى وهذه كانت تحوى الدفنه .

وكان النوبى ، فى العصر المروى ، يدفن موتاه فى وضع ممتد على ظهره ورأسه فى الغرب ولم يحاولوا تحنيط الجثث ولكن كان الجسم يلف فى ملابس من الكتان أو الصوف . وكانت الدفنات الغنية ، عادة ، تضم ما يعرف بتمثال «البا» ومائدة القرابين فى المقبرة . ووضع مائدة القرابين طبيعى اذ انها امتداد للعادة المصرية التى تضع مذبحا صغيرا خارج المقبرة تقدم فوقه قرابين مكونة من مأكولات ومشروبات للميت . ولكن لا يزال معنى تمثال البا غير مؤكد فليس لدينا مقابل له فى الطقوس



الشكل ٤٣
نموذج للفخار المروى

١ ـ ٣ ـ آنية حمراء
٤ ـ فخار أحمر ذو خطوط سوداء
٥ ـ آنية حمراء ذات رسوم حمراء وسوداء
٦ ـ آنية حمراء ذات رسوم بيضاء وسوداء
٧ ـ آنية حمراء ذات رسوم سوداء وحمراء فاتحة
٨ ـ آنية بنية فاتحة ذات رسوم سوداء
٩ و ١٠ ـ آنية بنية فاتحة ذات رسوم سوداء
١١ ـ آنية حمراء ذات رسوم سوداء وحمراء
١٢ ـ آنية حمراء ذات رسوم حمراء وصفراء
١٣ ـ آنية حمراء ذات رسوم حمراء وسوداء
١٤ ـ آنية حمراء ذات رسوم حمراء وسوداء
١٥ و ١٦ ـ آنية حمراء

الجنائزية المصرية القديمة . وبعض هذه التماثيل تمثل جسم آدمى ورأس طائر بينما بعضها يمثل شكل آدمى له أجنحة طائرة وتشابه هذه التماثيل صورة «البا» التى كانت روح الانسان طائرة الى السماء بعد الموت والتى كانت ترجع من حين الى آخر لتزور بقايا الميت الموجودة فى المقبرة مما جعلت علماء الآثار يعتبرون هذه التماثيل المروية مماثلة لها • وربما يكون كذلك • ولكن يجب أن نراعى أن تكون هذه التماثيل صورة للميت من نوع تماثيل «الكا» عند المصريين •

ولم يعثر الا على عدد قليل من المقابر المروية فى حالة جيدة فى النوبة فمعظمها نهب فى العصور القديمة والحديثة أيضا . ولكن المقابر التى عثر عليها كاملة لم يمسها أحد ، دلت ، بما تحويه من أدوات جنائزية على أن هؤلاء القوم قد عاشوا حياة على مستوى عال كله رخـــاء • والى جانب أشغال الخرز المتنوعة والأوانى البرونزية والزجاجية وأدوات الزينة والآلات الحديدية والأسلحة الخ • نعجب من نــوع الفخار الجميل الذى حوته المقابر (شكل ٤٣) وكثير منها مثــل الأباريق والأوعية والجراز ترجع الى أصل مصرى بطلمى أو على الأقل تقلد الاشكال الشمالية أما الأوانى التى تعرف باسم الفخار الرقيق فهى مروية بحته فريدة من نوعها ترجع الى هذه الحضارة فقط أما الكاسات الصفراء الفاتحة والمزخرفة باللون الأحمر والأسود والبرتقالى فهى جميلة وتشهد مدن مثل « فرس » (بخورس) «وابريم» (شمالى) و «كارانوج» (آكن) على المستوى الحضارى العالى الذى عاشته النوبة قبل انسحاب السلطة المروية فى الشمال الذى أعقبه التدهور والخراب التـام لمركز الامبراطورية حوالى منتصف القرن الرابع الميلادى •

الفصل العاشر

عصر المجموعة المجهولة

لم تفق الامبراطورية المروية من الهزيمة الساحقة التي لقيتها على أيدي الرومان في عصر « بترونيوس » عام ٢٣ ق٠م٠ ومع أن النوبة قد تمتعت بفترة من الرخاء تحت حكم الرومان في « الدود كاسخوينس » في الشمال والحكم الإسمي لمروى في الجنوب الا أن فترة تغيير كبير كانت تقترب بسرعة ٠ وهى الفترة التى احتلتها فيها مجموعتان من المحاربين والتى شهدت أيضا النزاع الأخير بين المسيحية والوثنية ٠ وتعرف حضارة هذه الفترة ، التى انحدرت من الحضارة المروية ، عند رجال الآثار بالمجموعة (س) لاننا مازلنا لا نعرف الى أى من الشعبين المقاتلين ترجع هذه الحضارة ٠

ولا شك أنه حتى أواسط القرن الثالث كانت النوبة ٠ جنوبى « الدودكاسخوينس » لا تزال جزءا من الامبراطورية المروية المتدهورة ٠ ومع ذلك فكان يحتل جزءا كبيرا منها شعب عرفهم الرومان باسم « بلمز » ٠ ولا زالت معرفة أصل هؤلاء الناس أو كيف دخلوا النوبة ومن أين أتوا موضوع جدل ٠ وهناك مسألة أخرى تعوقنا عن التعرف على هؤلاء

الدخلاء : فيبدو أن الكتاب الرومان والمسيحيين قد استعملوا لفظ «بلمز» ليشيروا الى كل سكان النوبة ، بنفس الطريقة التىوصف بها البريطانيون كل الاجناس المختلفة لمناوئيهم السودانيين تحت اسم (الدراويش) أثناء النزاع بين بريطانيا والمهدى فى آخر القرن الماضى •

وكما سنرى ففى العصر الذى يقع بين القرنين الثالث والسادس الميلادى ، والذى انتعشت فيه حضارة المجموعة (س) ، كان يحتل النوبة جنسان مختلفان « البليمز » و «النوباتاى » ومع أن معظم المستندات تعتقد أن المجموعة (س) يجب اعتبارها نوباتاى فانى أعتقد أن حسب الحجج البحتة ، ان هذه الحضارة كانت تنتمى الى خصومهم الذين سماهم الرومان « البليميز » •

وكانت الامبراطورية المروية تضم بين رعاياها عدة أجناس ، ويشير « استرابو » أن « البليمز » كانوا من بينها • أما « اراستوثينيس » (عام ١٩ ق•م•) فيقول لنا أنهم عاشوا على الضفة الشرقية للنيل وأنهم كانوا رعايا أثيوبيين (مرويين) وجيرانا للمصريين ولا نعرف الى أى مدى كانت البلاد محتلة جنوبا ولكن هناك وثيقة بطلمية تساند هذه الحقيقة وهى أنهم كانوا جيرانا للمصريين • فتشير الوثيقة أن رجلين عوقبا لاهمالهم عبادة « ازيس » ولشربهم النبيذ مع « البليمز » •

ويبدو أن البليمز احتلوا كل النوبة بالتدريج مع أنهم ربما بقوا رعايا مرويين الا أنهم فى منتصف القرن الثالث أصبحوا أقوياء لدرجة أنهم هاجموا حدود الرومان فى عصر «دسيوس» مع أنهم طردوا فلم تؤخذ أى تدبيرات عقابية ضدهم • وفى الوقت نفسه انتهى كل اتصال بين مروى وروما لانه فى عام ٢٥٣ م بعث الملك المروى « تومن » سفراء برياسة « باسون بن بايزة » الى « تريبونيس جاللوس » حاملا هدايا لمعبد ازيس فى فيلة ونظن أن السبب الرئيسى لهذه السفارة كان استغاثة للمساعدة ضد القبائل البربرية (المتوحشة) للنوبة السوداء والذين كانوا يهددون مروى نفسها • وكانوا هم أنفسهم سبب نكسة مروى وسقوطها • ومع ان كل البقايا الأثرية فى النوبة فى تلك الفترة ترجع الى العصر المروى الا أن الأتباع « البليمز » حصلوا على استقلالهم بسبب الضعف الذى وصلت اليه الحكومة المركزية • وعلى أية حال فنجدهم فى عام ٢٦١ م يحاولون غزو مصر مرة أخرى ومع أن يوليوس ايميليانوس طردهم عند الجندل الأول فالظاهر أن نقطة « الدودكاسخونيس » بقيت فى حوزتهم •

وفى عام ٢٧٢ م استفاد « البليمز » من غزو أهل « بالميرا » لمصر وثـورة المصريين تحت قيادة يونانى اسمه « فيرمو » كان يتجر معهم • فدخلوا مصر متحدين مع أعداء روما ووصلوا شمالا حتى « بطلمايوس » (المنشية) و « كوبتوس » (قفط) التى احتلوها الى أن هزم « فيرموس » و «البلميين» على يد الامبراطور «أوريليان» وترك الامبراطور مصر تحت قيادة « بروبس » الذى واجه « البليمز » وأخـذ يطردهم تدريجيا حتى رجعوا الى النوبة فى عام ٢٧٤ ميلاديا •

وهـذه الهزيمة لم تؤثر فى قوة « البليمز » المقـاتلة لانهم اجتاحو مصر العليا بعد أن أصبح « بروبس » امبراطورا فى عام ٢٧٦ ميلاديا • واحتلوا « بطلمايوس » و « كوبتوس » مرة أخرى • ولكنهم هزموا على يد « بروبس » أخيرا وأعاد حدود الامبراطورية الرومانية الى مكانها الأصلى عنـــد « هيراسيكانيوس » (محرقة) ومن الجائز أن أهـل مصر العليا كانوا يميلون الى البليمز وكان أهل بطلمايوس يخالفونهم لان «زوزمايوس» سجل أن « بطلمايوس » وطيبة قامتا بثورة وأصبحت حربا ناجحة فى البـداية ولكن سحق « بروبس » بطلمايوس نفسـها والبليمز المحالفين لهـــا » •

ولكن الابقاء على منطقة «الدودكاسخوينس» كانت مهمة شاقة وأخيرا فى عام ٢٩٧ م قرر الامبراطور «ديوكليسان» أن ابقاء قوة دفاعية عظمى لمراقبة « البليمز » المحاربين أمر غير ذى قيمة • وأعاد الحدود الرومانية الى الجندل الأول وطلب من قوم عرفوا « بنوباتي » أن يحتلوا الأرض التى تركها فى النوبة الشمالية معتقدا أنهم سيكونون منطقة حرة بين مصر و «البليمز» • « فالبليمز » حينئذ كانوا يسكنون بقية النوبة • اذن فى المائتين وخمسين عاما المقبلة احتل النوبة جنسان مختلفان • وترجع حضارة المجموعة س الى احداهما فرجال الآثار لا يزالون غير متفقين فى آرائهم •

ويعطى « بروكوبيوس » البيان التالى عن سياسة « ديوكليشان » وعن الحوادث التى نبحث عنها :

« بين مدينة « أوكسوميس » (أبيسنيا) حتى حدود الامبراطورية الرومانية فى مصر حيث المدينة المعروفة « باليفنتين » (أسوان) مسافة ثلاثين يوما للمسافر ماشيا بسرعة • ويستقر فى المنطقة الى جانب أجناس مختلفـة ، « البليمز والنوباتاى » ، وهم متعـددون • ولكن « البليمز » يستقرون فى أواسط البلاد بينما « النوباتاى » يحتلون الجزء المجـــاور للنيل • وفيما سبق ، لم تكن حدود البلاد ، تحت حكم الرومان ، تنتهى

هنا . ولكن كانت الحدود تمتد الى سفر سبعة أيام أخرى . عندما جاء الامبراطور « ديوكليشان » الى هنا لاحظ أن الجزية التى تدفعها هذه البلاد غير كافية لان الأرض هنا ضيقة وعلى مسافة قريبة جدا من النيل ويرتفع فيها الصخر الذى يكون بقية المنطقة فى هذه البلاد . وكانت قد استقرت فرقة عسكرية مهمة فى المنطقة لمدة طويلة فكانت أعباؤها حملا ثقيلا على الخزانة . ولاحظ أيضا أن « النوباتاى » الذين استقروا حول مدينة الواحة (خارجة) كانوا ينهبون باستمرار كل ما فى البلاد . فأقنع هؤلاء البرابرة أن يتركوا مساكنهم وأن يستقروا على حوافى النيل ووعدهم أن يعطيهم مدنا كبيرة وأرضا واسعة أجود من التى كانوا يسكنونها من قبل. وظن أنهم بهذه الطريقة لن يزعجوا منطقة الواحة كما أنهم غالبا ما سيطردون « البليمز » والبرابرة الآخرين . وبعد أن رضى « النوباتاى » بهذا الأمر بدءوا فى الرحيل بسرعة الى المناطق التى أقطعهم اياها ديوكليشان واستولوا على المدن الرومانية على ضفتى النيل ابتداء من « اليفنتين » . ثم قرر الملك أن يعطيهم وكذلك « البليمز » كل سنة مبلغا محدودا من الذهب على شرط الا يغيروا وينهبوا الحدود الرومانية . وظلوا يأخذون هذا المبلغ ، ولكنهم مع ذلك ظلوا يغيرون على هذه المنطقة لأنه من المستحيل أن تجعل البرابرة يتحالفون مع الرومان الا خوفا من الجنود . وعندما وجد الامبراطور جزيرة فى نهر النيل بجوار مدينة اليفنتين وضع فى هذه الجزيرة معسكرا قويا وبنى بعض المقاصير والمذابح الرومانية والمستعملة عند هؤلاء البرابرة . ووضع الكهنة من كل قوم فى هذا الحصن معتقدا أن الصداقة بينهم ستقوى لوجود كهنوت مشترك ولذلك سمى المنطقة فيلة . وهؤلاء القوم البليمز والنوباتاى يعبدون كل الآلهة الأخرى التى يعبدها الأغريق علاوة على ازيس وأوزريس وخاصة « بريابوس » هذا ، غير أن البليمز يقدمون الرجال قربانا للشمس » .

ان ما قاله «بريكوبيوس» من أن البليمز استقروا فى أواسط النوبة بينما النوباتاى عاشوا على ضفاف النيل جعل بعض العلماء يعتبرون أن البليمز عاشوا فى المناطق الصحراوية وان أعداءهم كانوا أكثر مدنية وعاشوا فى المناطق الخصبة من البلاد . ولكنهم لم يتعدوا منطقة « الدودكاسخوينوس » ويظهر ذلك مما قيل عن « ديوكليشان » من أنه أمر النوباتاى أن يحتلوا المدن الرومانية على ضفتى النيل ابتداء من « اليفنتين » ولم تكن توجد مدن رومانية جنوبى « الدودكاسخوينس » .
ان حديث المؤرخ عن البليمز الذين يضحون بآدميين للشمس يسترعى الانتباه بعد العثور على مقابر ملوك المجموعة (س) فى «بلانة» و «قسطل»

التي عثر فيها على ضحايا بشرية كعادة طبيعية . ان جنس النوباتاى غير مؤكد ولا يمكننا الا أن نرضى بما يقوله « بريكوبيوس » من أنهم فى هذا الوقت كانوا قوما محاربين يحتلون منطقة الواحة فى الصحراء الغربية . ويرجح البعض أنهم فرع من قبائل « النوبا » الذين انتقلوا من كردفان ، وطنهم الأصلى ، نحو الشمال قبيل بداية العصر المسيحى بقليل . فاستقروا فى الواحة تاركين الجزء الأكبر من جنسهم يغزو منطقة الجزيرة ويقضى فى النهاية على الامبراطورية المروية فى القرن الرابع الميلادى . وبالاضافة الى ذلك فلقد عرفوا بالبربر الليبيين كما اعتبروا أنهم من نباتا العاصمة الأصلية لكوش . ومهما يكن الأمر فيبدو أن « النوباتاى » نفذوا خطة « ديوكليشان » ولم تصل الينا أية معلومات عن معارك ذات أهمية ضد الحدود الرومانية حتى دخول المسيحية على يد « قسطنطين » الأول (٣٢٣ ـ ٣٣٧ ميلاديا) فوضعت أسس الحروب النهائية التي وقف فيها «البليمز» المنتصرون فى صف الوثنية القديمة . وفى عام ٣٩٠ م أصدر «ثيودوزيوس» بيانا لاجبار الناس فى مصر على اعتناق المسيحية وأغلق المعابد ومنها بالطبع معبد ازيس على جزيرة فيلة حيث كان «البليمز» و «النوباتاى» يتعبدون . وكان من نتيجة هذا الاجراء أن نشبت الحرب وأصبحت النوبة المقر الأخير للمعتقدات القديمة .

وفى هذا الوقت تقريبا زار المؤرخ اليونانى « أولمبيودورس » أقليم « البليمز » وبما أنه كان وثنيا ، فقد استقبل بترحاب . وتسجيل هذه الزيارة ذو قيمة لانه يوضح أن النوبة العليا كانت أرضا تابعة للبليمز فى عصر تثبت فيه البقايا الأثرية ان حضارة المجموعة س كانت تزدهر فى كل المنطقة وان ملوك هذه المجموعة كانوا يحكمون من عاصمة تجاور مقابرهم فى « بلانة » و « قسطل » . وهذا النص المهم يروى لنا :

« يقول المؤرخ أنه بينما كان فى منطقة « طيبة » و « سيين » (أسوان) يقوم بأبحاث تاريخية كان كهان البرابرة ؛ أى « البليمز » فى منطقة « تلميس » ، يفكرون فى مقابلته لشهرته فيقول « واخذونى ، حتى تلميس نفسها حتى اننى درست كل هذه المناطق التي تبعد عن « فيلة » بنحو خمسة أيام الى أن يصل جنوبا الى مدينة « بريما » (ابريم) وهى أول مدينة تتبع طيبة يقابلها فى منطقة البرابرة ولذلك سماها الرومان فى لغتهم « بريما » أى ، الأولى . ولا زالت تسمى بهذا الاسم مع أن البرابرة قد استولوا عليها من زمن هى ومدن أخرى مثل « فينكون » و « كيريس » و « تافيس » و « تلميس » . ويقول انه سمع فى هذه

البلاد عن وجود منـاجم الزمرد لذلك كان الزمرد متوفرا عند ملوك مصر ويقول ان الكهنة سمحوا لى أن أرى هذه المناجم التي لم يكن يسمح برؤيتها الا باذن ملكى • »

ان اشارة « أوليبيودورس » الى « البليمز » ووجودهم فى منطقـــة تلميس (كلابشة) يوحى بأنه فى هذا التاريخ (٤٠٧ — ٧٢٥ م) كانت منطقة «الدودكاسخوينوس» فى أيديهم وربماكانوا قد تحالفوا مع النوباتاى وتوجهوا نحو الشمال ردا على تحدى المسيحية • أما الرواية المهمة الأخرى التى ذكرها المؤرخ فهى ضرورة الحصول على الاذن الملكى بزيارة منـــاجم الزمرد • فهى تشير الى أن البليمز كانوا مجموعة من القبائل الصحراوية كما يعتقد البعض ، ولكن كانت هناك سلطة منظمة تحكم منطقة واسعة • وفى نضالهم ضد المسيحيين انتصر البليمز أولا وفى أواسط القرن الخامس الميلادى كانوا قد غزوا طيبة وحاصروا المسيحيين فى الأديرة • واستعان « بيون » أسقف اليفنتين بالامبراطور « ثيودوسيوس » طالبا المساعدة من البليمز والنوباتاى • ويدل هذا على أن الشعبين أصبحا متحدين فى عدائهم المشترك للمسيحية وكانت تساعدهم ، دون شك ، عناصر وثنية من سكان الأرض المحتلة أسهموا معهم فى وضع نوع من الحكومة المدنية نعرف وجودها من ثلاث وثائق كتبت باليونانية المروية • ويبدو أن هذه الوثائق قد عثر عليها فى « جبلين » وهى الآن فى المتحف المصرى • واحدى هذه الخطابات المترجمة تلقى ضوءا مثيرا على الحالة السيئة التى كان فيها الرومان فى طيبة حينئذ • ونقرأ :

«أنا «كاراكن» ملك البليمز الصغير ، أكتب الى أطفال «شارادون» ، «شارابتكور» و «شاراهيت» • انى قد أصدرت اليكم أمرى بتنظيم الجزيرة المعروفة بـ « تنـار » ولن يعوقكم أحـد وفقـا لأوامرى واذا قام الرومان بالمضايقات ولم يدفعوا الجزية فلن يمنعكم فيلارك ولا « هيبوتيرانوس » من أن ترغموا الرومان على دفع الجزية الطبيعية عن جزيرتى •

« كاراكن » الملك الصغير

« لايز » دومستيكوس ، شاهد

« تويتكنا » ، دومستيكوس ، شاهد »

وهناك خطاب ثان بعثه ملك « بليمى » صغير اسمه « باشيتمسن » يعين فيه كاهنا اسمه بووا مديرا لجزيرة تانار التى كانت تقع بالقرب من منطقة جبلين •

ولكن لم يدم الأمر على هذا المنوال • ففي عام ٤٥٢ م تأخر الامبراطور «مارسيانوس» في اتخاذ الخطوات اللازمة لحماية شعبه المصري• فتوجه قائده « ماكسيموس » لمحـاربة « البليمز » و « النوباتاي » المشتركة وهـزمهم هزيمة منكرة حتى انهم توسلوا اليه طالبين السلام • ونحن ندين لتقرير « برسكوس » الذي سجل فيه الشروط المهينة التي اضطروا الى قبولها :

« ان « البليمز » و « النوباتاي » بعثوا رسلا الى « ماكسيموس » يمثلون الأمتين طالبين هدنة للصلح • وقالوا أنهم سيحافظون على هـذا السـلام طوال مدة وجود « ماكسيموس » في طيبـة وعندما لم يرض بهدنة لهذه الفترة من الزمن قالوا انهم لن يحملوا السلاح طوال حياته • وعندما لم يرض حتى بالاقتراح الثاني وقعوا على هدنة سلام لمائة عـام واتفق فيها على أن يفك سراح الرومان الأسرى الذين قبض عليهم في هذه الحملة أو أي حملة أخرى من غـير فدية وأن يردوا الأغنـام والماشية التي أخذوها• وأن يدفعوا تكاليف الحرب ويسلموا أبناء العائلات الراقية كأسرى لضمان وجود الهدنة وطلبوا حسب العادة القديمة المرور الى معبد «ازيس» بدون قيود • وستكون المركب المستعملة لنقل تمثال الآلهة تحت تصرف المصريين • فهؤلاء البرابرة يأخذون تمثال الالهه في أوقات معينة الى بلادهم ويستعملونها للوحي ثم يرجعونها الى الجزيرة •

واعتبر « ماكسيموس » أنه من المرضى أن يصدق على المعاهدة في « فيلة » وبعث ببعض ممثليه (الرومان » الى فيلة وكان أيضـا ممثلو « البليمز » و « النوباتاي » الذين سيصـدقون على الهـدنة حاضرين في الجزيرة • وبعد توقيع ما رضوا به سلم الأسرى الذين كانوا حكاما قدامى أو أبناء الحكام القدامى • فكانت واقعة لم يحدث أبدا أن أطفال «النوباتاي» و « البليمز » أعطوا سبايا للرومان • ومرض « ماكسيموس » ومات ولما سمع البرابرة بموت « ماكسيموس » غزوا البلاد وأخذوا أولادهم •

واذا اعتبر « ماكسيموس » المسيحي أنه من السياسة أن يسـمح للوثنيين بأن يمارسوا عبادتهم في « فيلة » فان هـذا يعني أن نجـاحه العسكري لم يكن شاملا ومن الواضح أن « البليمز » كانوا لا يزالون قوة يعترف بها • والدليل على ذلك أنه بعد موت « ماكسيموس » ، اعتقـد « فلورس » ، حاكم الاسكندرية ، أنه من الحكمة أن يتغاضى عن انقـاذ الأسرى وأن يرضى نفسه بطرد الغزاة من الأراضي المصرية •

ولكن كان مصير الوثنية و « البليمز » محتوما لأن تغلغل المسيحية التدريجي بين « النوباتاي » جعلهم أصدقاء لروما بصرف النظر عن الهجمات

الصغيرة فالسلام الذى طلبه « ماكسيموس » يبدو أنه بقى لأكثر من ثمانين سنة ٠

لقد حدثت الدعوة لآخر معركة فى عام ٥٤٠ م عندما اهتدى ملك « النوباتاى » الى الدين المسيحى على يد المبشر « جوليان » وكانت الامبراطورة « ثيودورا » قد بعثته خصيصا لهذه المهمة ٠ وأغلق معبد « فيلة » وبعثت تماثيل الالهة الى « قسطنطينية » ٠ وكانت النتيجة المحتومة هى الحرب ضد « البليمز » ٠ ولا نعرف تفاصيل عن هذه المعركة ولكن انهزام « البليمز » فى النوبة سجلها الملك « سلكو » فى لوحة باللغة اليونانية الركيكة على جدران معبد « كلابشة » (تلميس) ويبدو أن « سلكو » ، ملك « النوباتاى » ، كان الملك الذى اهتدى الى المسيحية وتختلف ترجمة هذا النص كما أن تفسيره صعب ولكن هناك حقيقة واقعة : هى أن « سلكو » قام بعدة حملات ضد عدوه الوثنى وانتهى الأمر بأن هزمه ٠

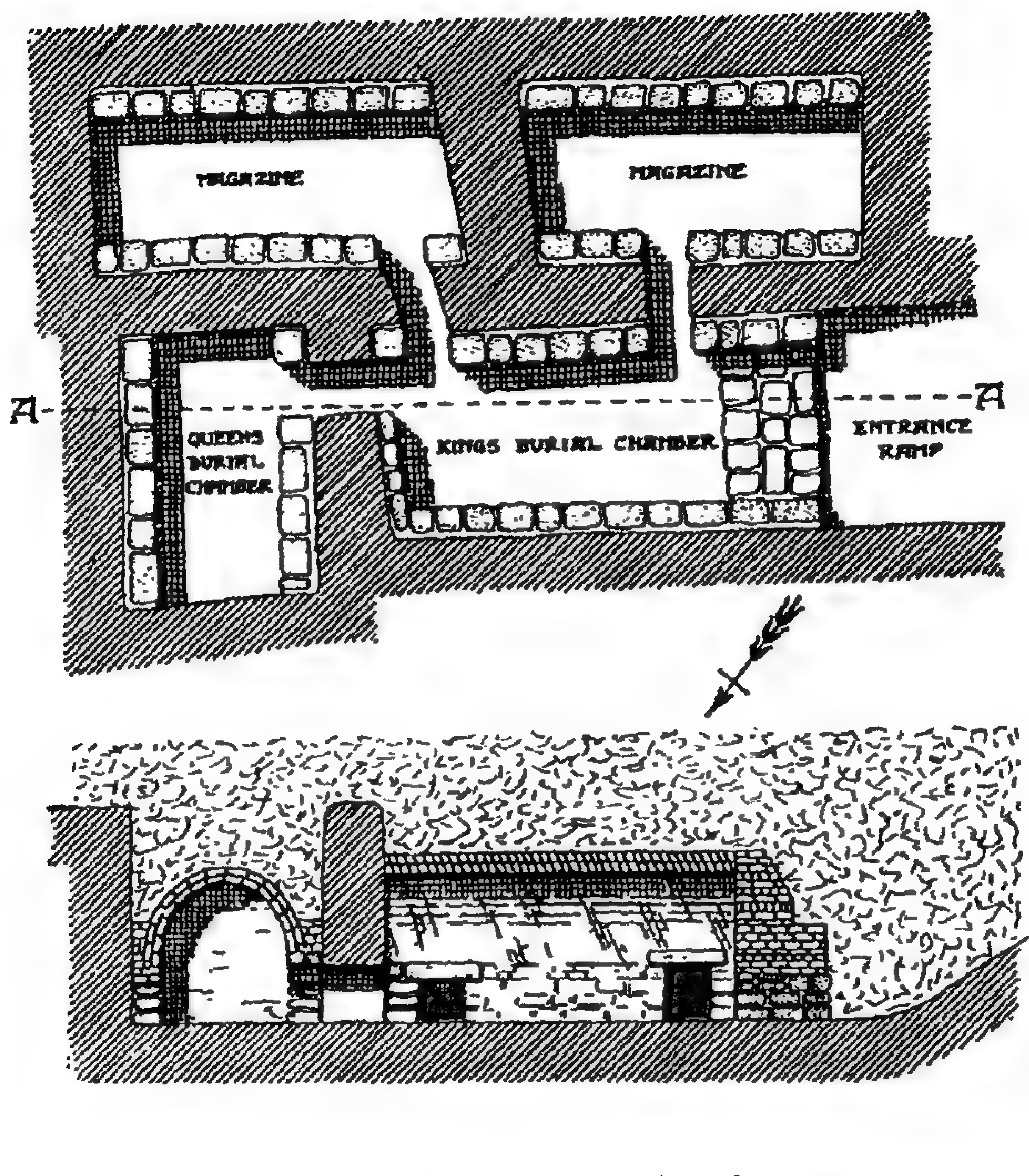
« أنا « سلكو » الملك الصغير « لنوباتاى » وكل الأثيوبيين ٠ ذهبنا الى « تلميس » و « تافيس » ٠ لقد حاربت « البليمز » مرتين ونصرنى الله ٠ وبعد ثلاث مرات انتصرت واحتللت مدنهم ٠ واستقريت هناك مع جيوشى ٠ فى المرة الأولى غزوتهم وتوسلوا الى ٠٠ وصالحتهم وأقسموا بمعبوداتهم ووثقت بقسمهم لاننى ظننت أنهم رجال شرفاء ٠ فذهبت الى البلاد العليا وعندما أصبحت ملكا صغير لم أتبع الملوك الآخرين ولكنى كنت فى مقدمتهم ٠ فاذا أراد أحدهم أن يتشاجر معى فلا أتركه يجلس فى بلده الا اذا كان يتوسل الى ويتضرع لانى أسند فى البلاد السفلى وغزال فى البلاد العليا ٠ لقد حاربت البليمز من « بزيمس » الى « تليلس » مرة و (مع) « النوباتاى » الآخرين فى البلاد العليا ٠ لقد أغرت على بلادهم ونهبتها لانهم أرادوا ذلك ٠ ان أسياد البلاد التى تقاتلنى لا أتركهم يجلسون فى الظل بل فى الخارج فى الشمس ٠ ولا يشربون المياه فى ديارهم ٠ فأعدائى أخطف نساءهم وأطفالهم » ٠

الى أى مدى كان الرومان يساعدون « سلكو » ، هذا ما لا نعرفه ٠ ولكننا نعرف أن انتصاراته انتهت بهزيمة « البليمز » كولاية ومعهم ذهبت آخر الاعتقادات الدينية والمبادىء الفرعونية المصرية ٠ واذا اعتبرنا أن المجموعة (س) هم «البليمز» فيلاحظ أنه فى وقت غزو « سلكو » تشير

الأبحاث الأثرية الى أن حضارة هذه المجموعة كانت تتقهقر واختفت أخيرا واستبدلت بالحضارة النوبية المسيحية التى اختلفت عنها تماما ٠

ولنفحص بقايا حضارة المجموعة (س) التى عثر عليها فى النوبة حتى الآن ٠ ولم يبق الكثير من المدن والقرى التى ترجع الى هذا العصر لانها كانت فى وجودها ملاصقة للنهر ، وغير هذا ، فلقد كثر البناء فيها فى العصور المتأخرة وخربت الى درجة أن الأرض التى كانت معمرة أصبحت صالحة للزراعة ٠ ان المناطق الخصبة فى النوبة قليلة الى درجة أن كل شبر من الأرض يعتبر شيئا ثمينا ٠ والنتيجة أنه بعد الحروب أو الظروف السياسية كانت المستعمرة أحيانا تترك وتهجر فتحطم أبنيتها ٠ وتستعمل المنطقة لزراعة محاصيل يحتاجون اليها بشدة ٠ ولكنا أحيانا نجد أن أهل المجموعة س قد أقاموا مدنهم فى أراض جدباء وراء الأرض الخصبة التى كانت تحد النيل ٠ ومثل هذه المستعمرات أسفرت بعد التنقيب عن أساسات المنازل التى ترجع الى ذلك العصر والتى تشهد على حسن بنائها وتنظيمها مما يدل على انتمائها الى مجموعة متحضرة ومنظمة ٠ ومثل هذه المدن عثر عليها فى « كارانوج » و « وادى العرب » ولابد أن المدينة المحصنة « ابريم » (بريمس) والتى كان المرويون قد بنوها ــ كانت بها مبان شيدت فى عصر المجموعة س ٠ ولكن هذه الأبنية ، ان وجدت، فقد أصبحت أنقاضا تحت المبانى التى شيدها السكان فيما بعد ، وعلى أية حال فحفائر جمعية التنقيب فى مصر والتى تزاول عملا فى المنطقة الآن لابد أنها ستظهر أبنية يمكن ارجاعها اليهم ٠

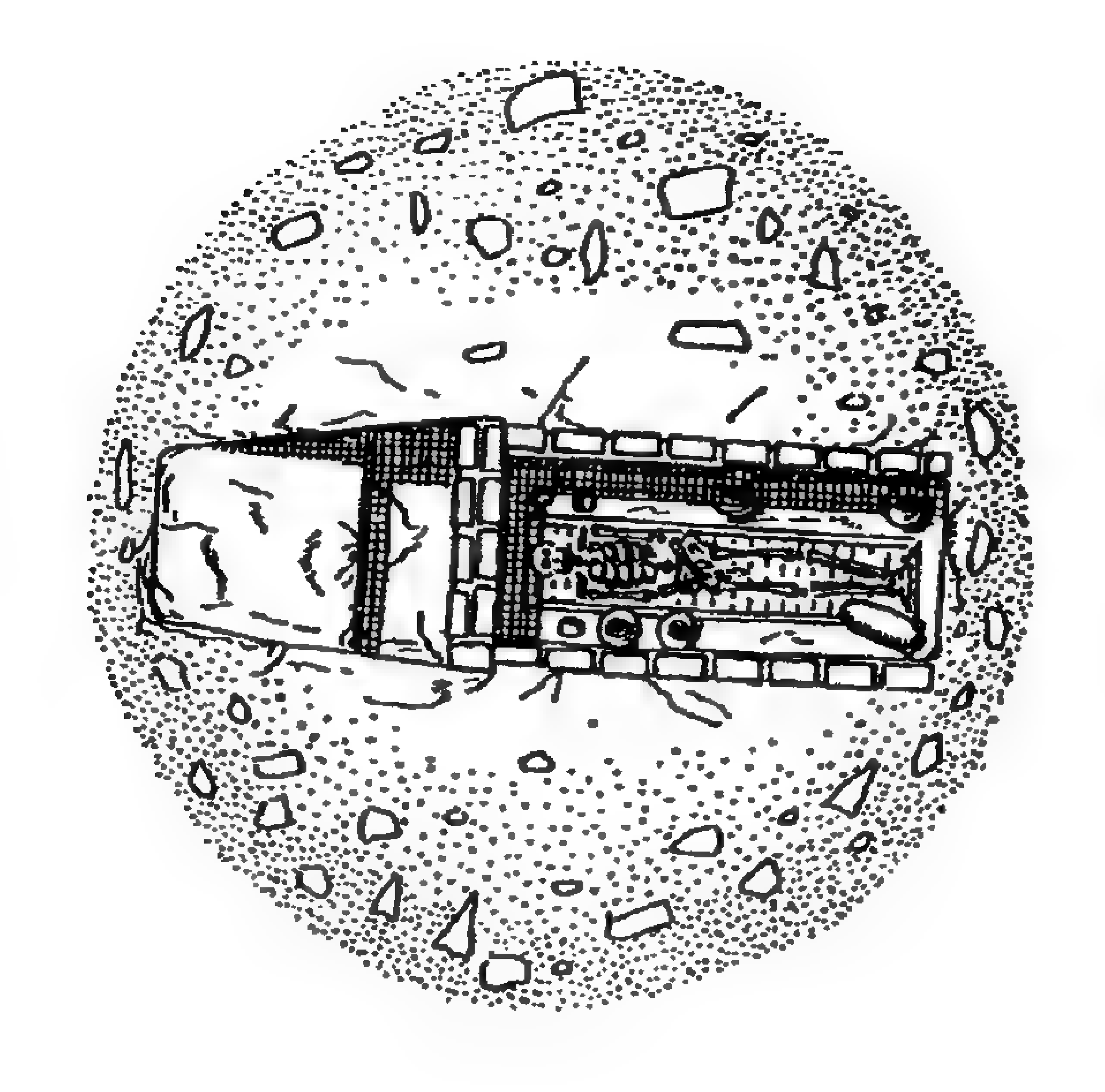
ومع أن مقابر ملوك المجموعة (س) والاشراف عثر عليها فى « بلانة » و « قسطل » (انظر صفحات ٥٧ ــ ٩٠) فانه لم يعثر على عاصمتهم بعد٠ ولابد أنها كانت موجودة قريبا من الجبانة الملكية ٠ وعندما تم الكشف عن المقابر ، عثر على بعض البقايا لعمائر بالقرب من شاطىء النهر فى «بلانة» ولكن أثبت الفحص أن هذه الأبنية ترجع الى عصر متأخر بالنسبة لعصر المجموعة (س) ويبدو أنها كانت ترجع الى العصر المسيحى ٠ وعلى مسافة قريبة شمال « قسطل » نجد المدينة المحصنة « عدة » ٠ وفى الغالب أن هذه المدينة هى العاصمة المفقودة لهؤلاء القوم ٠ فلقد شيدت المدينة على تل تحيط بها جبانة واسعة ٠ ولكن ، لسوء الحظ ، مثل « ابريم » ، كثر البناء فوقها فى عصور متأخرة ويجب حفرها وفحصها فحصا دقيقا ٠ وعلى أية حال ففى الجبانة المجاورة نجد دفنات متعددة على شكل كومات صغيرة تبدو

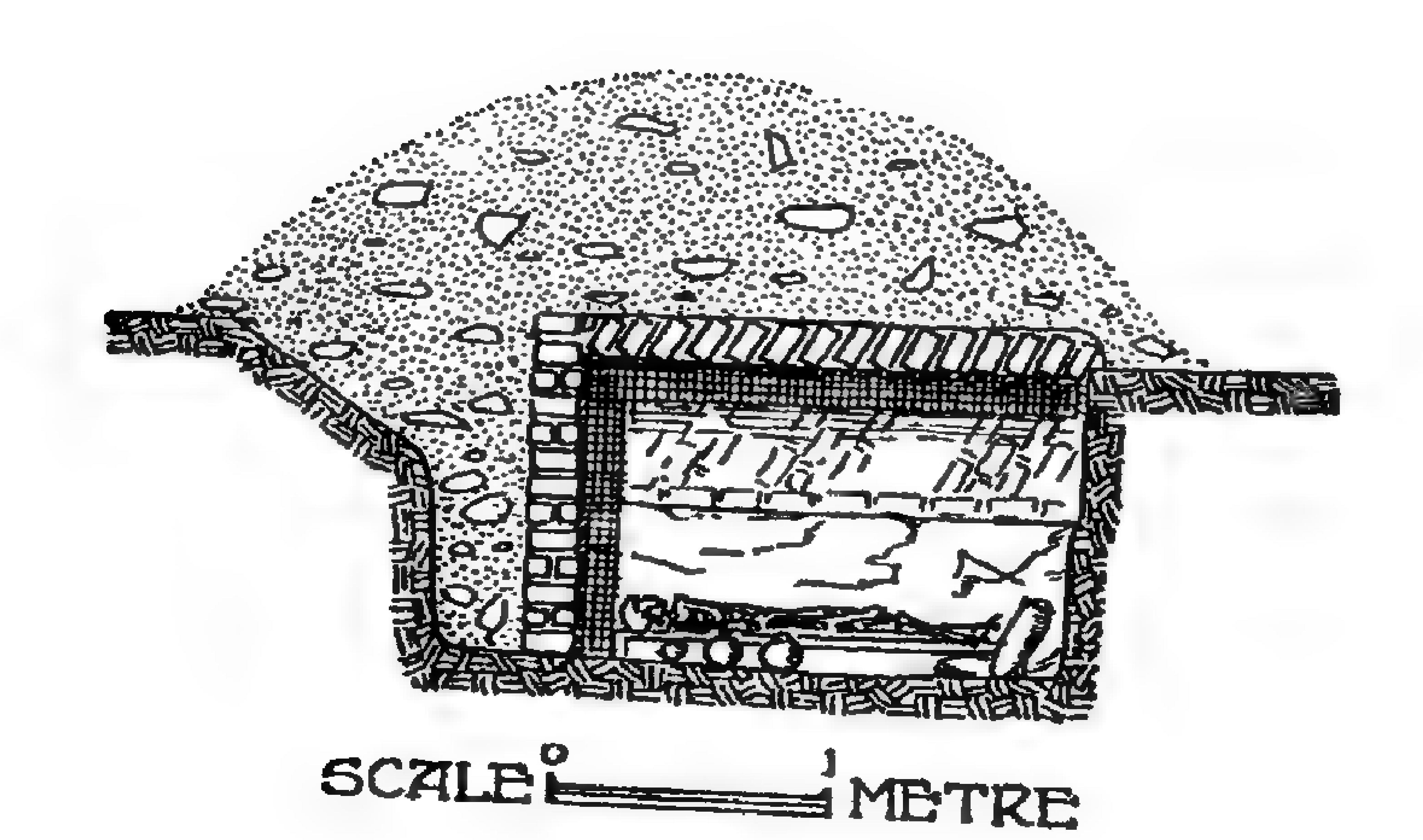

MAGAZINE
MAGAZINE
A-
-A
QUEENS BURIAL CHAMBER
KINGS BURIAL CHAMBER
ENTRANCE RAMP
SCALE 0 1 2 3 4 5 6 METRES

الشكل (٤٤)

أنها من أصـل المجموعة س ولذلك نعتقد أن « عدة » كانت مقر الملوك الذين حكموا النوبة فى القرن الرابع والخامس والسادس قبل الميلاد ٠

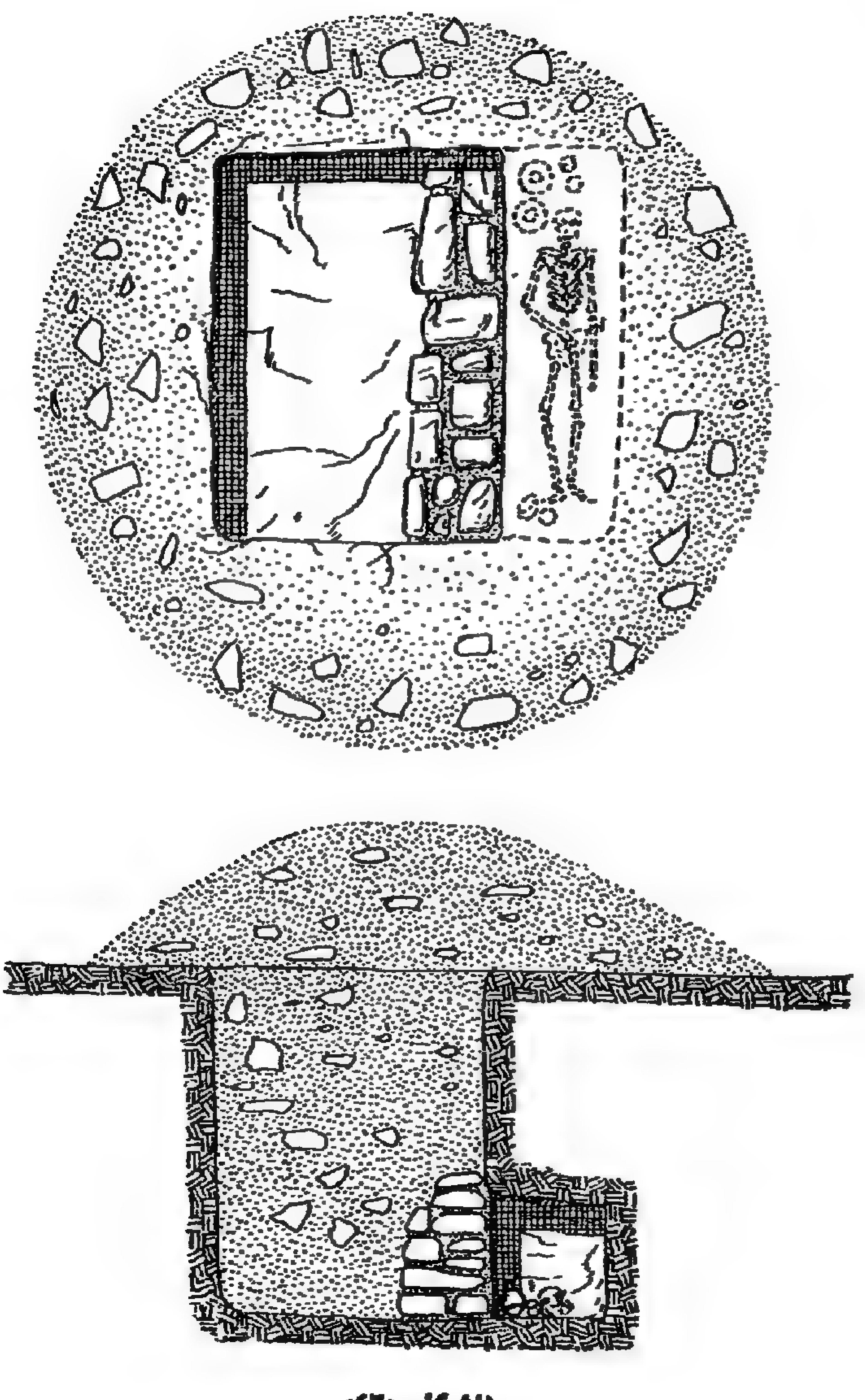
وإلى جانب المقابر الكبيرة للملوك المجموعة (س) والتي وصفتها في الفصل الثالث من الباب الثاني فلقد كشف عدة جبـانات ترجع الى هؤلاء النـــاس (شكل ٤٤) ولذلك فمعلوماتنا كثيرة عن شكل مقابرهم ومحتوياتها وهى تشير الى أى مدى كان هؤلاء الناس منظمين ولهم معتقدات جنائزية واضحة لا تختلف كثيرا عن منطقة وادي النيل التى تمتد الى مسافة تبلغ ثلاثمائة ميل ٠ ومع أن الجزء الذى يعلو سطح الأرض فى مقابر المجموعة س يختلف عن المقابر المروية فى أن الهرم المبنى أعطى مكانا لكومة مستديرة من الطين أو من قطع الحجر ، الا أن الجـزء المنقور فى الأرض بقى هو نفســه بكل تفاصيله ولا شك فى أن الحديث قد انحدر من القديم ٠ ان المقابر المغطاة بكومة والتى كانت لعامة الناس تنقسم الى ثلاثة أنواع : ونراها على الأشكال ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ٠ وكان اتجاه الجسد يختلف كما كانت تختلف أيضـــا طريقة وضعه ٠ فنجد بعضها مقرفص أو نصف مقرفص بينما نجد أيضـا الجسد الممتد أو الموضوع على الظهر أو على الجانب ٠ وتحوى المقبرة أوانى فخارية مختلفة الأحجام الكبيرة جدا والصغيرة جدا وكلها منقوش بنقـوش زاهية الألوان تشبه النوع المروي الرقيق الجوانب (شكل ٤٨ ، ٤٩) وقد عثر فى المقابر الأكثر ثراء على مصابيح برونزية وأوان وأدات للزينة وصناديق خشبية مطعمة بالعاج وأوان زجاجية وأدوات من الحديد وأسلحة ، أى كل ما كان يمكن أن يحتاجه الميت فى الحياة الثانية ٠ وكان الجســد يلف عادة فى ملابس من الكتان والصوف وأحيانا يوضع على سجادة أو على سرير خشبى غير مرتفع ٠ أما الفقراء فكانوا يدفنون معهم بعض الأوانى الفخارية وأكوابا للشرب وأطباقا مليئة بالمأكولات ٠





الشكل (٤٥)

ونرجع الى السؤال المحير : من هم أهل المجموعة (س) « البليمز » أم « النوباتاى » ؟ ليس فى نيتى أن أكتب بالتفصيل عن هذا الموضوع الذى لا يزال موضع جدل لكثير من رجال الآثار · وهو موضوع يمكن أن تطرأ عليه دلائل جديدة فى أى وقت عن طريق معول الحفار · الا أننى أعتقد أنه لن يكون خارج الموضوع الآن أن أفحص ما نعرفه عن أهل هذه المجموعة من نتائج الحفائر الحديثة :



الشكل (٤٦)

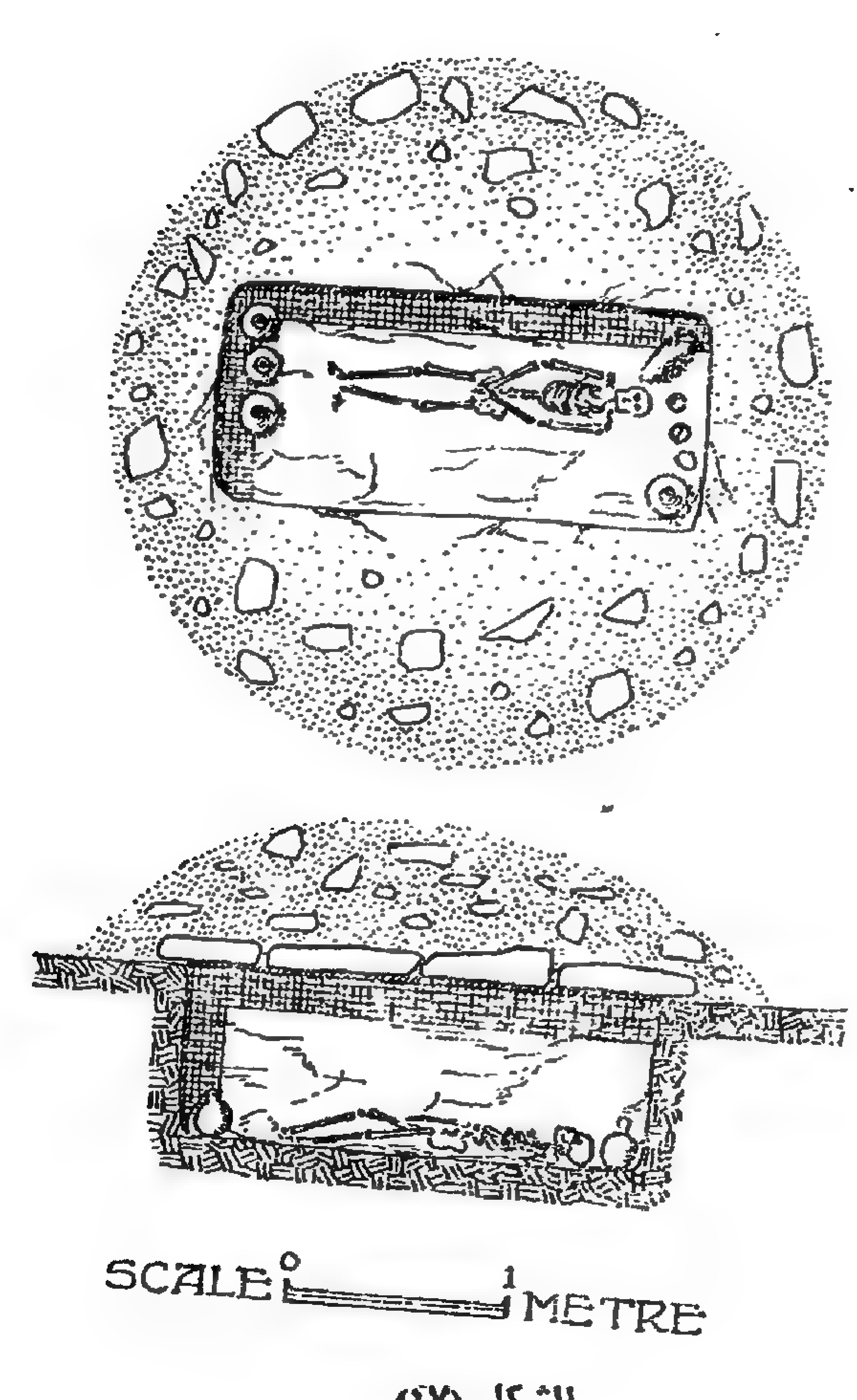
نموذج لمقابر من المجموعة المجهولة (×)

١ ـ كانت أجناسهم تنحدر من أصل مختلط قريب من المرويين ولكن من عنصر زنجي أقوى •

٢ ـ لقد احتلوا الجزء الأكبر من النوبة العليا والنوبة السفلى منذ عام ٢٥٠ ميلادية حتى ٥٥٠ ميلادية •

٣ ـ دفن ملوكهم في مقابر يعلوها كومة كبيرة في «بلانة» و «قسطل» •

٤ ـ يبدو أن مقر حكومتهم كان بالقرب من «بلانة» و «قسطل» •



الشكل (٤٧)

نموذج لمقابر من المجموعة المجهولة (×)

٥ ـ ان أكبر مركز تجميع لهم كان فى «كلابشة» (تالميس) «ابريم» (بريمس) «عدة» (عدوة)؛ «فرس» (باخورس) ، «جاماى» ، «فركا» ، «ساى» و «واوى» ٠

٦ ـ أكبر تجمع لمقابرهم يوجد حول منطقة « ابريم » ٠

٧ ـ ان مدافنهم فى «ابريم» و «بلانة» و «قسطل» امتدت فى فترة لاتقل عن مائتين وخمسين سنة ٠

٨ ـ كانوا هم المستوطنين فى «ابريم» (بريمس) عندما زارها « أولمبيودورس » (٤٠٧ ـ ٤٢٥ م) الذى وصفهم « بالبليمز » ٠

٩ ـ ان مقابرهم فى «ابريم» تمتد الى عصر متأخر عن مقابر «بلانة» و « قسطل » ٠

١٠ ـ كانوا وثنيين يعبدون آلهة « مرو » ومصر القديمة ٠

١١ ـ أتت حضارتهم بعد حضارة « مرو » مباشرة ولا شك فى أنها انحدرت منها ٠

١٢ ـ اتخذ ملوكهم تيجان ورموز الملكية المروية ٠

١٣ ـ أن تصميم مقابرهم تظهر علاقة واضحة مع الشكل المروى ٠

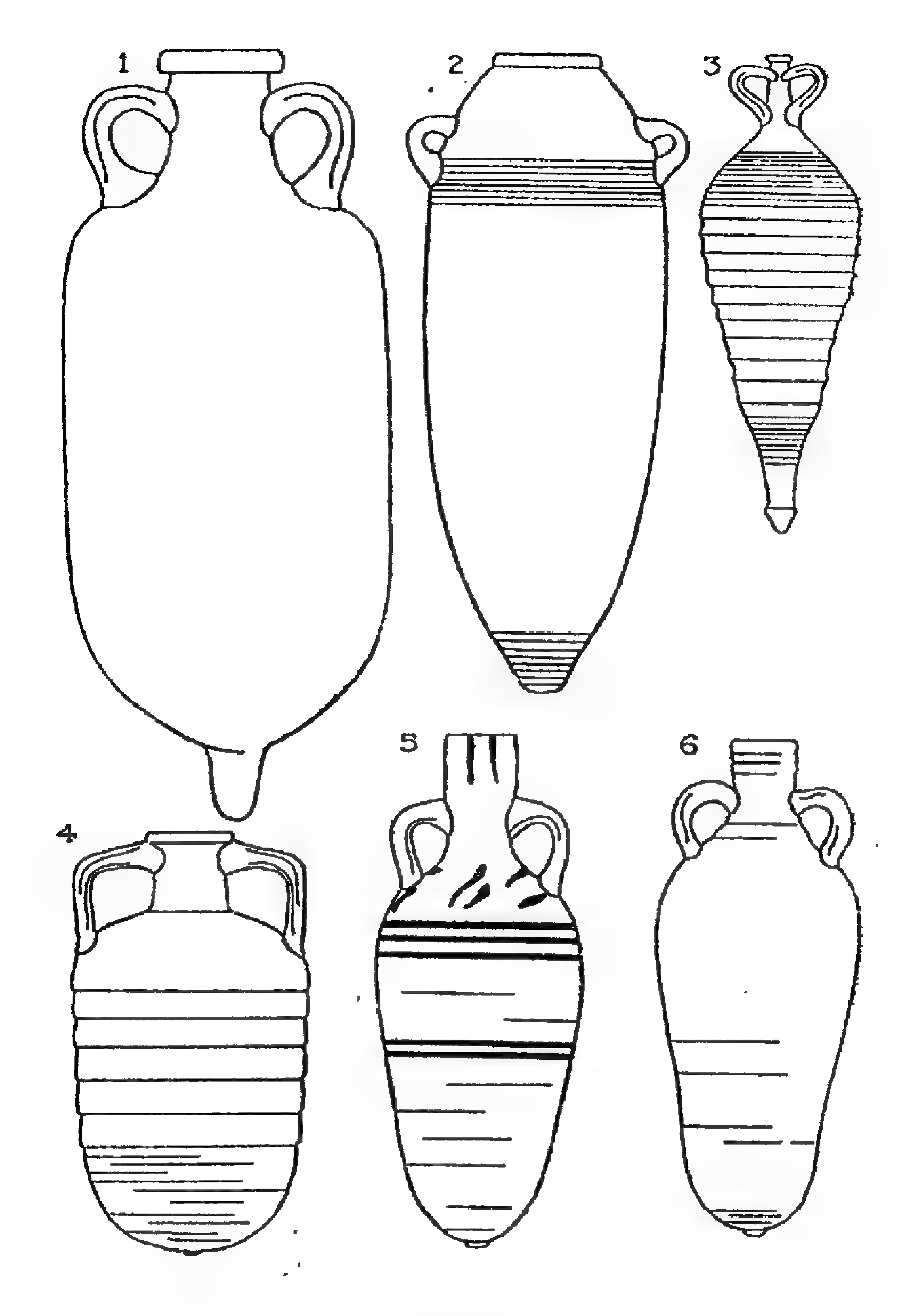
١٤ ـ ان فخارهم متأثر بالفخار المروى ماعدا الأنواع التى استوردوها ٠

١٥ ـ أساسهم الجنائزى يظهر تأثيرا وصنعة مروية وبيظانتية ٠

١٦ ـ واعتادوا فى حروبهم أن يستعملوا دروعا من جلد الثيران أما أسلحتهم فقد كانت من السيوف والبلط والأقواس والسهام والرماح ٠

١٧ ـ لم يعرفوا أو عرفوا قدرا قليلا جدا من الكتابة ٠

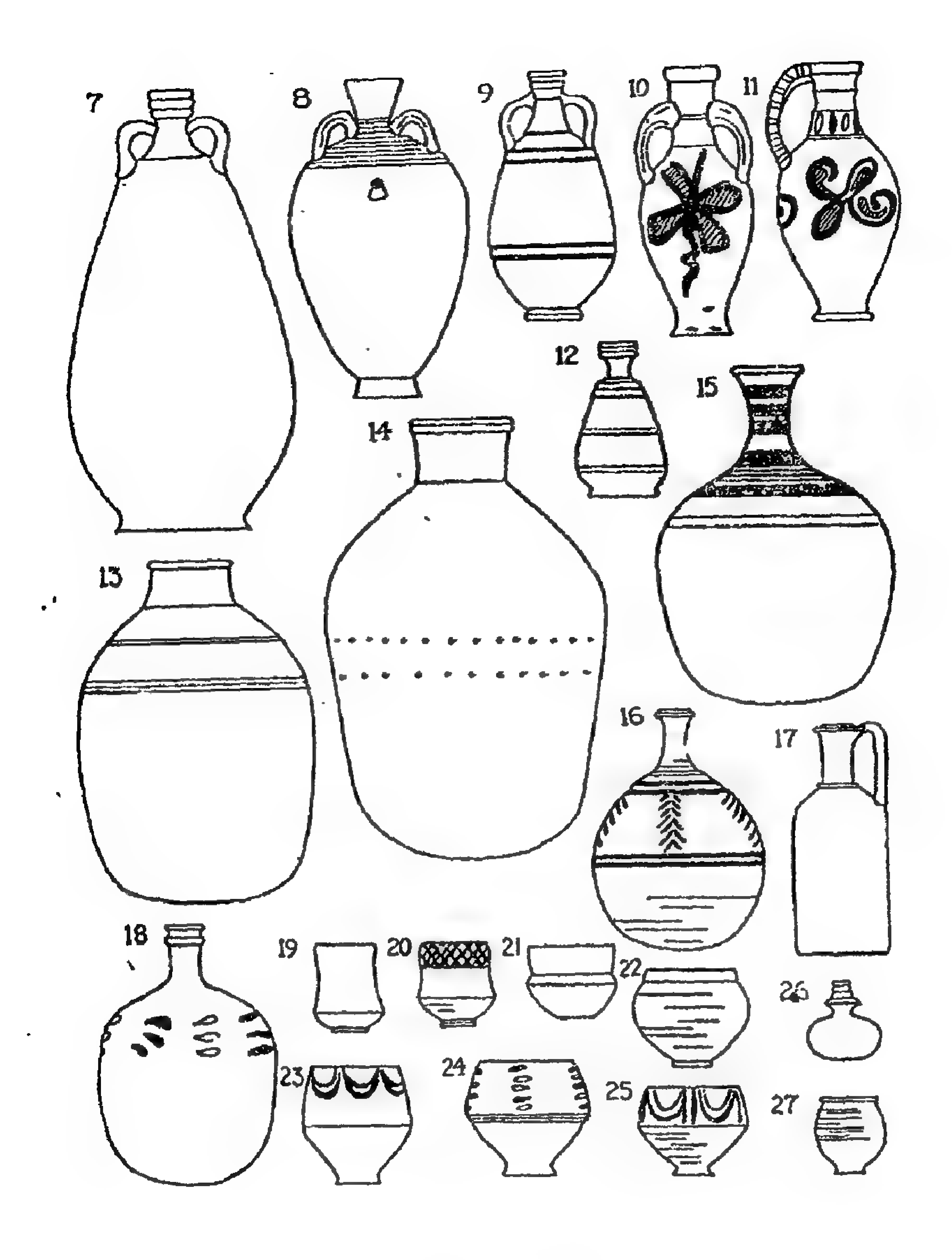
وفى تقريرى الرسمى عن كشف المقابر الملكية فى «بلانة» و «قسطل» والذى نشر فى عام ١٩٣٨ وضحت الأسباب لاعتبارى مجموعة (س) أنهم « البليمز » والحفائر فى عام ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣ فى جبانة (ابريم) «بريمس» لم تعطنى أى سبب لتغيير رأيى ٠ ونظرا لأن الاسهاب فى هذا الموضوع بعيد عن هذا الكتاب فانى أعتقد أن الحقائق التى أجملتها فيما سبق هى فى نظرى ، الدليل لاعتبار حضارة المجموعة (س) تابعة للقوم الذين سماهم الرومان « البليمز » والذين اعتبروهم الأبطال الأخيرين للعقائد الدينية البالية لمصر القديمة ٠



الشكل ٤٨

نموذج لفخار حضارة المجموعة المجهولة (X)

١ ـ فخار احمر ـ ٢ و ٣ ـ فخار بني ٤ ـ فخار احمر او اصفر ذو صبغة صفراء فاتحة ٥ ـ فخار احمر ذو رسوم سوداء ٦ ـ فخار احمر ذو صبغة وردية ٠



الشـــكل ٤٩

نموذج لفخار حضارة المجموعة المجهولة (×).

٧ ـ فخار أحمر ٨ ـ فخار أصفر ٩ ـ فخار أحمر ذو رسوم سوداء ١٠ و ١١ فخار أصفر ووردى ذو رسوم سوداء وحمراء ١٢ ـ فخار أصفر ١٣ ـ فخار أحمر ذو رسوم سوداء وحمراء ١٤ ـ فخار أحمر ١٥ و ١٦ فخار أحمر أو فخار أصفر ذو رسوم حمراء وسوداء ١٧ ـ فخار أحمر ١٨ ـ فخار أحمر أو أصفر ذو رسوم بيضاء وسوداء وحمراء ١٩ ـ فخار أصفر ٢٠ ـ فخار أصفر ذو رسوم حمراء أو صفراء ٢١ ـ ٢٢ ـ فخار أحمر ٢٣ ـ ٢٥ ـ فخار أحمر ذو رسوم سوداء وبيضاء ٢٦ ـ فخار بنى ٢٧ ـ فخار أحمر .



Arkell, A.J. — Early Khartoum, Oxford, 1949.

Arkell, A.J. — Shaheinab, Oxford, 1953.

Arkell, A.J. — A History of the Sudan, London, 1955.

Bates, O. — « Excavations at Gemmai », Harvard African Studies, VIII, 1927.

Blackman, A.M. — The Temple of Dendur, Cairo, 1911.

Blackman, A.M. — The Temple of Derr, Cairo, 1913.

Blackman, A.M. — The Temple of Bigeh, Cairo, 1915.

Breasted, J.H. — Ancient Records of Egypt, Chicago, 1906.

Breasted, J.H. — A History of Egypt, London, 1951.

Budge, E.A.W. — The Egyptian Sudan, London, 1912.

Budge, E.A.W. — A History of Ethiopia, London, 1928.

Chapman, S.E. and Durham, Dows — The Royal Cemeteries of Kush, III, Boston, 1952.

Clarke, Somers — « Ancient Egyptian Frontier Fortresses », Journal of Egyptian Archaeology, III, 1916.

Crowfoot, J.W. — « Christian Nubia », ibid., XIII, 1927.

Davies, Nina de G. and Gardiner, A.H. — The Tomb of Huy, London, 1926.

De Villard, U.M. — La Nubie Médiévale, Cairo, 1935.

Dunham, Dows — El Kurru, Boston, 1955.

Dunham, Dows — Semna Kumma, Boston, 1960.

Dunham, DoWs — « Excavations at Gemmai », Harvard African Studies, VIII.

Edwards, A.B. — A Thousand Miles up the Nile, London, 1877.

Emery, W.B. and Kirwan, L.P. — The Excavations and Survey between Wadi esSebua and Adindan, Cairo, 1935.

Emery, W.B. — The Royal Tombs of Ballana and Kostol at Abydos, Liverpool Annals of Archeaology and Anthropology, vol. X, 1922.

Emery, W.B. — The Royal Tombs of Ballana and Rostol, Cairo, 1938.

Emery, W.B. — Nubian Treasure, London, 1948.

Emery, W.B. — Preliminary Reports on the Excavations of the Egypt Exploration Society at Buhen.

Kush, Vol. VII, 1959.

Vol. VIII, 1960.

Vol. IX, 1961.

Vol. X, 1962.

Fairman, H.W. — Preliminary Reports on the Excavations at Amara West.

Journal of Egyptian Archaeology, XXIV, 1938.

» » » XXV, 1939.

» » » XXXIV, 1948.

Firth, C.M. — The Archaeological Survey of Nubia. Reports, Cairo, 1912, 1915, 1927.

Gardiner, A.H. — « The Defeat of the Hyksos by Kamose ». Journal of Egyptian Archaeology, III, 1916.

Gardiner, A.H. — Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1961.

Garstang J. Sayee, A.H. and Griffith, F.U. — Meroe, the city of the Ethiopians, Oxford, 1911.

Gauthier, H. — Le Temple de Kalabchah, Cairo, 1911.

Gauthier, H. — Le Temple de Ouadi es-Sebouâ, 1912.

Gauthier, H. — Le Temple d'Amada, Cairo, 1913.

Griffith, F.U. — » Oxford Excavations in Nubia », Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, 1921-22-23, 1928.

Griffith, F.U. — Catalogue of the Demotic Graffiti of the Dodecaschoenus, Oxford, 1935.

Hal, H.R. — The Ancient History of the Near East, London, 1932.

Junker, H. — Bericht über die Grabungen der Akademie der Wissenschaften im Wien auf den Friedhöfen von El-Kubanieh Nord, Vienna, 1920.

Junker, H. — Bericht über die Grabungen der Akademie der Wissenschaften im Wien auff den Friedhöfen von Ermenne, Vienna, 1925.

Kirwan, L.P. — « A Survey of Nubian Origins », Sudan Notes and Records, XX, 1937.

Kirwan, L.P. — The Oxford University Excavations at Firka, Oxford, 1939.

Lepsius, C.R. — Denkmäler aus Aegypten und Aethiopien, Berlin, 1849-59.

Macadam, M.F.L. — The Temples of Kawa, Oxford, 1949.

Maspéro, G. — Les Temples immergés de la Nubie, Cairo, 1909-10, 1911.

Michalowsky, K. — Polish Excavations at Faras, 1961, Kush X, 1962.

Porter, B. and Moss, L.B. — Topographical Bibliography of Ancient Egyptian Hieroglyphic Texts, Reliefs and Paintings, vol. VII, Oxford, 1951.

Posener, G. — « The Location of the Land of Kush during the Middle Kingdom », Kush, vol. VI, 1958.

Randall-Maciver, D. and Woolley, C.L. — Areika, Philadel-

phia, 1909, Karanog, Philadelphia, 1910, Buhen, Philadelphia, 1911.

Reisner, G. — The Archaeological Survey of Nubia, Report for 1907-8, Cairo, 1910.

Reisner, G. — « The Viceroys of Ethiopia », J.E.A., London, 1920.

Reisner, G. — « Excavations at Kerma », Harvard African Studies, vols. V and VI, Cambridge, Mass., 1923.

Reisner, G. — « The Meroitic Kingdom of Ethiopia », J.E.A., London, 1923.

Reisner, G. — Clay sealings of Dynasty, XIII from Uronarti Fort », Kush III, 1955.

Reisner, G. — The Egyptian Forts from Halfa to Semna », Kush VIII, 1960.

Roeder, G. — Debod bis Bab Kalabsche, Cairo, 1911, Der Tempel von Dabka, Cairo, 1913.

Saüe-Söderbergh, T. — Aegypten und Nubian, Lund, 1941.

Saüe-Söderbergh, T. — «A Buhen Stela from the Second Intermediate Period », J.E.A., London, 1949.

Saüe-Söderbergh, T. — The Nubian Kingdom of the Second Intermediate Period, Kush, IV, 1956.

Saüe-Söderbergh, T. — Preliminary Report of the Scandinavian Joint Expedition, Kush X, 1962.

Schiff Giorgin, M. — Reports on the Excavations at Soleb, Kush, VI, 1958, VII, 1959, VIII, 1960, IX, 1961, X, 1962.

Smither, P.C. — The Semnah Despatches, J.E.A., London, 1945.

Steindorff, G. — Aniba, Cairo, 1935-1937.

Vercoutter, J. — Kor est-il Iken ? Kush III, 1955.

Vercoutter, J. — « Upper Egyptian Settlers in Middle Kingdom Nubia », Kush, V, 1957.

Vercoutter, J. — « The Gold of Kush », Kush, VII, 1959.

Weigall, A.E.P. — Report on the Antiquities of Lower Nubia, Cairo, 1907.

فهرس اللوحات



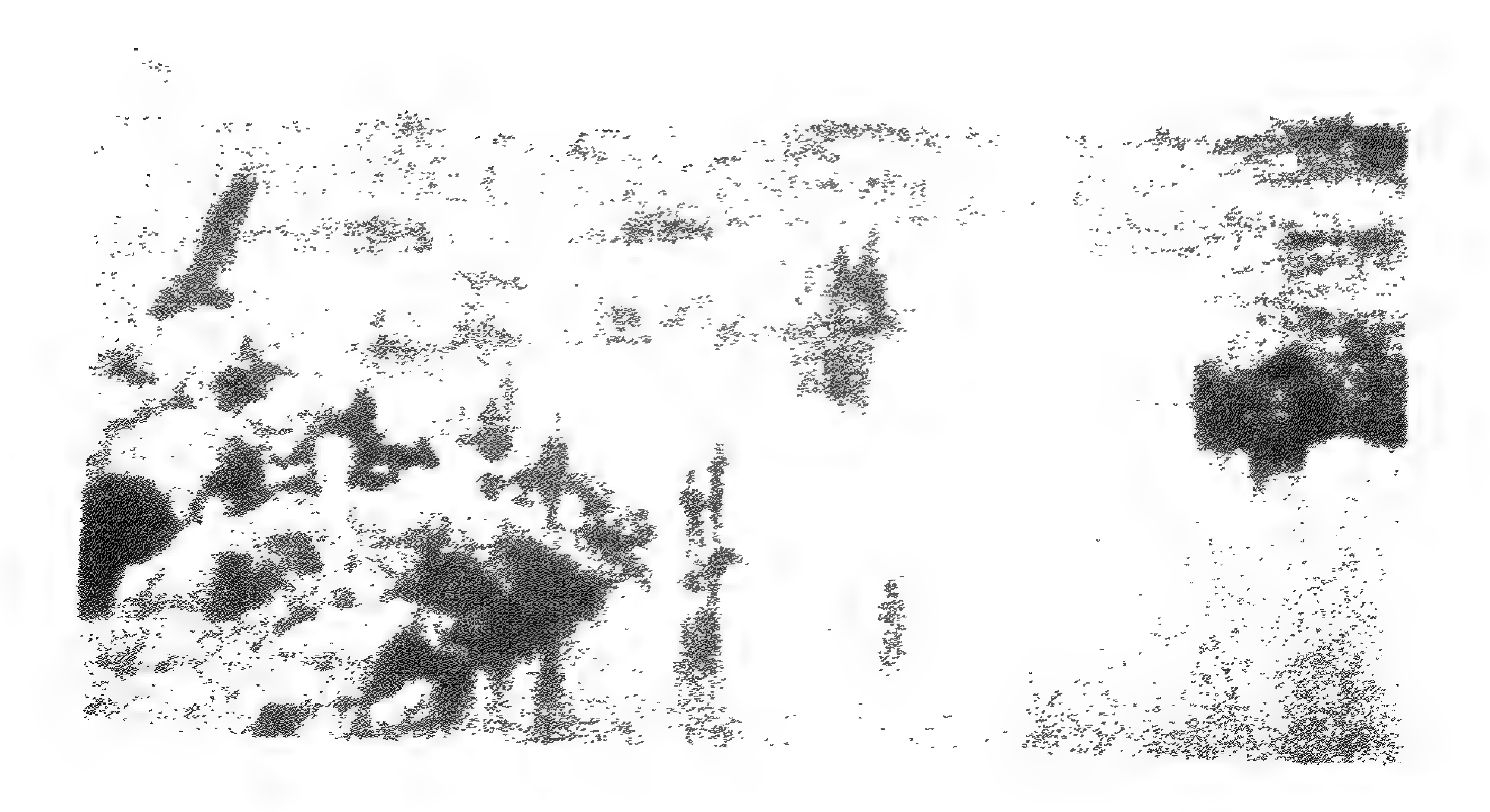
لوحة (١)

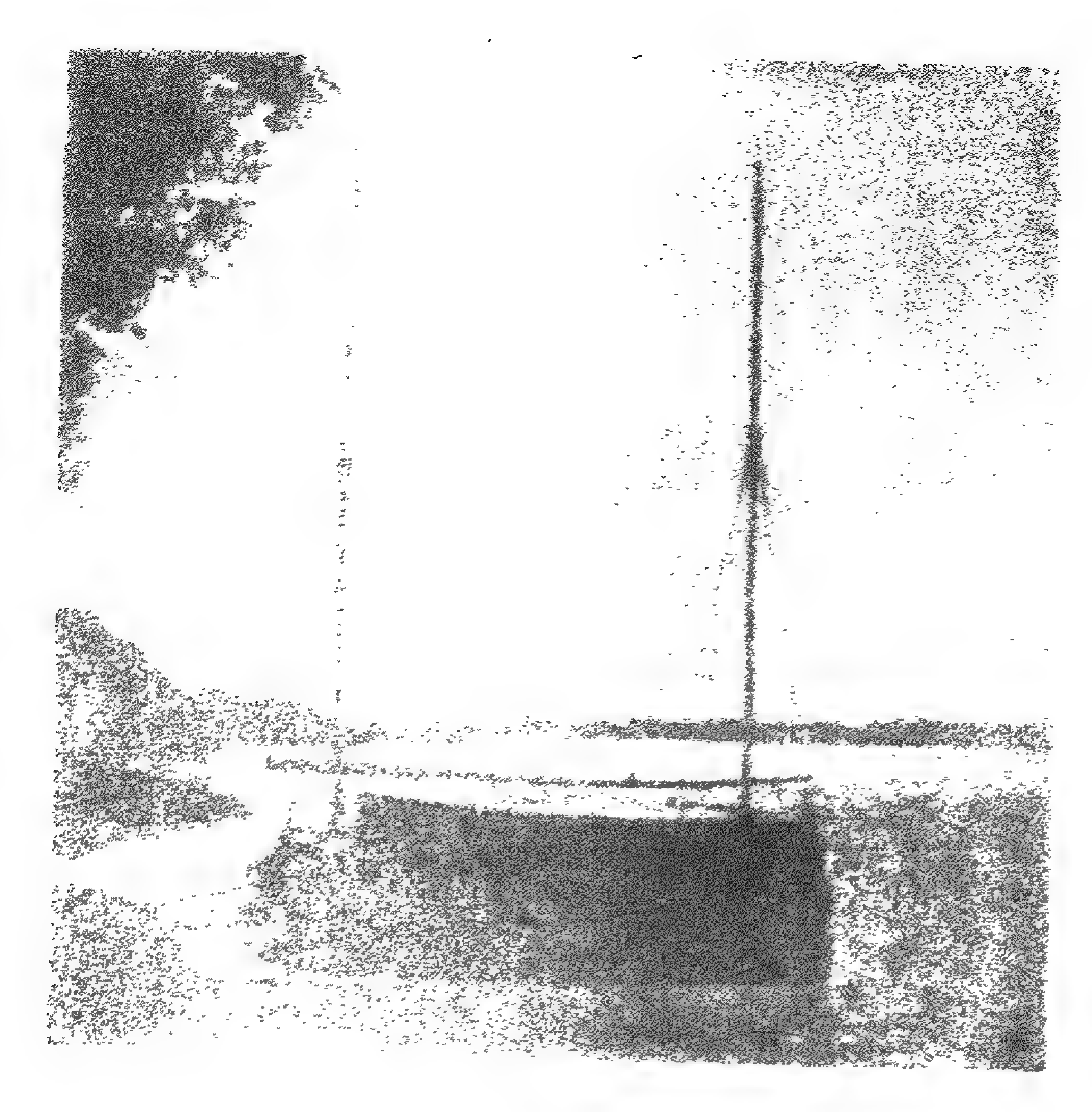
أصدقاؤنا النوبيون





لوحة (٢)
الطبيعة النوبية





لوحة (٣)
مقسرتا

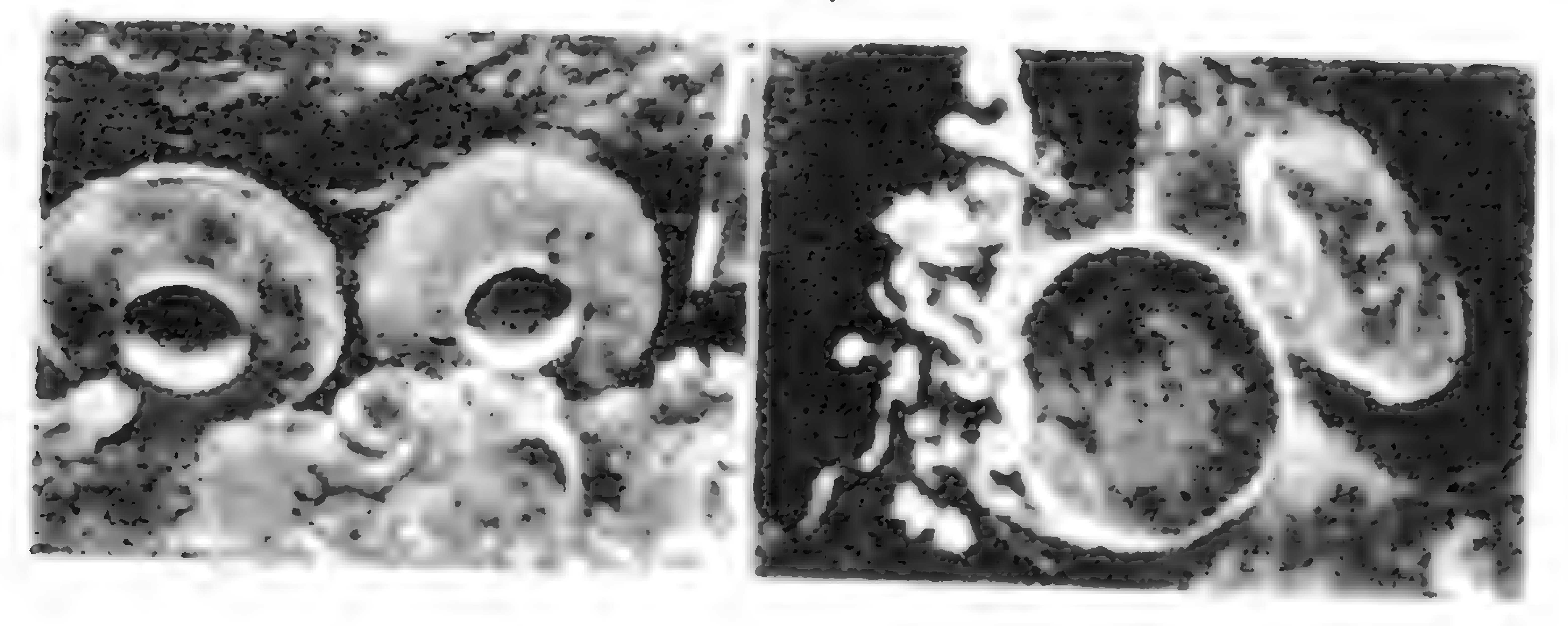


لوحة (٤) بلانة وقسطل



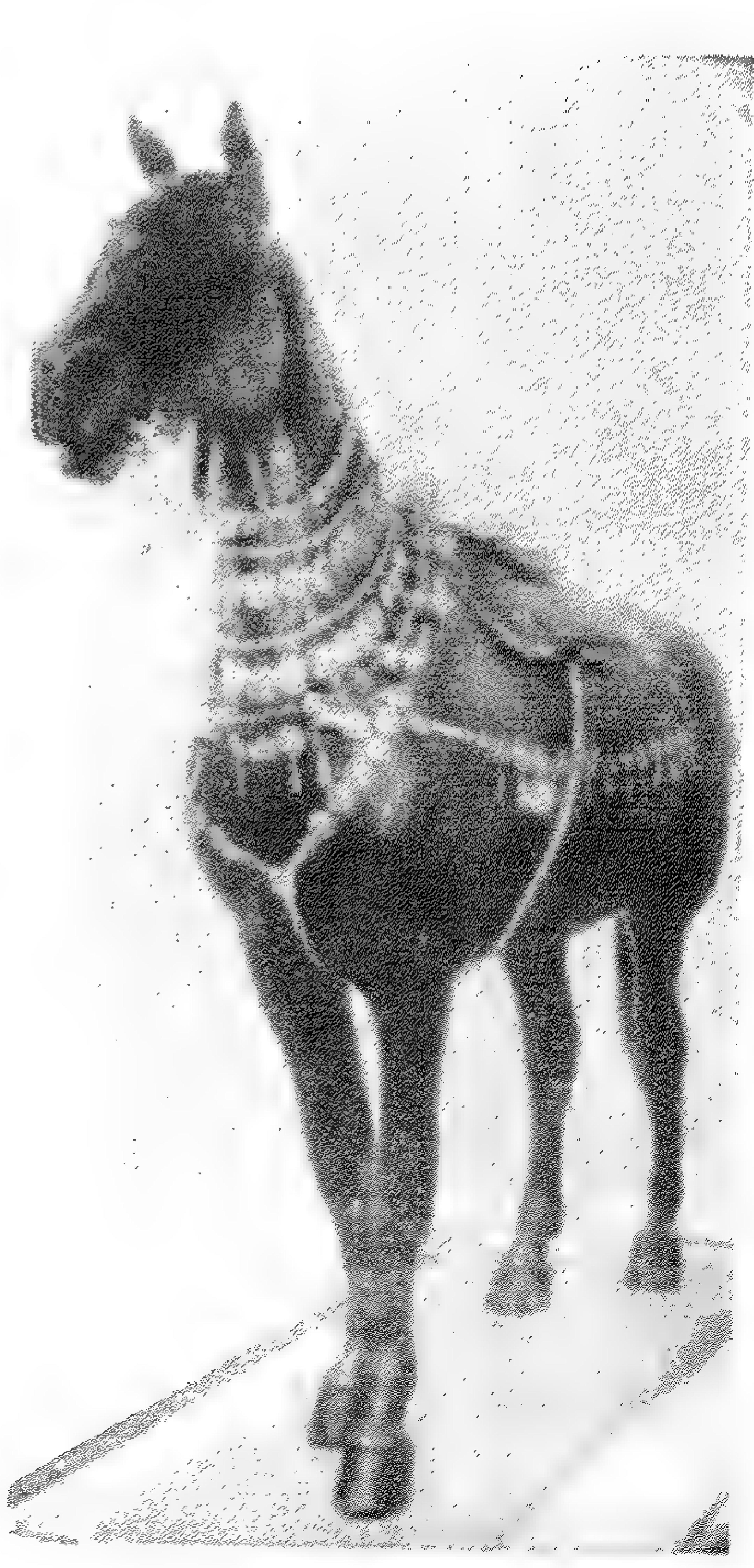
لوحه (٥) بلاله ونسطر

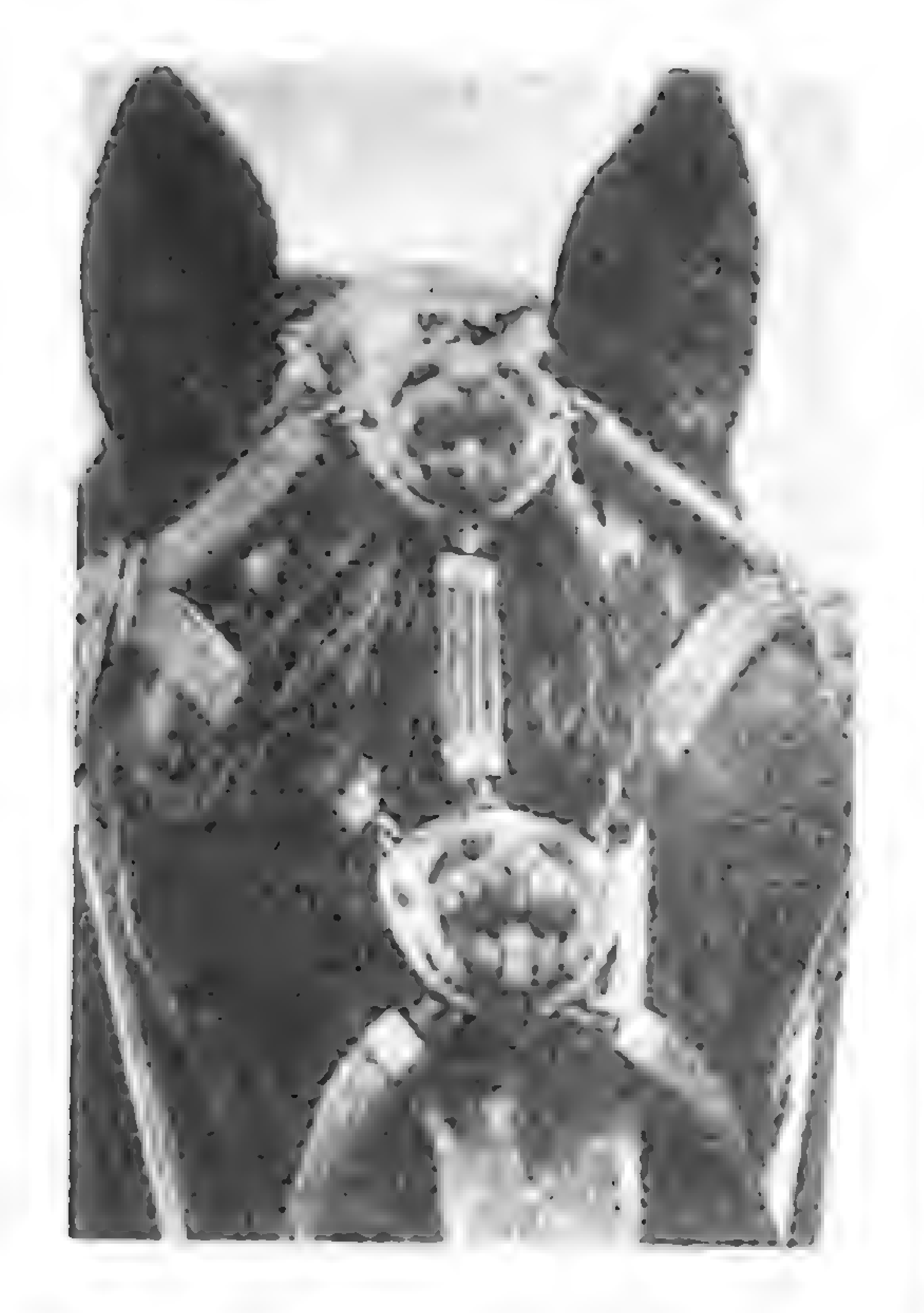
لوحة (٦)
بلانة وقسطل

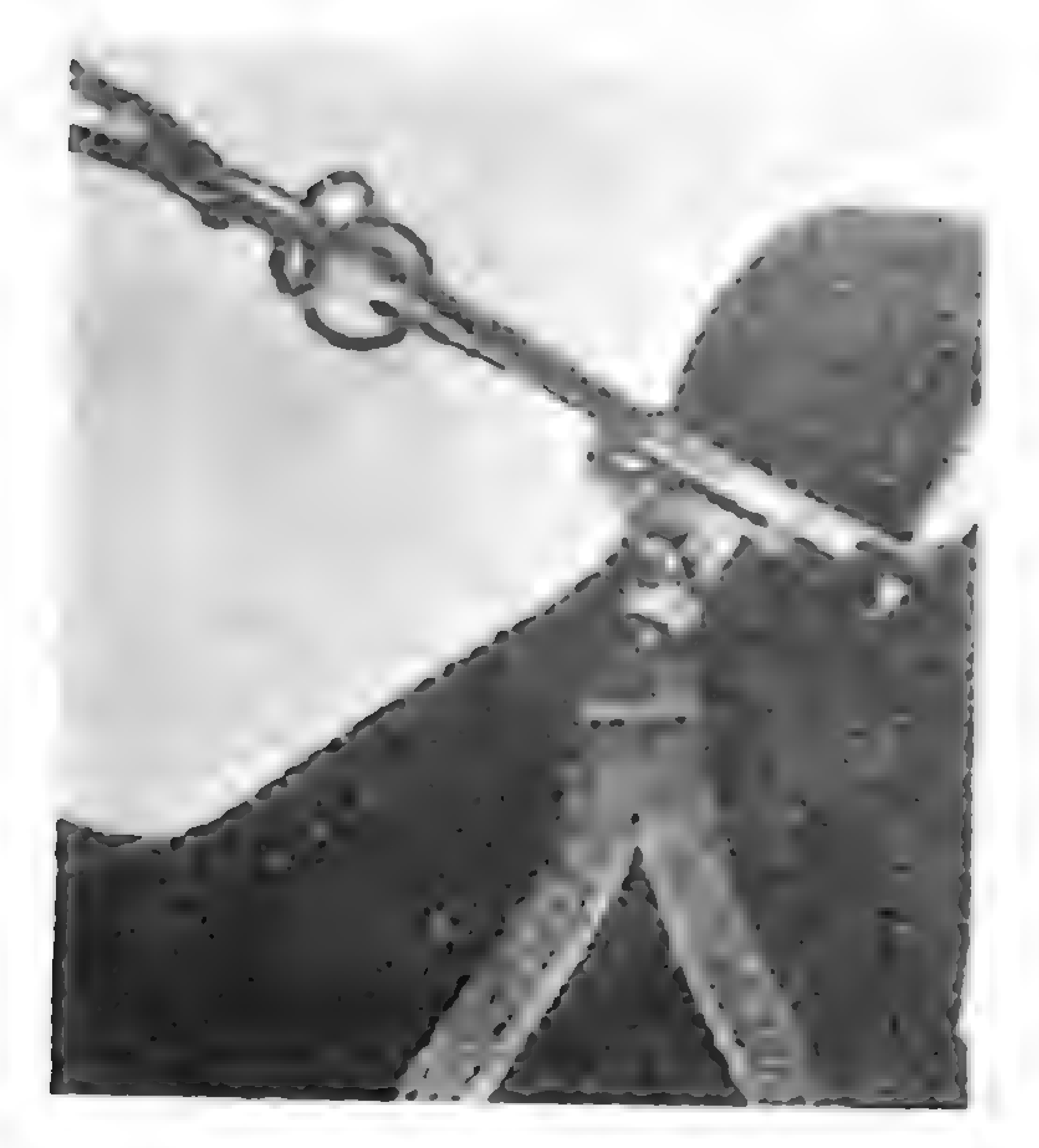


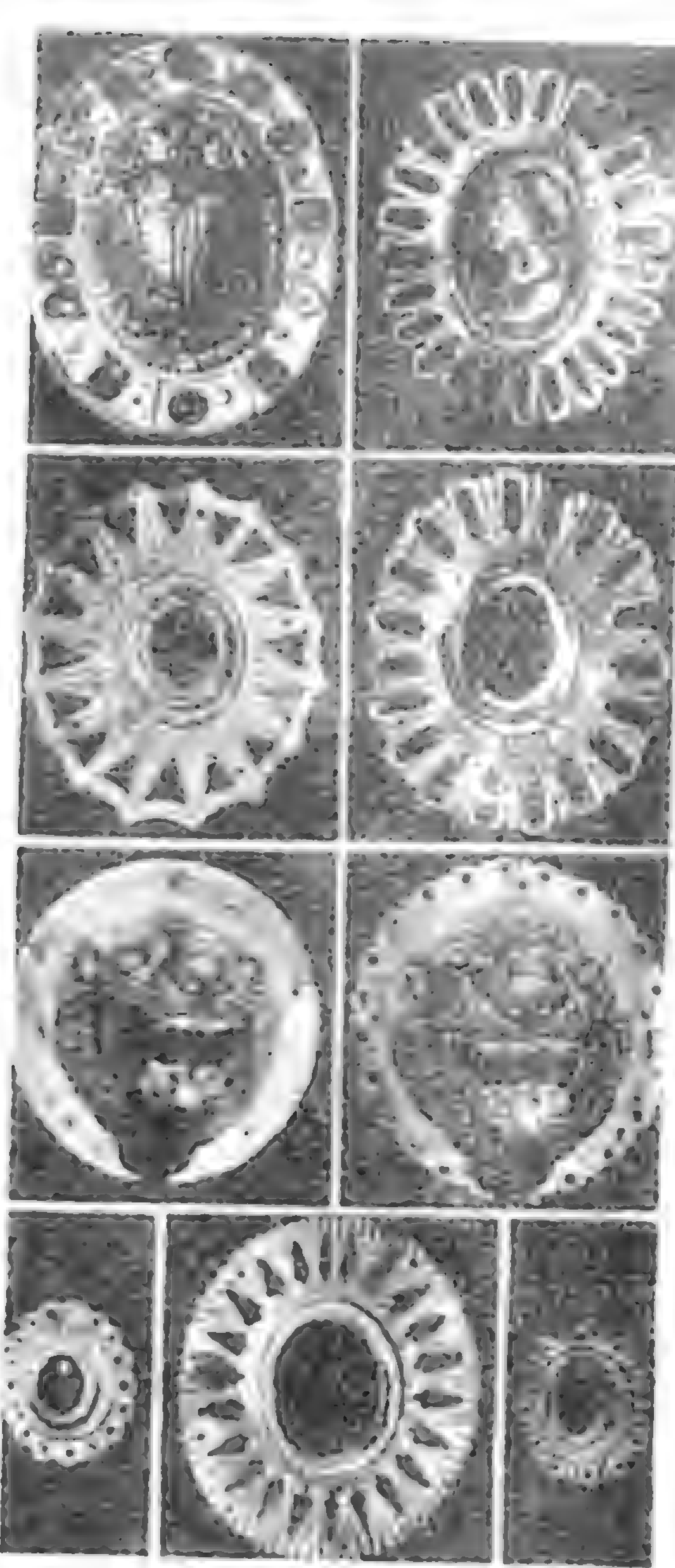


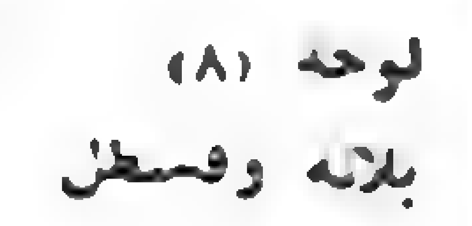
لوحة (٧)
بلاتة وقسطل



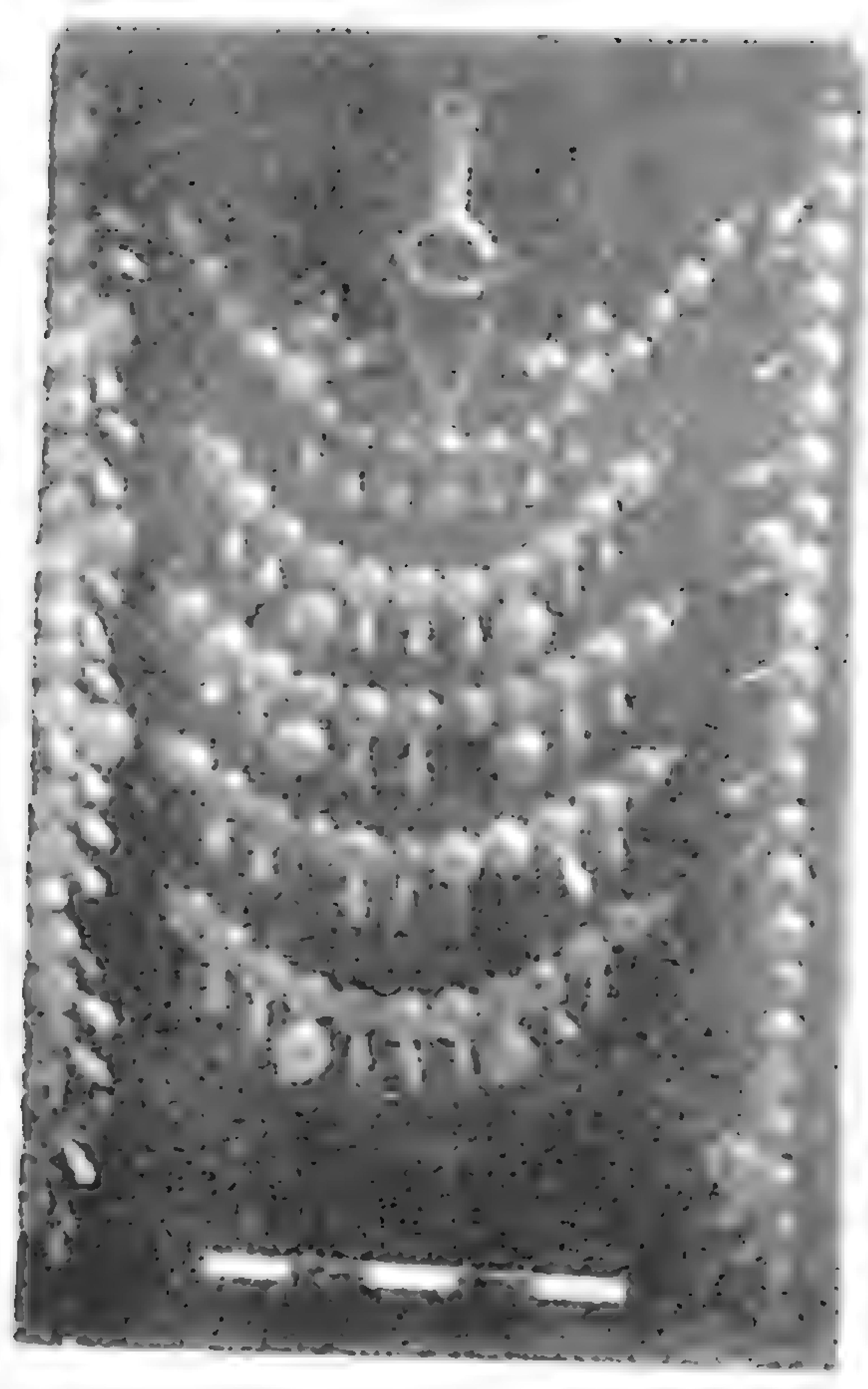








لوحه (٨)
بلاه وقسطل



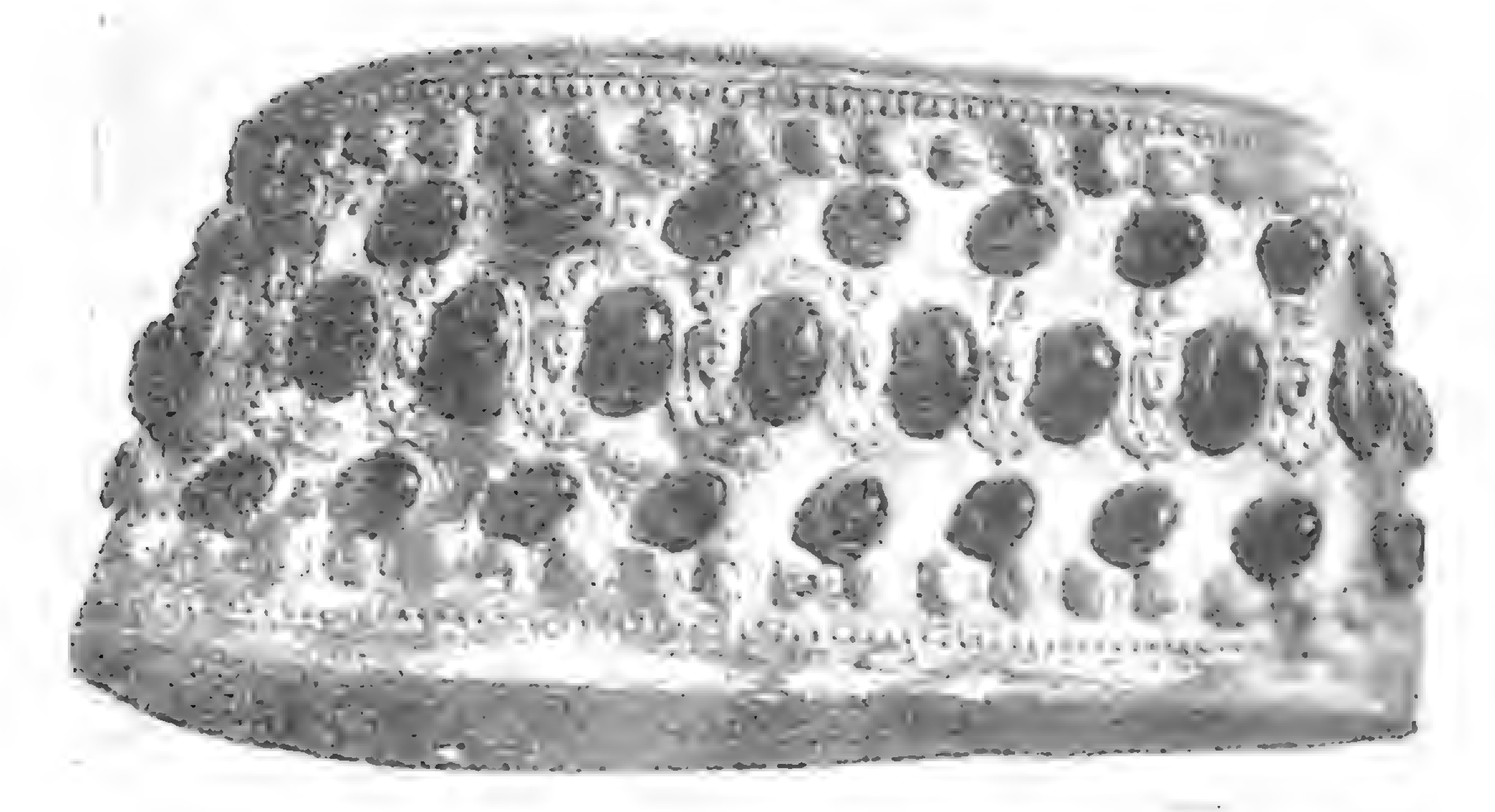
لوحة (٩)

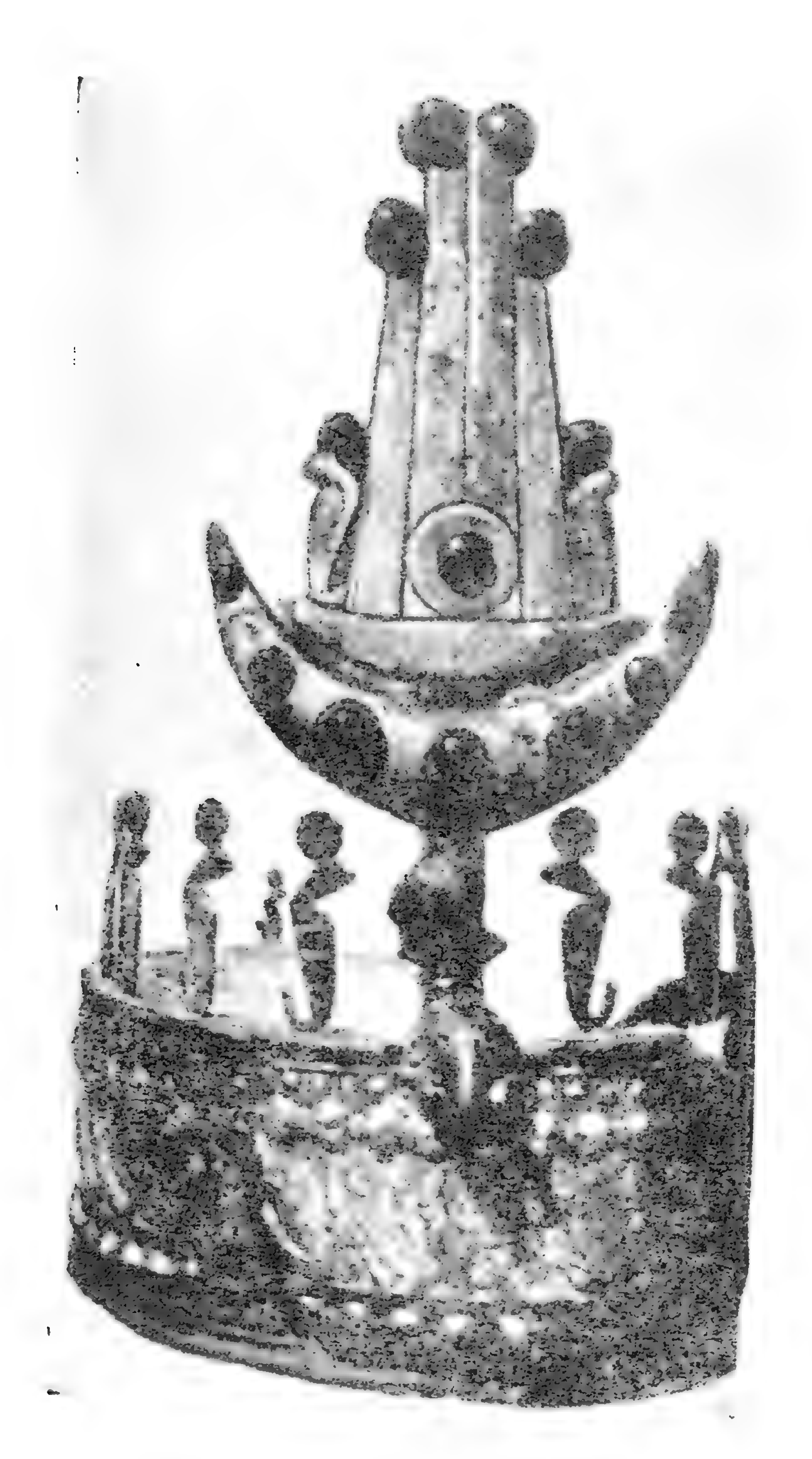
بلانة وقسطل



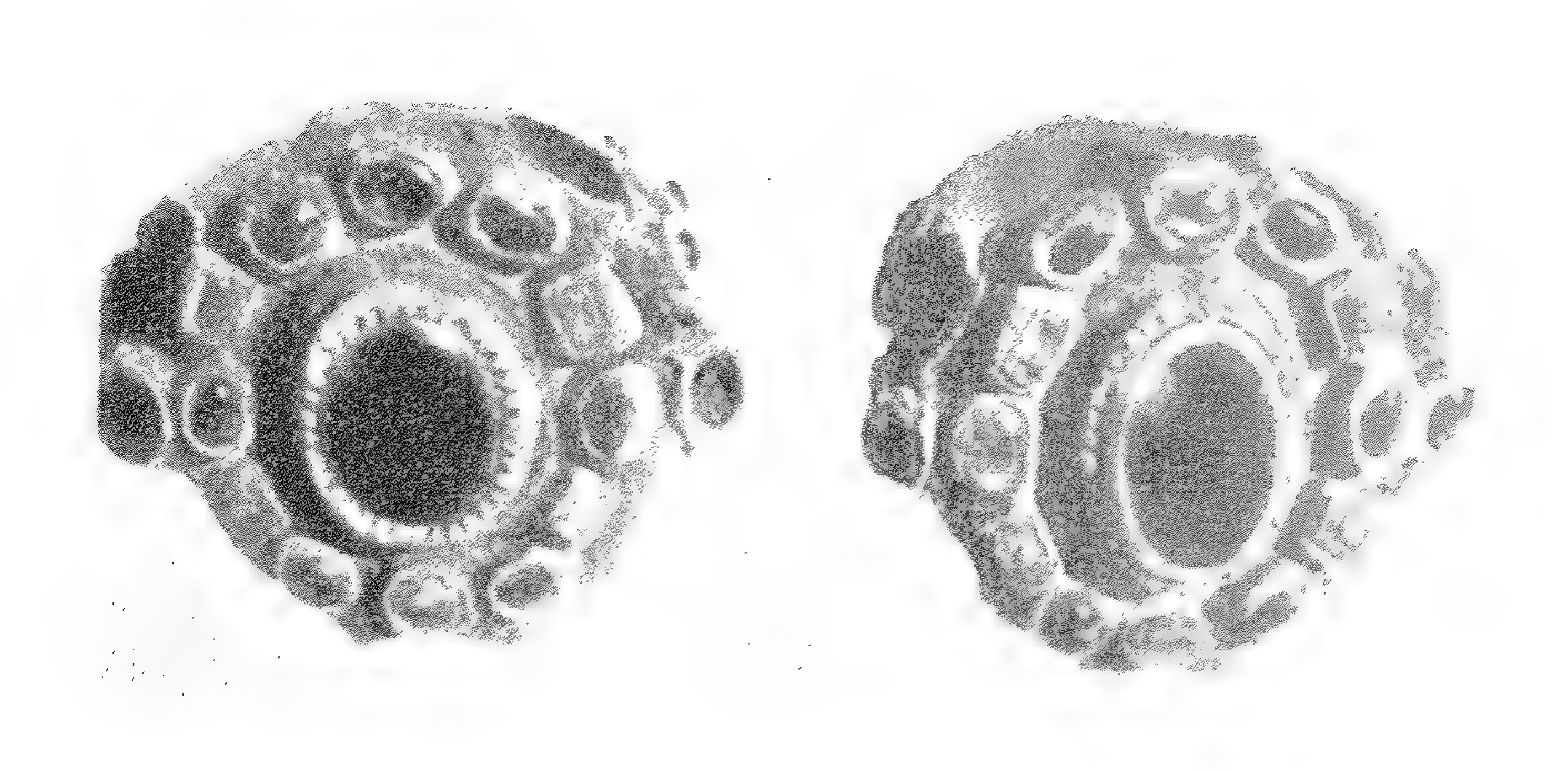
(لوحة ١٠)

تاج وخلخال

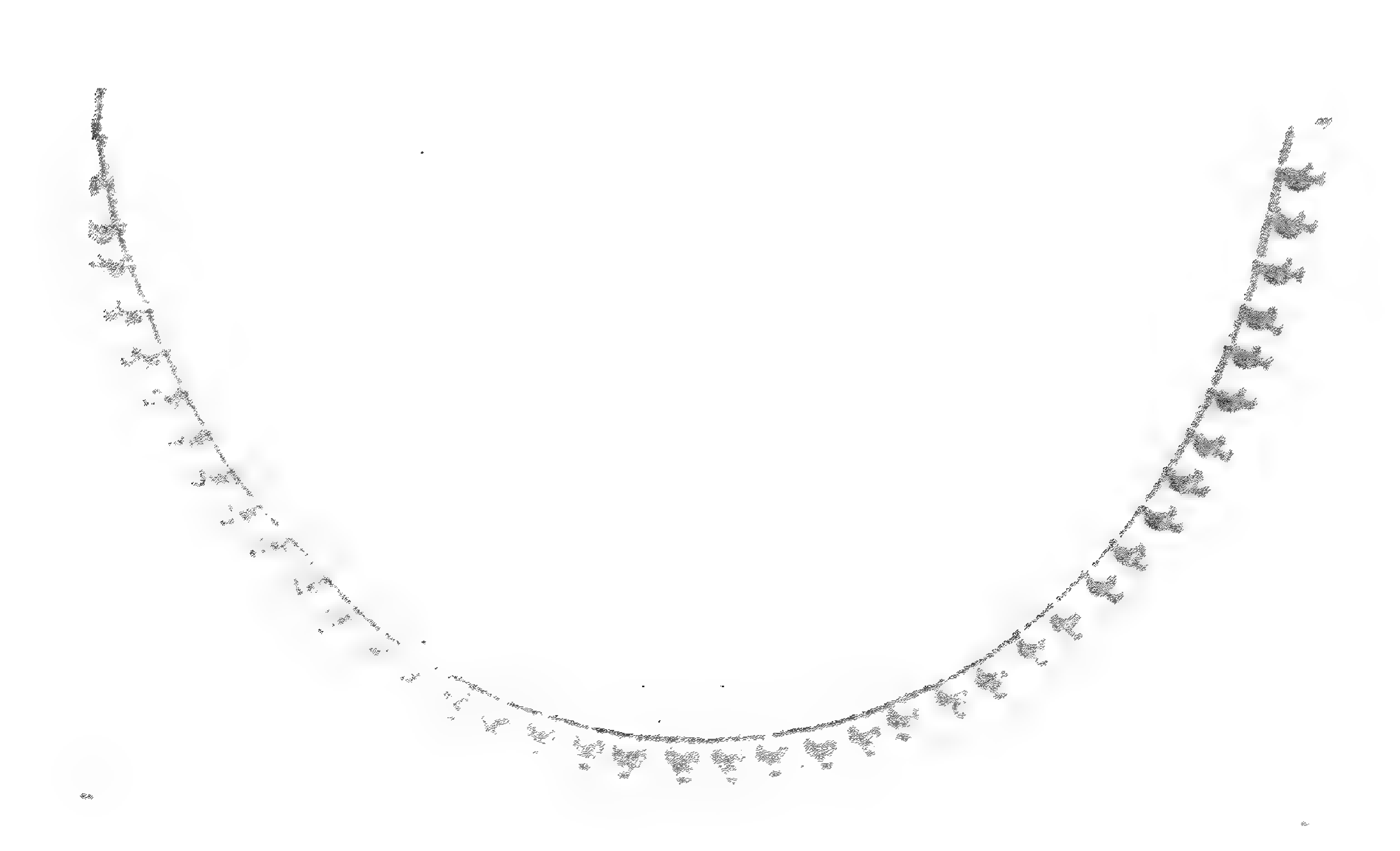


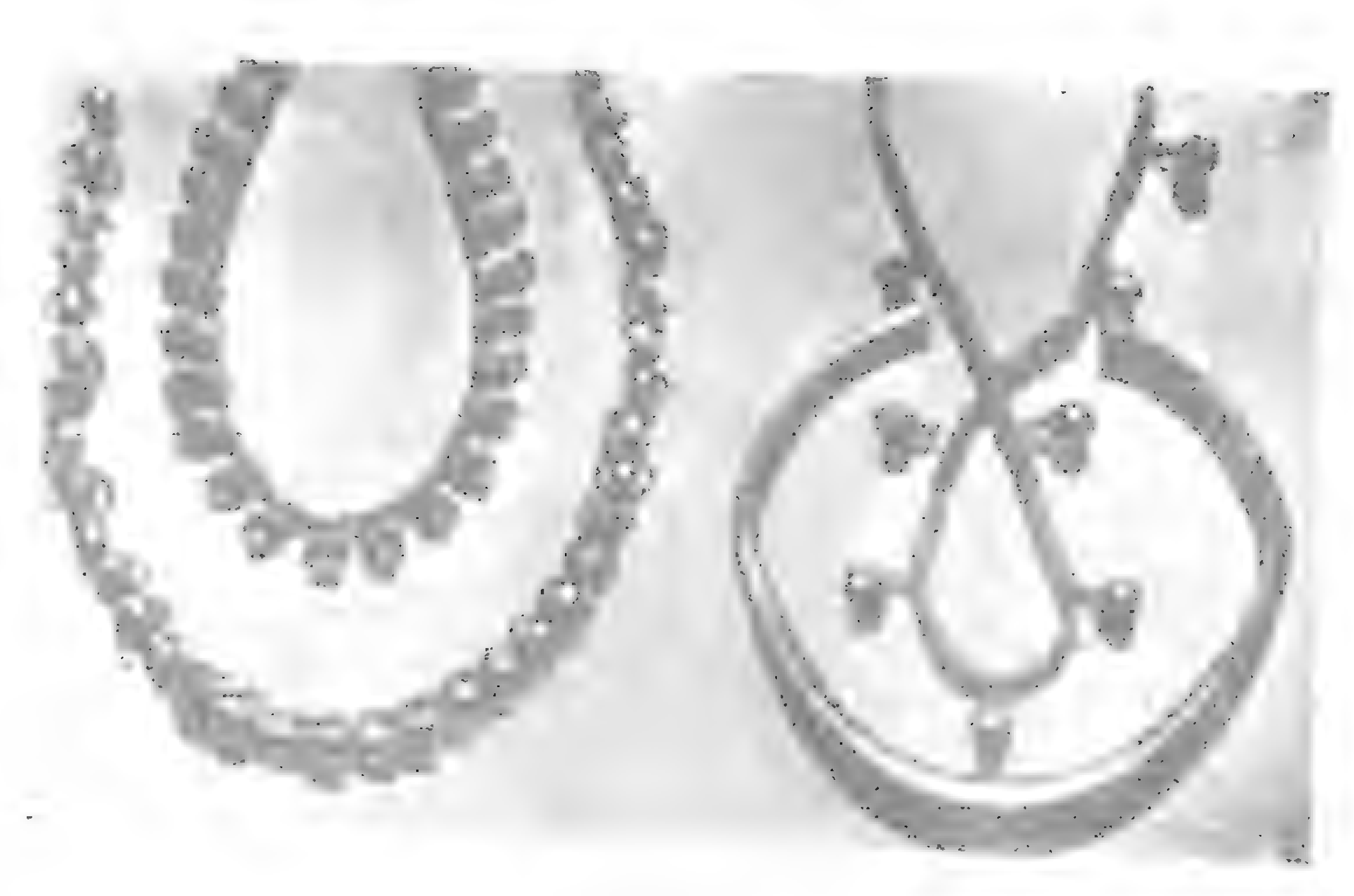


لوحة (١١)
بلانة وقسطل



لوحة (١٢)
بلاتة وقسطل

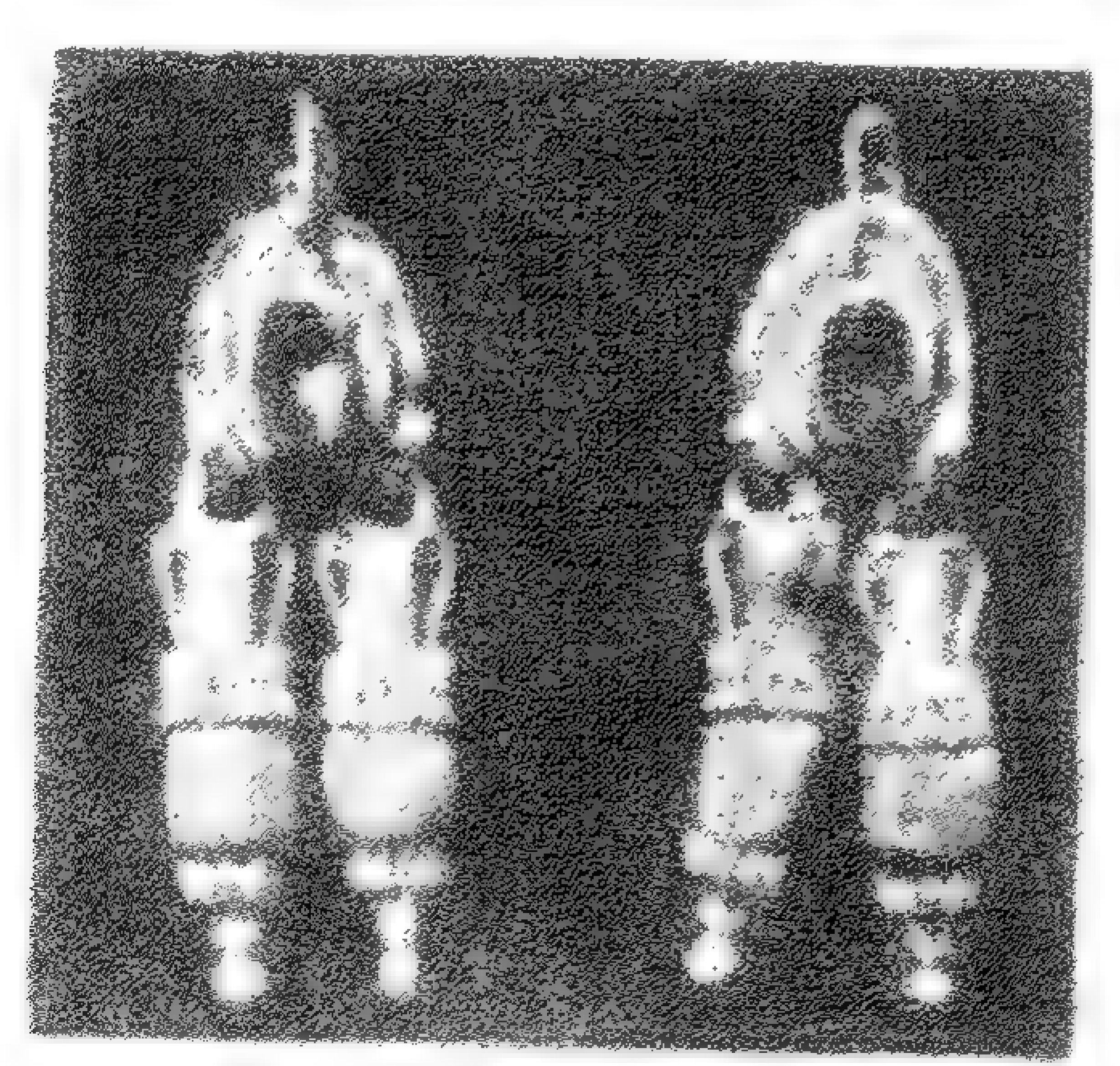




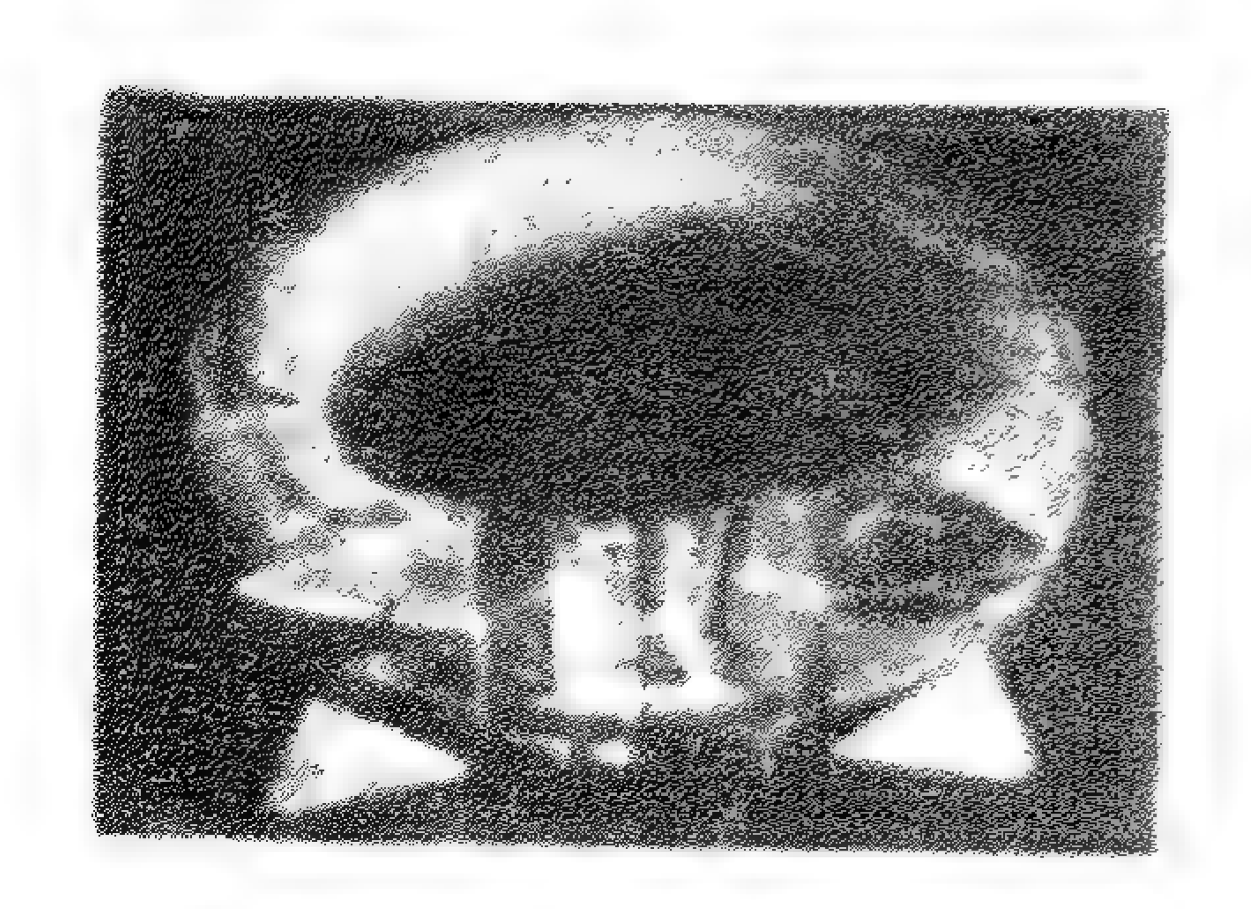
لوحة (١٢)
بلانة وقسطل

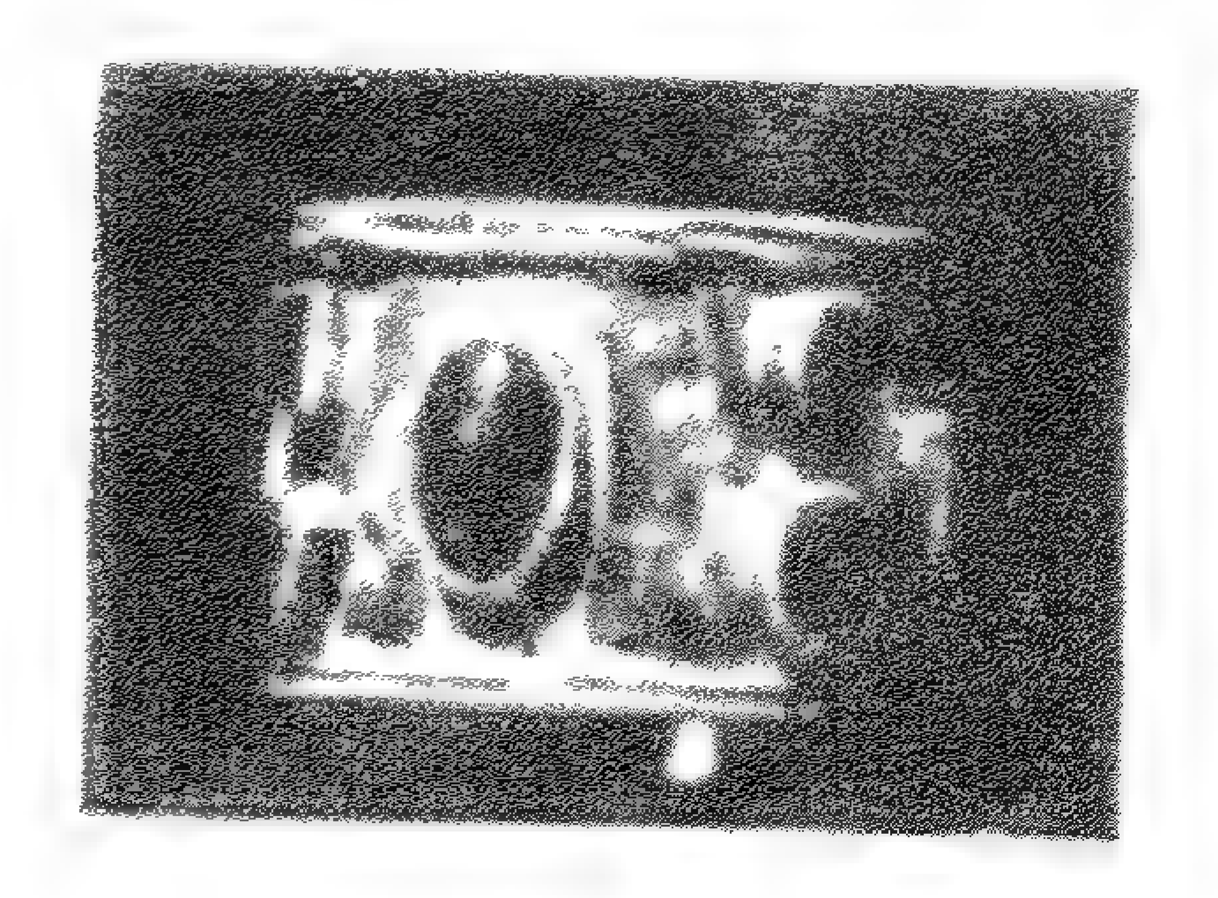






لوحة (١٥)
بلاتة وقسطل



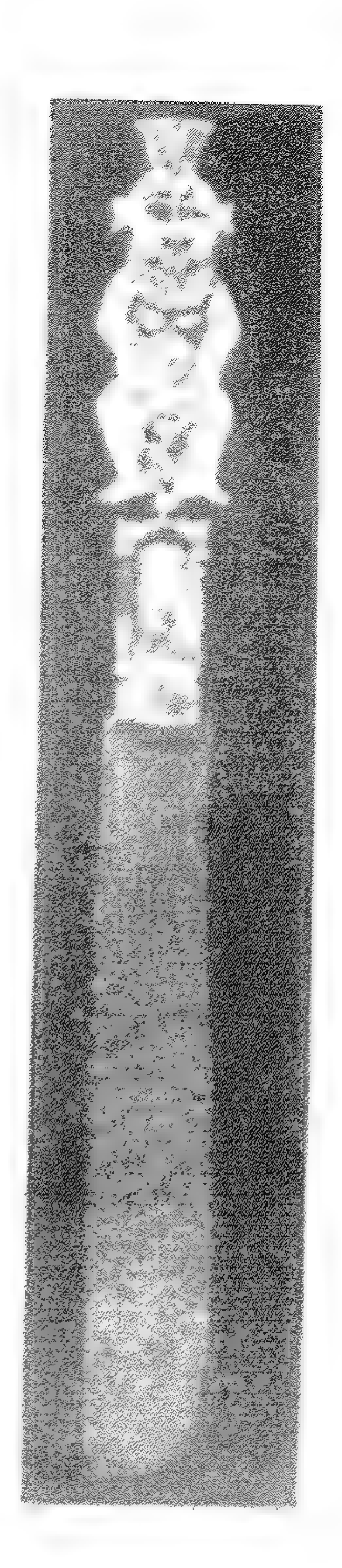


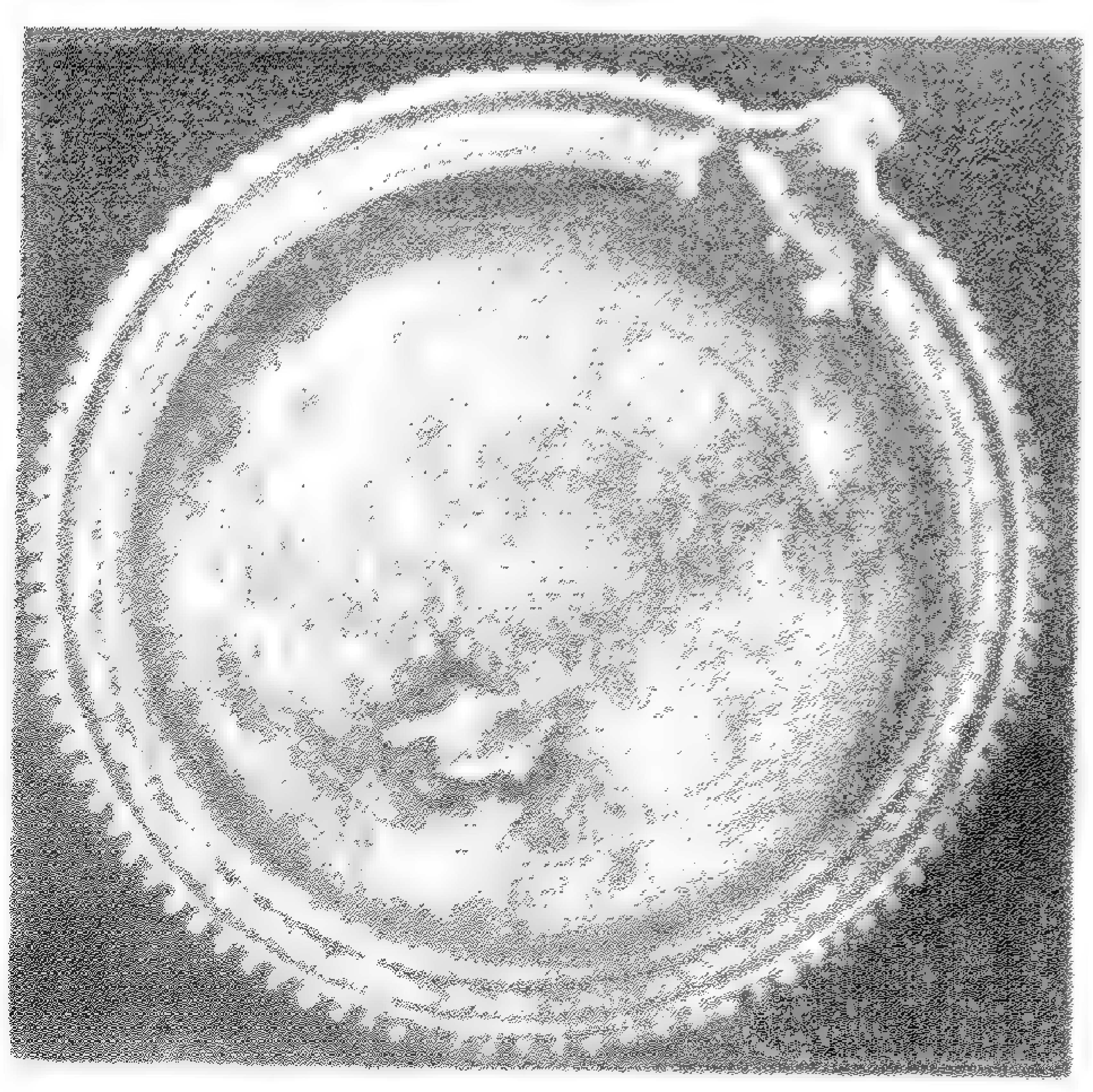




لوحة (١٤)
بلانة وقسطل

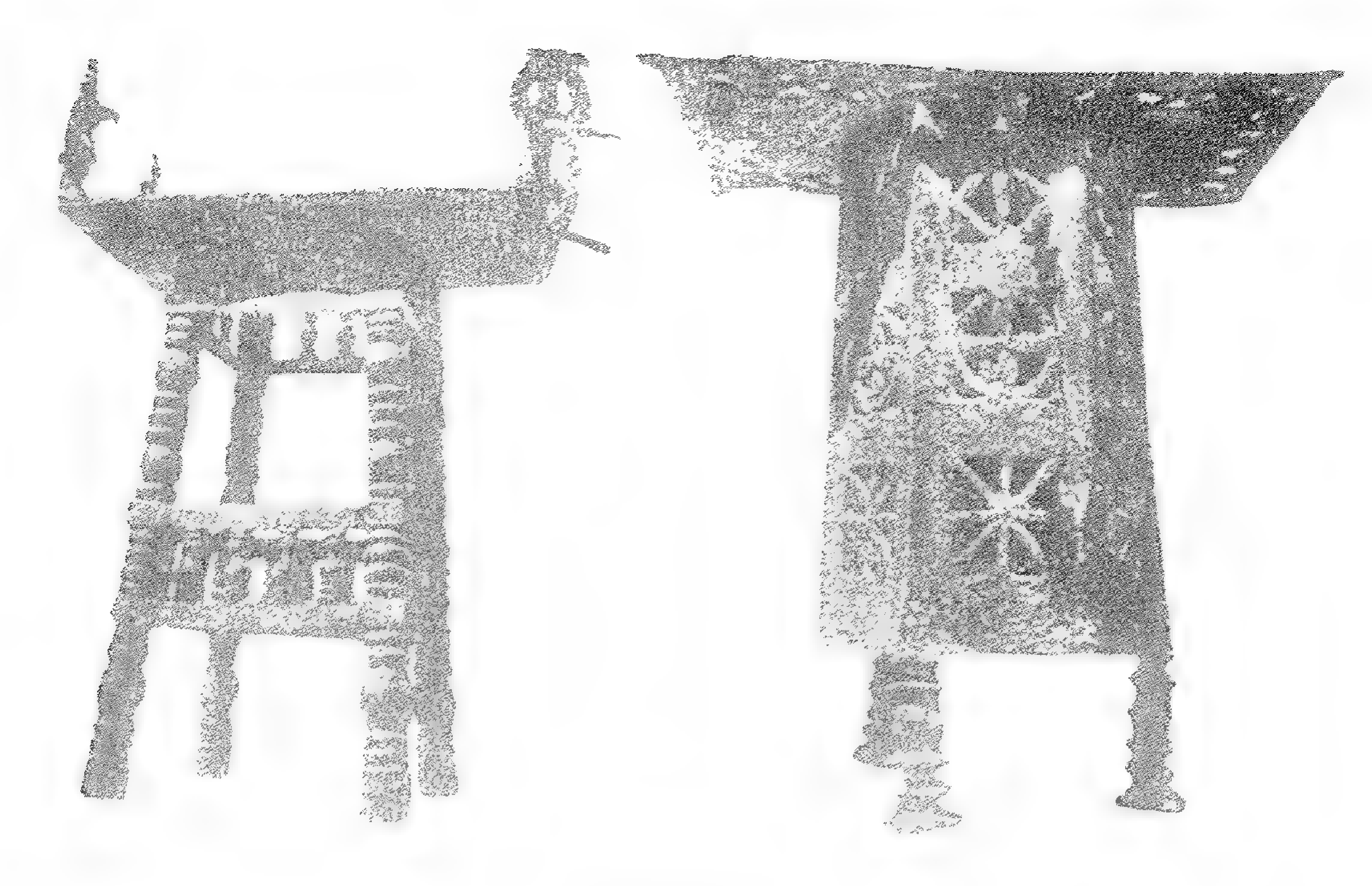






لوحة (١٦)

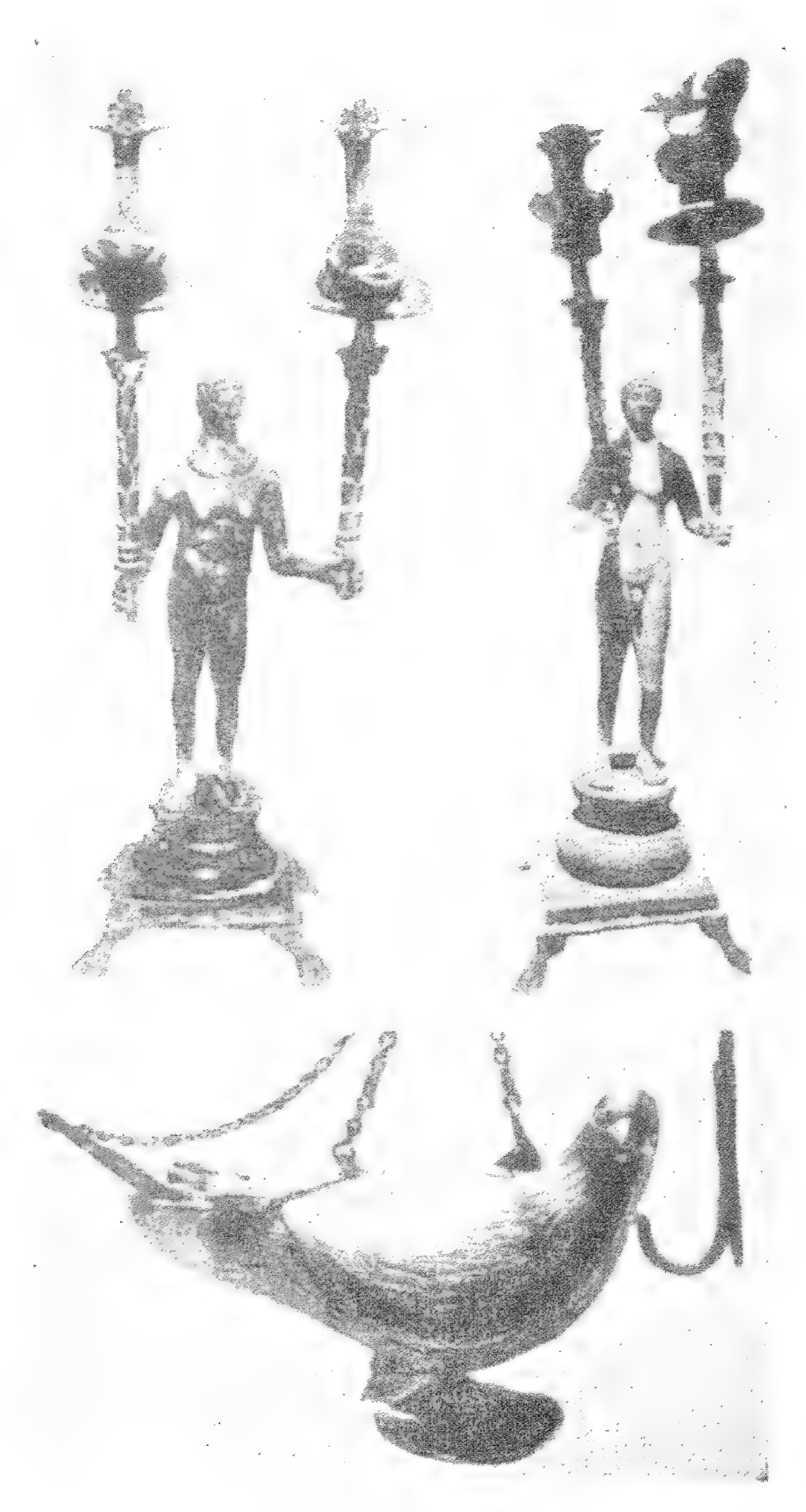
بلانة وقسطل



لوحة (١٧)
بلازة وقسطل

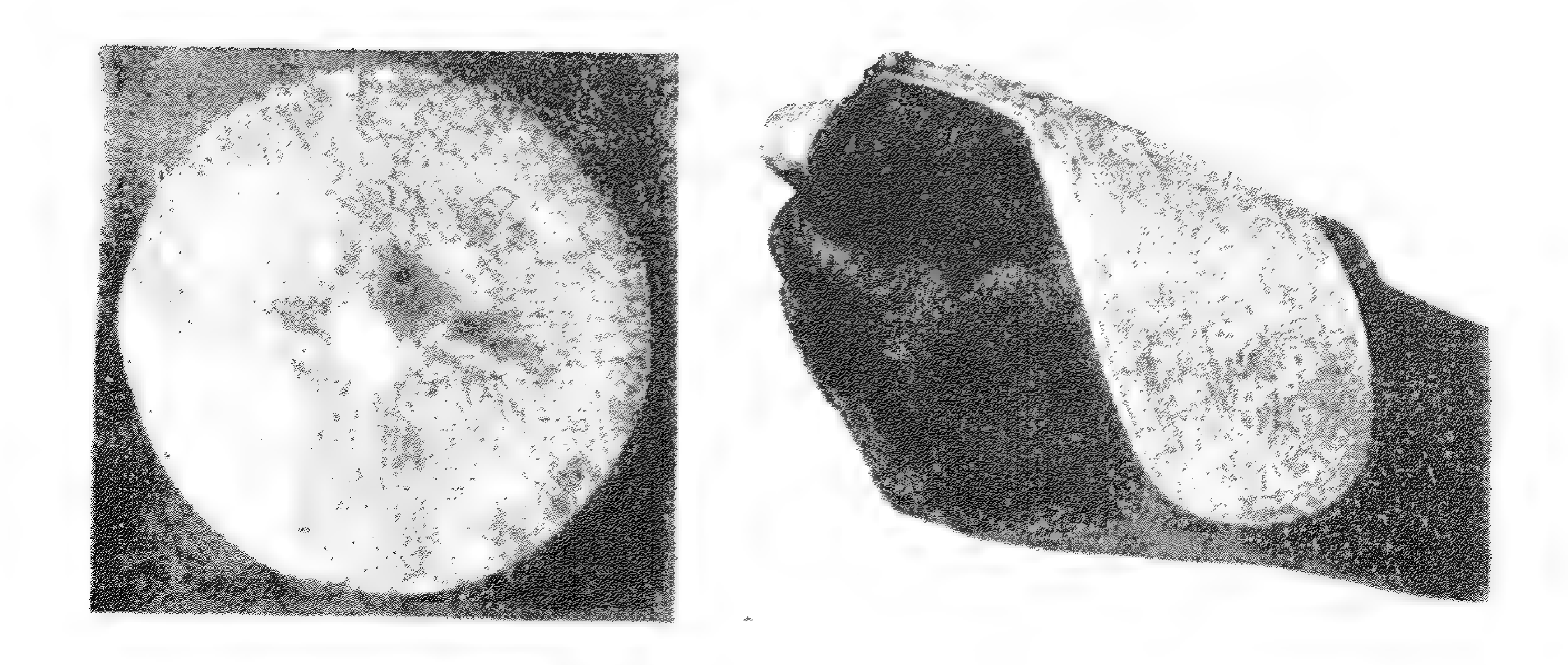


لوحة (١٨) بلانة وقسطل



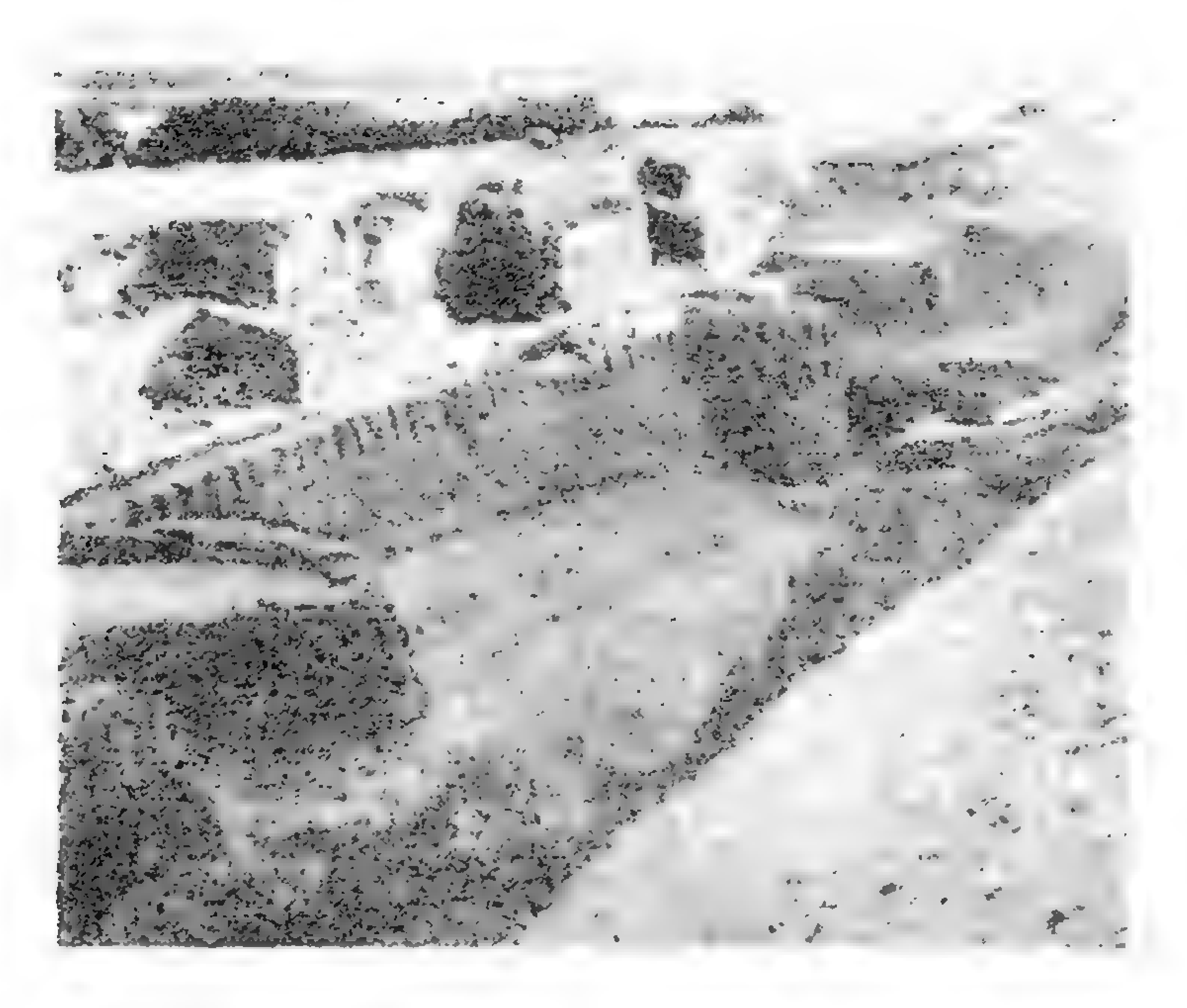
لوحة (١٩) بلانة وقسطل

لوحة (٢٠) بلانة وقسطل

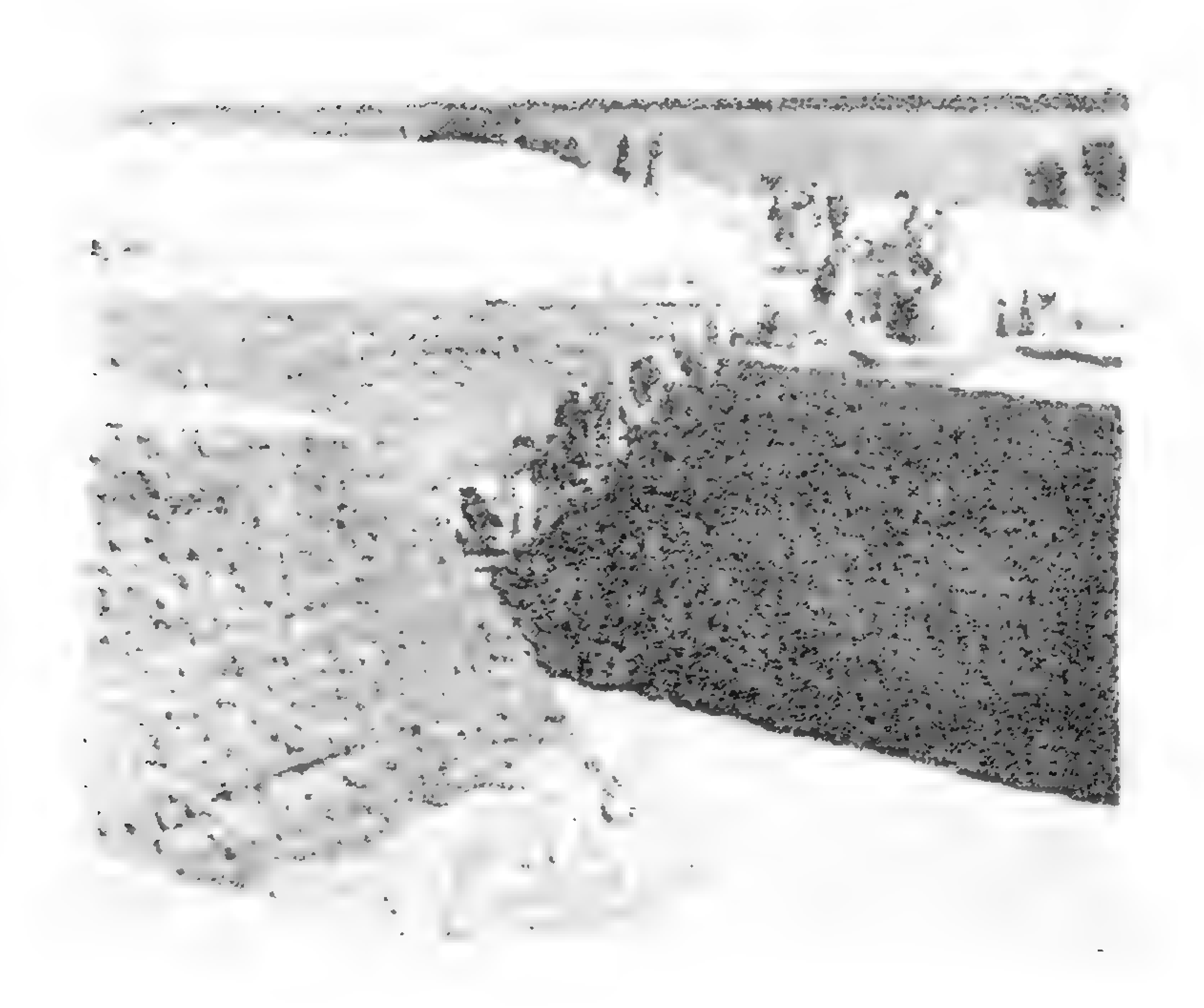




لوحة (٢١) بلاطة وقسطل



لوحة (٢٢) بوهن



لوحة (٢٣) بوهن



لوحة (٢٤) بوهن





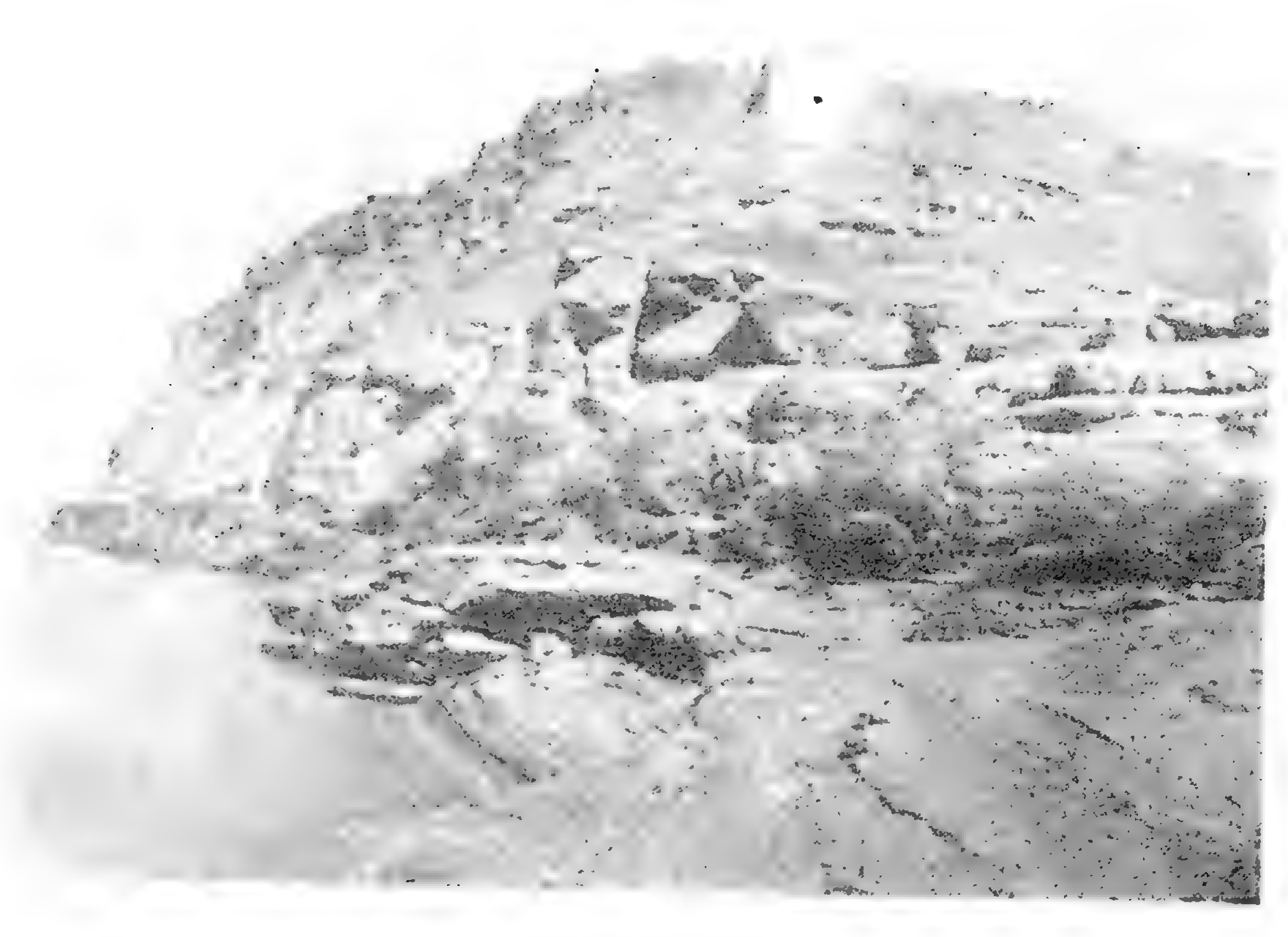
لوحة (٢٥) بوعز



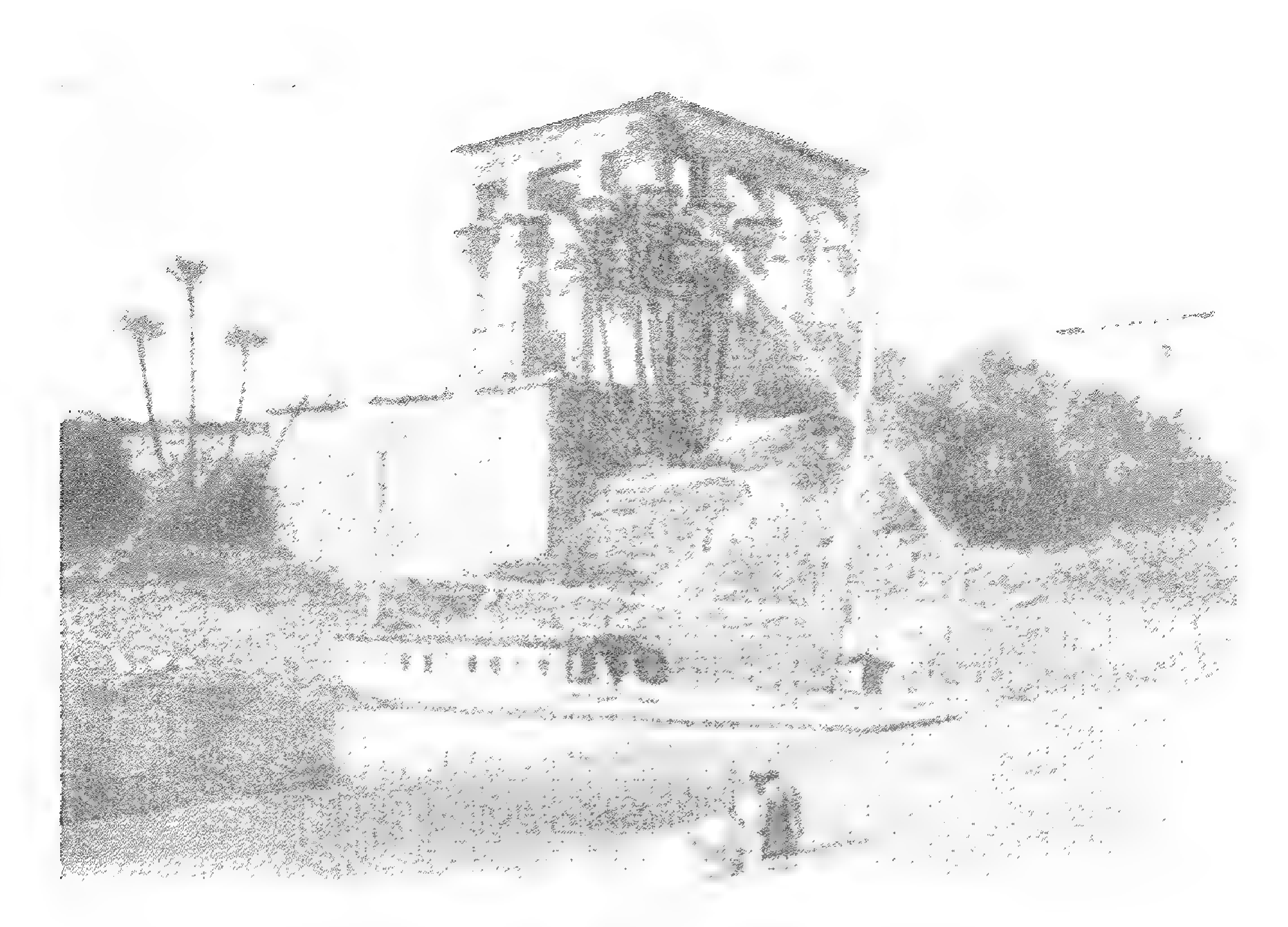


لوحة (٢٦) بوهن

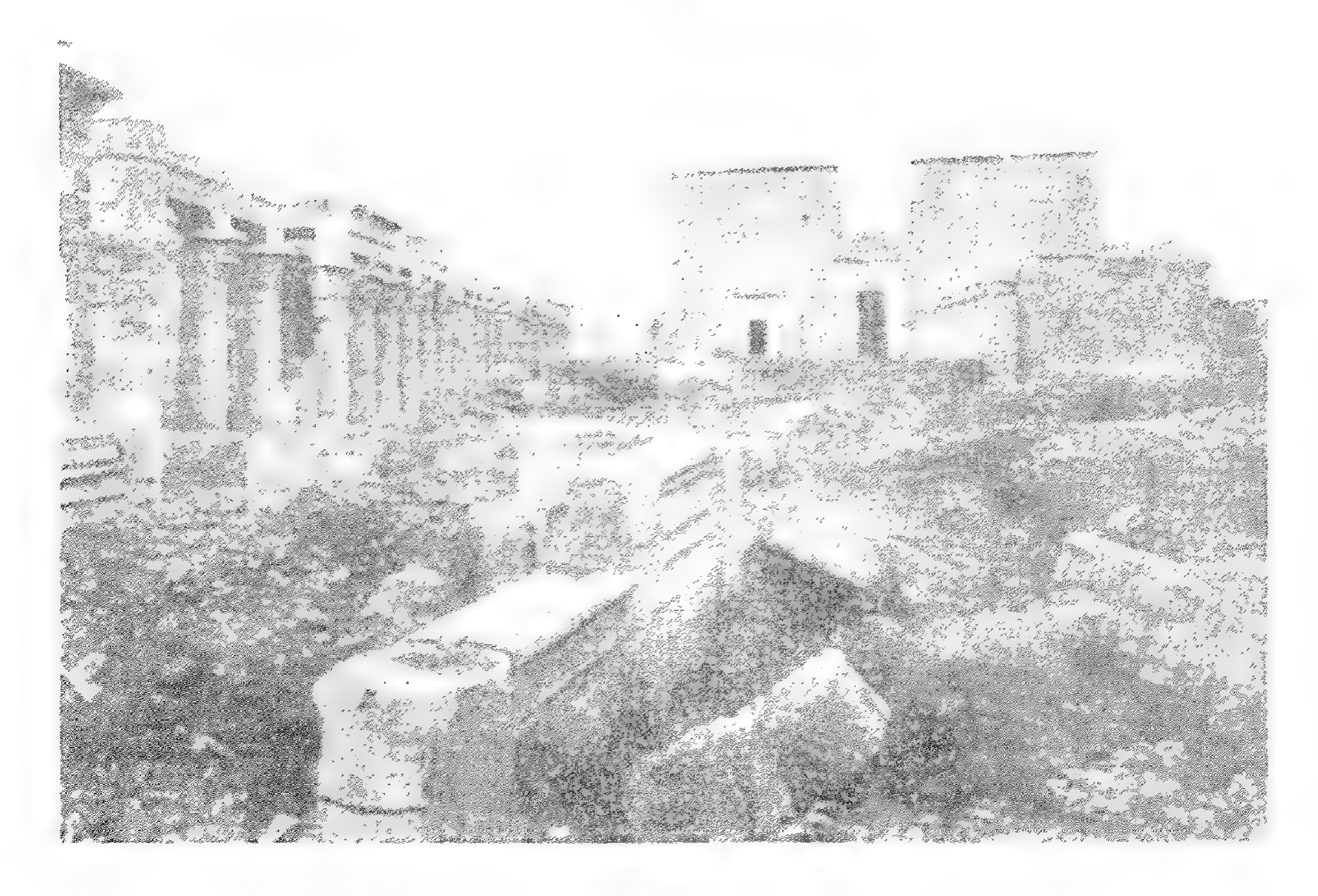




لوحة (٢٧) قصر أبريم



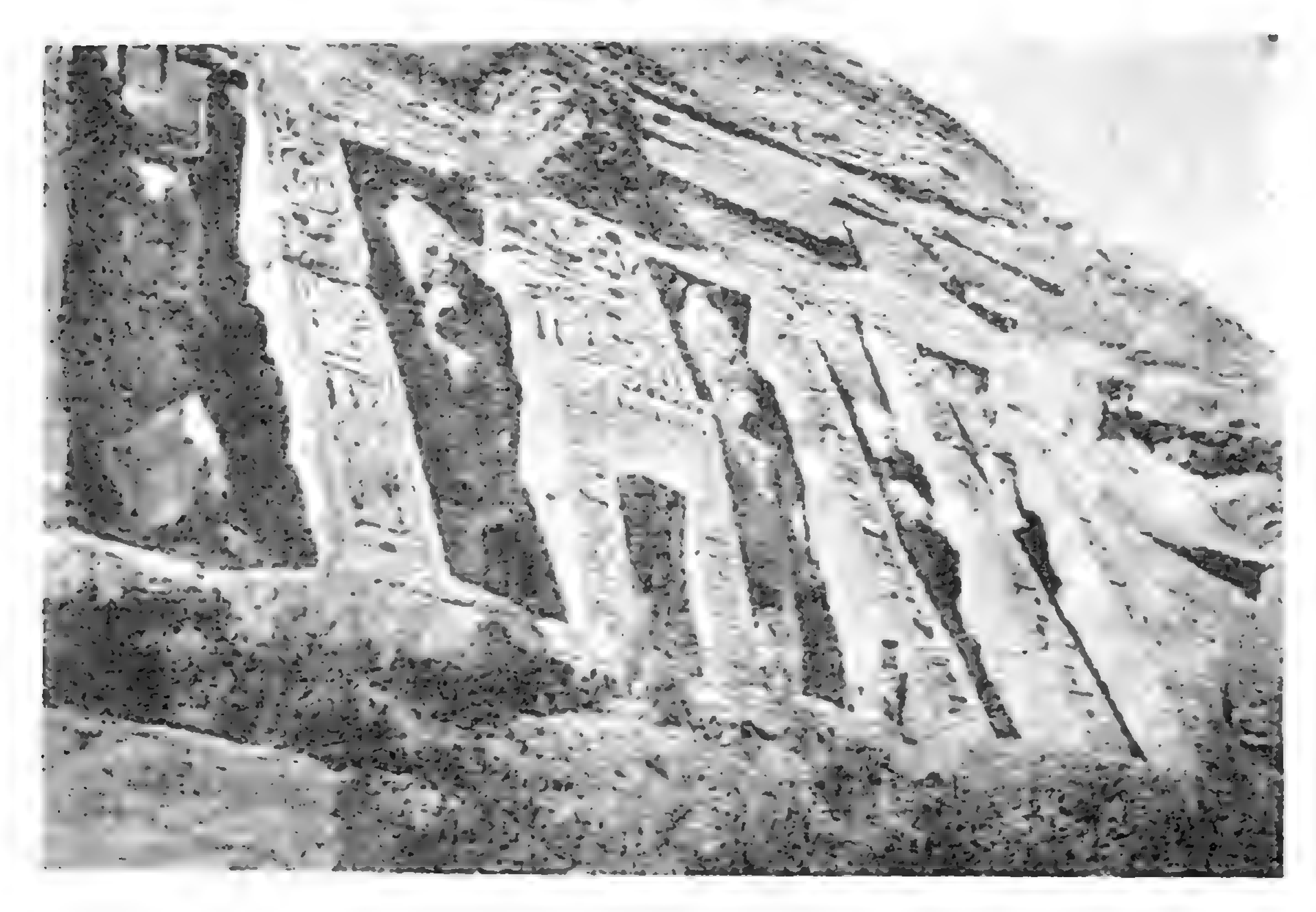
لوحة (٢٨) فيلة



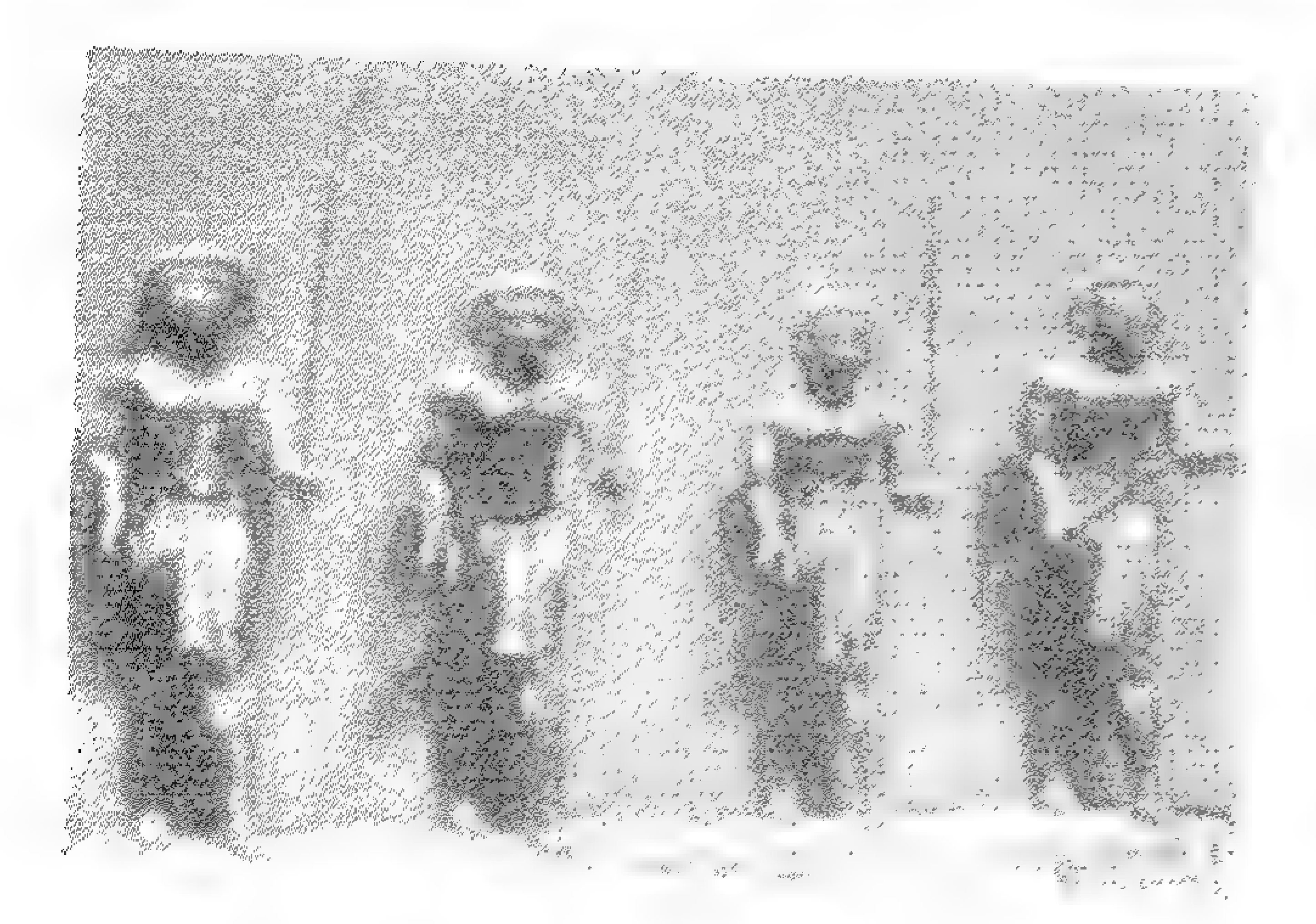


لوحة (٢٩) فيلة وكلابشة

لوحة (٣١) ابو سمبل







لوحة (٣٢)
الجند فى الدولة الوسطى



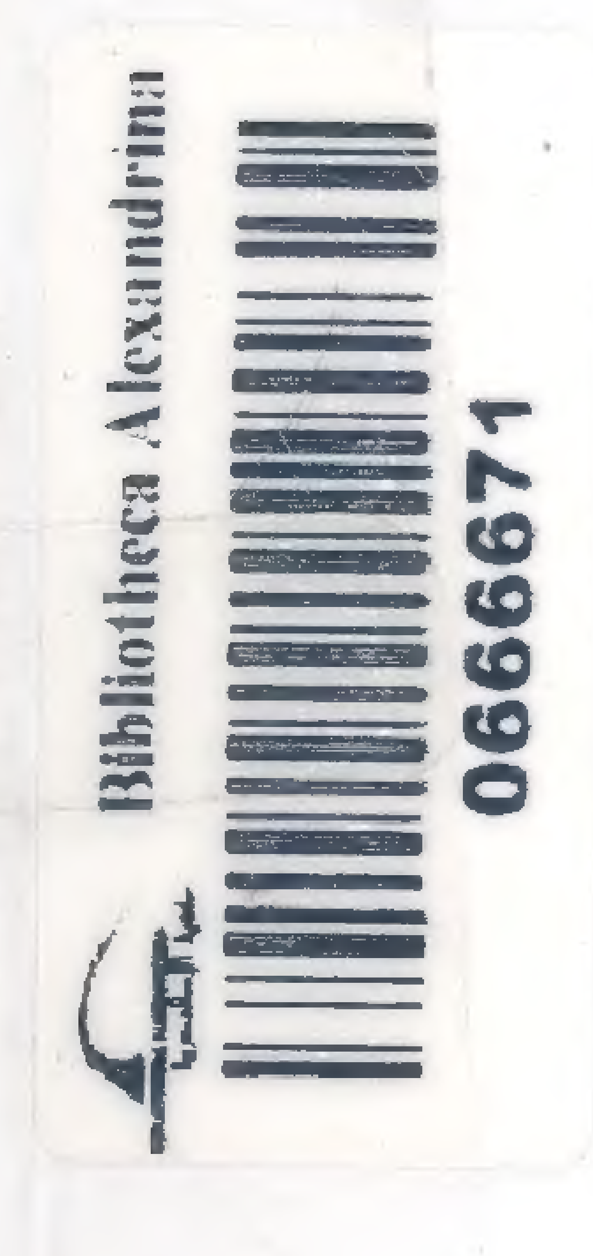
الإشـــــراف اللغــوى : عبد الرحمن حجازى
الإشـــــراف الفـنـى : حســـــن كــامـل
التصميم الأساسى للغلاف : أســامـة العــبـد





قد نفهم من العنوان الأصلى للكتاب أنه يتناول آثار الحضارة المصرية فى منطقة بلاد النوبة فى العصور القديمة، فى حين أنه لا يتناول الحضارة المصرية فى الواقع إلا من حيث آثارها وتاريخها فى منطقة النوبة: السفلى، والعليا، فى العصور القديمة. كما يتناول إلى جانب ذلك حضارات نوبية مستقلة، مثل: حضارات كوش، وناپاتا، ومروى، وغيرها.

وقد كرّس مؤلف هذا الكتاب حياته للتنقيب فى المواقع الأثرية على طول وادى النيل بين عامى: 1923، و1970 م، وعمل أستاذا للمصريات بجامعة لندن فى المدة من 1951 إلى 1970 م.



تصميم الغلاف: حسان على